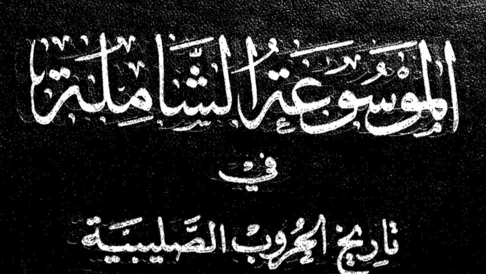
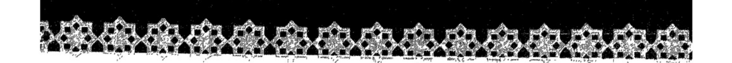


تأليف وتحقيق وترجمة

الأستاذ الدكتور سهيل زكّار



الجزء الأربعون

دار الفكر

للطباعة والنشر والتوزيع

الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية

١ — رواية عن الأرض المقدسة

كتبت في حوالي عام ١٣٥٠م

٢ — وصف جون بولونير

للأرض المقدسة(١٤٢١م).

٣ — جولات الراهب

فيلكس فابري ورحلاته.

حوالي

(١٤٨٠ — ١٤٨٣م)

تأليف وتحقيق وترجمة

الأستاذ الدكتور سهيل زكار

الجزء الثامن والثلاثون

(١)

دمشق ١٤٢٠ هـ/ ٢٠٠٠م



بسم الله الرحمن الرحيم

توطئة:

لقد لاحظنا فيما تقدم أن أحداث الحروب الصليبية قد تفجرت في ذروة العصور الوسطى في أوربا، وبعد توطد أركان النظم الاقطاعية، وكان للحروب الصليبية آثارها العظيمة على عقلية الانسان الأوربي حيث أخرجته من العزلة الاقطاعية إلى الانفتاح المحلي، فالأوربي فالعالمي، ومنذ ما قبل الحروب الصليبية قدم بعض الحجاج الأوربيين إلى فلسطين، لكن بعدما تأسس الفرنجة في القدس وفي دويلاتهم الأخرى ازداد تدفق الحجاج من أوربا، ولحسن الحظ أن عدداً لابأس به من هؤلاء الحجاج قد تركوا لنا أوصاف مشاهداتهم مع المعلومات التوراتية والانجيلية الجغرافية والتاريخية، وهذا أمر مفهوم الخلفيات، أوضحه عدد من الرحالة، وبينوا أن الهدف الأساسي لهم كان المطابقة بين مشاهداتهم وبين المعلومات الدينية المتوارثة، وأن هذه المطابقة تساعد على فهم النصوص الدينية وتمكن الأوربي الذي لم يزر الأرض المقدسة من تخيلها وتصور أماكن الزيارة فيها.

وارتبط النظام الاقطاعي في أوربا مع نظم الفروسية، وكان الملوك هم الذين ينعمون برتبة الفروسية على أتباعهم الاقطاعيين، لكن مع انحدار العصور الوسطى في أوربا، وسيرها نحو الانغلاق بقيام عصور النهضة، راج بين الأسر الاقطاعية الأوربية، أن الفروسية الحقة هي التي يتم نيلها في كنيسة القيامة على مقربة من الضريح المقدس داخل هذه الكنيسة.

هذا ورأينا من المجلدات الأخيرة التي حوت بعض المواد التي كتبت في القرن الرابع عشر بعد تحرير عكا، أن الحج إلى الأرض المقدسة لم

ينقطع، واعتمد على النقل البحري، الذي تولته البحرية التابعة لدولة البندقية، وقد تساهل المسلمون كثيراً بالسماح للحجاج بالقدوم إلى القدس وسواها، وقدمت الديرة في القدس الخدمات للحجاج، وكانت هناك ترتيبات مرعية بين السلطات الاسلامية والقائمين على الديرة، وعلى العموم توفر الأمن، ولم يهدد أحد سلامة الحجاج، لانعدام التعصب بين صفوف المسلمين.

وكنت فيما تقدم قدمت جل الرحلات الأوربية المعروفة، ونصوص هذه الرحلات بالغة الأهمية وأقوم الآن بتقديم آخر ما توفر لدي من كتب الرحالة، فسأقدم في هذا المجلد، وفي مجلدات ثلاثة تالية له رحلتين قصيرتين من القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، وبعد ذلك رحلة فيلكس فابري، التي هي أوسع كتب الرحلات الأوربية قاطبة، جاءت في أربعة مجلدات، فكانت بذلك أشبه بالعمل الموسوعي.

وكان فيلكس فابري راهباً ألمانياً، معتداً بألمانيته، ومتعصباً لها، أكثر من اعتداده بالانتماء إلى رهبنة الدومينيكان، وقد قام برحلتين إلى فلسطين، كانت أولاهما قصيرة جرت في عام ١٤٨٠م، وكانت الثانية طويلة استغرقت عام ١٤٨٣، وقد أودع فابري في كتابه مشاهداته، مع ما قرأه وسمعه، ورحلة فابري هامة جداً، حيث أنها جاءت قبل اكتشاف أمريكا،وانتهاء العصور الوسطى في أوربا بعقد من الزمن، وتمت في أواخر العصر المملوكي، وقبيل استيلاء العثمانيين على بلاد الشام ومصر بحوالي الربع قرن من الزمن.

ومع الفراغ من مجلدات هذه الرحلة، أكون قد قدمت خمسة مجلدات متتابعة كل موادها رحلات، وسأمتلك بعد ذلك الفرصة لتقديم تاريخ متى الباريسي الذي هو آخر النصوص التاريخية اللاتينية الأصل لدي، وهو من أهمها على الاطلاق، وكتاب متى الباريسي نادر الوجود، عانيت كثيراً حتى حصلت على نسخة منه، وهو كبير جداً، ربما سألحق به

واحداً من أصوله الذي اسمه «ورود التاريخ».

وحين أفرغ من العمل بتاريخ متى الباريسي، تكون موسوعتنا هذه قد حققت الشطر الأعظم من أغراضها، وأكثره صعوبة لأن ما لدي من مصادر عربية، جلها — على كثرتها — جاهز للطباعة.

الله تعالى أسأل العون والسداد، وأن تكون موسوعتنا هذه فيها الفوائد المرجوة للقارىء والباحث، وفيها برهان على أن الأمة العربية، وإن تمزقت سياسياً، مابرحت تعطي حضارياً وثقافياً، وأن سورية الصمود، مايزال القلم فيها معانقاً للسيف، فهكذا كانت أرض الشام دوماً، وستظل هي أرض الحضارات والعطاء الذي لاينضب، والجهاد الصحيح الطاهر النقي.

والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا المصطفى وعلى آله وأصحابه أجمعين.

سهيل زكار

دمشق ٦ — ذي القعدة ١٤٢٠ هـ / ٩ شباط ٢٠٠٠م.

(١)
رواية عن الأرض المقدسة كتبت في حوالي عام ١٣٥٠م

١ — على الذين يرغبون بمعرفة كيفية الحج إلى مدينة القدس المقدسة والمجيدة، وكذلك بقية الأرض المقدسة — كما أرى — السفر إلى الناصرة أولاً، لأن من المناسب أن نبدأ حجنا من هناك، أي من حيث كانت بداية خلاصنا.

٢ — وتقع مدينة الناصرة على بعد أربعة عشر ميلاً إلى الشرق من عكا، والأصح أن نسميها مدينة المخلص، لأن الحمل به كان بها، ، وبها نشأ وتربى، وهناك فيها عاشت العذراء مريم بعدما اقترنت بيوسف، وإليها أرسل الملاك جبرائيل من قبل الرب، ليحمل إليها بشائر خلاصنا.

وهذه هي المدينة المقدسة، والعزيزة على الرب، ففيها تحولت الكلمة إلى جسد، وأينعت الزهرة، التي هي أفضل من جميع الزهور، في رحم العذراء، ولهذا كان من الموائم ترجمة كلمة ناصرة إلى وردة، وهي تتفاخر بهذا الامتياز الخاص على جميع المدن الأخرى، ففيها أعدّ الرب بداية خلاصنا، وفيها تفضل وتنازل لأن ينشأ بها، وأن يكون خاضعاً لوالديه، وهو الذي أخضع له الأب كل شيء هو في السماء وفي الأرض.

٣ — ويوجد هناك عمود رخامي صغير، احتضنته العذراء، خشية منها من الرؤيا المفاجئة، وإلى جانب العمود هناك الموضع الذي وقف فيه الملاك جبرائيل وقال:«حييت، أيتها المليئة بالنعمة، الرب معك»الخ، وهناك خلاص من الألم والذنب.

٤ — وينبع في الناصرة هناك نبع صغير، اعتاد الفتى يسوع أن ينضح الماء منه، ومنه كان يزود أمه.

٥ — وعلى بعد ميل إلى الجنوب من الناصرة مكان اسمه«جبل قفزة»، وذلك حيث رغب اليهود برمي يسوع منه نحو الأسفل، وكذلك حسداً من والديه له على حكمته، وهناك اختفى من أمام

أنظارهم في لحظة.

٦ — وعلى بعد أربعة أميال من الناصرة توجد مدينة اسمها الصفورية، منها جاءت حنة، أم العذراء مريم، أم المسيح، ويوجد بينها وبين الناصرة نبع دائم التدفق بمياه وافرة، وهو يعرف باسم نبع الصفورية، الخ.

٧ — وعلى بعد ميلين من الصفورية، توجد قانا الجليل، التي حول الرب يسوع الماء فيها إلى خمرة، ومنها جاء سمعان القاني، وناتانئيل.

٨ — وعلى بعد ميل واحد إلى الجنوب من الناصرة، توجد يافا، وهي قرية فيها ولد جيمس ويوحنا ولدا زبدي.

٩ — وعلى بعد ستة أميال إلى الشرق من الناصرة، يوجد جبل الطور، وهو جبل عظيم الارتفاع، فعليه تغيرت هيئة الرب، وكان موسى وإيليا حضوراً، وكان ذلك أمام بطرس، وجيمس، ويوحنا، والياس، وبذلك أظهر مجد قيامته المستقبلية.

١٠ — وهناك جاء صوت من السماء قائلاً:«هذا هو ابني المحبوب، الذي أنا عنه راض، استمعوا إليه».

١١ — وفي سبيل تشريف هذا المكان، وتقديم الاحترام اللائق به، بنى المسيحيون في العصور الخالية، ديراً هناك.

١٢ — وهو الذي هدم مؤخراً كلياً من قبل المسلمين، ويوجد هناك إعفاء كامل من الألم والذنب.

١٣ — وعند سفح هذا الجبل التقى مليكصادق إبراهيم، وهو عائد من قتل أمالك، وقدم إليه هدية خبز ونبيذ، مما رمز إلى مذبح المسيح تحت توزيع النعمة.

١٤ — وعلى بعد ميلين من الطور، توجد مدينة نين، وهي قائمة

عند سفح جبل عين دور باتجاه الجنوب، وعند بابها رد يسوع إلى الحياة ابن المرأة الأرملة.

١٥ — وعلى بعد ثمانية وثلاثين ميلاً إلى الجنوب من الناصرة، توجد سبسطية، التي كان اسمها من قبل السامرة، فهناك جرى دفن جسد يوحنا المعمدان، بين النبيين إيليا وعوبيدا، وذلك بعد نقله من مكور فيما وراء الأردن، حيث هو مدفون من دون رأس.

١٦ — وعلى بعد عشرة أميال عن سبسطية تقوم مدينة نابلس، التي كانت تعرف من قبل باسم شكيم، اشتقاقاً من اسم شكيم بن أمور، أو باسم شيكار، وذلك حسبما ورد اسمها في الانجيل، وذلك حيث دفنت عظام يوسف بن يعقوب بعدما جلبوها من مصر، وهناك أيضاً على بعد ميل واحد نحو الجنوب، خارج المدينة، يوجد جب يعقوب الذي جلس يسوع إلى جانبه، وهو متعب من سفره، وذلك عندما طلب الماء من المرأة السامرية، وهناك أيضاً الرابيتين أو الأكمتين، أي: دان وبيت إيل، حيث وضع يربعام العجلين الذهبيين، وأمر بعبادتهما قائلاً:«إن هذين هما إلهيكما يا بني إسرائيل، وهما اللذان أخرجاكم من مصر».

١٧ — والمسافة من نابلس إلى القدس هي خمسة وثلاثين ميلاً.

١٨ — والقدس هي المدينة الأقدس بين المدن المقدسة، وهي سيدة الأمم، والرئيسة على المقاطعات، واسمها مدينة الملك العظيم، وهي قائمة في وسط الأرض، وهي مركز العالم، لذلك من الممكن لجميع الأمم أن تتدفق عليها، وهي مقر البطارقة، وخاصة الأنبياء، ومعلمة الرسل، ومقر خلاصنا، وبلاد الرب، وأم الايمان، مثلما روما أم الصدق، اختارها الرب وقدسها، والمكان الذي وقف عليه الرب بقدميه، والمشرفة من قبل الملائكة، والتي تزورها كل أمة من الأمم تحت قبة السماء.

وقـد بنيت فـوق جبل مـرتفع، مـع تلال على كل جـانب، وذلك في الجزء من سوريـة الذي اسمه اليهودية وفلسطين، حيـث تتدفق الأرض بالحليب والعسل، وفيهـا وفـرة من القمح، والخمـرة، والزيت، وجميع البضائع الدنيوية، لكن هذه البلاد مفتقرة إلى الأنهار، لأنه لايوجد فيها سـوى نبع واحـد اسمه سلوان، ينبع تحت جبل صهيـون، خـلال وسط وادي شعفـاط ، وهو الذي يقدم أحيـاناً كميـات وافرة من الميـاه، لكن بشكل عام قليـلاً من الماء أو لاشيء، ويوجد في داخل المدينة وخـارجها عدد كبير من البرك من أجل جمع ميـاه الأمطار، ومياه هذه البرك كـافية للناس وللبهائم للشرب وللأغراض الأخرى الضرورية.

١٩ — وهناك قناة جر مياه رائعة جداً، قادمة من مدينة اسمها مدينة القـديس إبراهيم(الخليل)، قـائمة في وادي حبرون، وتبعـد عن القـدس أربعة وعشرين ميلاً باتجاه الجنوب.

٢٠ — ولهذه المدينة أسماء كثيرة ومتنوعـــة صـــدرت عن أحـــداث تاريخهـا، وأطلقت عليها من قبل أمم مختلفـة بلغات أيضـاً مختلفة، فقـد عـرفت أولاً باسم يبـوس، ثـم سـالم ، ومن مـزج هذين الاسمين جـاء اسمها الثالث وهو أورشليم، وعرفت أيضاً باسم هيروسوليما، وسوليما، ولوز ، وبيت إيل، كما عـرفت أيضاً باسـم إيلياء، اشتقـاقاً من إيليـوس الحاكم الرومـاني، الذي أعاد عمارتها في المكان القـائمـة فيه الآن، وكـان ذلك بعد تدميرها من قبل تيتوس وفاسبسيان.

هذا ومدينة القدس، هي المدينة التي عـرض الرب فيها وهو متجسد أسرار خلاصنا، ولهذا هي متفوقـة على جميع الأماكن الأخرى والمدن في امتيـازات قداستهـا، وعلو مجدها، ولهذا تجتذب كثيراً من رجـال الدين إليهـــا ذاتها، وذلـك «بشم رائحـــــة الحقل كلـه الذي بـاركـــــه الرب»،[التكوين:٢٧/ ٢٧]، ويوجـد على جهـة اليمين منهـا صهيـون، حيث هناك القلعة،وهـي التي عرفت باسم مـدينة داوود، ويقوم جبل

الزيتون على الجهة الشرقية منها.

٢١ — الحج داخل كنيسة الضريح المقدس وخارجها

٢٢ — عندما تدخل الكنيسة أولاً، سوف تجد حجرة من الرخام الأسود، عليها غسل يوسف الرامي ونيكوديموس جسد المسيح، ورشوا عليه الحنوط، وكان ذلك عندما أنزلوه من على الصليب، وهناك يوجد إعفاء من الألم والذنب.

٢٣ — وتذهب من هناك إلى جبل أكرا(الجمجمة) حيث جرى صلب المسيح، وحيث تصبب الدم من جنبه، فخرق الصخر الصلب ومر خلاله، وترك لون الدم الذي مازال موجوداً حتى الآن، وهناك يوجد إعفاء من الألم والذنب.

٢٤ — ذلك أن الدم ذهب إلى تحت جبل أكرا ، وكان ذلك إلى الجزء المعروف باسم الجلجلة، حيث تمّ العثور على رأس آدم، الانسان الأول، وقد نزل الدم إلى الرأس المتقدم الذكر، أثناء خرقه لتلك الصخرة ومروره بها، وهناك غفران لمدة سبع سنوات،ولسبعة مواسم صوم كبير.

٢٥ — ومن هناك سوف تأتي إلى الضريح المجيد للرب، الذي ظل حتى أيام الامبراطور إيليوس هدريان من دون باب، وقد وسع هذا الامبراطور المدينة كثيراً إلى حد أنه أدخل مكان ضريح الرب، في داخل محيط الأسوار، وفي هذا المكان، بنى المسيحيون فيما بعد — صدوراً عن الاحترام الذي كان لديهم نحو ضريح الرب — كنيسة قيامة الرب الرائعة في داخل المدينة، وكان ذلك وفق عمل محكم ووضع موائم، وشكل مستدير، مع نافذة واحدة مفتوحة في السقف، وتضم هذه بشكل لائق المكان الرئيسي بين المواضع المقدسة والتي لها ذكرها، ففي هذا المكان جرى دفن الجسد الثمين للرب بشكل محترم مع الحنوط،

وهنا استراح حتى اليوم الثالث، ذلك أنه قام في اليوم الثالث، وفقاً لما قال:« في اليوم الثالث سوف أقوم ثانية»، وهناك إعفاء من الألم والذنب.

٢٦ — ثم إنك تأتي إلى المكان، الذي عندما كان ربنا يقوم من الموت، ظهر أولاً إلى مريم المجدلية، عندما خيل إليها أنه البستاني فقالت له:«يا سيد إن كنت أنت قد حملته فقل لي أين وضعته»،الخ[يوحنا:٢/ ١٥]، وقد بني في ذلك المكان مذبح مقدس تشريفاً لذلك الظهور، وهو القائم أمام باب بيعة العذراء المباركة، وهناك إعفاء من الألم والذنب.

٢٧ — ومن هناك سوف تدخل بيعة مريم المباركة، وهناك سوف تجد جزء من العمود الذي ربط يسوع إليه، وطول هذا الجزء أربعة أقدام، فهناك جرى جلده، وهو موضوع كما كان في جزء الجدار على جهة اليمين وأنت داخل إلى البيعة، وهناك إعفاء من الألم والذنب.

٢٨ — وأيضاً يوجد في البيعة نفسها، المكان القائم أمام المذبح، الذي بعث فيه الرجل إلى الحياة بفضل الصليب المقدس، وكان ذلك إثر اكتشافه الرائع، وبحضور حنة(هيلانة) أم الامبراطور قسطنطين، وهناك غفران لسبع سنوات، وسبعة مواسم صوم كبير.

٢٩ — وهناك أيضاً قرب المذبح الموضع الذي وقف فيه الصليب المقدس لوقت طويل، حيث كان يعبد بتقوى عظيمة جداً من قبل المؤمنين المسيحيين، وهناك غفران لسبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٣٠ — ومن هناك سوف تصل إلى المكان الذي سجن فيه المسيح، وربط، وضرب، فهناك يوجد الآن بيعة صغيرة، وهناك إعفاء من الألم ومن الذنب.

٣١ — وعندما تذهب خارجاً من باب تلك البيعة، من أمام مذبح هناك، سوف تجد حجرة إليها ربط يسوع بالأغلال، بينما كان صليبه يجري إعداده، وهناك يوجد غفران لسبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٣٢ — وسوف تذهب من هناك إلى المكان الذي تراهن فيه العساكر حول ملابس المسيح، حسبما كُتب:«ومن أجل قميصي تراهنوا»، ويوجد هناك غفران لسبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٣٣ — وسوف تذهب من هناك إلى مكان حيث تنزل إلى بيعة بنيت على عمق ثمانية وعشرين درجة فهناك جرى دفن جسدي: مريم أم جيمس، ومريم سالومي، تحت مذبح هناك، ويوجد هناك غفران لسبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٣٤ — ويوجد قرب هذا المذبح، على الجانب الأيمن كرسي حجري، عليه جلست القديسة هيلانةعندما دفعت نحو البحث عن صليب الرب المقدس، ويوجد هناك غفران لسبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٣٥ — وهناك أيضاً نافذة في الجدار عند الباب الشمالي، من خلالها يتم سماع — كما قيل — صراخ الأرواح في أثناء تطهيرها بعد الموت.

٣٦ — ويوجد أيضاً في البيعة نفسها أربعة أعمدة حجرية، قيل بأنها تتعرق بماء عذب ليلاً ونهاراً بسبب آلام المسيح.

٣٧ — وسوف تنزل من هناك أيضاً اثنتي عشرة درجة إلى بيعة أخرى منخفضة،وهي التي عثر فيها في مكان عميق جداً، على الصليب المقدس، والمكان الذي كان فيه صليب الرب ممدداً، مايزال مرئياً، وهناك إعفاء من الألم ومن الذنب.

٣٨ — ومن هناك تصعد إلى الباب الأول، الذي دخلت منه، ولسوف تجد على جانبك الأيسر عموداً رخامياً تحت أحد المذابح، حيث قيل أنه على مقربة منه جرى تتويج يسوع بتاج من شوك، قبل وضعه على الصليب، ويوجد هناك غفران لسبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٣٩ — وتصل من هناك إلى الجلجلة، التي تعرف باسم البلاط، وذلك حيث جلس بيلايطس قبل المحاكمة، وعندما اقتاد يسوع إلى خارج المدينة، وحسب رواية يوحنا[٩/ ١٤] كان اليوم يوم عيد الفصح، في حوالي الساعة السادسة منه، والجلجلة مكان موجود تحت جبل الجمجمة، وكان مقعراً، وهناك مايزال الدم مرئياً، حسبما تحدثنا من قبل.

٤٠ — ثم إنك تصل إلى باب، حيث هناك في وسط السدة يوجد المكان الذي يسمى بمركز العالم، فهناك مدّ الرب يسوع المسيح إصبعه قائلاً:« هذا هو مركز العالم»، ويوجد هناك غفران لمدة سبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

وينبغي أن يكون معلوماً أنه يوجد عند المذبح الكبير غفران لمدة سبع سنوات،ولسبعة مواسم صوم كبير، وأن جميع المذابح قد بنيت في داخل الكنيسة.

٤١ — وتصل من هناك إلى عمود موجود قرب حجرة الضريح المقدس، قد رسم فوقه صورة القديس بانتاليون Pantaleon ، وعند هذه الصورة، قيل بأن المعجزة التالية قد حدثت فيما مضى: فقد دخل أحد المسلمين إلى كنيسة الضريح المقدس، ونظر من حوله، فرأى الصورة المتقدمة الذكر مرسومة فوق العمود، وعندما انتزع عيني الصورة، ما كان من عينيه إلا أن سقطتا فوراً على الأرض.

٤٢ — وتصل من هناك إلى الباب الذي لم تكن مريم المصرية المباركة قادرة على الدخول منه، مع أن المسيحيين الآخرين قد دخلوا، وعندما وعدت بأنها سوف تتوب، سمعت صوتاً يقول لها:«إذا عبرت نهرالأردن سوف تكونين صحيحة بريئة»، وهذا الباب موجود على الجانب الشمالي للضريح المقدس في مكان سري، وتوجد هناك بيعة القديسة مريم المصرية، المتقدمة الذكر ويوجد هناك غفران لمدة سبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٤٣ — ومن هناك سوف تخرج من كنيسة الضريح المقدس، ولسوف تجد على يسارك بيعة صغيرة، هي بيعة العذراء المباركة مريم، وذلك تحت جبل الجمجمة، حيث وقفت تحدق بابنها وهو معلق فوق الصليب، وهناك يتولى النوبيون أعمال القداسات، ويوجد هناك غفران لمدة سبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٤٤ — ومن هناك سوف تأتي إلى بيعة القديس يوحنا الانجيلي، وهي ملتصقة ببيعة مريم المباركة، حيث أوصى مخلصنا بالأم العذراء إليه، والتي كانت فعلاً عذراء، ويتولى هناك اليعاقبة أعمال القداسات، ويوجد هناك غفران لسبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٤٥ — وتصل من هناك إلى بيعة ملاصقة، بنيت تشريفاً للقديس يوحنا العمدان، والغفران هنا لمدة سبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٤٦ — وسوف تجد في مواجهتك بيعة بنيت تشريفاً للقديسة مريم المجدلية، حيث بكت هناك وناحت، مع نسوة أخر، على الرب وهو معلق فوق الصليب، ويتولى هناك المسيحيون المطوقون(الكرج) أعمال القداسات، ويوجد هناك غفران لمدة سبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٤٧ — وتأتي من هناك إلى صخرة موجودة أمام أبواب الكنيسة، عليها ارتاح المسيح عندما جاء وهو يحمل صليبه إلى جبل الجمجمة، ويوجد هناك غفران لمدة سبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٤٨ — وجميع الأماكن الفائقة القداسة، المتقدمة الذكر موجودة داخل، أوملاصق الكنيسة المقدسة لآلام الرب، ولضريحه المقدس.

مايتعلق بالحج فوق جبل صهيون المبارك

٤٩ — ونذهب من هناك إلى جبل صهيون، وعلى الطريق سوف تجد كنيسة جيمس المبارك ابن زبدي، وهي المكان الذي وضع فيه فيما مضى رأس جيمس هذا عندما جلب على أيدي الملائكة من يافا، فهناك جرى إعدامه بقطع رأسه، كما يقول بعضهم، بيد أن آخرين يقولون، بأنه أعدم في القدس، في المكان الذي توجد فيه كنيسته، وهذا ما أعتقد أنه أكثر صحة.

٥٠ — ومعروض هناك للمشاهدة عظام جيمس هذا الأعظم مباركة، وكذلك عظام جرجس المبارك والشهيد، ويوجد هناك غفران لمدة سبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير، والموجود هناك هم رهبان أرمن.

٥١ — وسوف تذهب من هناك إلى كنيسة القديس المخلص في جبل صهيون، حيث المكان كان من قبل بيت كيفاس، الذي إليه جلب يسوع أولاً بعد اعتقاله، وجلد هناك بقسوة، ويوجد هناك خارج باب الكنيسة، جزء من العمود الذي ربط إليه، وذلك في داخل الجدار هناك، وفي المكان نفسه أنكر بطرس المسيح للمرة الأولى«قبل صياح الديك»، وعندما كان جالساً هناك في القاعة مع الخدم قام بتدفئة نفسه على«نار الفحم، لأنها كانت باردة»[يوحنا:١٨/١٨]، وهناك أيضاً السجن الذي ألقي فيه يسوع، وأبقي فيه حتى الصباح، لكن عندما جاء الصباح

أرسلوه مغلولاً إلى بيلايطس، وموجود هناك حجرة كبيرة موضوعة فوق المذبح، وقد قيل بأنها كانت الحجرة التي ألقيت أولاً فوق ضريح الرب،[وهناك قالت النسوة] — تبعاً لرواية مرقص — :«من سيدحرج هذه الصخرة من على باب الضريح»، الخ، ويوجد هناك إعفاء من الألم ومن الذنب.

٥٢ — ومن هناك تأتي إلى المكان الذي كان فيما مضى قلاية مريم المباركة، حيث أقامت فيها لمدة أربعة عشر عاماً، بعد صعود الرب إلى السماء، ومن هناك انتقلت إلى الرب، من هذا العالم الشرير، ويوجد هناك إعفاء من الألم ومن الذنب.

٥٣ — ومن هناك تنتقل إلى مكان ملاصق، حيث كان فيما مضى الكنيسة التي احتفل فيها المبارك يوحنا الانجيلي بقداس بحضور مريم العذراء المباركة، واستمر ذلك طوال بقاء مريم المباركة حيّة في هذا العالم، ويوجد هناك غفران لمدة سبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٥٤ — ومن هناك تنتقل إلى المكان الذي انتخب فيه الرسل متى المبارك رسولاً، وكان ذلك في غرفة يهوذا الخائن، ويوجد هناك غفران لمدة سبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٥٥ — وهناك أيضاً المكان الذي انتخب فيه الرسل السبعة شمامسة:ستيفن، وفيليب، ونيكابور، وأتباعهم للتبشير بكلمة الرب.

٥٦ — وهناك مكان آخر، فيه انتخب الرسل المبارك جيمس، ليكون الأسقف الأول للقدس، وهو الذي استشهد فيما بعد بضربة من عصا القصار، وغادر إلى المسيح.

٥٧ — ثم إنك تأتي إلى صومعة مريم العذراء المباركة، وذلك على مقربة من أبواب الكنيسة، فهناك اعتادت أن تصلي بعد صعود الرب إلى

السماء، ويوجد هناك غفران لمدة سبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٥٨ — ويوجد أيضاً على الجانب الآخر من أبواب الكنيسة، صخرة حمراء، كانت تستخدم بمثابة مذبح، وعلى هذه الصخرة احتفل المبارك يوحنا الانجيلي، بقداس بحضور مريم العذراء المباركة، وقد نقلت من جبل صهيون على أيدي الملائكة، بناء على صلوات المبارك توما الرسول، لدى عودته من الهند، ويوجد هناك غفران لمدة سبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٥٩ — ثم إنك سوف تدخل إلى الكنيسة، ويوجد قرب المذبح الكبير، في جهة الجنوب، المكان الذي تعشى فيه الرب يسوع مع حوارييه، واتصل بهم قائلاً:«خذوا، كلوا، هذا هو جسدي الذي أعطي لكم، وافعلوا هذا تذكراً لي»، ويوجد هناك إعفاء من الألم ومن الذنب، وقد غسل في المكان نفسه أقدام حوارييه.

٦٠ — ثم إنك تخرج من الكنيسة، وتأتي إلى حاجز، على مقربة منه المكان الذي قال فيه الرب يسوع لحوارييه، عندما جاء«والأبواب مغلقة، ووقف في الوسط، وقال سلام عليكم، ثم قال لتوما: هات اصبعك إلى هنا وأبصر يدي،وهات يدك، وضعها في جنبي، ولاتكن غير مؤمن بل مؤمناً»[يوحنا:٢/٢٦ — ٢٨]، ويوجد هناك غفران لمدة سبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٦١ — ثم إنك تصعد فوق الكنيسة بدرجات، حيث هناك المكان الذي سكن فيه الرسل، بعد صعود الرب، وذلك حتى يوم عيد الحصاد، وكانوا ينتظرون الروح القدس بالصوم وبالصلوات،وفي يوم عيد الحصاد تلقوا الروح القدس، على شكل نار، من أجل تقويتهم، وتلقوا معها معرفة جميع اللغات، وجاء صوت من السماء بشكل

مفاجيء، ودوى فوق المكان، ولحق ذلك تـدفق حشد من اليهود، إليهم شرح بطرس المبـارك نبوءة يوئيـل، وحول عـدداً كبيراً منهم إلى الايمان، ويوجد هناك إعفاء من الألم والذنب.

٦٢ — ثم إنك تنزل من هنـاك إلى المقبرة، ويوجـد هناك على مقـربة من الكنيسة على الجهة الشمالية، صخرة، عليها وقف يسوع عندما وعظ الحشد، ويـوجد هناك غفران لمدة سبـع سنوات، ولسبعة مواسـم صوم كبير.

٦٣ — ثم تذهـب من هناك إلى تحت الكنيســة،حيث هناك يوجـد ضريح الملـك داوود وابنه سليمان، فهنـاك جـــرى دفن جميـع ملوك القدس، وعلى مقـربة من هناك نظم داوود سبعة مـزامير، ويوجد هناك غفران لسبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٦٤ — ثم إنك تأتي إلى المكان الذي جـرت تدفئة الماء فيـه، من أجل غسل أقدام الحواريين، وقت العشاء الرباني.

٦٥ — ثم إنك تـأتي إلى ضريح اسطفـان المبــارك، الذي كــان أول شهيــد، وهناك دفن جسـده بعــد اكتشــافـه لكنه الآن في رومــا، وفي الناووس نفسه مع جسد لورانس المبارك، ويوجد هناك غفران لمدة سبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٦٦ — ولدى نزولك من جبل صهيـون، تجد المكان الذي — عندما كان الحواريـون ينقلون جسد العذراء المبـاركة للدفـن في وادي شعفاط — وضعــوا عليـه النعش، وكــان اليهـود الـذين يعيشـون في القــرية المجـاورة، قــد تجمعـوا في تلـك البقعـة، حتى يمكنهم خطـف الجسـد لاحـراقه، ثـم قام رئيس كهنة اليهـود،وكـان أكثـر جرأة، ووقـاحـة من البقية، فـوضـع يديه على النعش، وإثر ذلك تيبست يداه مبـاشرة، ثم إنه التمس من بطرس المبارك، أن يدعو له، ليعيد يديه إليه، فقال له بطرس

المبارك:«إذا ما آمنت أن هذه هي أم المسيح، وكنت مستعداً للتعميد، فإنك ستجعل سليماً»، فآمن، وعاد إلى سالف صحته، ويوجد هناك غفران لمدة سبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٦٧ — ثم إنك تأتي إلى مكان، كان فيها مضى كنيسة، تعرف بشكل عام باسم كنيسة«صياح الديك»، حيث كان فيها كهف عميق، فهناك تاب بطرس عندما أنكر المسيح، وبكى بكاء مراً.

٦٨ — ثم يوجد على بعد ثلاثة فرلنغ طويلة(ثلاثة أثمان الميل) إلى الجنوب من هناك، الحقل الذي شري مقابل الثلاثين قطعة فضية التي جرى بيع ربنا بها، وهو الذي يعرف بالعبرية باسم أكلداما، أي حقل الدم، حتى هذا اليوم.

٦٩ — ثم إنك تأتي إلى الحقل المقدس، حيث سكن الحواريون مراراً، قبل آلام المسيح، ومايزال مكان سكناهم مرئياً، ويوجد هناك غفران لمدة سبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٧٠ — ثم إنك تأتي إلى بركة سلوان، حيث أعطى الرب البصر إلى رجل ولد أعمى.

٧١ — ثم إنك تأتي إلى مكان مجاور، فيه جرى قطع النبي إشعيا إلى قسمين بوساطة منشار خشب، وذلك من قبل منشا ملك القدس، وهو هناك راقد حيث هو مدفون تحت بلوطة روجل.

٧٢ — ثم إنك تأتي إلى نبع مريم المباركة، حيث غسلت الملابس الصغيرة لابنها المبارك، وهناك يغتسل الآن كل من المسلمين والمسيحيين، وغالباً مايتعافون بذلك من عجزهم، ويوجد هناك غفران لمدة سبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٧٣ — ثم إنك تأتي إلى المكان الذي اعتاد أن يعيش فيه جيمس

الأصغـر، وهناك جـرى دفنه بعـدمـا ألقي به مـن أعلى الهيكل من قبل اليهـود،ويوجد هناك غفـران لمدة سبع سنوات، ولسبعـة مواسم صـوم كبير.

مايتعلق بالحج فوق جبل الزيتون

٧٤ — يبعد جبل الزيتون ميـلاً واحداً إلى الشرق من القدس، وهو جبل خصـب، وجبل الزيتـــون جـــدير بكل احترام، فعلى هـذا الجبل المقدس، والجدير كثيراً بالاحترام، اعتاد الرب أن يجلس، مقابل الهيكل، عندمـا ينتظر حواريوه منه رؤية الشـارات عند قـدومه للحكم، وحـول نهاية الحياة، وعلى هذا الجبـل غالباً مـا اعتاد أن يذهب مع حـوارييه من أجل الصلاة، وخاصـة عندما كانت آلامه قد اقترب مـوعدها، ويشاهد هناك في هذه الكنيسة المكان الذي صعـد منه ربنا إلى السماء بشكل مجيد وبحضـور حوارييـه، وماتزال الصخـرة التي كـانت تحت قدميـه تحتفظ بطبيعتهـا، وهذا مـرئي حتى هـذا اليـوم، ويوجـد هناك إعفـاء من الألم والذنب.

٧٥ — ثم إنك تأتي إلى بيعة موجـودة هناك على الجبل المتقدم الذكر، فيهـا تابت بلجيـا الأنطاكية، وفيهـا دفنت أيضـاً، ويوجـد حجرة فـوق ضريحها لايمكـن لانسان أن يمر من قـربها، أويدور من حولها مـالم يقم بالاعتراف الكامل، ويقـال بأن مـريم المصرية المبـاركـة قـد دفنت هناك حتى أيام استيلاء اللاتين على الأرض المقدسة، ذلك أنهم نقلوا جسدها من هناك إلى مـاوراء البحر، إلى بلدة اسمهـا بليوس Blois في مملكة فـرنسا، ويوجـد هناك غفران لمدة سبع سنوات، ولسبعـة مواسم صـوم كبير.

٧٦ — ثم تأتي إلى المكان الـذي صـاغ فيــه الرسل مثـال العقيــدة، ويوجد هناك غفران لمدة سبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٧٧ — ثم إنك تأتي إلى كنيسة فيها علّم يسوع حوارييه أن يصلوا، قائلاً:«هكذا سوف تصلون» وقال:«أبانا الذي في السماء»الخ، ويوجد هناك غفران لمدة سبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٧٨ — ثم إنك تأتي إلى منحدر جبل الزيتون، إلى ثمني ميل باتجاه الشرق، حيث بيت فاجي، التي ترجمة اسمها هو«بيت الفك»، فهناك أرسل ربنااثنين من حوارييه هما:بطرس وفيليب ليجلبا له أتاناً مع فلوها من أجل أحد السعف وقال لهما:«إذهبا إلى القرية التي أمامكما فللوقت تجدان أتاناً مربوطة وجحشاً معها فحلاهما واتياني بهما»[متى:٢١/٢]، ومن هناك من ذلك المكان ذهب على ظهر الأتان إلى القدس وسط التراتيل وأناشيد الحمد، وقد استقبل بالتشريف من أبناء العبرانيين، وهم يحملون سعف النخيل، ويوجد هناك غفران لمدة سبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٧٩ — ثم إنك تأتي إلى مكان، فيه تسلمت مريم المباركة سعفة النخيل من الملاك، كمؤشر لمغادرتها لهذا العالم وذهابها إلى بيتها المتشوقة إليه،ويوجد هناك غفران لمدة سبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٨٠ — والجبل المجاور لجبل الزيتون على الجانب الشمالي هو جبل العدوان، وهما منفصلان عن بعضهما بوساطة الطريق الذي يذهب من وادي شعفاط إلى بيت عنيا، وقد عرف باسم جبل العدوان لأن الملك سليمان أقام هناك صنم مولوك، وتعبده.[الملوك الأول:١١/٧]، ويعرف هذا المكان باسم الجليل، فهناك ظهر ربنا لحوارييه عندما قام من الموت، وذلك وفقاً لكلمة الملاك الذي قال:«واذهبا سريعاً قولا لتلاميذه، ولبطرس.... ها هو يسبقكم إلى الجليل»، [متى :٢٨/٧] وقد كان هنا من قبل كنيسة، غير أنها دمرت من قبل المسلمين، ويوجد هناك غفران لمدة سبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٨١ — ثم إنك تأتي إلى سفح الجبل، إلى صخرة، وقف عليها يسوع، ووعظ الحشود، وذلك حيث أشار إلى مدينة القدس، وبكى عليها قائلاً:«إنك لو علمت أنت أيضاً حتى في يومك هذا ما هو لسلامك، ولكن الآن قد أخفي عن عينيك، فإنه ستأتي أيام ويحيط بك أعداؤك بمترسة ويحدقون بك ويحاصرونك من كل جهة، ويهدمونك وبنيك فيك حجراً على حجر»الخ[لوقا:١٩/ ٤٢ — ٤٤]، وقد تحقق هذا في ظل تيتوس وفاسبسيان، امبراطوري الرومان، ويوجد هناك غفران لمدة سبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٨٢ — ثم إنك تأتي إلى المكان الذي رمت فيه مريم المباركة حزامها إلى الرسول توما المبارك، ويوجد هناك غفران لمدة سبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٨٣ — ثم إنك تأتي إلى حديقة جيسماني، تحت سفح جبل الزيتون، في وادي شعفاط، حيث سيحكم ربنا على الأحياء والأموات.

٨٤ — وهناك يوجد المكان الذي اعتقل فيه الرب يسوع من قبل اليهود، وذلك حيث قبله يهوذا الاسخريوطي قائلاً:«حييت يا معلم»، وهناك قام اليهود الذين كانوا أمامه«فرجعوا إلى الوراء وسقطوا على الأرض»، وكان ذلك لدى سماعهم صوت المسيح، عندما قال:«أنا هو»، وهذا كله حسب رواية يوحنا(١٨/ ٦)، ويوجد هناك غفران لمدة سبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٨٥ — ثم إنك تأتي إلى المكان الذي انسحب فيه الرب يسوع من بين حوارييه، «وانفصل عنهم نحو رمية حجر»، وصلى إلى الآب قائلاً:«يا أبتاه إن شئت أن تجيز عني هذه الكأس، ولكن لتكن لا إرادتي بل إرادتك»، وفي المكان نفسه:«ظهر له ملاك من السماء يقويه»[لوقا:٢٢/ ٤١ — ٤٤]، وبدأ«عرقه كقطرات دم نازلة على

الأرض»[لوقا:٢٢/ ٤٥].

٨٦ — وهناك أيضـاً، الصخـرة التي أمسك بها ربنا، وهـو يتحـرق بسبب آلامـه، وطبعـات أصابعـه عليهـا مـاتزال ظاهرة،ويوجـد هناك غفران لمدة سبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٨٧ — ثم إنك تـأتي إلى المكان من حيث «أخـذ معـه بطرس وابن زبدي وابتـدأ يحزن ويكتئب» وهو يقـول:«نفسي حـزينة جـداً حتى الموت»، وعاد حيث وجد الحواريين الآخرين نياماً، فقال لهم:«أهكذا ما قدرتم أن تسهـروا معي ساعـة واحدة؟ اسهـروا وصلوا لئلا تدخلوا في تجربة»، [متى:٢٦/ ٣٩ — ٤١] ويوجد هنـاك غفران لمدة سبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٨٨ — ثم إنك تـأتي إلى كنيسـة في وادي شعفـاط، حيث يوجـد ضريح العـذراء المجيدة، في مكان عميق جـداً، ينزل الانسان إليـه بثمان وأربعين درجة، وهناك يوجد إعفاء من الألم والذنب.

وينبغي أن نتنبـه إلى أن وادي شعفـاط قـد نال اسمـه من واحـد من ملوك القدس، كان اسمه شعفاط، وقد دفن هناك، وقد بني قبره بشكل محكم، وهو مايزال مرئياً هناك.

٨٩ — وسـوف تعبر من هناك وادي قـدرون، حيث بقيت شـارة صليب الرب ممددة هناك لسنين طويلة، وعندمـا كـانت سيبل Sibyl قادمة إلى القدس لسماع حكمة سليمان، رفضت عبور هذا الوادي.

٩٠ — ولسوف تأتي إلى المكان الذي ربط فيه المبارك اسطفان، عندما جـرى رجمه من قبل اليهود، ووقتهـا كان قـد ركع فوق الأرض،وأخـذ يصلي من أجل الذين كـانوا يرجمونه، وهو يقـول:«يارب لاتقم لهم هذه الخطيـة»[أعمال الرسـل:٧/ ٦٠]الخ، ويوجـد هناك غفـران لمدة سبعـة أعوام، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٩١ — ثم تأتي إلى البوابات الذهبيـة، التي دخل منها الرب يسوع في يوم أحـد السعف، وكـان جـالسـاً على ظهـر أتان، وذلك حسب رواية الانجيل،ويوجد هناك غفـران لمدة سبع سنوات، ولسبعة مـواسم صوم كبير.

٩٢ — ثم تجد على بعــد رمية سهـم هيكل الرب، الذي له أربعــة مداخل، واثني عشر باباً.

ولايجوز المرور بهيكل الرب المقـدس الذي بني من قبل سليمان فـوق جبل موريا، على أرض بيدر أورنان اليبوسي، بين الأماكن المقدسة دون إيلائـه ما يستحقـه من احترام، وكـان في الحقيقة قـد هدم أولاً من قبل البابليين، ثم بعد ذلك من قبل الـرومان، ثم إنه أعيدت عمارته في المكان نفسه، على شكل مستدير،وعلى شكل لائق، ورائع، من قبل عمال أذكياء وبارعين، ومـؤمنين، ورجال ربانيين، ويـوجد في هذا الهيكل الصخـرة، التي وقف عليهـا الملاك المدمـر، وظهــر لداوود، وهذا الملاك هو الذي قتل آلافــاً لاتحصى من الناس، بسبب الذنب الـذي اقترفـه داوود، أي بإحصـــاء الناس وتعـدادهم بناء على أمــر داوود، وفي الحقيقـة يـدعـو المسلمـون حتى هذا اليـوم هيكل الرب بـاسم الصخـرة، وهي مـوضع احترام عظيم لديهم، إلى حد أن مـا من أحد منه يتجـرأ على تلويثها بأية قذارة، مثلما يلوثون الأماكن المقدسـة الأخرى، وهـم يقدمون من مناطق نائيـة للتعبـد هناك، ويفعلون ذلك منـذ أيام سليمان حتى الوقت الحالي، ومنذ أن استعـاد المسلمون ملكيـة مدينـة القدس المقـدسة، لايسمحـون لأي مسيحي بدخـول الهيكل، ومايزال بعضهم يعتقـد حتى هذه الأيام، بأن تابوت عهد الرب، موجود في داخل الصخرة المذكورة، ومقفل عليه فيهـا، وذلك أن يوشع، ملك إسرائيل، تنبأ بما سيلحق المدينة من دمـار، فأمر بوضع التابوت في قدس أقداس الهيكل، وتخبئته فيها هناك.

٩٣ — وفي هذا المكان المقدس المحترم، عنـدما أنهى سليمان العمل،

وكـان يقدم أضحيـة إلى الرب، مـلأت غمامة البيت، وظهـر مجد الرب، و«نزلت نار من السماء، وأكلت تقـدمـة الحرق، والأضـاحي»، ومـلأت جـلالة الرب بيت الرب، و«رأى بنو إسرائيـل جميعـاً النار وهي نازلة، ومجد الرب فـوق البيت» وعندما كـان سليمان جـاثياً على ركبتيـه ويداه مبسوطتـان نحو السماء»، دعا بأن تتم الاستجـابة لتوسل كل من يدخل الهيكل طلبـاً للمنفعـة من الرب، وظهـر الـرب له قـائـلاً:«قـد سمعت صلاتك وتضرعك الذي تضرعت به أمـامي: قدست هذا البيت الذي بنيتــه من أجل وضع اسمي فيــه»[الملوك الأول:٩/ ٣]، و«الآن عيناي تكونان مفتــوحتين وأذناي مصغيتين إلى صـلاة هذا المكـان. والآن قـد اخترت وقـدست هذا البيت ليكون اسمي فيـه إلى الأبد»[أخبـار الأيام الثاني:٧/ ١٥ — ١٦].

٩٤ — وعاشت مـريم العذراء المباركـة في هذا الهيكل،حتى اقترنت بيوسف، ولقـد قيل بأنها كانت تصلي هناك مع العـذراوات الأخريات، وكـانت تعمـل على إعـداد أواني الهيكل، وكـذلك مــلابس الكهنة، كما كانت تتعلم الأحرف المقدسـة، وتعيش بعقلانية وتواضع، حيث كانت تصوم، وتتأمل، وتصلي،وتدرس الكتابات المقدسة، وعندما كانت طفلة رضيعـة جلبها والداها لتقـديمهـا إلى الهيكل، ومن أجل تقـديمها أمـام الرب، وهنا — كما يقال — صعدت بنفسهـا جميع الدرجات المؤدية إلى الهيكل من دون أية مصاعب، وهو أمـر بدا مدهشاً في أعين الجميع، ولم يسمع بمثله من قبل عن طفل صغير، وفي هذا الهيكل عندما كـان زكريا المقدس يقدم البخورإلى الرب، ظهر الملاك جبرائيل له، وبشره بأن الرب قد استجاب لأدعيته.

٩٥ — وجرى أيضاً في هذا الهيكل تقديم الطفل يسوع، حيث جرى حمله على ذراعي سمعان العـدل، وعندها عرف سمعـان بوساطة الروح القدس مخلصه، فقال له:«الآن تطلق عبدك»الخ[لوقا:٢/ ٢٩].

٩٦ — وأيضاً في المعبد نفسه أنقذ يسوع المرأة الزانية من أيدي اليهود،[يوحنا: ٨/ ٣] وهناك أيضاً عمل يسوع«سوطاً من حبال وطرد الجميع من الهيكل، الغنم والبقر، وكب دراهم الصيارف، وقلب موائدهم»، [يوحنا:٢/ ١٥]، وهو يقول:«مكتوب بيتي بيت الصلاة يُدعى، وأنتم جعلتموه مغارة لصوص»[متى:٢١/ ١٣].

٩٧ — وهناك أيضاً بالقرب هيكل سليمان، لكن المسيحيين لايدخلون إليه، خوفاً من المسلمين.

٩٨ — كذلك يوجد فيما بين هيكل الرب والباب الذهبي الأشجار التي قطع منها الأولاد الأغصان، عندما جاء الرب إلى القدس، راكباً على أتان، وعلى مقربة من هناك، بجوار هيكل سليمان، في زاوية من زوايا المدينة يوجد — كما قيل — غرفة نوم المسيح، وحمّامه، وفراش أمه، ويوجد هناك أيضاً ضريح القديس سمعان.

٩٩ — ثم إنك تأتي إلى كنيسة حنة المباركة، التي هي أم العذراء مريم، وهي قريبة من الباب الذي تذهب من خلاله إلى وادي شعفاط، وذلك في جهة الشمال، فهنا يوجد القبو الذي ولدت فيه العذراء مريم، فهو قد كان من قبل بيت يواكيم، وحنة المباركة، زوجته.

١٠٠ — ولايدخل المسيحيون إلى هذا المكان،لأن المسلمين قد بنوا هناك مسجدهم، أي كنيستهم.

١٠١ — ثم إنك تأتي إلى البركة المجاورة لسوق الضأن، التي إليها كان ملاك الرب«ينزل أحياناً في البركة ويحرك الماء، فمن نزل أولاً بعد تحريك الماء كان يبرأ من أي مرض اعتراه»[يوحنا: ٥/ ٤]، ولقد قيل بأنه استقرت في تلك البركة لزمن طويل، خشبة الصليب، وكذلك شفى ربنا في تلك البركة الرجل المقعد منذ ثمان وثلاثين سنة، والمتمدد فوق فراشه، وقال له:«احمل فراشك وامش»[يوحنا:٥/ ٨]،ويوجد هناك

غفران لمدة سبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

١٠٢ — ثم إنه على مقربة من هناك، تأتي إلى بيت الرجل الثري الذي رفض إعطاء فتات الخبز إلى العازر.

١٠٣ — ثم إنك تأتي إلى بيت عناس، الكاهن الأعلى، وختن كيفاس، الذي جلب إليه يسوع أولاً.

١٠٤ — ثم إنك تأتي إلي بيت بيلايطس، حيث جرى جلد يسوع، والسخرية منه من قبل الجند، والبصاق عليه وضربه بالعصا، وتتويجه بتاج من شوك، وأخيراً الحكم عليه بالاعدام، ويوجد هناك طريق يقود إلى هيكل الرب، جاء اليهود عبره وهم يصرخون قائلين:«اصلبوه، اصلبوه».

١٠٥ — ثم إنك تأتي إلى البيت الذي كانت مريم العذراء المباركة فيه في المدرسة، وعلى مقربة منه يوجد البيت الذي تشاور فيه اليهود لاعتقال يسوع خيانة، ومن ثم قتله.

١٠٦ — ثم تأتي إلى جوار ذلك، إلى الكنيسة التي تعرف باسم كنيسة إغماء القديسة مريم، حيث أغمي عليها بسبب آلام ابنها، عندما شاهدته وهو يحمل صليبه، ويوجد هناك حجران أبيضان عظيمان في القوس، عليهما استراح ربنا، عندما كان يحمل صليبه، ثم التفت إلى الناس وقال:«يا بنات أورشليم لاتبكين عليّ بل ابكين على أنفسكن وعلى أولادكن»[لوقا:٢٣/٢٨].

١٠٧ — ويقال بأنه كان على مقربة من الكنيسة قصر الملك هيرود، وعلى مقربة من هناك كان بيت يهوذا الخائن، حيث عاش مع زوجته وأولاده.

١٠٨ — ويوجد هناك أيضاً الطريق الذي يقود إلى باب القديس

اسطفان، حيث رجم في خارجه، وعبر هذا الطريق اقتاد اليهود يسوعاً، و«وجدوا إنساناً قيروانياً اسمه سمعان كان آتياً من الحقل، فسخروه ليحمل صليب يسوع»[متى: ٢٧/ ٣٢/، لوقا :٢٣/ ٢٦] وحمله إلى الجمجمة حيث جرى صلب يسوع.

١٠٩ — ثم إنك تأتي إلى برج داوود، الذي كان قد هدم، لكن الآن أعيدت عمارته، في المكان نفسه، كقلعة للسلطان.

١١٠ — وهناك جرى سجن يوسف الرامي لمدة أربعين سنة، بعد آلام المسيح، أي حتى قدوم تيتوس وفاسبسيان، امبراطورا روما.

١١١ — ويوجد هناك باب اسمه باب داوود، في خارجه شنق يهوذا نفسه على شجرة جميز.

١١٢ — ثم إنك تصل على بعد رمية سهم إلى كهف الأُسد، حيث تولوا دفن أحد عشر ألف شهيد، قتلوا جميعاً بسبب اسم المسيح من قبل كسرى ملك الفرس.

١١٣ — ثم إنك تأتي إلى المكان الذي قطعت منه خشبة الصليب، فهناك بنيت كنيسة جميلة جداً، ويبعد المكان ميلاً واحداً عن القدس، ويطلق عليه بالعربية اسم[دير] المصلب، أي«أم الصليب».

١١٤ — ثم هناك على بعد ميلين جدول الماء الجاري الذي عمّد فيه فيليب المبارك الخصي الأثيوبي وهو عائد من القدس، ويوجد هناك غفران لمدة سبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

١١٥ — ثم إنك تأتي على بعد ميل إلى المكان الذي ولد فيه يوحنا المعمدان مع أبيه زكريا، وتوجد هناك كنيسة تبعد أربعة أميال عن القدس، وإلى هناك حدث أن مريم«ذهبت بسرعة إلى الجبال إلى مدينة يهوذا» وسلمت على إيزابل،«وصرخت إيزابل بصوت عظيم وقالت

مباركة أنت في النساء ومباركة هي ثمرة بطنك فمن أين لي هذا أن تأتي أم ربيّ إليّ، فهوذا حين صار صوت سلامك في أذنيّ ارتكض الجنين بابتهاج في بطني»، ثم قالت مريم المباركة:«تعظم نفسي الرب»الخ[لوقا:١/ ٣٩ — ٤٦]، وهناك تنبأ زكريا وقال:«مبارك الرب»الخ، ويوجد هناك غفران لمدة سبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

١١٦ — ومن هناك يذهب الانسان إلى نبع زكريا،[عين كارم] الذي يبعد حوالي رميتي سهم عن الكنيسة المذكورة أعلاه.

ما يتعلق بالحج في بيت لحم وحبرون

١١٧ — على ميلين من القدس، باتجاه بيت لحم، هناك كنيسة، قائمة فوق الموضع الذي تاب فيه إيليا واعتكف.

١١٨ — ثم إنك تأتي إلى مكان على الطريق، حيث ظهر النجم ثانية للرجال الحكماء، ذلك أنه كان قد اختفى عندما كانوا في حضرة هيرود.

١١٩ — ثم إنك تأتي إلى البئر الذي وضع إخوان يوسف، يوسف فيه.

١٢٠ — ثم إنك تأتي إلى قبر راحيل، زوجة يعقوب، التي ماتت بعد ولادتها لبنيامين، وهو يبعد حوالي ثمن ميل عن الطريق القادم.

١٢١ — ثم إنك تقدم إلى حقل البيقية الحجرية، الذي يبعد ميلاً عن بيت لحم، لأنه عندما كان الرب يسوع يعبره، رأى رجلاً يبذر بيقية، وعندما سأله الرب عن الذي يبذره، أجابه«حجارة» فقال الرب له:«لتكن حجارة»، وعلى الفور تحولت تلك البيقية إلى حجارة، وحتى الآن يتم العثور على حجارة بيقية هناك.٠

١٢٢ — ثم إنك تأتي إلى مدينة بيت لحم، التي معنى اسمها«بيت

الخبـز»، التي ولد فيهـا الخبـز الحقيقي الذي نزل من السماء، ويوجـد في هذه المدينة المقدسة والمبجلة، كنيسـة فائقة الجمال، بنيت على شرف مريم العـذراء المباركـة، وفيهـا بيعـة، ولد فيها يسـوع المسيح، مخلص العـالم، ويوجد هناك إعفاء من الألم والذنب.

١٢٣ — ويوجـد هناك المكان الذي كـان فيه المعلف الذي أكل فيـه الثـور والأتان، فهناك مددته مـريم العـذراء المباركـة، بسبب أنه لم تكن هناك غـرفـة في النزل»، وقـد قيل بأن المعلف مع التبن الذي تمدد عليـه الطفل يسوع موجود في روما في كنيسة القديسة مريم العظيمة.

١٢٤ — وإلى تلك البيعـــة جـاء ثلاثة ملـوك من الشرق: مليكور، وبلثـاسـار، ويسبر، ليقومـوا بعبـادة ابن الرب، وقـد قدمـوا له:«ذهبـاً، وبخوراً،ومرّاً».

١٢٥ — ويوجد أيضـاً في الكنيسة المتقدمة الـذكر، العائدة للقـديسة مـريم، على الجانب الأيسر، المكان الموضـوع فيـه بعض آثار طفـولة ربنا وختـانه، حيث يقـال بأنهم الآن في رومـا في كنيسـة القـديس يوحنا في اللاتيران.

١٢٦ — ويوجد أيضاً على جهة اليمين المكان الذي جـرى فيه دفن الأبرياء المقـدسين، ويوجـد هناك مـذبح،ويوجـد هناك إعفـاء من الألم والذنب.

١٢٧ — ثم إنك تـأتي إلى باب، حيث هناك الكهـف الذي اعتكف فيه القديس جيروم، وهناك صنف توراته وكتبا أخرى كثيرة.

١٢٨ — ثم مـلاصق ذلك تأتي إلى كنيســة تلك العقيلة النبيلة، أي باولا المبـاركـة، مع ابنتهـا العـذراء يوستـوخيـوم، فهناك قـامـا بالتـوبة والاعتكاف.

١٢٩ — ثم إنك تأتي إلى كنيسة نيقولا المبارك، وهي ملاصقة لها، وفيها قبو عميق، وهناك يوجد بيعة، يقال بأن مريم العذراء المباركة قد عاشت فيها مرة مع ابنها الوحيد، ويقال بأنها عصرت مراراً هناك فوق الصخرة صدرها الذي تدفق بالحليب، ولهذا السبب أصبحت الصخرة بيضاء مثل الحليب، وهو ما هو مرئي حتى هذا اليوم، ولقد قيل بأن أية امرأة فقدت لسبب ما حليبها، وأخذت قطعة صغيرة من تلك الصخرة، ومزجتها بالماء، وشربتها على شرف العذراء المباركة، سوف يعود حليبها مباشرة، ويوجد هناك غفران لمدة سبع سنوات،الخ.

١٣٠ — ثم إنك تأتي إلى بيعة قرب بيت لحم، حيث ظهر ملاك الرب للرعيان، في صباح ميلاد الرب قائلاً:«لقد أحضرت لكم بشائر ذات بهجة عظيمة، وهي سوف تكون لجميع الناس، ذلك أنه ولد في بيت لحم في هذا اليوم، في مدينة داوود، مخلص العالم».

١٣١ — وعلى بعد اثني عشر ميلاً عن بيت لحم، توجد مدينة حبرون، التي هي مدينة قديمة جداً، وهي حاضرة الفلسطينيين، ومكان سكنى العمالقة، وفي ديار سبط يهوذا،وحبرون قائمة في سهل دمشق، وفي الحقل الذي صاغ فيه الخلاق العظيم للمرة الأولى أبانا آدم«على شكله»، ويوجد في هذه المدينة هيكل له جمال فائق، ويوجد فيه الكهف المزدوج، الذي دفن فيه الرجال الأربعة المحترمين، وهم:آدم، وإبراهيم، واسحق، ويعقوب، مع زوجاتهم، حواء، وسارة ، ورفقة، وليا.

١٣٢ — ولايدخل المسيحيون إلى هذا الهيكل خوفاً من المسلمين، ويوجد هناك إعفاء من الألم والذنب.

١٣٣ — ثم إنه على مقربة من المدينة، وعلى بعد حوالي رميتي سهم، سوف تصل إلى كهف أو قبو، فيه اعتكف آدم وزوجته لمدة مائة سنة، بعد وفاة ابنهما هابيل، ثم إنه أنذر من قبل ملاك من الملائكة، فعرف

زوجته، فحملت بشيث، الذي من سبطه ولد يسوع المسيح، ابن الرب.

١٣٤ — وأيضاً على مقربة من حبرون يقع جبل ممرا، الذي عند سفحه توجد البطمة، التي تعرف باسم البلوطة، أو السنديانة، فتحتها عندما كان إبراهيم جالساً رأى ثلاثة ملائكة قادمين نحوه، وقد تعبد واحداً منهم.

١٣٥ — وهذه البلوطة جافة الآن، ومع ذلك تبرهن أنها ذات خواص دوائية مؤثرة، لأنه قد قيل إذا ما أخذ أي إنسان قطعة منها وهو راكب، فإن مطيته لن تكبو قط.

١٣٦ — ثم إنك تأتي إلى المكان الذي اعتكف فيه يوحنا المعمدان.

١٣٧ — وإلى حبرون قدم أيضاً الاثنا عشر جاسوساً، كالب، ويوشع ورفاقهما، حيث دخلوا للمرة الأولى إلى أرض الميعاد.

١٣٨ — وفي حبرون أيضاً حكم داوود لمدة سبع سنوات ونصف السنة، وكان ذلك قبل أن يحكم في القدس.

١٣٩ — وعلى بعد ميلين من حبرون، باتجاه بيت لحم، يوجد كوخ صغير فيه سكن النبي يونه بعد قدومه من مدينة نينوى، وهناك مات، ومدد في قبره.

١٤٠ — ويوجد أيضاً في مقابل جبل صهيون، جبل عليه الآن كنيسة القديس سيبريان Cyprian.

مايتعلق بحج بيت عنيا ونهر الأردن

١٤١ — بيت عنيا هي بلدة مريم ومرثا وأخيهما العازر، وهي تبعد حوالي الميلين عن القدس، وواقعة وراء جبل الزيتون، وكان هناك من قبل بيت سمعان المجذوم، وفي هذا البيت جلس الرب يسوع لتناول الطعام مع حوارييه، وإلى هناك جاءت المجدلية، لدى سماعها بأن يسوعاً

قد جاء إلى هناك، ووقفت خلفه:«وابتدأت تبل قدميه بالدموع وكانت تمسحهما بشعر رأسها»[لوقا:٧/ ٣٨]، وهناك أيضاً سمعت ما كانت تستحقه عن جدارة الكلمات الحلوة والمجيدة في قوله:«مغفورة لك خطاياك...اذهبي بسلام».[لوقا:٧/ ٤٨ — ٥٠].

١٤٢ — وكانت بالعادة هناك كنيسة كبيرة، لكنها دمرت من قبل المسلمين.

١٤٣ — وهناك أيضاً، الكهف الذي دفن فيه العازر، عندما أقامه الرب من الموت، حيث توجد هناك بيعة الآن، ويوجد هناك إعفاء من الألم والذنب.

١٤٤ — ثم إنك تأتي على بعد رميتي سهم إلى المكان الذي كان فيه بيت مرثا، والذي بني في موضعه فيما بعد كنيسة، ففي هذا البيت جلس ربنا لتناول الطعام مع حوارييه، عندما قالت مرثا له:«يارب أما تبالي بأن أختي قد تركتني أخدم وحدي، فقل لها أن تعينني»الخ[لوقا:١/ ٤].

١٤٥ — ثم إنك تأتي على بعد رميتي سهم من هناك إلى الصخرة التي ارتاح عليها يسوع، عندما التقت به مريم ومرثا وهما تبكيان وتقولان:«يا سيد لو كنت ههنا لم يمت أخانا»الخ[يوحنا:١١/ ٢١].

١٤٦ — ومن هناك سوف تسير مسافة ثمانية عشر ميلاً عبر طريق مستقيم إلى نهر الأردن.

١٤٧ — وتشكل نهر الأردن تحت جبال جلبوع من جدولين هما:«الأر»و«دان»، اللذان ينبعان عند سفح جبل لبنان، على مقربة من قيسارية فيليب، ويشتق اسمه وأصله من هذين النبعين، وينحدر إلى بحيرة جنسارث، ومن هناك يخرج نهراً واحداً، يروي المنطقة المجاورة له لمسافة تقارب المائة ميل، ويأخذ طريقه من خلال الوادي الشهير، الذي اسمه وادي الملح، إلى البحر الميت، ولايعاود الظهور ثانية، بل يبتلع هنا

في الأعماق.

١٤٨ — واعتاد الحجاج والسكان المحليون على غسل أنفسهم وغسل ملابسهم في مياه نهر الأردن مع شيء كبير من التقوى،لأنه في نهر الأردن جرى تعميد مخلصنا من قبل يوحنا المبارك.

١٤٩ — وهناك انفتحت السموات، وهناك ظهرت الروح القدس على شكل حمامة، وهناك سمع الآب وهو يقول:«هذا هو ابني المحبوب، الذي أنا عنه راض تماماً».

١٥٠ — وفي هذا النهر برأ نعمان السوري من جذامه، و«عادت بشرته من جديد مثل بشرة طفل صغير».

١٥١ — وشطر إيليا وتلميذه اليشع مياه نهر الأردن إلى شطرين بضربها بردائه، ومن ثم عبرا فوق أرض يابسة، ويوجد هناك إعفاء من الألم والذنب.

١٥٢ — ثم إنك تأتي على بعد ميل واحد، إلى دير[قصر اليهود] بني على شرف المبارك يوحنا المعمدان وهناك معروض اليد اليسرى للقديس يوحنا نفسه.

١٥٣ — وكان هناك راعي الدير المبارك زوسيماس Zosimas ، فهناك عاش حياته كلها في تبتل واستغفار عظيم، وقد وجد مريم المصرية المباركة عبر نهر الأردن، التي سكنت هناك لمدة ثمانية وثلاثين عاماً غير معروفة من قبل أحد من الناس.

١٥٤ — ثم إنك تصل إلى أريحا، التي تبعد أربعة أميال عن نهر الأردن، وهي التي كانت من قبل مدينة عظيمة، وقد استولى عليها يوشع، قائد شعب إسرائيل، وكان ذلك عندما دخل أرض الميعاد، وبناء على دعواته انهارت أسوار المدينة، وكانت هناك امرأة من أهل المدينة

اسمهـا راحـاب، وكـانت عـاهرة، استقبلت جـواسيس بني إسـائيل في بيتهـا، ولهذ السبب جرى إنقـاذها مع جميع بيتها، وكـان من بين سكانها رجل آخر اسمه زكّـا«كان رئيساً للعشارين»، وقـد رغب في رؤية يسوع عندمـــا قـــدم إلى أريحا،«ولم يقـــدر مـن الجميع لأنه كـــان قصير القامة»[لوقا:١٩/ ٢ — ٣].

١٥٥ — وعلى بعـد ميلين من أريحا يوجـد القـرنطـل، وهو جبل مرتفع جداً، ورائع، يوجد في منتصـف الطريق إلى أعلاه بيعة جميلة جداً قائمـة فوق صخرة، ويمتلكهـا بعض الاغريق، ويوجـد هناك إعفاء من الألم والذنب.

١٥٦ — وفـوق ذلك الجبل صـام المسيح لمدة أربعين يومـاً وأربعين ليلة، وجـاع بعـد ذلك، وأغـواه هنـاك الشيطان وامتحنه، أولاً بالنسبـة لشهيتـه للطعـام حيث قـال:«لئن كنت ابن الرب، فأمـر هذه الحجـارة لتكون خبزاً»، وأغواه في المرة الثانية فوق جبل آخر، ليس بعيداً عن هذا الجبل، بشهـوة شريرة حين أراه جميع ممالـك الدنيـا قـائـلاً:«جميع هؤلاء سوف أعطيك، إذا قبلت بالسجود إليّ وعبـادتي»، وأغواه في المرة الثالثة بمجـد عـابث، وكـان ذلك عندمـا«جلس له على رأس الهيكل»، وقـال له:«إذا كنت ابن الرب، فارم بنفسك نحو الأسفل».

١٥٧ — وتحت القـرنطل يوجد النبع الـذي حول النبي اليشع مـاءه من مالح إلى عذب صالح للشراب.

١٥٨ — وعلى بعـد ميلين من أريحا، وفي جهـة الشمال الشرقي، تقع بحيرة اسفلت، التي اسمهـا أيضـاً البحـر الميت، وفي الحقيقـة مناسب تسميتها بالبحـر الميت، لأنها لاتستقبل شيئاً حياً، كما لايمكن لشيء حي العيش فيهـا، وهنا سقطت المدن الأربعـة السيئة السمعة وهي: سـدوم، وعـاموره، ودومـة، وزيبويم، فـلإصرارها على اللواطة أحـرقت بالنار،

وبالكبريت، وغرقت في البحيرة.

١٥٩ — وتوجد ساعور على شاطىء البحر الميت، وهي تعرف أيضاً باسم بلكوروستا Belcorosta ، وهي المدينة الخامسة بين المدن، وهي التي أنقذت من قلب عاليها سافلها بصلوات لوط وهي تعرف الآن بين شعب المنطقة باسم بلدة النخيل.

١٦٠ — وأيضاً يوجد بعد هذه البحيرة أو البحر الميت، وأنت نازل نحو العربية، كرنئيم(الكرك) وهو كهف في جبال المآبيين، إليه اقتيد بلعام ليلعن شعب اسرائيل، وذلك عندما ركب على الأتان التي كلمته.

١٦١ — ويفصل البحر الميت هذا بين اليهودية والعربية.

١٦٢ — والعربية في أيام بني إسرائيل، كانت هي الصحراء التي أبقاهم الرب فيها لمدة أربعين سنة، حيث كان يمطر المن عليهم لكي يأكلوا.

١٦٣ — وفي العربية أيضاً يوجد وادي موسى، الذي فيه ضرب موسى الصخرة مرتين، وبناء عليه تدفق جدولان من الماء لسقاية شعب الرب، وبهذين الجدولين تسقى الآن جميع المنطقة.

١٦٤ — ويوجد في العربية أيضاً جبل سيناء، حيث جرى نقل جسد كاترين العذراء المباركة، على أيدي الملائكة، وجاء النقل من الاسكندرية حيث تلقت ضربة الشهادة.

١٦٥ — وعلى ميلين من أريحا تقع الجلجال، وذلك حيث ولد النبي اليشع، حواري النبي إيليا.

١٦٦ — ويوجد أيضاً بين أريحا والقدس المكان الذي فيه«كان أعمى جالساً على الطريق يستعطي» وهو الذي عندما سمع بأن «يسوع الناصري مجتاز، فصرخ قائلاً: يا يسوع ابن داوود ارحمني... وقال له

يسوع أبصر إيمانك قد شفاك»[لوقا:١٨/ ٣٥ — ٤٢].

١٦٧— وأيضاً المسافة من القدس إلى عمواس أقل من ثمانية أميال، وهناك ظهر يسوع إلى الحواريين اللذان كانا ذاهبين إلى عمواس، وعندما فتح الكتاب المقدس قال:«أيها الأحمقين والبطيئين بالايمان بقلبيكما» وقد «عرفاه من كسر الخبز».. وهذه البلدة قريبة من مودين، مدينة المكابيين، ومدينة الجبعونيين.

١٦٨ — وسوف تذهب من هناك مسافة أربعين ميلاً إلى غزة، على مقربة من البحر، وغزة إحدى مدن الفلسطينيين الخمسة، وهي التي حمل أبوابها شمشوم إلى قمة الجبل[القضاة:١٥/ ٣]، ويمضي الطريق باتجاه الغرب.

١٦٩ — ثم إنك تأتي بعد خمسة أميال إلى قرية كرموث Car-mus (الدارون)، وهناك يصنعون خمرة جيدة جداً، وهناك يعيش المسيحيون المطوقون، وكان هناك فيما مضى مشفى لفرسان القديس يوحنا في القدس، لكن جرى تدميره تماماً من قبل المسلمين.

١٧٠ — ثم إنك تأتي بعد سفر ستة أيام إلى مكان فيه نبع ماء، يدعى نبع مريم المباركة، ذلك أن يوسف تلقى إنذاراً في المنام من قبل الملاك بأن عليه أن يأخذ الطفل وأمه، ويفر إلى مصر، وقد جاءوا إلى هذا المكان، ولم يكن بإمكان العذراء المباركة متابعة السفر لمعاناتها من عطش لايحتمل، ولم يكن لديها ما تشربه، وبالنظر لآلامها المبرحة وضعت الطفل الرضيع على الأرض، وضرب الطفل الأرض بضربات لطيفة صدرت عن قدميه، فتفجر نبع ماء طيب على الفور، وقد شربت واستردت قواها، ويسقي هذا النبع حدائق البلسم حتى هذا اليوم، ويعرف المكان باسم«المطرية» ويستحم هناك كل من المسلمين والمسيحيين سواء.

١٧١ — ثم تأتي بعد خمسة أميـال إلى المدينة الجليلة والغنية والشهيرة التي اسمهـا القاهرة، التي بها أنها البلـدة الرئيسية، يسكن فيهـا السلطان الكبير، الذي هو سيد سـورية ومصر، والعربية، وعلى مقـربة منها يجري النهر، الذي يأتي من الجنة، ويسقي بلاد مصر كلها.

١٧٢ — ثم بعد ميـل تأتي إلى المدينة التي اسمها بابليـون، التي منها جاء دانيـال(كذا) الذي ألقي به في عرين الأسـود، وهناك سكنت مريم المبـاركة في أحـد الأماكن، وفي هذا المكـان توجد الآن كنيسـة القديسـة مريم دي لا سكالا Scala ، ويوجد هناك مكان سري آخر سكنت فيه مريم المبـاركة، ويعرف باسم القديسة مـريم دي لا كافا Cava ، وهناك كنيسـة جميلـة جـداً، وهناك أيضـاً يـرقـد جسـد بربـارا العـذراء المباركة.

١٧٣ — وفي مقـابل القـاهرة، على الطـرف الآخـر من النهـر، باتجاه الغرب، توجد أهراءات فرعون، الذي كان فيما مضى ملك مصر، وهي التي بنيت بناء على نصيحة يوسف بن يعقوب، الذي بيع في مصر.

١٧٤ — ثم إنك بعد سفـرك مائتي ميل تأتي إلى الاسكندرية، وذلك حيث استشهـدت كاتـرين المباركـة، وهي التي نقل جسـدها على أيدي الملائكة إلى جبـل سيناء من أجل دفنـه، وقصرها مـايـزال مـرئيـاً في الاسكندريـة، الذي لايمكـن لمسلم أن يسكـن فيـه بـأية وسيلـة من الوسائل.

١٧٥ — ويوجـد أيضـاً على بعـد ميلين إلى الشرق من الاسكندرية، كنيسة هي حيث استشهـد القديس مرقص الانجيلي، وكـان ذلك عندما كـان يقيم قـداساً في أحـد الأيام، فجـاء واحـد من غير المؤمنين ووضع حبلاً حول عنقه وقال:«خذ الوعل إلى مكان الوعول»، وقد نقل جسده فيما بعـد بشكل سري إلى البندقية، حيث هو مـوجود هناك الآن، فبعـد

نقله إلى هنا، يرقد بشكل مجيد.

١٧٦ — ثم تأتي بعد سفر يومين آخرين إلى دمياط، المدينة التي توفي فيها إرميا النبي المبارك، برجمه بالحجارة.

١٧٧ — ثم تأتي بعد هذا إلى يافا، التي هي الميناء العام للمسيحيين.

١٧٨ — ثم توجد على بعد عشرة أميال الرملة، التي عنها قيل: «صوت سُمع في الرامة، نوح وبكاء وعويل كثير، راحيل تبكي على أولادها ولاتريد أن تتعزى لأنهم ليسوا بموجودين» [متى: ٢/ ١٧ — ١٨].

١٧٩ — ثم هناك على بعد ميل واحد اللد، حيث استشهد جرجس المبارك، وفي اللد هذه شفى بطرس المبارك رجلاً أعرجاً كان اسمه انيس Eneas.

١٨٠ — ثم إنك تقدم إلى قيسارية الفلسطينيين، التي جاء منها كورنيليوس قائد المائة، الذي عمده بطرس المبارك، ومن قيسارية هذه جاء المبارك فيليب، الذي كان واحداً من الشمامسة العشرة الذين اختيروا من قبل الرسل.

١٨١ — ثم إنك تأتي إلى أرسوف. التي كانت تعرف من قبل باسم أنتيباتر، وهي التي قامت فيما مضى على البحر بين قيسارية ويافا.

١٨٢ — ثم هناك أيضاً على بعد سبعة أميال من قيسارية، ميناء الحجاج (عثليت) الذي كان يعرف من قبل باسم بترا إنشيسا، التي كانت فيما مضى ميناء مشهوراً على ساحل البحر، وقد جرى نقل جسد يوفيميا المباركة، والعذراء الشهيدة من خلقدونيا، التي هي مدينة في بلاد الاغريق، إلى هنا بشكل إعجازي، حيث هي محاطة باحترام عظيم حتى هذا اليوم.

١٨٣ — ثم إنك تقدم إلى عكا، التي كانت فيها مضى مدينة مشهورة، حيث كان اسمها من قبل بطوليس، وهي تبعد ثمانية أميال عن كيفاس(حيفا)، وفي حيفا الموجودة تحت جبل الكرمل، يوجد البيت الرئيسي للرهبان الكرمليين، وعندما تنزل من الجبل سوف تصل إلى المكان الذي كان فيها مضى بيت النبي إيليا.

١٨٤ — وعلى بعد ثلاثة أميال عن جبل الكرمل يوجد جبل قيمون، الذي عند سفحه قتل لامخ قابيل بسهم، وكان ذلك خطأ منه حيث ظن أنه وعل.

ما يتعلق بالحج في طبرية والمناطق المجاورة لها

١٨٥ — نالت مدينة طبرية اسمها من تايبيريوس قيصر، وهي قائمة على شاطيء بحر الجليل، وقد اعتاد يسوع أثناء شبابه على زيارتها.

١٨٦ — وحدث هناك أن الصبي يسوع كان متأخراً، لكونه مع يهودي كان قريباً له، وغضب اليهودي، فما كان منه إلاّ أن التقط مشعلاً مشتعلاً، ورمى به نحو الطفل يسوع، راغباً بإصابته به، لكن المشعل ضرب الأرض، ونما على الفور شجرة ضخمة، ماتزال حتى هذا اليوم تزهر وتثمر.

١٨٧ — وأيضاً يوجد على مقربة من هذه المدينة ينابيع تتدفق بشكل دائم بالمياه الحارة.

١٨٨ — وأيضاً على بعد ميل عن طبرية توجد بلدة المجدل، التي منها تلقت مريم المجدلية اسمها.

١٨٩ — وعلى بعد أربعة أميال عن طبرية توجد بيت أوليا، وهي مدينة يودث، التي قتلت هولوفيرنس.

١٩٠ — وبحر الجليل هو بحيرة قائمة على حدود الجليل،

مياهها عذبة جداً وطيبة ولذيذة، وهي ذات حجم كبير بالطول وبالعرض، وعلى مقربة منها مدينة بطرس وأندرو،وهي التي اسمها بيت صيدا، وعليها ألقى الرب النوريحضوره.

١٩١ — ويطلق على هذه البحيرة أحياناً اسم جنسارث، لأن منها يتولد الهواء ويتجمع ليكون ريحاً قوية، بها تضطرب المياه، وتهب العاصفة، مما يسبب في الغالب غرق المراكب.

١٩٢ — وعلى هذه البحيرة مشى الرب جاف القدمين، عندما قال لبطرس — حين رغب في أن يقدم إليه، لكنه بدأ يغرق ويصرخ«يارب أنقذني» — :«آه منك يا قليل الايمان، لماذا شككت»؟، وفي مرة أخرى كان الحواريون في حالة رعب، فجعل مياه هذا البحر تهدأ، ويوجد على الرأس الأيسر من هذا البحر، في فجوة في الجبل، جنسارث، وهي المكان الذي يتولد فيه الهواء، وهو مايزال يشعر به الناس الذين يكونون في تلك البقعة.

١٩٣ — ويبدأ بحر الجليل فيما بين بيت صيدا، وكفر ناحوم.

١٩٤ — وتوجد كورزيم على بعد أربعة أميال عن بيت صيدا، وفي كورزيم سوف ينشأ المسيح الدجال، الذي هو مضل العالم، وعن هاتين المدينتين قال يسوع:«الويل لك بيت صيدا، والويل لك كورزيم».

١٩٥ — وعلى بعد خمسة أميال عن كورزيم تقع قيدار، وهي مدينة رائعة جداً، وعنها كتب في المزامير قوله:«أنا سكنت في خيام قيدار»[المزمور:١٢٠/ ٥].

١٩٦ — وكفرناحوم هي مدينة قائد المائة، وهي قائمة على الشاطىء الأيمن من رأس البحيرة، وفي هذه المدينة عمل يسوع كثيراً من المعجزات.

١٩٧ — وعلى ميلين من كفرناحوم تنزل من الجبل إلى المكان الذي وعظ فيه الرب الجمهور من الناس، وأعطى تعليمات إلى حوارييه، وعلمهم، وهناك شفى المجذوم.

١٩٨ — وعلى بعد ميلين من ذلك المنحدر يوجد المكان الذي أطعم فيه يسوع خمسة آلاف رجل بخمسة أرغفة وسمكتين، وجرى تخليف اثنتي عشرة سلة من الفتات، ويوجد هناك مكان اسمه المنعشة، أي مكان الانعاش، كما أنه فعل كثيراً من المعجزات بين الناس خاصة بين المصابين بمختلف الأمراض.

١٩٩ — وأظهر يسوع نفسه على مقربة من هذا المكان لحوارييه بعد قيامته حيث أكل:«جزءاً من سمك مشوي وشيئاً من شهد العسل»[لوقا:٢٤/ ٤٢]، وذلك حسب رواية يوحنا.

٢٠٠ — وكان في الأجزاء العلوية من الجليل هذه العشرين مدينة، اللائي أعطاهن الملك سليمان إلى صديقه حيرام ملك صور.

٢٠١ — ومنطقة جليل الأمم هذه كلها واقعة في ديار سبطي زوبلون ونفتالي.

مايتعلق بحج دمشق وحدودها

٢٠٢ — وتلتقي حدود العربية وأدوم عند بصرى، وأدوم هي أرض دمشق، فالعزير خادم إبراهيم هو الذي بنى دمشق، وذلك كما يقول بعضهم، ولكن آخرون يقولون بأنها بنيت من قبل انسان اسمه«دمشق» في الحقل الذي قتل فيه قابيل هابيل، وقد سكن عيسو في دمشق، وهو أيضاً يعرف باسم سعير أو أدوم، ذلك أن كلمة سعير تعني الكثيف الشعر، وكلمة أدوم الأحمر، ولهذا السبب نالت البلاد اسم أدوم، هذا وجزء من تلك البلاد اسمه «عوز»، حيث منها أيوب المبارك، الذي وُجد صابراً وكاملاً وسط محنه، ويوجد في أدوم جبل سعير الذي تقوم

دمشق تحته.

٢٠٣ — وعلى بعد ثمانية أميـال عن دمشق، وعلى الطريق الذي يقود إلى صيدنايا[داريا]، هناك المكـان الذي ظهر فيه الرب يسـوع إلى شاول، وهو يقول:«شاول، شاول، لماذا تضطهدني»[أعمال الرسل:٩/ ٤]«صعب عليك أن ترفس مناخس»[٩/ ٦].

٢٠٤ — ويوجـد في دمشق كنيسـة، فيها تولى حنانيـا في أحـد الأيام تعميد شاول في جرن المعمودية وسماه بولص، وبذلك حول الذئب إلى حمل، وهناك يتولى المسيحيون المطوقون أعمال القداسات.

٢٠٥ — ويقال أيضـاً إنه يوجد في المدينة كهف كبير، يوجـد به كنز لاحدود له، وإذا ما مدّ إنسـان يده ليأخذ أي جزء من هذا الكنز، تندفع على الفور نار وتتـولى تدمير كل ما لمسـه، ولقد قيل بأن الاغـريق عندما كـانوا يتملكون هذه المدينة، بعـد الاستيـلاء عليهـا من قبل الامبراطور قسطنطين، بسبب حشـود المسلمين التي هاجمتهـم، وضعـوا كنوزهـم في هذا الكهف، وجعلوا كنوزهم بوساطة فن السحر من غير الممكن نقلها حتى نهاية الزمان.

٢٠٦ — وعلى بعـد عشرة أميال عن دمشـق توجدمـدينة صيـدنايا، التي يوجد فيها الصـورة المبجلة لمريم العذراء المجيدة، والتي جلبت من القدس، وقـد تحولت هذه الصورة كلياً إلى تكـوين جسدي، لذلك هي لاتتـوقف لاليـلاً ولانهاراً عن إعطاء زيت مقـدس، وهـو الزيت الذي يحمل منه الحجـاج، الذين يـأتون إلى هناك من كل جـزء من العـالم، قـوارير صغيرة مـن زجـاج، وليس بإمكان أي مسلـم العيش في هذه المدينة، فهم دوماً يموتون في غضون سنة.

٢٠٧ — وعنـد سفـح لبنـان، بـاتجاه الشرق، ينبـع النهـــــــران المشهوران:أبانا، الذي يصل نفسـه بالبحر،في الشواطىء، إلتي فقـد فيها

يوستاس Eustace زوجته، ومن ثم لدى تخلي أولاده عنه رجع وحيداً، ويجري نهر فرفر(العاصي) خلال سورية إلى أنطاكية، ويتابع جريانه متجاوزاً أسوارها، وعلى بعد عشرة أميال عن أنطاكية يدخل إلى البحر، عند ميناء القديس سمعان(السويدية).

٢٠٨ — وفي أنطاكية تتوجت مرغريت العذراء الثمينة، بتاج الشهادة المجيد، وكان ذلك تحت إدارة المشرف على المدينة أولبريوس Olibrius (٢٥٨م)، وفي أنطاكية شغل بطرس المبارك كرسيه لمدة سبع سنوات، وهو متزين بأثواب الحبرية.

٢٠٩ — وأصل صور مدفون وسط الغموض، ويوجد أمام صور صخرة ليس حجمها صغيراً، عليها وقف يسوع عندما قال:«بل طوبى للذين يسمعون كلام الرب»الخ[لوقا: ٢٨/١١].

٢١٠ — وعلى بعد ثمانية أميال إلى الشمال من صور، يوجد على شاطىء البحر الصرفند، التي اسمها صرفند الصيداويين، التي سكن فيها فيما مضى النبي إيليا، عندما أقام من الموت ابن المرأة الأرملة.

٢١١ — وعلى بعد ستة أميال من الصرفند تقوم مدينة صيدا المشهورة، التي في خارج أسوارها شفى الرب الفتاة التي تلبسها الشيطان، وهي التي قالت أمها ليسوع:«والكلاب أيضاً تأكل من الفتات الذي يسقط من مائدة أربابها»[متى:٢٧/١٥]، ومن هذه المدينة كانت الملكة ديدو التي أسست قرطاج في أفريقيا.

٢١٢ — وعند سفح لبنان، وعلى بعد ميلين من صور، يوجد بئر نبع ماء، لكن نبع الحدائق يبعد ستة أميال عن مدينة طرابلس، عند سفح لبنان، باتجاه الغرب، وطرابلس مدينة مشهورة جداً في سورية، مليئة بكثير من المبهجات، وهي قائمة على البحر.

٢١٣ — وعلى بعد أربعة وعشرين ميلاً عن طرابلس توجد مدينة

أنطرسوس، وهي التي تعرف بشكل عام باسم طرطوس، ويوجد في هذه المدينة بيعة لها حجم كنيسة كبيرة، وقد قيل بأنها بنيت من قبل بطرس ويوحنا، حواريي الرب، وذلك تشريفاً لمريم العذراء المباركة، ولها احترام عظيم حتى هذا اليوم، لأنه يوجد فيها منافع كثيرة، تقدم بفضل تدخل العذراء المجيدة.

٢١٤ — وعلى بعد ستة أميال عن صيدا توجد بيروت، وهي مدينة ثرية جداً، كان فيها تمثال لمخلصنا، وقد صلب هذا التمثال بعد وقت قصير من آلامه، وجاء صلبه على يد اليهود سخرية منهم به، فتدفق دماً وماء، وبناء عليه فإن هؤلاء الذين صلبوه، آمنوا عندما رأوا المعجزة، وكل الذين حملوا مشاعر تقوى صحيحة وكاملة تجاه هذا التمثال، برئوا من كل مرض كانوا مصابين به، وجرى فيما بعد حمل هذا التمثال إلى روما.

٢١٥ — ووضع في كنيسة القديس يوحنا في اللاتيران، حيث هو محاط باحترام وتقوى من قبل الشعب المسيحي.

٢١٦ — وعلى بعد ميل واحد عن بيروت يوجد المكان الذي قتل فيه القديس جرجس — بفضل الصليب المقدس — التنين،وأنقذ عذراء من موت مشين، وأعادها سليمة وبحالة جيدة إلى أبيها، الذي كان ملك تلك البلاد.

— ٢ —
وصف جون بولونير للأرض المقدسة
(١٤٢١م)



تمهيد:

قال الدكتور توبلر Tobler لحسن الحظ أننا نعرف اسم صاحب هذا العمل، ثم تابع يحاجج بأن بولونير كان ألمانيا، وفي المقابل رأى الكونت ب. رينات Riantبأنه كان بولندياً، والبراهين التي أقام الدكتور توبلر نظريته عليها هي أن المؤلف استخدم كلمة كلافتيرن Klaftern ، لدى قياسه بالميل الألماني، مع إيضاحه لقرائه كم من الأميال الايطالية تساوي ميلاً ألمانياً واحداً، يضاف إلى هذا قوله بأن فلسطين كانت مقاطعة في الأرض المقدسة، مثلما سكسوني واللورين'مقاطعتان ألمانيتان، أو مثلهما توسكانيا ولومبارديا مقاطعتان من إيطاليا.

وأمكننا معرفة تاريخ رحلته، لأنه هو نفسه أخبرنا عن ليلة مرعبة أمضاها في ميناء بيروت وفي عشية عيد القديس توما سنة ١٤٢٢م، وحدثنا أيضاً كيف كان المسلمون يحصدون على جبل الزيتون،في يوم عيد القديس جرجس(٢٣ — نيسان) ١٤٢١م، وبناء عليه من المحتمل أنه ذهب في طريق عودته إلى بيروت، ويتوافق شرحه من حيث الجوهر — لاغالبا — بالكلمات نفسها مع كلمات بوركارد راهب جبل صهيون، مع أنها تختلف عنها بالترتيب، ولقد لاحظت وجود توافق مستمر بين الأماكن التي أريت لبولنير، وتلك التي أريت لفابري وغالباً ما جرى وصف هذه الأماكن بالكلمات نفسها، وهنا لانعرف فيما إذا كان فابري قد نقل عن متقدمه، أو فيما إذا كانا قد كتبا القصة نفسها التي أخبرهم بها الحرس، والقندلفتية.

وترسو أهمية بولونير ومكانته في أنه أول حاج — بقدر ما نعرف — رسم خريطة للأرض المقدسة، مع أن خريطته لسوء الحظ قد تلفت، ومع ذلك تمكن الدكتور توبلر من إعادة رسمها بشكل موفق، واعتماداً

على الاشـارات التي وردت في النص إليهـا، وعلى الخريطة التي نشرها مارينوسانوتو، وليس من السهل في البداية، أبداً، فهم ترتيبات الخريطة، فهي مقسمة بوساطة خطوط، تشبه خطوط العرض والطول، الموجودة على الخرائط الحديثـة، لكـن يلاحظ أن الخطوط التـي تشبـه خطوط العرض فوق مسـاحة الخريطة عددها ثلاثة وثمانين خطاً، عبرها بالطول ثمانيـة وعشرون خطاً،وأخبرنا الدكتور توبلر بأن ترتيب المربعـات هذه، قـد استخدم من قبل مـوريس البـاريسي، الذي فقدت خـريطته أيضـاً، وقاس بولونير بالمسافـات بين الخطوط، وليس بالخطوط نفسها ، وأطلق على هذه المسافـات اسم المربعات بالنسبـة للعرض، والفراغـات بالنسبة للطول، وهذا يعنـي أن القـارىء لدى عثـوره على مكـان«تحت»كـذا وكـذا«مـربع»، من المتوقع هنـا منه أن يتولى تعـداد المربعـات على طول الحافـة الأطول للخريطة حتى يصل إلى المربع المذكـور، ثم بنظرته تحت أسفل العمود من هناك، سوف يجد المكان، وإذا كـان المذكور موجود في كذا وكذا«مربع»، يتوجب عليه تعداد المربعات على طول نهاية الخريطة، وينظـر على طول الخط، وليـس من السهـل شرح هـذا النظام مـن دون رسم بيـاني، لكن ربما سيكون هذا تكلفاً مـرهقـاً، نرى فيه مـؤلفنا فهيماً تمامـاً وبارعـاً باستخـدام الخريطة الحديثـة، وأخبرنا الدكتـور توبلر بأن موريس الباريسي قد عمل خريطة وفق هذه الطريقة، لكنها فقدت.

ومن الصعب أن نعتقـد أننا نمتلك هنـا رحلة بولونير كلهـا، ومن الصعب جداً أن نقبل بإمكانيـة أن حاجاً حـريصاً مثله، وكاتبـاً تقياً على غـراره، وصف حجـه إلى الأرض المقـدسـة، ومع ذلك لم يقـدم وصفـاً لكنيسة الضريح المقدس، التي كـانت الهدف الرئيسي لرحلته، فضلاً عن ذلك لدى قراءتنا لمطلع كتابه نشعر أننا نتعامل مع قطعة، هذا وليس من الواضح من أي مكـان من نصـه الحالي جـرى فقـدان وصف الضريح المقـدس، مـا لم نفترض أنه كـان في النص فصل مستقل أوقف على هذا

الموضوع، ثم إنه لم يعطنا أية حقائق جديدة مرتبطة بالجغرافية القديمة، ولابد من أن نقنع أنفسنا باستخراج بعض الاشارات التي فيها بعض معلومات مفيدة حول أوضاع كنائس وبيع في الأرض المقدسة والقدس، وقبيل النهاية كرر نفسه، وأعطانا القائمة المعروفة بالأسماء التي نجدها لدى جميع كتاب رحلات الحج الذين استخدموا «الخلاصة الوافية»، وراجع في هذا المقام رحلتي ثيودورك وفيتلوس، اللتان تقدمتا من قبل، وهنا يتضح أنه على الرغم من أن بولونير قد زار الأرض المقدسة في وقت متأخر كثيراً بعد هذين الكاتبين، نجده يقلد عرضهما تقليداً قريباً، وقد نقل المزيج نفسه من سوء الفهم الجغرافي، من المصادر نفسها، أو مصادر مماثلة.

وصف جون بولونير للأرض المقدسة

أبواب مدينة القدس

فيما يلي وصف الأبواب التي كانت موجودة في سور مدينة القدس، والتي ورد ذكرها في نص الكتابات المقدسة، وكان اسم أول الأبواب«باب داوود»، وهو الباب الأعلى للمدينة في الزاوية الغربية، وقد عرف بهذا الاسم لأن برج داوود مطل عليه، وقد عرف أيضاً باسم«باب السمك»، لأن من خلاله يمر الطريق من يافا واللد وساحل البحر، ومن خلاله أيضاً يأتي التجار، جالبين مختلف السلع من أثيوبيا ومصر، وهذا الباب قائم في السور القديم، وهو ملتصق في هذه الأيام بسور الجزء الذي بني من أجل الاحاطة بضريح الرب، ويقود الطريق من هذا الباب إلى ثلاثة اتجاهات: الأول عبر حقل القصار، والثاني وهو الذي كان موجوداً على جهة اليسار، ويقود إلى بيت لحم وحبرون، والثالث هو الذي ينزل نحو جهة اليمين من خلال وادي رفئيم، وذلك تحت قلعة بيت سورا، التي تبعد خمس غلوات عن القدس.

أما الباب الثاني فهو الذي كان اسمه الباب القديم، وكان إلى الشمال من الباب الأول في السور القديم، وهو موجود منذ أيام اليبوسيين، وهو أيضاً يعرف بباب القضاء، لأن محاكم العدالة كانت تعقد هناك، وكل ما كان يقرر بحكم من القضاة، كان هناك يجري تنفيذه.

أما الباب الثالث فهو باب إفرايم، في الجزء العلوي(من المدينة) باتجاه الشمال، ويمر من خلال هذا الباب طريق يقود إلى جبل إفرايم والسامرة، ومن هنا يأتي السور الذي كان قد بني من برج داوود صعوداً إلى هذا الباب من أجل الاحاطة بضريح الرب، وللالتقاء بالسور القديم، ويعرف هذا الباب الآن باسم باب القديس اسطفان، لأن

القديس اسطفان قد رجم خارجه.

وكان الباب الرابع هو باب الزاوية، وكان موجوداً عند الرأس في الطرف الشرقي، وذلك عند زاوية السور فوق وادي قدرون، ولهذا نحن نقرأ في سفر الملوك[الثاني:١٤/ ١٢، أخبار الأيام الثاني:٢٥/ ٢٣]، بأن يوشع ملك إسرائيل قد خرق سور القدس من باب إفرايم حتى باب الزاوية، وذلك لمسافة أربعمائة ذراع، وكان أيضاً يعرف باسم باب بنيامين، لأن هذا الباب يقود إلى عناتا وإلى المدن الأخرى التابعة لهذا السبط.

وكان الباب الخامس هو باب القاذورات، فمن خلال هذا الباب، تنساق جميع قاذورات المدينة في أثناء الأمطار، لتصب في وادي قدرون، ويقود الطريق من خلال هذا الباب إلى القفار القائمة فيما بين القدس وأريحا، وهي الفيافي التي تعرف الآن باسم فيافي القرنطل.

وكان الباب السادس هوباب الوادي، وكان يعرف باسم باب القطيع، لأن من خلاله كانت قطعان الأغنام تساق للتضحية بها في الهيكل، وعلى مقربة منه — وعليها كان يعتمد — كانت بركة الضأن، حيث كان يجري غسل الضحايا، ومجاور إلى هذا الباب كان يقوم برج حننئيل، وهو الذي عرف أيضاً باسم برج السحاب، كما ورد في النص قوله:«ها أيام تأتي، يقول الرب، وتبنى المدينة للرب من برج حننئيل إلى باب الزاوية»[إرميا:٣١/ ٣٨]، وهو الذي كان يعرف باسم باب بنيامين، وكان هيرود الكبير هو الذي أقام هذا البرج وسماه برج أنطونيا، وكان ذلك تشريفاً لأنطونيوس، ويقود الباب إلى جبل الزيتون، وبيت عنيا، والأردن.

وكان الباب السابع هو الباب الذهبي، ولايقود هذا الباب مباشرة إلى المدينة، بل إلى الهيكل من خلال تقاطع قصير من جبل الزيتون، فوق

قوس قائم في وسط شعفاط.

وكـان الباب الثـامن هو باب الماء، وقـد عـرف بهذا الاسم، لأن من خلاله كـان الماء ينقل من بركة سلوان، وكان هذا البـاب قائماً في الزاوية التي يلتقي فيهـا جبل صهيـون بجبل مـوريـا. أو جبل الحشيش، عند زاوية السـوريـن: أي سـور جبل صهيـون، والسـور الذي يحيط ببيت الملك، ويقـود(هذا البـاب) إلى نبع سلوان، ووادي أبنـاء عنون، ونبع روجل، وحقل الدم.

ولاأعتقـد أن المدينة تمتلك أبواباً أخرى أكثـر من هذه الأبواب، لأنه بسبب وضعهـا، لم تتـوفـر حـاجـة إلى المزيـد من الأبواب، وبين هذه الأبواب ثلاثة هي الأكثر شهرة من البقيـة، وهي: الباب الأول، والباب الثالث، والباب الرابع بين الأبواب الثمانية التي تقدم ذكرها أعلاه، ومن جهـة الجنوب وجهـة الشمال تطل حـافـة جبل صهيـون فـوق المدينة، ومعروف أن ذلك الجزء من الأسوار، مع الأبراج ليس فيه أبواب.

ها هي مـدينة الملك العظيم، التـي لم تستطع جميع كنائس العـالم أن تقدم شبيهـاً لها، وهي التي كان فيما مضى قائماً من حـول أسوارها ثلاثة وثمانون برجـاً، وسبـع قـلاع حماية، التي خـرائبهـا من الممكن رؤيتهـا بوضوح كامل في هذه الأيام في الجانب الشمالي ، وفيمايلي:

ترتيب نظام الحج خلال مدينة القدس والأماكن الأخرى التي من حولها

يوجـد في الساحة، خـارج كنيسة الضريح المقـدس، أربع بيع، الأولى بينها مـوجودة على جهـة اليسار، للخارج، وهي بيعـة العذراء المبـاركة، ويوحنا الانجيلي، لأنه ها هنا وقفـا في أثناء الصلب، والبيعة الثـانية هي الأقـرب إلى هذه الأولى،وقـد بنيت في الزاويـة، وهي مكرسـة لجميع الملائكة، والبيعـة الثالثـة قائمـة على الطرف نفسـه، وهي بيعة القـديس

يوحنا المعمدان، والبيعة الرابعة قائمة على جهة طرف اليمين للخارج من الكنيسة، وذلك على مقربة من برج الناقوس، وهي بيعة القديسة مريم المجدلية، والبيعة الأولى هي بأيدي الهنود، أما الثانية فهي بأيدي اليعاقبة، والثالثة بأيدي الجورجيين، والرابعة بأيدي الاغريق.

وفي منتصف الطريق بين هذه البيع الأربع هناك إحدى عشرة خطوة تبعد عن الدرج إلى الجمجمة، وهناك يوجد مكان عليه علامة فوق البلاط، هو حيث استراح الرب يسوع، عندما جلب من بيت بيلايطس، وقد استراح فيه ومعه صليبه، بينما وقف الحرس من حوله.

وعلى مقربة من الساحة المفتوحة أمام الكنيسة يوجد السجن لمقترفي الشرور، وبابه متجه نحو باب الكنيسة، وذلك على بعد عشرين خطوة، ويذهب الانسان من هناك باتجاه الشرق من خلال شوارع المدينة إلى قاعة محكمة بيلايطس، وينبغي أن نعرف أن المسافة من موضع الجمجمة، إلى قاعة القضاء المتقدمة الذكر هي أربعمائة وخمسين خطوة، ذلك أنني قستها بنفسي بكل عناية ممكنه، لأن المسافة هي مائتين وخمس وسبعين خطوة إلى بيت الرجل الغني الذي رفض أن يعطي الفتات إلى العازر عندما كان مريضاً، ومن هناك إلى اليسار خمس وسبعين خطوة إضافية حيث المكان الذي تلتقي فيه الطرقات الثلاثة مع بعضها،ليس بعيداً عن الباب الذي يقود إلى السامرة، وكفرناحوم، وجمالا، وفي هذا المكان نفسه أرغم سمعان القيرواني على حمل صليب المسيح، وفي هذا المكان نفسه قال الرب للنساء النائحات:«لاتبكين يا بنات القدس عليّ»الخ، وبعد أربعين خطوة أخرى نحو اليمين، وعلى مقربة من الطريق، يوجد المكان الذي وقفت فيه العذراء مريم، وهي راغبة برؤية ولدها المحبوب، الذي جلب مع حشد عظيم من بيت بيلايطس، وهو مثقل كثيراً بحمل الصليب، وكان ذاهباً للصلب عندما رأته يبصق وهو مغطى بالدم، وقد نسيت جميع مواساتها المتقدمة، وفقدت وعيها وذهبت

في غيبوبة، وسقطت شبه ميتة، وظلت مرمية حتى تمّ رفعها وحملها بعيداً من قبل النساء الأخريات، ويوجد في هذا المكان نفسه كنيسة بنيت على شرفها، وقد جرى تدميرها من قبل الخونة المسلمين، ومن الممكن رؤية خرائبها في هذه الأيام، وكان اسمها القديسة مريم المغمى عليها.

وعلى بعد ست وخمسين خطوة أخرى، يرى الانسان القوس المقنطر الذي يعبر الطريق، فهنا يوجد مكان البلاط، الذي اسمه جباتا، وفوقه من الممكن رؤية صخرتين بيضاويتين، عليهما وقف الرب يسوع في محكمة بيلايطس، عندما أجاب على أسئلة ذلك القاضي، وهناك يوجد المكان الذي رفع عليه علم الجنود، وتحت القنطرة المتقدمة الذكر من الممكن رؤية مكان مدرسة العذراء المباركة، حيث تعلمت أثناء طفولتها الكتابة، وعلى بعد خمس وعشرين خطوة عن هذه القنطرة توجد قاعة المحاكمة، وهناك يوجد الباب الذي دخل منه، كما يوجد باب آخر خرج منه بعد صدور الحكم عليه، وهذان البابان كلاهما مغلقان، ومبنيان بالحجارة، وماتزال الأساسات القديمة موجودة، وهذا البيت مزين بالفسيفساء،ومنحوت على شكل حلقات الاسطرلاب، وهو نحت لايمكن رؤيته تماماً، وعلى بعد قليل خلف قاعة القضاء يوجد بيت بيلايطس، هذا ويقوم الآن أمام قاعة القضاء هناك بيت، هو في هذه الأيام بيت المحكمة لقاضي المدينة.

وعلى بعد ثلاث وثمانين خطوة إضافية على طول الشارع نفسه، وإلى الشرق من قاعة القضاء المتقدمة الذكر،وعلى جهة يدك اليمنى، يوجد الباب الأول الذي يقود إلى شارع هيكل سليمان، ويوجد ثلاثة من هذه الأبواب في هذا الشارع، موجودة على جهة الشمال، والباب الجميل هو الأقرب إلى الهيكل، وذلك نحو الغرب منه، وعلى مقربة من مشفى الدمشقيين، وليس بعيداً باتجاه جنوب هيكل سليمان[قبة الصخرة]، وفي

داخل الاطار نفسه من الأسوار، يوجد هيكل الرب(الأقصى) الذي كان فيه يجري تقديم أول الأولاد الذكور ولادة، وهناك جرى تقديم يسوع أيضاً، وقد حمله سمعان بين ذراعيه، وله سقف رصاصي، وسدة وفق طرائق المسلمين، متجهة نحو الجنوب، وعشرين نافذة على كل جانب، وهوقائم في الزاوية القصوى للمدينة باتجاه وادي سلوان، ثم ينزل الانسان من شارع قاعة القضاء، ويسير مسافة جيدة إلى اليسار، وهناك ربما يمكن رؤية بيت سمعان الفريسي، فهناك جرى إعفاء المجدلية من ذنوبها.

ثم إذا ما استدار الانسان نحو الخلف ثانية في شارع القضاء، يجد بيت يواكيم، وذلك حيث ولدت العذراء مريم، ويوجد في هذا المكان كنيسة، هي الآن في أيدي المسلمين، وهي تبعد مسافة ثمان وستين خطوة من أول باب من أبواب هيكل سليمان، زيادة على هذا إنه على بعد أربعين خطوة طويلة بشكل مستقيم من بيت يواكيم، يوجد باب القطعان أو الوادي، وفي هذا الطريق توجد بركة الضأن، وهي قائمة على جهة اليمين نحو هيكل سليمان.

والمسافة من هذا الباب نفسه إلى القوس المقنطر فوق قدرون مائة وثلاث وستين خطوة طويلة، وعبر قدرون، كان ممدد فيما مضى شجرة، وهي الشجرة التي تألم المسيح عليها، وقد عرضت هذه الشجرة على ملكة سبأ، التي كانت ملكة الجنوب، وهي التي جاءت من أقصى أجزاء الأرض لتسمع حكمة سليمان(متى:١٢/ ٤٢)، وحول هذا الموضوع يقرأ الانسان في سفر الملوك[الأول:١٠/ ١ — ٢]:«وسمعت ملكة سبأ بخبر سليمان لمجد الرب فأتت لتمتحنه بمسائل. فأتت إلى أورشليم بموكب عظيم جداً بجمال حاملة أطياباً وذهباً كثيراً جداً وحجارة كريمة»، وتحت صورة هذه الملكة يوجد نموذجاً رائداً للكنيسة، جاء من عند الأمم.

وأخيراً هناك، عبر البركـة، على جهـة اليسـار، ونزولاً ثمان وعشرين خطوة تحت وادي شعفـاط، ونزولاً أيضـاً ثمان وأربعين درجـة، توجـد كنيسة جميلة، فيها ضريح مـريم العذراء المجيدة، بطول ذراعين ممدودين وثلاثة من الأصـابع الوسطى متصلة، وفيهـا ثمانيـة مصـابيح مشتعلة باستمرار، والمذبح الأول، القائم إلى جانب الضريح، هو بأيدي الأرمن، والثاني، الموجود تحت القنطرة المظلمـة، هو بأيدي الجورجيين، والثالث، الموجـود تحت نافـذة في النهـاية الشرقيـة، هو بـأيدي الاغـريق، والرابع مـوجود في جهـة الشمال، وهو بأيدي الرهبان الفـرنسيسكان، والخامس مـوجود على جهـة اليسار للدرجـة الأولى للسلم، وهو بأيدي اليعاقبـة، وينبغي أن نعـرف أنه في الجهـة نفسهـا للسلم، هنـاك مـذبح هو بأيدي الهنود، وترقد في هذا المكان نفسه الملكة ميليساند، وهي التي أمرت ببناء هذه الكنيسة.

وعلى بعـد أربع عشرة خطوة باتجاه الشرق من الباب، يوجـد المدخل إلى الكهف الموجود تحت الصخور عند سفح جبل الزيتون، فهناك تعرق الرب يسـوع، وهو يتألم، نقـاطاً من دم، وكـان ذلك لدى صـلاته ثلاث مـرات،وعلى مقربة من الصخـرة الكبيرة، على طرف الجبل، وعلى رميـة حجر قوية نحو الجنوب من مكان الأسى هذا، جلس الحواريون الثلاثة الذين وجـدهم نائمين، وعلى مقـربة من هذا المكان، وعلى بعـد ثمان خطوات، توجـد الحديقـة التي اسمهـا حـديقـة الورود، وهي متجهـة نحوالبركـة، وقائمـة أمام البـاب الذهبي تماماً، ففي هذه الحديقـة جرى اعتقال المسيح، وهناك ضرب بطرس خـادم الأمير، لأنه غالبـاً ما التقى بحـوارييه هناك، فضـلاً عن هذا لقـد قيل بأن هذا هو البـاب الذي عنه قال حزقيال:«هذا هو باب المقدس الخارجي المتجه للشرق، وهو مغلق، فهـو قـد دخل مـن خـلاله، ولايدخل منه إنسـان لأن الرب دخل منه»[حزقيال:٤٤/ ١ — ٢].

وتوجـد جيسماني، حيث أقام الحواريـون الثمانيـة الآخـرون، وهي منخفضـة نزولاً نحو الجنوب وعلى بعـد رمية سهم عن الحديقـة، وعلى بعـد خمس وأربعين خطوة صعـوداً من الحديقــة هناك عـلامـة الموضع الذي صعـدت منه العذراء المبـاركة إلى السماء، تاركـة حزامها للقـديس توما الذي لم يكن مع رفـاقه الحواريين، عندما جرى حمل جسـد العذراء المجيدة إلى السماء.

ونصعـد الآن إلى جبل الزيتـون بوسـاطة طريق وعـر يقـود إلى باب القطيع، فـوق الوادي وعبره، فهناك المكان الذي بكى المسيح فيه عندمـا رأى مـدينة القدس، وذلك حسبما نقـرأ في حكاية الانجيل، ويبعـد هذا المكان نفسه مائتي خطوة وعشر خطوات عن المكان المتقدم الذكر، وهذا الطريق هو الذي سار الرب عليه راكباً في يوم أحد السعف، وهو الذي يفصل جبل الزيتون عن جبل الجليل، ويسير الانسان من مكان النحيب مــائـة خطوة وخمس وتسعين خطـوة زيادة إلى المكان الذي جلب إليـه الملاك جبرائيل سعفــة النخيل إلى العــذراء المجيــدة، وأخبرها سلفـاً بمغادرتها لهذا العالم.

ومن هناك يترك الانســان الطريق، ويمضي صعــوداً مــائــة خطوة وعشرين خطوة إلى اليســار صعــوداً لجبل الجليـل، حيث فــوق ذلك الموضع ظهـر المسيح للمـرة الخامسـة والأخيرة لحوارييـه، وذلك حسبما وعد، ويـوجد هناك موضـع بني فوقه بشكـل جيد، حيث توفـر غفران وتوبة، وقد أعطى هذا الآن إلى المدينـة المقدسة، حيث يوجـد هناك بيعة مسـتـديرة، مساحتهـا من المحيط الخارجي ست عشر خطوة، وفي داخل هذه البيعة يمكن للانسان رؤية عـلامة قدم المسيح اليسرى، التي طبعها على الصخرة عندما صعد إلى السماء، ومساحتها بالطول شبر، واصبعتين ملتصقتين من الاصبع الـوسطى، ويقــدم المسلمــون في هذه الكنيســة صلوات تقـوية، ولديهم صخرة مماثلة، فضـلاً عن هذا لقـد كتبوا فـوق

باب البيعة نفسها بخط أحمر وبأبجديتهم:«أنا باب الرحمة»، وعلى بعد خطوة واحدة من تلك البيعة، وعلى مقربة من باب مغلق في الجدار الشرقي هناك ترقد صخرة لايمكن تحريكها، عليها جلس المسيح في صعوده، ووعظ حوارييه، وعلمهم مايتعلق بالأشكال السبعة للروح القدس.

وكذلك من الجانب الجنوبي لهذه الكنيسة، وفي الخارج يوجد طريق نازل طوله ثماني عشرة خطوة إلى بيعة، فيها تابت القديسة بلجيا واعتكفت، وفيها ترقد مدفونة، مع صخرة عظيمة موضوعة فوق ضريحها المرتفع.

فضلاً عن هذا، على بعد خمسة أثمان الميل عن جبل الزيتون، باتجاه الأردن، أو باتجاه الشرق، من الممكن رؤية مكان منعزل، قرب الوادي الذي اسمه بيت فاجي(بيت الفك)، فمن هذا المكان بعث المسيح جيمس ويوحنا ليجلبا له أتانا وفلوها، وهذا المكان موجود على منتصف الطريق من جبل الزيتون إلى بيت عنيا، وإذا ما استدار الانسان نحو الخلف إلى جبل الزيتون، فإنه يسير على طول الطريق الذي يفصل ذلك الجبل عن جبل العدوان، القائم على جهة اليسار نحو وادي جيحون، ففوق هذا الجبل نصب سليمان صنم مولوك وتعبده.

وعلى بعد عشرين خطوة من بيعة القديسة بلجيا المتقدمة الذكر، يوجد المكان الذي وضع فيه الحواريون معاً واحداً تلو الآخر بنود العقيدة الاثني عشر، وفي هذا المكان من الممكن رؤية خرائب كنيسة القديس مرقص، وعلى بعد عشر خطوات أكثر نحو المدينة، هناك ممدد فوق الأرض صخرة كبيرة، عليها وعظ المسيح حوارييه وعلمهم حول السعادات القصوى الثمانية، وأيضاً على بعد اثنتين وعشرين خطوة نزولاً يوجد المكان المحدد، الذي علم عليه الرب يسوع حوارييه الصلاة، كما نقرأ في متى:٦، وانتبه إلى الحجر المحفور عليه بأحرف عبرية، الذي

وضعه المسلمون على عتبة الباب، وإذا ما نزل الانسان اثنتي عشرة خطوة أخرى، يأتي إلى المكان الذي غالباً ما أراحت مريم العذراء المباركة نفسها فوقه، عندما كانت تشعر بالتعب أثناء زياراتها التعبدية اليومية.

وينزل الانسان بعد هذا إلى اليسار، نحو وادي سلوان، فيرى الكنيسة الصغيرة العائدة للصليب المقدس، التي فيها ثلاثة مذابح، وعلى مقربة منها، وعلى بعد ست عشرة خطوة باتجاه الجنوب، يوجد مقر سكنى يهوذا الاسخريوطي، والمكان الذي شنق نفسه فيه، وتحت الصخور قرب المدينة، وعلى بعد رمية سهم عن الكنيسة الصغيرة المتقدمة الذكر، يوجد ضريح زكريا، الذي قتل فيما بين الهيكل والمذبح، وملاصق لذلك المكان توجد بيعة يوجد فيها كوة في الجدار لها شكل تنور، فيها أخفى جيمس الأصغر نفسه لخوفه أثناء آلام المسيح وموته، وقد ظل فيها حتى ظهر الرب له.

ومن هذه البيعة هناك طريق إلى نوع من المساكن منحوت في الصخرة التي فوقه، حيث قيل هنا كان بيت الحواريين المباركين:فيليب وجيمس، وعلى بعد خطوتين إضافيتين، فوق في مواجهة زاوية سور المدينة، من الممكن أن نرى بناء مدهشاً حقاً، بدون باب، على شكل بيعة مربعة، وقد قال بعضهم عن هذا البناء بأنه قبر الملك شعفاط، الذي منه نال الوادي اسمه، وأعلن بعضهم الآخر بأنه ضريح ابنة فرعون التي أحبها سليمان بوله، وذكر بعضهم أيضاً بأنه قبر أبسالوم بن داوود.

واعرف أنه من القنطرة الثانية للجسور القائمة فوق وادي قدرون عند هذا المكان، يوجد ستمائة خطوة طويلة وخمس عشر خطوة طويلة، إلى الدرجة الأولى للسلم الذي يقود صعوداً إلى الكنيسة على جبل الزيتون، وعدد درجات هذا السلم عشرين درجة، وقد أضفت هذا حتى يمكنني إظهار الجبل المتقدم الذكر، وفي هذا المكان نفسه تحت

الصخور عند سفح جبل الزيتون يسكن هناك فلاحون ورعاة.

ثم ينزل الانسـان بعـد هذا إلى قعـر مجرى الماء المتجـه جنوباً إلى البئر الذي يقال بأن مريم العذراء المباركة قد استحمت بمياهه وغسلت قطع قماش القماط العـائـدة للرب الرضيع، ويفصل هذا النبع وادي شعفـاط عن وادي سلوان، فعلى بعـد مـائتين وخمس وخمسين خطوة إلى الجنوب من هذا النبع، وعند سفح جبل صهيـون، يوجـد نبع سلوان، الذي منه تتجمع المياه في البركة السفلى، التي تعرف باسم بركة سلوان للاغتسال، التي عندها جـرى شفـاء الرجل الـذي ولد أعمى، وذلك حسب رواية يوحنا، وعلى بعد رميتـي حجر من هذا الجبل نفسه، يمكـن للانسان أن يرى كومة من الحجارة، ففي ذلك المكان جرى دفن إشعيا، وهناك أيضاً جرى قتله.

ثم يصعـد الانسان إلى جبل مـرتفع باتجاه الجنوب، حيث يوجـد على جانبه كثيراً من الكهوف والأقبية، فيها أخفى الحواريون أنفسهم في أيام آلام المسيح، وهي التي اعتاد فيها بعد أن يسكن فيها النساك المسيحيون، وعلى بعـد ثلاثين خطوة فـوق هذه الكهوف يوجـد الحقل الذي اسمـه أكلداماك(حقل الدم)، الذي شري مقابل الثلاثين قطعة فضية، وله تسع فتحات من خلالها يجري رمي جثث الموتى.

ويوجـد فيما بين بركـة سلوان وحقـل الدم، جـدول قـدرون الذي يستجر مياهه من الأجزاء العليـا للمدينة ومن الجبال، وفي الحقيقة هناك قـرب رامـا وعناتا طريق طويـل من ضريح العـذراء المبـاركـة، يمكن للانسـان أن يسمع نواحهـا تحت الأرض، ويمضي الانسـان نزولاً تحت جبل العـدوان إلى وادي جيحـون أو توفت، حيث يوجـد فيـه صخـرة زوحل، وبئر روجل، وذلك حيـث ضحى أدوناي بقـرابينه، ويوجـد في هذا المكان حقـول خصبـة، لأن هذه الميـاه تمر خـلالهم، وعندمـا يكون الانسـان قـد رأى هذه الأشياء كلهـا، لابد من عـودته نحـو المدينة عبر

الطريق نفسه الذي جئنا عليه، وذلك حتى بيعة القديس جيمس الأصغر، التي هي إلى جانب القوس المقنطر فوق قدرون، الذي أتينا على ذكره من قبل، عندما كنا قادمين نزولاً من جبل الزيتون.

والآن يوجد من هذا القوس إلى بيت كيفاس، الموجود على قمة جبل صهيون، سبعمائة وثلاثين خطوة، وفي الصعود إلى أعلى، يمكن للانسان أن يأتي أولاً إلى مكان من الممكن أن يشاهد فيه باب مغلق، منه مرت العذراء المباركة عندما قدمت يسوعاً في الهيكل، ولدى الذهاب صعوداً من هناك، باتجاه الغرب، يصل الانسان إلى المكان الذي اسمه«صياح الديك»، حيث بكى بطرس، وهو يبعد مائة وسبع وثمانين خطوة من بيت كيفاس، ويمضي الانسان صعوداً من المكان المتقدم الذكر، ويسير ثمانين خطوة باتجاه الغرب، وعلى مقربة من باب شارع اليهود، وهو الباب الذي يتطلع إلى خارج المدينة باتجاه الغرب، هناك مكان معلوم، عنده احتشد اليهود وتآمروا ليقوموا بخرق حرمة جسد العذراء المجيدة، عندما كانت محمولة من قبل الحواريين من أجل الدفن.

ويوجد على بعد ست وسبعين خطوة من الباب المتقدم الذكر شارع كنيس اليهود، وهو يمتد لمسافة مائتين وسبع وثلاثين خطوة، أي حتى المدخل إلى الشوارع المسقوفة، ومن هذا المدخل هناك ثلاث وتسعين خطوة حتى برج داوود، ومع أنه كان فيما مضى حي اليهود فإن أعداد كبيرة من المسلمين هي التي تسكن هناك، وفي الشارع التالي لهذا الشارع، يوجد البيت الذي ربط فيه القديس بطرس بالسلاسل، ومكان سجنه هو الآن فرن خباز، وفي هذا الشارع نفسه هناك باب صغير متجه نحو الجنوب، اسمه بلغتهم خرم الابرة، وبناء عليه قال الرب:«إنه أسهل للجمل أن يدخل من خرم الإبرة»الخ، ومن المكان المتقدم الذكر الذي جرت فيه محاولة السرقة العنيفة(لجسد العذراء) إلى المكان الذي توفيت فيه مائة وثلاثين خطوة، حيث توليت تعدادها بقدر ما استطعت

من دقـة، وعلى كل حـال، أول مـا يراه الانسـان هو بيت عناس، الذي كـان الكاهن الأعلى، حيـث توجـد كنيسـة جميلة بها فيـه الكفـاية هي للأرمن، وهي مـزينة بأضواء ومصابيح، وفيهـا أربعة أعمـدة مستديرة، وعلى بعد رميتي حجـر نحو الأعلى يوجد بيت كيفـاس، وهو قائم على قمـة الجبل، وكما تقـدم الذكـر، فيـه الآن كنيسـة صغيرة اسمهـا بيعـة القديس المخلص، وهي جديرة بهذه التسميـة، لأنه قد وضع فوق مذبح هذه البيعـة الصخـرة الكبيرة، التي كـان فـم ضريح المسيح مغطى بها، فضلاً عن هذا، يوجد خلف المذبح وفوقه، صورة تمثل تغيير الهيئة، وفي هذا المكان نفسه، على مقـربة من المذبح، وعلى جهة اليـد اليمنى، يوجد سجن المسيـح، الذي حبس فيـه حتى اجتمع اليهـود، وتشـاوروا، وأسمعـوه الادعـاء ضـده، وهـذه البيعـة هي أيضـاً بأيدي المسيحيين الأرمن.

ويوجـد أيضاً على الجبل نفسـه نحـو شارع(؟) المكان الذي دفن فيـه القديس اسطفان للمرة الثانية، وأيضاً على بعد اثنتين وعشرين خطوة إلى الجنوب خلف سـدة(كنيسـة جبل صهيـون) مكان المطبخ، حيث جـرى إعـداد خروف العشـاء الأخير للأكل، وحيث أيضاً جـرى تسخين الماء من أجل غسل أقدام الحواريين، وأيضاً إلى المكان نفسه، الذي هو الآن بيت للسكن، أرسلت روح القدس وأنزلت على الحواريين، وهناك أيضاً جـرى دفن داوود وسليمان وعدد كبير آخـر من ملوك القدس، ويوجـد أيضاً في أرض مقبرة هذه الكنيسـة نفسها، مكان معلم، هو المكان الذي وعظ فيه الرب يسوع نفسه في يوم صعوده ووجه اللوم لحماقة حوارييه، وأرسلهم إلى جميـع أنحـاء العـالم، غير أنه ذهب معهـم أولاً إلى جبل الزيتون وبعدما منحهم مباركته صعد إلى السماء.

وعلى بعـد اثني عشر قدمـاً من هذه الصخـرة المكتوب عليهـا، هناك صخرة أخـرى مثبته في الأرض، فوق المكان الذي جلست فيـه العذراء

مـريم، وأصغت إلى مـوعظة ابنها، وأيضـاً على بعـد خمس خطوات من هناك يوجـد المكان الذي قـام فيه بيتهـا، الذي سكنت فيـه بعد صعـود ابنهـا، وأيضـاً على بعـد ثلاث عشرة خطوة عـن هناك، وفي هذا المكان الذي انتخب فيـه القـديس متى من قبل جميع الحواريين، وكـان ذلك في اليوم التالي للصعـود، وفي المكان نفسه جرى انتخـاب السبعة الشمامسة، الذين جـرى بحق تعيينهم لخدمـة الأرامل، وبين هؤلاء الشمامسـة كـان اسطفان هو الأول، وفي هذا المكان نفسه جرى انتخاب القديس جيمس الأصغر من قبل الحواريين ليكون أول أسقف للقـدس، وعلى بعد عشر خطوات أكثر هناك مكان التعبـد، وذلك حيث غادرت العـذراء المجيدة من هذا العالم، وعلى بعد ثمان خطوات أكثـر باتجاه بيت كيفاس، يوجد مكان فيه بيعة.

ومعنى اسم جبل صهيـون هو «برج المراقبـة»، ولاحظ أن البتراء التي هي في الصحـراء، أي في العـربيـة، يمكن مـراقبتهـا ورؤيتهـا من ذلك الجبل، فقـد رأيت من هناك نهر الأردن يـدخل إلى البحـر الميت، لكن ذلك كان في الصبـاح الباكر، لأنه عندما تصعـد الشمس إلى قبة السماء، يبـات من غير الممكن رؤية مجراه، والآن في كنيسة جبل صهيـون، حيث يقف النجم العـالي، في هذا المكان بـالذات تعشى المسيح مع حـوارييـه، وأعطاهم جسده ودمـه، ولهذا السبب أطلق عليها من قبل المسيح، اسم قاعـة العشاء الكبير، وأيضاً هناك مـذبح آخر قـائم في الزاوية على جهة اليمين، في المكان الذي غسل فيه أقدام حـوارييه في الليلة نفسها، وأيضاً يوجد خلف المذبح العالي، في الجهة الخارجية فوق، المكان الذي أرسلت إليـه الروح القـدس المطمنة، وكـان ذلـك في يوم عيـد الحصـاد، وذلك حسبما تقـدم الوعد للحـواريين، ومباشرة تحت هذا البناء، في قبـو طوله سبع خطوات، وله نافـذتين صغيرتين في الجهة الشرقيـة، مدفـون داوود وابنه سليمان، ومثل هذا هناك في الطابق السفلي للدير، بيعـة قائمـة فوق

المكان الذي أدخل فيه القديس توما يده في جنب المسيح، وكان ذلك بهدف تقوية إيمانه وتمتينه.

واقتيد حجنا من هذا المكان باتجاه برج داوود، الذي يبعد ثلاثمائة وثمانين خطوة عن قبره، إننا ونحن على طريقنا وصلنا أولاً إلى كنيسة الأرمن، وهذه الكنيسة مستديرة، ولها أسوار قوية، وأقبية على درجة عالية من الحصانة، ولها أربعة أعمدة مربعة في الوسط، وليس فيها نوافذ، سوى نافذة واحدة مزججة في الذروة، غير أن فيها ثلاثمائة مصباح أو أكثر، وفي الحقيقة كان في أيامي مائة وعشرين مصباحاً مشتعلة بالعادة، وموجودة في شمعدان واحد، وأنا لم أشاهد قط ولم أسمع بمثل هذه التقوى العظيمة بين الناس.

ويوجد على جهة اليسار من المدخل المكان الذي جرى إعدام القديس جيمس الأكبر فيه، فهذا المكان من الممكن رؤيته، وهو يبعد مائتين واثنتين وعشرين خطوة عن المكان الذي أقام فيه أخوه يوحنا قداساً، وأيضاً في حدود رمية حجر عن البرج المتقدم الذكر، يوجد المكان الذي قابلت فيه مريم المجدلية، العذراء، وأعطتها بشائر بأن ابنها حي، وقد قام من الموت، وهنا أيضاً ظهر المسيح إلى المريمات الثلاث قائلاً: «التحية لكن جميعاً».

ويوجد في شارع أسقف القدس، بيت القديس زكريا، الذي هو بأيدي الجورجيين، وفي الداخل هناك بيعة جميلة مكرسة للقديس يوحنا المعمدان، وقبل المدخل إلى البيت هناك قبو من الحجر القاتم، وهو بناء قديم جداً في منتصف الطريق، على طول الشارع القائم فيما بين الضريح المقدس وبين برج داوود، ثم يلي ذلك البيت الذي جرى فيه إكرام الملوك الثلاثة، وانتبه إلى الباب، فهو الذي لم تستطع القديسة مريم المصرية الدخول منه، عندما كانت مثقلة بحمل ذنوبها، وهو الباب الذي من الممكن رؤيته في الشارع الذي يقود إلى عمواس، وفيما يلي:

الحج من مدينة القدس نحو الشرق إلى بيت عنيا

أما وقد فرغنا من رؤية الأماكن القريبة، علينا الآن أن نعبر إلى الأماكن التي هي أبعد، فبذلك سوف تتضاعف مشاعرنا التقوية، وأول شيء يعبر الانسان إليه هو إلى بيت عنيا، التي تبعد عن القدس مسافة نصف ميل ألماني — أي حوالي الخمسة عشر فرلنغ(يوحنا:١١/ ١٨) — حيث من الممكن أن يشاهد تحت القلعة ضريح ألعازر، الذي أقيم من الموت من قبل المسيح، وقد كان هنا فيها مضى كنيسة كبيرة، من الممكن رؤية أعمدتها قائمة حتى هذا اليوم، وتحت قبو مظلم، على بعد عشر خطوات عن ذلك الضريح، يوجد المذبح، فهنا في هذا المكان وقف المسيح عندما دعاه للخروج من القبر، وأيضاً في الخارج، قرب هذا المكان، لكن أعلى، يوجد بيت سمعان المجذوم، الذي فيه صهريجين، فهناك صبت المجدلية الدهن العطري على رأس المسيح، وهو جالس لتناول الطعام، وهو الأمر الذي أغضب يهوذا، وقبل ستة أيام من عيد الفصح تعشى يسوع في بيت عنيا، حيث تولت مرثا خدمته، في حين كانت أمها واحدة من الذين جلسوا إلى المائدة، ولهذا جاء حشد كبير من الرعاع اليهود إلى هناك، راغبين بقتل العازر أيضاً[يوحنا:١٢/ ٩ — ١٠].

وعلى ست رميات سهم من بيت عنيا، من الممكن أن يشاهد في حقل هناك صخرة عظيمة، عليها كان الرب جالساً عندما قابلته مرثا وقالت له:«ياسيد لو كنت هنا»الخ، وعلى بعد رمية حجر من تلك الصخرة، وعلى رمية سهم من هناك، على جهة اليمين، عند انحدار الهضبة، وباتجاه نحو الجنوب،كان هناك بيت المجدلية، الذي تقوم فوق موقعه كنيسة مهدمة، تحولت الآن إلى حظيرة للماعز، وغالباً ما جرت استضافة الرب يسوع وإطعامه في هذين البيتين، ويوجد على الطرفين واد منحدر، وهو على الجهة اليسرى أكثر الجانبين عمقاً، وفيه يوجد الطريق الذي

عبره الرب، عندما قدم من أريحا صاعداً في طريقه إلى القدس، ويأتي فيمايلي:

الحج من القدس إلى بيت لحم

أول ما يراه الانسان هو بيت سمعان، قرب القدس، على جهة اليمين، بين الكروم، فيما وراء الطريق إلى عين كارم، ويوجد إلى اليسار، على رابية قرب جبل صهيون، بناء على شكل قلعة، يعرف باسم بيت الاجتماع الشيطاني، فإلى هذا الاجتماع ذهب يهوذا ليقترف خيانته، وليصنع اتفاقاً من أجل تسليم المسيح، وكان يوجد في هذا المكان كنيسة جميلة مكرسة للقديس سبيريان، وبعد مسافة لابأس بها خلف هذا المكان، يصل الانسان إلى بئر، ففي هذا المكان أشع النجم الضائع مرة ثانية على الملوك الثلاثة، وعلى شرفه قامت فيما مضى هناك كنيسة جميلة، مايزال بلاطها موجوداً ويمكن الوصول إليه، وبعيداً عن الطريق، وفوق رابية موجودة على جهة اليمين، توجد كنيسة القديس جرجس، وبعد هذا يوجد على جهة اليسار، وليس بعيداً عن الطريق، بناء طويل، وكنيسة جميلة، هي ملك للاغريق، ويوجد بئر قرب جدارها الجنوبي.

وولد في هذا البناء الياس، وسكن فيه أثناء حياته، وهو قائم في منتصف الطريق، على طول الطريق فيما بين المدينتين المتقدمتي الذكر، وذلك على بعد ميل ألماني واحد عن كل منهما، وفي أيام إلياس انغلقت السموات لمدة ثلاث سنوات وستة أشهر، وفيما بين القدس، وبيت لحم — أو إفراتا — يوجد جبل قابيل الذي عليه مسح قابيل وتوج، وفوقه بنيت كنيسة القديس سبيريان، كما تقدم الذكر، وبعد ذلك، على مقربة من الطريق هناك آثار برج عظيم، وذلك حيث تصارع يعقوب مع الملاك(التكوين:٣٢)، وبعد هذا، يوجد على جهة اليمين، على مقربة من الطريق الذي يقود إلى حبرون، قبر زوجته راحيل، وهو قد بني

مؤخـراً من قبل المسلمين، وهو متجه نحـو الجنوب، حيث هناك مقبرة، ويعـرف هذا المكان باسم قبـة راحيل، وليس بعيـداً عن هـا هنا يأتي الانسـان إلى الحقل الذي تحول بذار الفـول أو البيقيـة فيـه إلى حجـارة بإرادة من الرب، وهذه الحجارة بحجم وتعداد الفول.

وكـان في بيت لحم، على الجانب الغربي كنيسـة القـديسين كوزمـاس ودامين، ويوجد على جهـة يمين الداخل إلى الكنيسة الكبرى على مقـربة من السدة، مـذبح هو بمثابة عـلامة على المكان الذي قتل فيـه عدد كبير من الأبرياء، وفي هذا المكان نفسـه جرى ختن الرب يسـوع، وقرب بئر موجود على الجانب الأيسر هناك، يوجد مذبح، وهو حيث المكان الذي أعـد فيـه الحكماء أنفسهم بشكل رائع،مـن أجل تقـديم الهدايا إلى الملك الحديث الولادة، ويقال بأن النجم اختفى في ذلك البئر.

ثم ينزل الانسان ست عشرة درجة إلى بيعة تحت السدة، فهناك المكان الذي ولد فيـه مخلص العـالم، ويـوجـد في هذا المكان نفسـه، على يسـار الداخل، هناك مـذبح، وعلى بعد سبعـة أقـدام وثلاث خطوات من هذا المذبح، تحت الصخـرة، يوجـد المكان الـذي مـدد فيـه الطفل الوليـد في المعلف، وقد عبد هناك من قبل الرعيان، واعرف بأن طول هذه الكنيسة هي ست وثلاثين خطوة في الداخل، وعـرضها ثمان عشر خطوة، وفيهـا أربعة صفـوف من الأعمدة الرخامية، وفي كل واحـد من هذه الصفوف اثني عشر عمـوداً، بين الواحـد والآخر سبعـة أقـدام، وهي ممتـدة حتى السـدة، وهي مـزدحمة بكل نـوع من أنواع الزينة على كل من البـلاط والجدران، وهي مغطاة بسقف رصـاصي، وفيهـا نسب المسيح مطبـوع بالفسيفساء في الأعلى، على الجانب الأيمن للداخل إليها، وبابها المزدوج هو من خشب السرو، وهو محفـور بمختلف الأشكال، وكـانت أطراف جدرانها مغطاة بألواح الرخام، وقد انتزعت وأخذت من قبل المسلمين الخونة،وحدث في هذه الكنيسة معجزة جديرة بالتسجيل، حيث قيل بأن

واحـداً من السـلاطين، عندمـا رأى كسـوتها الـرائعـة، فكر بانتـزاعهـا وأخذها، ليكسو بها أو يزين قصره في القـاهرة، وهكذا عندما حل اليوم الذي حـدده مع الحجـارين والنحـاتين، قـاصـداً إلى نزع تلك الحجـارة الجميلة، ظهـر فجأة ثعبـان له حجم مخيف، وخـرج يزحف من خـلال الألواح الحجـرية، وعبر من خـلال وسط هذه الألـواح، ومن الممكن رؤية آثار زحفـه على الجدار حتى هذا اليوم، فهـذا ما رأيتـه بنفسي، فقد وصل ذلك حتى مـذبح الملوك الثـلاثة الموجـود قـرب الجدار المتقـدم الذكـر، وعندما رأى السلطان هذا، امتـلأ رعباً، وغادر ذاهبـاً في سبيله، ومن الصحن الداخلي لهذا الدير في الجهـة الشمالية، ينزل الانسـان تسع عشرة درجة، إلى البيعـة التي اسمها مقر دراسـة القديس جيروم، حيث عمل لمدة خمس وخمسين سنة وستـة أشهر في ترجمة النصـوص المقدسـة، وفي ذلك الجوار، على بعد ثلاث خطـوات، وفي خلال الجدار، في داخل زاوية مظلمـة قـرب المذبح، تحت المعلف، يوجـد القبر الـذي دفن فيـه أولاً، لكن عندما انتقلت البلاد إلى أيدي الخونة، ولم تعـد القدس تعرف من يدافع عنهـا، نقلت عظامـه المقـدسـة وعظام عـدد كبير آخـر من القـديسين إلى رومـا، فضـلاً عن هذا يوجـد على جهـة اليسـار كهـوف متجـاورة تحت صخـور مطلة، فيهـا جـرى رمي عـدد كبير من أجسـاد الأبرياء، وأخفيت فيها.

وطول الطريق من القـدس إلى بيت لحم هو فرسخين، أي مـا يعادل ميـلاً ألمانيـاً واحداً، وعلى طول هذا الطريـق حدثت أحـداث إعجـازية كثيرة، من ذلك: أن إبراهيم وزوجته عبرا معـاً هذا الطريق عندما قـدما من بلاد الكلدان، ومشى لوط وزوجته على هذا الطريق عندما قدما من بلدان مـا وراء الجبال، وغالبـاً ما عبر عليـه البطريرك يعقـوب وزوجته راحيل، وذهبت مريم العـذراء المباركة عنـدما كانت حـاملاً، إلى هناك، وعادت عبر هذا الطريق، وعليـه استراحت عندما كانت متعبـة، وأيضاً

سار الملوك الثلاثة على هذا الطريق نفسه، عندما استهدفوا الوصول إلى الطفل يسوع، وكذلك فعل اليشع وإيليا وعدد كبير آخر من الأنبياء عندما ذهبوا إلى المدينة المقدسة، فهم جميعاً ساروا عبر هذا الطريق، وكذلك فإن العذراء المباركة في رحلتها إلى مصر ثم عودتها من هناك، قد سارت على هذا الطريق مع يوسف.

وعلى رمية حجر من بيت لحم، وذلك باتجاه الشمال، كانت هناك كنيسة، فيها جرى دفن باولا ويوستوخيوم، واسم هذه الكنيسة، كنيسة القديس نيقولا، وأقامت هناك مريم مع الطفل ويوسف في أول ليلة من ليالي الهروب إلى مصر، وانتبه إلى الحليب الذي انصب هناك، ويحتاج الآن الطريق فيما بين بيت لحم والقدس إلى ثلاث ساعات لعبوره، وأيضاً على بعد ربع ميل من بيت لحم، نزولاً إلى الوادي الذي يقود إلى البحر الميت، كان هناك فيما مضى بناء جميلاً مع كنيسة، كان اسمها كنيسة الرعاة، لأنه إلى ذلك المكان جلب الملاك إلى الرعاة بشائر لها بهجة عظيمة، وطلب منهم الذهاب إلى بيت لحم، حيث نظر كل واحد منهم إلى ظهر الآخر، وقال كل واحد منهم للآخر بأن صوت الملاك كان مجرد وهم وضياع، وبدأوا يعودون إلى قطيعهم، ثم جاء الملاك إليهم مرة ثانية، وأرغمهم على إكمال الرحلة التي بدأوها، ويقوم في هذا المكان نفسه كنيسة فيها مذبح واحد، ويقول بعضهم بأن العذراء المباركة قد توقفت خارج الطريق الذي يقود إلى مصر، ولكن الرواية الأولى تتماشى أكثر مع الحقيقة، فضلاً عن هذا، يوجد على بعد فرسخين إلى الجنوب من بيت لحم، قبوراً لاثني عشر نبياً. ويلي هذا:

الحج من بيت لحم إلى وادي حبرون

يشاهد على الطريق من بيت لحم إلى وادي حبرون، المكان الذي رأى فيه إبراهيم الملائكة الثلاثة، وعبد واحداً منهم هو(الرب)، ويرى الانسان في الكنيسة في حبرون كثيراً من الفتحات المزدوجة في الصخر،

وتعـرف إحـدى هذه الفتحـات باسم الكهف المزدوج، فيـه جـرى دفن:آدم، وإبراهيم، واسحـق، ويعقـوب، وزوجـاتهم:حـواء، وسـارة، ورفقة، وليا، وليس بعيداً عن المدينة يوجد حقل دمشق، الذي منه خُلق آدم وحواء، ويلي هذا:

الحج من حبرون إلى القدس

يذهب الانسـان من حبرون إلى القـدس من خـلال المنطقـة التليـة لليهـودية، حيـث من الممكن له أن يرى بيت زكـريـا، الذي فيـه زارت العـذراء المباركـة إيزابل، ويوجـد في هذا المكان كنيستين بنيت إحـداهما فوق الأخرى، غير أن الكنيسة العليـا قد جرى تدميرها، ويرى الانسان في الكنيسـة التحتـا فجوة في الصخـر، وذلك على جهـة اليمين للداخل إليهـا، فهـذا هو المكان الذي أخفي فيـه الطفل يوحنا خـوفـاً من الملك هيرود عندما كان يقتل الأطفال، وعندمـا ينزل الانسان قليلاً من هناك، يشـاهد النبع الذي تفجر على مقـربة من الطريق على جهة اليـد اليمنى، فإلى جانب هناك جلست العـذراء مريم وأراحت نفسهـا، لكونها كانت متعبـة من رحلتهـا وكـان ذلك عندمـا ذهبت لزيارة قـريبتهـا، التي من المعتقـد أنها التقت بها في هذا المكان وقـالت:«من أين لي هذا أن تأتي أم ربيّ إليّ»[لوقـا:١/ ٤٣]، وهنا أيضـاً عملت أم الرب أغنيـة«تعظم نفسي الرب»[لوقا:١/ ٤٧]الخ.

وبعد هذا ينعطف الانسان خارجاً عن الطريق إلى جهة اليد اليسرى، إلى رابية، كان عليهـا فيما مضى كنيسة جميلة، هي الآن ملوثة بالفضلات ومليئة بروث البغال، ولايستطيع أحد من الحجـاج دخول هذه الكنيسة دون دفع للمال، فهـا هنا كـان يوحنا المعمدان ابن زكـريا قـد ولد، وهو الذي قـال:«تبـارك الله ربي»الخ، ومن هناك يذهب الانسـان إلى كنيسـة أخـرى جيدة التـزيين، هي ملك للجورجيين، واسمهـا كنيسة القـديس الصليب، لأن شجرة صليب المسيح، قـامت هناك ونمت، والحفرة التي

فيها قامت من الممكن مشاهدتها في هذه الأيام تحت المذبح، وبعد هذا، وعلى مقربة من الطريق الذي يقود إلى غزة، من الممكن رؤية الماء الذي جرى به تعميد الخصي فيليب(أعمال:٨).

تقسيمات الأرض المقدسة

قسمت البلاد التي عرفت باسم الأرض المقدسة كلها حصصاً بين أسباط بني إسرائيل الاثني عشر، وبالنسبة للجزء الذي عرف باسم مملكة يهوذا، كان هو أرض سبطي: يهوذا وبنيامين، أما بالنسبة للجزء الآخر فقد عرف باسم مملكة السامرة، التي كانت عاصمتها مدينة السامرة، التي تعرف أيضاً باسم سبسطية،وكانت عاصمة الأسباط الآخرين العشرة، وهو الجزء الذي عرف باسم اسرائيل، وهاتين المملكتين معا مع بلاد الفلسطينيين، قد عرفت باسم فلسطين، التي هي مجرد جزء من[الأرض المقدسة]، مثلما سكسوني واللورين جزئين من ألمانيا، ولومبارديا وتوسكانيا جزئين من إيطاليا، واعرف أن هناك ثلاث فلسطينيات، ففي فلسطين الأولى العاصمة هي القدس، وهي تشمل جميع المنطقة التلية حتى البحر الميت، وإلى قادش القفار، وفلسطين الثانية هي التي عاصمتها مدينة قيسارية القائمة على شاطىء البحر، وفيها جميع أراضي الفلسطينيين شروعاً من بترا انشيسا، وامتداداً حتى غزة، فهي الأرض المقدسة المتجهة نحو الجنوب، وفلسطين الثالثة هي التي عاصمتها بيسان، القائمة عند جبل جلبوع، وهذه هي المدينة التي عرفت من قبل باسم سقيثوبولس، وهي المكان الذي جرى فيه شنق أجساد جنود شاؤول.

والأصح أن تدعى فلسطين هذه باسم الجليل، ويوجد فيها مرج ابن عامر، الذي يبدأ عند نهر الأردن الأصغر، وهو الذي تمتد حدوده الجنوبية حتى جينين، وهي بلدة مهدمة، موجودة في المربع ٣٧، فوق رابية، وقد رسمتها على هذه الخريطة باللون الأخضر، وهي عائدة

للسامرة، وتبدأ السامرة عند جينين المتقدمة الذكر، وتمتد حتى نهر الأردن، وإلى مخمش Michmash في المربع ٥٣، المتصل باليهودية، وقد رسمت اليهودية ومنطقتها التلية باللون الأصفر، وتبدأ جليل الأمم المتقدمة الذكر عند الأردن الأصغر، وتمتد شمالاً حتى جبل لبنان، ثم هناك المدن العشرة، التي حدودها في الشرق بحر الجليل، وصيداً في الغرب، ودمشق في الشمال، وفي داخل هذه الحدود هناك عشرة مدن، وصدوراً عن هذا الواقع عرفت هذه المنطقة باسم المدن العشرة، وهذه المدن هي:طبرية، وبيسان، وقناتا، وصفد، وقادش نفتليم، وأرسوف، وقيسارية فيليب(بانياس) وكفرناحوم، وبيت صيدا، وكورزيم، وهناك على كل حال مدناً أكثر في هذه المنطقة، حسبما عرضناهن أعلاه، وقد تجول الرب يسوع خلال جميع هذه المدن والقلاع، يعلم في كنسها«ويكرز ببشارة الملكوت»[متى:٤/ ٢٣].

وطول أرض الميعاد الممتدة من دان الموجودة عند سفح جبل لبنان في الشمال، إلى بير السبع في الجنوب قرب قفار مصر، هي اثنين وأربعين ميلاً ألمانيا، أو مائتين وعشرة أميال إيطالية، في حين أن عرضها من البحر في الغرب، إلى أطراف جبال العربية هي أربعة عشر ميلاً كبيراً، أو سبعين ميلاً إيطالياً، وعلى هذا الأساس، جميع الأرض المقدسة مقسمة إلى ثمانية وعشرين فراغاً عرضانيا، وذلك بمدّ خطوط عبرها، أي فوق الخطوط من الغرب إلى الشرق، والآن يوجد في الفراغ الثاني، والمربع الثاني عشر بصرى، في بلاد بوسترون، التي ورد ذكرها في إشعيا ٦٢(كذا)، ويقود الطريق من خلال مدينة جدر، في المربع ٢٣، إلى آرام، وبلاد الرافدين، وهمّام Hammam (همدان)،وهيركانيا Hyrcania وبحر الخزر، وعبر هذا الطريق، إعتادت هذه الشعوب على الاجتماع في كل سنة على سهل نبع فيالي Phiale ، حيث كانوا يعقدون سوقاً طوال شهر أيار، وينصبون خياماً ذوات ألوان متعددة في مدينة جدر،

فوق الجبل، مما يجعل المشهد جميلاً، وجاء ذكر هؤلاء في نشيد انشاد سليمان قوله:«كخيام قيدار» [نشيد الانشاد:١/ ٥]، وأطلق يوسفيوس على هذه المدينة اسم جمالا، لأن الجبل القائمة عليه له شكل الجمل.

وفي المربع٢٤(٥٣) في الجبال القائمة نحو الشرق توجد ايريوبولسAreopolis [الصفورية؟] التي عرفت فيما مضى باسم أرور(Aroer)Aror، وكانت عاصمة العربية الثانية، حيث أنها تبتعد رحلة أربعة أيام عن البتراء في الصحراء، وفي البتراء هذه قال اشعيا:«أرسل يارب الحمل من البتراء في القفار إلى جبل ابنة صهيون»(إشعيا:١٦/ ١)، فعلى هذا الجبل رأى يوحنا الخروف واقفاً[رؤيا يوحنا:١٤/ ١]، وفي البتراء هذه جرى بناء قلعة حصينة لاترام، وكان اسمها الكرك، فيها يودع السلطان كنوز شبه جزيرة العرب ومصر، وفي منتصف الطريق بين البتراء وايريوبولس يوجد جدول سورقSorec ، وجبل عبريم حيث جرى دفن موسى من قبل الملائكة.

وعلى بعد سفر ثلاثة أيام نحو الجنوب من البتراء، يوجد جبل سعير، الذي حدوده موجودة على قفار فاران، التي تعرف باسم بلاد العربية حتى البحر الأحمر، واعرف انه عند طرف جبال العربية الأولى، في أحواز جبل سنير، تبدأ بلاد عوز، التي تعرف أيضاً باسم منطقة الطرخونية، وتمتد حتى جدر وبحر الجليل، لأنها مشكلة جزئياً من قبل منطقة المدن العشرة، ومثل هذا كانت مملكة عوج ملك بيسان، تمتد من طرف جبال العربية الثانية حتى الأردن، ووقعت هذه المنطقة في حصة سبط جاد امتداداً حتى جدول يبوق، وقد رسمت هذه المملكة باللون الأصفر حتى أميزها عن الممالك الأخرى، وكل البلدان القريبة من هذه المملكة جعلتها باللون الأبيض، وهي تعرف باسم بيت عنيا، وذلك حيث تعمد يوحنا، وهي قد كانت مملكة سيحون، ملك حشبون، وقد

كانت في حصة سبط اسكار، ويوجد فيها بين جدول عرنون وسورق، سهل منطقة مآب، وهناك من الممكن رؤية المكان الذي تحادث فيه بلعام مع أتانه، وهناك جرى تصنيف سفر الثنية، هذا وإن المنطقة الواقعة خلف جدول سورق نحو الجنوب، هي التي تعرف باسم بلاد مآب وعمون حسبما تقدم الذكر.

واعرف أن هناك ثلاثة مدن إلتجاء فيها وراء الأردن، أولاها تحت المربع ٢٣، قرب المنطقة التليةالتابعة للعربية والتي اسمها الجولان، والثانية تحت المربع ٣٧، واسمها راموث جلعاد، والثالثة تحت المربع ٣٣، واسمها أفرايم، حيث أقام المسيح مع حوارييه، وهناك ثلاثة مدن التجاء باتجاه البحر الغربي، وأولاها هي حبرون تحت المربع ٦٩، والثانية هي سبسطية تحت المربع ٤٣، والأخيرة قائمة إلى جانب بحيرة ميروم، واسمها قادش نفتالي، في وادي سنين، وهي التي كانت مدينة بلك، وهذه المدن الستة مرسومة على الخريطة، ومعلم عليها بهذه العلامة**، وجرى وضع علامة ٨ تحت المربع ١٩، فهذا هو المكان الذي أشبع فيه الرب أربعة آلاف من الناس بسبعة أرغفة، وتحت المربع ١٩، وعلى مقربة من هذا العلامة ٧ المكان الذي أطعم فيه الرب خمسة آلاف رجل بخمسة أرغفة، وذلك حسبما ورد مكتوبا في يوحنا ٦، وتحت المربع ١٩، قرب العلامة C ، عمل قائد المائة، توسلاً من أجل خادمه، وفي المكان نفسه أبرأ الرب المجذوم قرب بحر الجليل، وعلى مقربة من كفرنا حوم أطلق على: متى: وأندرو، وبطرس، وجيمس، ويوحنا، اسم الحواريين، وتحت المربع٢١، جاء بطرس، وأندرو، وفيليب، من بيت صيدا (يوحنا: ١/ ١٢)، وتحت المربع ٣٦ توجد مكور Machaerunta حيث جرى اعدام يوحنا المعمدان وقطع رأسه.

وفي أيام الصيف تجف معظم أجزاء بحيرة ميروم، ولهذا تتكاثر هناك

الأشجار والنباتات الكثيفة، التي فيها تعيش الأسود والحيوانات الأخرى، وتتوفر هناك أجواء ممتعة للصيد، وعلى بعد قليل نحو الشمال رسم بعلامة سيف المكان الذي حارب فيه يوشع ضد ملك أرسوف مع أربعة وعشرين ملكاً آخر، طاردهم جميعاً حتى صيدا، فآنذاك تضاعف النهار وتوقفت الشمس في مكانها ولم تتحرك، ولهذا أعطي له «مجد لبنان، وبهاء الكرمل وشارون» (اشعيا: ٣٥)، وإلى الشمال من صيدا، وعلى بعد سفر يومين خلف الأرض المقدسة، يوجد ميناء دمشق،متمثلاً بمدينة بيروت القديمة والجليلة، مع أن مرساها مرسى مرعباً، فقد أرغمتنا الرياح الشمالية على الدخول إليه في عشية يوم عيد القديس توما، ففي عشية عيد الميلاد ارتحلنا راجعين إلى الأنهار الكبرى، وأرغمنا عند فجر اليوم الثاني للعيد بوساطة عاصفة على الرسو في ذلك الميناء للمرة الثانية، حيث ألقينا المراسي، ومكثنا في هذه الحالة المحزنة حتى عيد الختان (أول كانون ثاني)، وعلى بعد مائتين وتسعين خطوة من خارج الباب الشرقي لهذا البلد، يمكن رؤية المكان الذي قتل فيه القديس جرجس التنين.

وتحت المربع ٣١ يوجد نبع اسرائيل، الذي نقرأ عنه في سفر صموئيل الأول (١ــ صموئيل: ١٩/ ١) وذلك حيث نصب الفلسطينيون معسكرهم، وذلك عندما كان شاؤول في جلبوع، ويوجد فيما بين جبل جلبوع وجبل حرمون واد عرضه فرسخين، وطوله تسعة فراسخ، وذلك نزولاً إلى الأردن حيث جرى القتال في عدة معارك، من ذلك: جدعون ضد مدين، واحاب ضد الآشوريين، وفي الزمن الحالي أيضاً التتار ضد المسلمين، وقد رسمت هذا المكان وعلمته بعلامة سيف، ويوجد تحت المربع ١٩ بيت القديس جرجس، وهو المكان المعتقد أن القديس متى قد ولد فيه، وهو قائم بين جبال في واد غني وخصب يصل حتى بحر الجليل، وبسبب جماله قد قيل حقاً عنه: «أشير خبزه

سمين وهو يعطي لذات ملوك» (تكوين: ٤٩/ ٢٠)، وهذا ما تحقق في حصة سبط آشر.

وفي الفراغ ١٦ والمربع ٢٢، توجد نفتالي، التي جاء منها طوبياس، وهي قائمة في مكان حصين، لا يمكن الوصول اليه إلاّ من فسحة صغيرة موجودة على جهة الشرق، وتبعاً ليوسفيوس كانت تعرف باسم يوتابه في أيام دمار اليهود، وهناك جرى حصار يوسفيوس من قبل الرومان وأخذه أسيراً، واسمها الآن سيران Siran.

وتحت المربع ٢٤ توجد قرية عين دور، التي عنها يقول المزمور: «بادوا في عين دور» [مزامير: ٨٣/ ١٠]، وتحت المربع ٥٥ توجد بيت ايل في ديار سبط بنيامين، وذلك حيث أقام يعقوب الصخرة ونصبها لتكون عمودا، وكان ذلك عندما نام هناك، أيام كان فاراً من أخيه عيسو،وقد رأى السلم، الخ، وقد أطلق على المكان اسم بيت إيل، وإلى الشرق من بيت إيل توجد مدينة عاي، التي نقرأ عنها في يشوع٨.

وتوجد تحت المربع ٦٩ ممرا، حيث سكن ابراهيم لوقت طويل، وهناك عندما كان جالساً عند باب خيمته، تحت بلوطة ممرا، رأى ثلاثة قادمين على طول الطريق، الخ، (التكوين: ١٨)، وما تزال هذه البلوطة مرئية حتى الآن عند باب الخيمة، وكانت البلوطة القديمة قد جفت، لكن نمت واحدة جديدة إثر أخرى من جذرها، ويوجد في الفراغ ٢٠ سوكوه التي ليهوذا على مقربة من وادي البطم، حيث قتل داوود جالوت من جت [١صموئيل: ١٨/ ١—٢]، وتقوم سثيم Sethim على رابية تحت المربع ٥٦.

وهنا بداية أرض الفلسطينيين، وعلى هذه الرابية نفسها بنى فولك، الملك الصليبي للقدس، حصنا اسمه ابلين (يبنا)، ليضبط اعتداءات أهل عسقلان، وكانت عسقلان مدينة من مدن الفلسطينيين، وهي قائمة على

شاطىء البحر، وقد بنيت على شكل نصف دائرة، ويمكن للانسان أن يقول عنها بأنها مدينة مجمع قوى المسلمين كلها في تلك البلاد، وتحت المربع ٢٢، وعلى شاطىء البحر، توجد عكا، وقد كانت إحدى مدن الفلسطينيين، واسمها (الآن) بطولميس، وتوجد قيسارية O-C في المربع ٤٠ وفي الفراغ ٢٨، وذلك على شاطىء البحر، وهي قيسارية البحرية، التي وسعها هيرود صاحب عسقلان تشريفاً لأغسطس، وقد كانت عاصمة الشاطىء الفلسطيني، وقد كتب يوسفيوس عنها كثيراً، وتمتلك هذه المدينة باتجاه الشرق منها بحيرة واسعة وعميقة ذات مياه عذبة، فيها يوجد كثيراً من التماسيح، والمدينة نفسها مهدمة تماماً، وفيها عمّد الحواري بطرس كورنليوس، وبقي بولس في السجن هناك لمدة طويلة، وكان ذلك عندما كان في طريقه إلى روما، ولها ميناء غير موائم، لكنها تمتلك كثيراً من الحدائق والمروج، وجداول جارية حتى إلى اللد، وإلى بلاد يافا، وقد رسمت اللد وعلمتها بعلامة قوس، حيث يمكنك أن ترى في المكان الذي وقفت فيه، كنيسة القديس جرجس الذي قتل هناك، وأرسوف قائمة على شاطىء البحر، واسمها القديم هو أنتبارتس، وكانت من أملاك رهبان مشفى القديس يوحنا المعطاء.

وليس لمدينة يافا ميناء، وفيها سكنت تابيثا Tabitha وصيفة الرسل، ومن هناك ذهب يوانس على ظهر سفينة عندما أراد الفرار إلى طرسوس، ولم أر في هذه المدينة أي انسان حي، وفي الحقيقة جرى تدمير الكثير من مدن الساحل من قبل السلطان، عندما سمع بأن مدينة عكا المتقدمة الذكر قد جرى الاستيلاء عليها من قبل ملكي فرنسا وانكلترا.

وصيدا هي احدى مدن فينيقيا، وفي خرائبها الموجودة هذه الأيام شهادة على عظمتها، وكانت قد بنيت بشكل مستطيل، فوق سهل يمتد من الشمال إلى الجنوب، عند سفح جبل لبنان،وجرى بناء مدينة أخرى

خارج خرائبها، صحيح أنها صغيرة، غير أنها محصنة، لكن ليس فيها رجال للدفاع عنها، ويقوم طرف منها على شاطىء البحر مع قلعتين جيدتا التحصين، واحدة منهما على كل جانب فالأولى التي هي في الجانب الشمالي، هي التي بنيت منذ زمن طويل مضى من قبل حجاج من ألمانيا، وهي قائمة على صخرة بجوار البحر، أما الثانية الموجودة في الجنوب، فهي قائمة فوق رابية، وفيما مضى امتلك فرسان الداوية هاتين القلعتين مع المدينة أيضاً، وهناك يوجد قصب السكر، وكروم عنب ممتازة جداً، وعلى بعد فرسخين من هناك توجد الصرفند، التي فيها مجرد عدة بيوت فقط، مع أن خرائبها تشير إلى أنها كانت مدينة جليلة فيما مضى.

وصور موجودة في ديار سبط آشر، ومع ذلك لم يتملكها الآشريون قط، وخلفها توجد آبار مياه للحياة. وتحت المربع ٤٣، توجد سبسطية، التي اسمها السامرة أيضاً، وهي مدمرة كلياً باستثناء كنيستين، أولاهما مكرسة ليوحنا المعمدان، حيث ضريحه فيها مصنوع من الرخام، على شكل ضريح الرب، فهناك دفن فيما بين اليسع وعوبيدا، وفي الحقيقة قام هناك فيما مضى كنيسة كاتدرائية على طرف الجبل، لكن المسلمون تولوا هدمها، وأما الكنيسة الثانية فهي الآن قائمة على قلة الجبل، وهي مسكونة من قبل رهبان اغريق، هم الذين يعرضون في الداخل المكان الذي قد سجن فيه، لكنني عددت هذا شيئاً لاقيمة له، ذلك أنه كان قد أعدم في مكور، تحت المربع ٣٦. وتوجد شكيم تحت المربع ٤٥، وهي التي يطلق الاغريق عليها اسم نابلس، وهي قائمة على بعد رميتي قوس عن جب يعقوب، هذا وإن عظام يوسف مدفونة في شكيم، ويطلق اليهود عليها اسم شوكيم، ويسمون صهيون هرؤن Haraon

المدن والأماكن في الأرض المقدسة

ومدينة عكا، التي هي موجودة في منطقة فينيقيا، هي مدينة جيدة

التحصين بالأسـوار والأبراج، وهي لها شكل ترس، طرفان منه يمتـدان خـارجاً إلى البحـر، وأمـا الطرف الثـالث فهو مطل على اليـابسـة، ومن حيث الطول فان مسـاحة إطارها هو ميلين، أي أن تقـول ستين فرلنغ، وهي تمتلك حقولاً مثمـرة وحدائق، وهي لم تكن قط جـزئاً من الأرض المقدسة، ولا ملكاً لبني اسرائيل، ومع هذا فإنها قد منحت إلى سبط آشر عندما جرى توزيع الأرض المقدسة فيها بين الأسباط، وقد كانت إحدى مدن الفلسطينيين الخمسـة القائمة على سـاحل البحر، وعلى مقـربة منها حدث أن ملاك الرب التقى بحبقوق وهو يحمل إلى الحصادين طعامهم، فحمله إلى بابل، وذلك حسبما نقـرأ في سفر دانيال ١٤، وكـان يوجد في المكان الذي حمل منه من قبل الملاك بيعة جميلة.

وعلى بعـد ثمانية فـراسخ إلى الشمال من مـدينة عكا هذه، من الممكن مشاهدة البئر الرائع لميـاه الحياة، الموجود قـرب صور، حيث بني بشكل عالي النفقات، ومع أنه يدعى باسم بئر، بالمفرد، إنه ليس بئراً واحداً، بل هناك ثلاثة ينـابيع، لها الشكل نفسـه والوضع، مـع أنها لاتعطي الكميـة نفسها من الماء، والبئر الرئيسي فيهـا عمقه حوالي أربعـة وثلاثين ذراعاً، وعمق الآخـرين حـوالي اثنين وعشريـن ذراعـاً، وهـم محاطون بجـدران مربعـة متينة، مبنية من صخـور قوية، وتتفجـر المياه وتندفع مـن داخلها بمقدار رميـة رمح بالعرض، وتتـدفق بشكل تملأ فيه جميـع مجاري المياه، حيث تنتشر فـوق سهل صـــور كله، ومنهـا تشرب الحدائق، والكروم، وبساتين التين، وحقول الزيتون، وقصب السكر، الذي ينمو هناك، ذلك أن هذه الينابيع تبعد مقدار رمية سهم عن البحر.

وعلى بعد فرسخ واحد عن هناك توجـد مدينة صور، التي هي قائمة إلى الشمال من عكا، وقـد كتب مـديحهــا من قبل بعض الأنبيـاء، وهي واقفـة على شـاطىء البحر مع أسـوار واسعـة تحيط بها، وهذه الأسـوار تلامس مياه البحر من جميع الجهات، باستثناء الجهة الشرقية، حيث تولى

نبوخذ نصر أولا، ثم الاسكندر فيما بعد، وصلها باليابسة، وذلك لمسافة مقـدارها حـوالي الرميـة حجـر، وهي محاطة من هذا الجانب بسـور مضـاعف ثلاث مـرات وهو عـالي الارتفـاع وله أبراج حصينة وقـوية، وفيها جـرى دفن أورجين، وقد بقي فيها حتى اليـوم كثيراً من آثار عدد كبير من القديسين، كانوا قد هلكوا هناك باسم المسيح، وعلى بعد رميتي سهم نحـو جنوب البـاب، يوجـد المكان الذي فيـه تولى المسيح الوعظ، وهو معلم بوساطة صخرة وقف عليها، حيث بني فوقها كنيسة كرست للمخلص، وهناك أيضـاً المكان الذي قالت له فيـه المرأة «بورك الرحم» الخ، وذلك بعـدما أنهى الوعـظ، وهذا المكان لم يغطه الرمل قط، مع أن الرمل هنـاك خفيف ويتطاير هنـاك، مثلما يتطاير الثلج في بـلادنا في أيام البرد الشـديد، ويتوزع فـوق الأمـاكن بوسـاطة الريح، لكن هذا المكان يبقى على الدوام أخضر في وسط الرمـال وعلى بعـد أربعـة فـراسخ عن صـور توجـد الصرفند، وقبل باب هذه المدينة مـن الممكن رؤية المكان الذي ذهب إليه إيليا إلى المرأة الصرفندية، وليـس بعيداً عن هناك توجد بيعة فوق المكان الذي أقام فيه ابنها من الموت.

وعلى بعـد ميلين عن الصرفند توجـد صيـدا، التي كـانت فيما مضى مـدينـة عظيمـة، حيث من الممكن رؤيـة حجمهـا من خـلال خـرائب الأسـوار، وكلها تقـريبـاً قائم في قلب البحـر، ولها على كل من طرفيهـا قلعتـان، بنيت الأولى منهما فوق رابيـة قرب السهل، وأمـا الثانيـة فبنيت فوق صخـرة مجاورة للبحر، وجرى بنـاء هاتين القلعتين من قبل حجاج ألمان منذ زمن طويـل مضى، وعلى بعـد نصف فـرسخ آخـر عن هذه المدينة يوجد جبل لبنان، حيث تنمو كروم فائقة الجودة، ولهذا قال النبي عنهـا: «تكون رائحتهم كخمـر لبنان» [هوشع: ١٤/ ٣]، وعبر صيـدا، وأمام بابها شفى الرب ابنة المرأة الكنعانية.

وخارج الأرض المقـدسة، وعلى بعـد عشرين ميلاً إيطـالياً إلى الشمال

من صيدا، توجد بيروت، وهي مدينة قديمة، لها ميناء بغيض، فيه أمضيت ليلة، لكن ليس من دون خوف، وكان ذلك عشية عيد القديس توماس الرسول في سنة ١٤٢٢، وفي قاعة تحت الأرض في هذه المدينة، معروض فيها للمشاهدة صورة رسمت للمخلص بعد وقت قصير من آلامه، جاء رسمها سخرية واستهزاء، وقد لوثت واعتدي عليها بضربها من قبل الكفار، وظلوا يضربونها حتى خرج منها دم وماء، ونتيجة لهذا اهتدى بعضهم وتحول إلى المسيحية، وجاء نصب هذه الصورة للسخرية وكذلك رسمها، وذلك مثلما حدث في بيت بيلايطس، عندما توجوه بتاج من شوك، وبجّل بمثابة ملك، وقد جرى بناء بيعة هناك فيها مذبح واحد، وإليها ينزل الانسان ثماني عشرة درجة.

ويلي بيروت في الشمال جبيل، التي هي أول مدينة تابعة لبطريركية أنطاكية، وقد ورد حديث عن هذا المكان في حزقيال ٢٧، وذلك خلال اطراء لمدينة صور، وكذلك في الملوك الأول، حيث قيل بأن عمال سليمان قد جاءوا من جبيل(بيبلوس)، وتعرف هذه المدينة في هذه الأيام باسم جبيل، وهي صغيرة بها فيه الكفاية، وعلى بعد ثلاثة فراسخ عن جبيل توجد Botrys (البترون) التي كانت فيها مضى مدينة ثرية، لكنها الآن مدمرة كلياً، وبعد هذا على مسافة ثلاثة فراسخ أخرى تقوم قلعة وقرية نفين(أنفة)، وهي قائمة تقريباً فوق شاطىء البحر، ومحصنة بشكل جيد.

وعلى بعد فرسخين من هناك توجد مدينة طرابلس، وهي مدينة معروفة كثيراً على شاطىء البحر، وهناك يسكن فيها: إغريق، ولاتين، وموارنة، ونساطرةو(أناس) من أمم كثيرة، ويعمل فيها الكثير من المنسوجات الحريرية، وقد سمعت قولاً صحيحاً أنه يوجد فيها اثني عشر ألف حائك للحرير ولوبر الجمل.

وينتهي جبل لبنان على بعد ثلاثة فراسخ خلف طرابلس، وعند

سفحه ينبع نبع الحدائق، وهو النهر الذي يجري سريعاً وهو نازل من جبل لبنان، ويسقي جميع الحدائق والسهل الموجود حول طرابلس، ويوجد على ضفتيه عدداً كبيراً من البيوت الدينية التي بنيت هناك، وكثيراً من الكنائس الاغريقية والأرمنية، وفي الحقيقة إن الذي ورد عن هذا النبع في سفر استير صحيح وهو:«من نبع صغير جرى صنع فيض عظيم، لابل كثيراً من الماء»، وعلى بعد فرسخين عن طرابلس يوجد جبل الفهود، الذي له منظر دائري، وهو مرتفع، ويوجد عند سفحه، في الجهة الشمالية كهف فيه ضريح طوله عشرين قدماً، وهذا الضريح يزوره المسلمون بكل تقوى، حيث يقولون بأنه قبر يوشع، وأنا لاأعتقد بصحة ذلك، لأن النص يقول بأنه دفن على طرف جبل إفرايم، تحت المربع ٤٦، والذي أرجحه وأراه هو أن هذا الضريح هو لواحد من أولاد نوح، أو لشخص ما مثلهم، من الذين يمكن أن نبرهن على أنهم سكنوا في تلك الأجزاء.

وعلى بعد ثلاثة فراسخ أخرى من الممكن رؤية قلعة عرقة، التي بناها عرقايوس بن كنعان، وهي قد بنيت بعد الطوفان، حسبما جاء في شروح سفري التكوين، وأخبار الأيام الأول، وعبر السهل، وعلى بعد ثمانية فراسخ، يصل الانسان إلى انطرطوس، أو(أمام أرواد) وهذه هي جزيرة تبعد مسافة نصف فرسخ عن اليابسة، وفي أنطرطوس وعظ القديس بطرس لمدة طويلة، عندما كان في طريقه إلى أنطاكية، وذلك حسبما قرأنا في رحلة كليمنت، ووجد كليمنت أمه هناك، وهناك أيضاً دفع القديس بطرس إلى تأسيس وبناء أول كنيسة هناك، كرست على اسم القديسة مريم، وعلى بعد ستة فراسخ عبر أنطرطوس توجد قلعة المرقب، التي كانت ملكاً لرهبان القديس يوحنا(الاسبتارية)، وهي محصنة بشكل جيد، وقائمة فوق جبل مرتفع، وتبعد فرسخاً واحداً عن البحر، وذلك على مقربة من مدينة بانياس، وكان قصر الأسقف قائماً في هذه المدينة،

ولكن بسبب إهانات المسلمين انتقل إلى القلعة.

وتنتهي مملكة القدس مع مدينة بانياس، ومع النهر الذي يحمل الاسم نفسه ويجري من خلالها، وبذلك تبدأ بطركية أنطاكية، ويبعد هذا المكان سفر ثمانية أيام عن عكا، وهناك سفر أربعة أيام منه إلى أنطاكية، وتقوم أنطاكية في سورية المجوفة، التي تبدأ عند نهر الفرات، وتنتهي عند نهر بانياس، الذي ينبع تحت قلعة المرقب، ويصب في البحر الكبير قرب بلدة بانياس، التي كانت — كما قلنا من قبل — مقر قصر الأسقف، ويوجد في المقاطعة نفسها: اللاذقية — وأفاميا — وبلدات أصغر.

وسورية الفينيقية، منطقة مختلفة، وهي تبدأ عند النهر المتقدم الذكر، أي نهر بانياس في الشمال وتصل في الجنوب حتى البترا انشيسا تحت جبل الكرمل، وذلك عند القلعة التي اسمها في هذه الأيام قلعة الحجاج(عثليت)، ويوجد في سورية هذه، المدن التالية:المرقب، وطرطوس، وطرابلس ، وبيروت، وصيدا، وصور ، وعكا، وكفر ناحوم.

وهناك مقاطعة أخرى من مقاطعات سورية، هي مقاطعة دمشق، أو لبنان، وحاضرة هذه المنطقة هي مدينة دمشق، ولجبل لبنان شهرة في داخلها، هذا وتعرف البلاد كلها الممتدة من نهر الدجلة حتى مصر باسم سورية بشكل كامل، وأول جزء منها هو الواقع فيما بين نهري الفرات والدجلة، وهو يمتد طويلاً من الشمال إلى الجنوب، أي أن تقول من جبل طوروس إلى البحر الأحمر، وهو يعرف باسم سورية الجزرية، لأنه قائم في وسط المياه، وهو يحتوي على شعوب كثيرة منها: الفرثيين، والميديين، الذين يحدهم في الجنوب بلاد الكلدان.

ثم يذهب الانسان بعد هذا إلى أنطاكية، التي فيها عرف جميع المؤمنين

الذين كـان اسمهم من قبل الجليليين باسم المسيحيين، وهم في هذه الأيام يدعـون من قبل المسلمين باسم النصـارى، وفيهاكـان كرسي بطرس، وفيهـا ولد جـالينوس، الـذي علم الطب لابن أخيـه(أختـه) القديس لوقا الانجيلي، وكان اسم هذه المدينة ربلة(كذا) حتى أيام الملك أنطيخـوس، وفي بداية سـورية المجـوفـة، وباتجاه الغـرب توجـد مـدينة طرسوس، التي جاء منها القديس بولس.

ويوجد أيضاًعلى بعد خمسة أميـال إلى الشرق من عكا المتقدمة الذكر، قرية اسمهـا القديس جـرجس(اللد)وقد أخبرنا أنه في هـذا المكان كان القـديس جيروم(جـرجس) قـد ولد، وإلى الجنوب منهـا تقـوم مـدينة نعسـون Naason ، التي قـرأنا عنهـا في سفـر توبيت، وعلى بعـد فرسخين عـن هناك توجد دوثيم عند سفح جبل بيت أوليـا، وهي التي أراد هولوفرنس الاستيلاء عليها عنوة.

وعلى بعد فرسخين إلى الشرق من نعسون، وثلاثة فراسخ من دوثيم توجـد نفتليم، التي هي مدينة تـوبت، والتي هي مبنية على شكل قـرية، وعلى بعد أربعة فـراسخ إلى الشرق من نفتليم، وإلى جانب بحر الجليل، توجد بيت صيدا، التي هي مدينة أندرو، وبطرس، وعلى بعد فرسخين عن هذا المكان توجـد قلعـة المجـدل، قـرب بحـر الجليل، التي منهـا أخذت المجدل اسمها.

وعلى بعـد فـرسخ واحـد إلى الشرق من بيت صيـدا، يوجـد المكان الذي وقف عليـه المسيح على شـاطىء البحـر، وقـال لسبعـة من الحواريين:«هل لديكـم، أيها الأولاد، أي طعـام»؟، ومن الممكـن رؤية طبعة قدمه فوق صخرة هناك،وإلى الشرق توجد كفرناحوم، التي عمل فيهـا المسيح كثيراً من المعجـزات(متى:١١)، وعلى فـرسخين بعـد ذلك بـاتجاه الشرق يجري نهر الأردن إلى داخل بحـــر الجليـل، وعلى الجزء الأعلى من شاطئه من الممكن رؤية كـورزيم، وفي هذا المكان يبدأ صعود

جبل سعير، وعلى بعد أربعة فراسخ إلى الشرق من كورزيم توجد جدر، التي كانت فيها مضى مدينة محصنة بشكل جيد، ولهذا كتب:«إنني سكنت معهم في جدر».

وعلى بعد أربعة فراسخ إلى الشرق من عكا توجد قانا الجليل، فهناك حول المسيح الماء إلى خمرة، ومكان الاحتفال بالعرس هو كهف محفور في الصخر، ويمكنه أن يستوعب عدة أشخاص، ومن الممكن رؤية الأماكن التي وضعت فيها أواني المياه، والمقاعد والمكان الذي نصبت عليه المائدة، وهذه الأماكن موجودة تحت الأرض، مثلها في ذلك مثل كثير من الأماكن الأخرى المقدسة، من ذلك موضع البشارة والمهد، وعلى بعد فرسخين إلى الجنوب من قانا الجليل توجد مدينة الصفورية، ويوجد عبرها باتجاه طبرية، وذلك فوق دوثيم، جبل بيت أوليا، كما تقدم القول.

وعلى بعد سبعة فراسخ من بيت أوليا، وعلى شاطىء بحر الجليل، توجد طبرية، وقد أطلق عليها اسم طبرية عندما كان هيرود الطيطراخ، ويوجد في ذلك المكان حمامات طبية قائمة على شاطىء البحر.

وإلى الجنوب من عكا، إنما مع الانحراف قليلاً نحو الشرق، توجد الناصرة، المدينة المحبوبة، حيث أينعت الورود التي نبعت من أصل يسي، وهي على بعد سبعة فراسخ عن عكا،وهذه هي مدينة المخلص، وأطلق على يسوع اسم الناصري، لأنه نشأ فيها، وهنا تتدفق مياه نبع صغير، منه اعتاد الصبي يسوع أن ينضح الماء ويجلبه إلى أمه، وعلى بعد ثلاثة فراسخ إلى الشرق من الناصرة يوجد جبل الطور، الذي عليه تغيرت هيئة المسيح، ويمكن للانسان أن يبحث هناك عن مكان خيم العهد الثلاث، ويوجد في هذا الجبل أماكن عميقة مع كهوف تحت خرائب أبنية رائعة، فيها الآن مخابىء للأسود وللحيوانات الضارية الأخرى، وعندما يبدأ الانسان بالنزول من الجبل هناك بيعة قائمة على

الجهـة الغربيـة، وذلك عند المكان الذي قـال فيه الرب:«لاتخبروا أحـداً بالذي رأيتموه».

وعبر وادي هذا الجبل، بين الجنوب والشرق، توجـد رابيـة حـرمـون الصغير، الذي ورد ذكـرها في المزامير، وعلى بعـد أربعـة فـراسخ من الناصرة، وفـرسخ واحد من جبل الطور، يـوجد جبل حـرمون الآخـر، الذي تقعْ مـدينة نين على جـانبـه الشمالي، وذلك حيث أقـام الرب ابن الأرملة من الموت،ويمتـد هذا الجبل نحـو الشرق لمقـدار حـوالي خمسـة فراسخ، باتجاه بحـر الجليل، ويتموقع جبلا جلبوع وحـرمون بشكل أن جبل حـرمـون واقع في الشمال، وجبل جلبـوع واقع في الجنوب، وفيما بينهما سهل عـرضـه فـرسخين، وأربعـة فـراسخ طوله، وكـان هناك فيما مضى من أيام حـروباً عظيمـة ومعـارك فـوق هـذا السهل، فهنا هزم جدعـون المدينيين، وهنا لحقت الهزيمة بشـاؤول على أيدي الفلسطينيين، الذي علقوا رأسه فوق أسوار بيسان، القائمة فيما بين الأردن وجلبوع.

والجليل كلها تقـريباً منبسطة وبلاداً سهليـة، وهي تتصل من الجانب الأول بالأرض المقـدسـة، وذلك حيث تقـوم بلـدة بيت صيـدا، وعلى الجانب الآخـر بالسـامرة التي هي منطقـة جبليـة، وفي السـامرة توجـد سبسطية التي كـانت فيما مضى مدينة جليلة لملـوك اسرائيل، لكنها الآن مهـدمـة كلياً، ومهجـورة باستثنـاء وجـود كنيستين فقط، الأولى بينهما مـوجودة على قمـة الجبل، حيث قـام فيما مضى القصر الملكي، والثانيـة مكرسـة ليوحنا المعمدان، المدفـون هناك فيما بين اليشع وعوبيـدا، حيث من المعتقد أنـه قد جلب إلى هنا من بلدة مكور، القـائمة فيما بين الأردن وسبسطية.

وعلى بعد فـرسخين إلى الجنوب من سبسطية يوجـد جبل بيت إيل، وعلى بعـد فرسـخ آخر يوجـد جبل دان المشرف على مـدينة شكيم على جهة اليسـار، وعلى هذين الجبلين أقام يربعـام العجلين الذهبيين،وجعل

إسرائيل تذنب، وتقوم مدينة شكيم بين هذين الجبلين، التي تعرف أيضاً باسم نابلس، التي هي مليئة بأماكن جميلة جداً، لكنها غير محصنة، ولايمكن تحصينها، فإذا ما قدم العدو من الشمال، وكان سكان المدينة قليلاً عددهم، لايمكنهم أن يفعلوا شيئاً سوى الفرار إلى الجنوب، وإلى شكيم كانت عظام يوسف قد حملت من مصر، ودفنت، وفي الجوار يوجد حقل قطعة الأرض التي أعطاها يعقوب إلى ابن يوسف، وليس بعيداً عن باب المدينة يوجد جب يعقوب، الذي جلس الرب إلى جانبه، والتمس الماء من المرأة السامرية، وفي هذا المكان كانت هناك كنيسة.

وعلى جهة اليمين من شكيم يوجد جبل جرزيم، وفوق هذا الجبل من الممكن أن يرى حتى هذا اليوم معبد يهوه القديم، مع مشفى للغرباء ونزل لهم، وهذا هو الجبل، الذي قيل لنا بأن المرأة قد عنته عندما قالت:«تعبد آباؤنا في هذا الجبل»وعلى بعد فرسخ واحد من شكيم توجد مدينة اسمها لوز، فيها سكن إبراهيم، ويقال بأن يعقوباً قد نام في هذا المكان، ورأى السلم، وذلك عندما قال:«كم هو مرعب هذا المكان»، وأطلق على المكان اسم بيت إيل، علماً بأنه كان يعرف من قبل باسم لوز، ومعنى ذلك وترجمته:«الرب يرى»، لكن بعضهم يقول بأن ذلك كان فوق جبل أكرا، حيث كنت أنا جون بولونير آخر من رأى قصة التضحية مرسومة بأعمال الفسيفساء، في المكان الذي جرى تقديم المسيح فيه، وكذلك يقول بعضهم بأن المكان الذي نام فيه يعقوب ورأى السلم هو جبل موريا، أو الجبل المعشوشب(جبل إبراهيم)، الذي فوقه بنى سليمان فيما بعد هيكل الرب.

ويطلق على السهل القائم فيما بين نهر الأردن وأريحا اسم جلجالا Gilgala ، (الجلجال)، وعلى بعد نصف فرسخ عن هناك يوجد جبل القرنطل، وذلك حيث صام الرب لمدة أربعين يوماً، وهناك أغوي من قبل الشيطان، ويقول آخرون بأن ذلك كان على جبل مرتفع قريباً

جداً من بحر الجليل، وذلك على بعد فرسخين عن الجبل المتقدم الذكر، والذي يوجد على قمته بيعة، فقد أراه هنا جميع ممالك الدنيا، وعند سفح هذا الجبل ينبع نبع اليشع وتجري مياهه، وهو الذي حوله من المرارة إلى العذوبة، وجعله ماء سائغاً للشراب.

وعلى بعد ميل واحد عن الجلجال توجد أريحا، التي كانت فيما مضى مدينة جليلة، لكنها انحدرت إلى حد أنه لم يبق أي أثر يدلك على أنها كانت مدينة، وكان زكّا من هذا المكان، وعندما ينزل الانسان من القدس إلى أريحا، وعند نهاية الجبل، وقبل بداية السهل، يمكنه أن يرى على جانب الطريق المكان الذي جلس عليه الأعمى وهو يستعطي، وهنا كان فيما مضى كنيسة، وعلى الطريق الذي يقود إلى القدس، على بعد أربعة فراسخ عن أريحا، وفي قرية قائمة على جهة اليد اليسرى لبرية القرنطل، يوجد المكان الذي وقع فيه الرجل بين اللصوص.

وعلى بعد ثلاثة أميال إلى الجنوب من أريحا، يوجد دير القديس جيروم، في برية واسعة، تتعرض لأشعة الشمس الحارقة، لذلك لم يبق هناك أي شيء أخضر، وكان قد سكن هناك لمدة أربع سنوات، ومن أريحا هناك فرسخان إلى نهر الأردن، حيث من الممكن أن نرى هناك بيعة مكرسة للقديس يوحنا المعمدان، وقد مشى بنو إسرائيل فوق الأردن بأقدام جافة، ونال نعمان المجذوم البراءة في الأردن، كما وتعمد المسيح في الأردن. وعلى بعد ثلاثة فراسخ، أو ستة أميال، من أريحا، تقوم ساعور في العربية، حيث يوجد تمثال من ملح، إليه تحولت زوجة لوط، الذي هو خطر للذهاب لرؤيته، بسبب المدينيين الذين يسكنون هناك، ويفيض البحر في بعض الأحيان، وترتفع مياهه إلى حد أنها تغطي التمثال كله، ثم يتناقص حتى يبات من الممكن رؤية التمثال، وأحياناً رؤيته حتى الصدر، وأحياناً أخرى حتى الركبتين، لأن هذا التمثال واقف فيما بين ساعور والبحر الميت، وعرض هذا البحر ستة

فـراسخ، وبسبب استمـرار تصـاعـد الأبخـرة منه، ورائحـة النتن، فإن الوادي الذي عـرف فيما مضى باسـم الرائع، قـد صـار أرضـاً جـرداء، لمسـافـة سفـر عشرة أيام، فطوال ذلك لاتحمل الأرض أية أعشـاب، ولاينمو عليهـا أي شيء، فضلاً عن هذا جميـع الجبال، على اليمين وعلى اليسـار جرداء لمسـافـة ستة فـراسخ، وفـوق هذا المكان، وأنت نازل إلى العربية يوجد كرنيم، وهو برج مـراقبة للمآبيين، وإليه جلب بلعام ليتولى اللعنة، حيث كلمتـه الأتان، التي كـان راكبـاً لها، ويفصـل هذا البحـر اليهودية عن العربية.

وفي أيام بني إسرائيل كـانت العـربيـة فيـافي، ومكاناً معـزولاً، حيث أبقـاهـم الرب هناك لمدة أربعين سنـة، يمطر عليهم المن من السماء، وهنا سـار أمـامهم عمـود من نار أثنـاء الليل، وأظلتهـم السحـابة في النهـار، وهناك كـانت المحطـات الأربعين لبني إسرائيل(الخروج، والعـدد ٣٣)، واعرف أن العـربية متصلة بأدوم الموجـودة في جوار بصرى، وأدوم هي بلاد دمشق، ودمشـق هي عـاصمـة سـورية، ويفصـل لبنان أدوم عن فينيقيا، وفي فينيقيا توجد مدينة صـور، وفي العربية يوجد وادي موسى، فهناك ضرب الصخـرة، فنبع الماء منهـا، وفي العربيـة أيضـاً جبل سيناء، فهناك أعطيت الشريعة إلى موسى، وكذلك يوجد في العربية الجبل الذي دفن عليـه هرون، وفي العـربيـة جبل عبريم، حيث دفن الرب مـوسى، الذي لم يشاهد قبره في أي مكان، وفي العـربية يوجـد المكان الذي اسمه بتراء في الفيـافي، أو الشـوبك(الملوك الثـاني:١٤/٧)، وفي مكان مـرتفع وراء الأردن، وعلى مقـربة من مـدينة Rabath التي هي ملك لأبناء عمون، وذلك عنـد نهاية الأرض المقدسة، هنـاك كانت قلعة، هـي قلعة بتراء في الفيـافي(الكرك والشوبك)، وكـانت قوية بما فيـه الكفاية، وقـد بناها بلـدوين، الملك اللاتيني الأول في القـدس، بقصـد الدفـاع عن المملكة.

-٤٣١٦-

حول أرض مصر

مصر أرض مستوية ودافئة، ونادراً ما تمطر هناك، لكن البلاد تسقى من قبل نهر جيحون، الذي يعرف باسم النيل، ولهذا النهر سبعة فروع تجري في مختلف المناطق، وفي النيل تنشأ الخيول البرية والتماسيح بأعداد لاتحصى، ويشبه التمساح العظاءة، حيث يمتلك أربعة أقدام، وأرجل قصيرة وغليظة، وفكين حادين مثل فكي الدب، ورأس مثل رأس العظاءة، وعندما يخرجون من الماء ويسيرون فوق اليابسة يقتلون أي إنسان أو حيوان قدروا عليه، وخروف أو جدي لايكاد يكفي أحدهم لوجبة واحدة. ويبدأ النيل بالفيضان في عيد ميلاد القديس يوحنا المعمدان، ويستمر حتى عيد تمجيد الصليب المقدس، ومن ثم يبدأ بالتناقص حتى عيد الغطاس، عندما تبدأ الأرض الجافة بالظهور، ويزرع الفلاح بذاره، ويكون الحصاد في آذار، ويجري جني مختلف أنواع الخضار ابتداءا من عيد القديس مارتن حتى أوائل شهر آذار، والشيء نفسه يحدث بالنسبة لفواكه الحدائق، وتحمل الأغنام والماعز وتلد مرتين في السنة.

وعليك أن تعرف أن هناك ثلاثة مدن اسمها بابل، أولاها قائمة على نهر الدجلة، فهناك كان نبوخذ نصر ملكاً، والثانية موجودة في مصر، وفيها كان يحكم فرعون، وهاتين المدينتين مدمرتين، والمدينة الثالثة، التي نتعامل الآن معها، موجودة أيضاً في مصر، ومتصلة بالمدينة التي اسمها القاهرة، التي يوجد فيها قصر السلطان الملكي، وهي مدينة بابل الجديدة نفسها، ويوجد في هذه المدينة خمسة شعوب هم: الرومان، والاغريق، واليعاقبة المسيحيين، والمسلمين، واليهود، ويوجد هناك كنيسة بطريرك لليعاقبة اسمها كنيسة سيدتنا سيدة لازا Laza ، وهي ذات جمال عجيب، وهي كنيسة بطريرك اليعاقبة، ويوجد فيها عمود، منه صدر صوت يقول:«اذهب وابحث عني.... هذا الرجل ينقل الجبال»،

ويوجد هناك أيضاً كنيسة مكرسة للقديسة بربارا، ويوجد الآن فيما بين بابليون والقاهرة خمس عشرة كنيسة مسيحية، الأولى بينهن هي الأكثر قداسة بين الجميع، ففي هذه الكنيسة بيعة موجودة تحت الأرض، فهناك يوجد المكان الذي سكنت فيه العذراء المباركة مع ابنها يسوع، ويوسف، وكان ذلك عندما هربت من أرض اسرائيل، ويوجد هناك صليب صنع بمثابة علامة للتدليل على المكان الذي اعتاد الطفل أن ينام فيه، وعلى هذا، هذه هي الكنيسة الأكثر قداسة بين الجميع، وهي أسمى مكانة من الكنائس الأخرى، واسمها كنيسة سيدتنا سيدة قانا في بابليون.

وكان يوجد في القاهرة شجرة نخيل معرقة بالقدم، وهي التي حنت نفسها، ونزلت إلى الأسفل إلى العذراء المقدسة، حتى تتمكن من جمع التمر وقطافه منها، ثم نهضت بعد ذلك، ووقفت كما كانت من قبل، ولقد قرأنا بأن برج بابل كانت مساحة إطاره الخارجي من طرف إلى الطرف الآخر ألفاً واحداً وعشرين خطوة، وأن سماكة سوره كانت ثلاثمائة خطوة، لأنهم قصدوا أن يبنوه حتى يحاذي القمر.

وتبعد غزة — أو غزرة — سفر ثلاثة أيام عن القدس، وهي إحدى مدن الفلسطينيين الخمسة، وقد انتزع شمشوم أبوابها، وحملهم حتى ذروة رابية. وعلى بعد ثلاثة أيام عن غزة توجد مدينة دمياط، وهي مدينة مصرية، فهناك فيها رجم إرميا، والمدينة الثانية هي مدينة عكا، ذلك أنها تعدّ إحدى مدن الفلسطينيين الخمسة، وهي تبعد عشرة فراسخ عن عسقلان وذلك باتجاه يافا، ليس بعيداً عن البحر، وتقع بير السبع بين المنطقة التلية وبين مدينة غزة. وكانت غاث أيضاً واحدة من مدن الفلسطينيين الخمسة، وهي قائمة ليس بعيداً عن اللد والرملة، ومن خرائبها جرى بناء قلعة ابلين(يبنا)، وكان ذلك فوق التلة نفسها، وبلدة يبنا هذه وقلعة يبنا(كذا) هي التي كان اسمها في القديم بير

السبع، وقد بنيت قلعة تل الصافية لتوقف أذى العسقلانيين، والملك هيرود، الذي في أيامه ولد المسيح، كان من أهالي عسقلان، وعلى بعد ثلاثة أميال عن عسقلان تقوم قلعة تل الصافية، وعلى شاطىء البحر، ليس بعيداً عن عكا، تقوم يافا التي أقام فيها القديس بطرس تابيثا Ta-bitha من الموت.

(٣)
جولات الراهب الدومينيكاني فيلكس فابري ورحلاته
حوالي
(١٤٨٠ —١٤٨٣م)
القسم الأول

كتاب جولات الراهب فيلكس فابري ورحلاته

مدخل .

وصف الراهب فيلكس فابري في إهدائه التكريسي الذي تاريخه ١٤٨٤، بعد عودته للمرة الثانية من الأرض المقدسة، كيف أنه سافر إلى هناك مرتين، وكيف سعى جاهداً أثناء ترحاله للوفاء بالعهد الذي قطعه على نفسه لإخوانه الرهبان، في دير أولم Ulm الدومينيكاني بأن يحتفظ بسجل تام ودقيق حول كل ما رآه، وما نزل به أثناء رحلته،وأضاف أنه «إلى جانب ذلك، بذلت في بعض الحالات جهداً كبيراً، لكي أكتب وصفاً دقيقاً وتاماً حول بعض الأماكن المقدسة التي لم أذهب قط إليها، لكنني لم أفعل ذلك دون أن أضيف:أنا لم أذهب إلى هذا المكان، بل سمعت حوله أو قرأت».

وتحدث عن نفسه في توطئة كتابه هذا، على أنه إنسان قد زار ثلاثة أرباع العالم المعروف آنذاك، وحيث أنه كتب قبل عشر سنوات من اكتشاف أمريكا، من المفيد أن نقرأ إشاراته إلى جزر التوابل، وإلى شهرة سيبانجو Cipango التي كان الوصول إليها عبر طريق قصير هو الهدف الأساسي لرحلة كولومبوس، وقد اعتذر أيضاً عن أسلوبه اللاتيني، الذي وصفه الأستاذ س.د.هاسلر Hassler الألماني الذي حقق كتاب رحلته، بأنه أسلوب سخيف الأساس في الـ"Epistolae abscurorum Virorum» ، وقال:كان من المتوجب وقوع كتابه في أيدي الكهنة الذين يهملون الانجيل والأنبياء ليفرغوا لقراءة فرجيل والشعراء اللاتين والخطباء، فوقتها ما كان لينجو من سخريتهم ونقدهم الشديد،لأن هؤلاء الناس يحبون روما الوثنية أكثر من القدس المسيحية، على الرغم من قول بعضهم:«إذا ما نسيتك ياقدس، لينشق

لساني في سقف حلقي»الخ.

ووصف مطولاً رغبته في رؤية الأرض المقدسة، ونقل عن توطئة القديس جيروم لسفر أخبار الأيام، أن الذي يبحر من طروادة إلى صقلية، سيكون بإمكانه أن يفهم بشكل أحسن القسم الثالث من كتاب الإنياد لفرجيل، وعلى هذا الأساس: إن الذي سوف يتمكن من رؤية اليهودية بعينيه، سوف يتملك رؤية أوضح ونفاذاً لما جاء في الكتابات المقدسة، واستطرد القديس جيروم يقول:«ولهذا تحملت أعباء الترحال خلال جميع أرجاء هذه المنطقة، بصحبة أفضل المتعلمين العبرانيين»، وهنا استطرد فابري يقول:«إذا كان القديس جيروم العظيم، الذي كان إنساناً عالي الفهم، ومثقفاً، رأى أن عليه زيارة الأماكن المقدسة، حتى يتمكن بصورة أفضل من فهم الكتابات المقدسة، ولاعجب على هذا إذا ما حاولت أنا ومن هو مثلي، بليد بطيء في الفهم، ببعض الوسائل الحصول على بعض من المعلومات الضئيلة عن الكتابات المقدسة، في الحقيقة إننا نرى في أيامنا هذه مجرد بعض الناس العلمانيين، الذين لايمتلكون معرفة عن الكتابات المقدسة، أنهم بعدما أدوا الحج إلى الأماكن المقدسة، وعادوا من هناك، صاروا قادرين على المناقشة حول الانجيل وحول الأنبياء والتحدث حول مواضيع لاهوتية، ويتغلبون أحياناً على بعض رجال الدين المتعلمين في تفسيرهم لبعض النصوص الصعبة في الكتابات المقدسة،لأنه ما من كاثوليكي قد عاد من هناك من دون أن يصبح متعلماً أكثر وبما أنه على هذا يعود الرجال العلمانيين من الأماكن المقدسة لاهوتيين، لايوجد شك أن رجال الدين من بعض الطوائف ورجال يمتلكون معارف قليلة، سوف يعودون متعلمين بدرجات ليست صغيرة، ولهذا السبب، ولأسباب أخرى كثيرة، شرحتها في مجريات إطرائي للأرض المقدسة، ولأسباب أخرى ليس من الضروري بالنسبة لي ذكرها، عزمت على التوجه إلى القدس، وثبتّ

وجهي نحوها، مثلما قيل عن الرب يسوع في لوقا:٩/ ١٥، وبقدر ما هو مسمـــوح لراهب أن يفعل، وربطت نفسي بيمين أن أقــوم بالـرحلة، ويشهـد الرب أنني كنت لسنوات متحـرقـاً بلهفـة للقيـام بحجي، وهو الموضـوع الذي كنت أفكر به دون سـواه سـواء أكنت مستيقظاً أو نائماً، وأقـول صادقـاً أنني وأنا منشغل بهذه الأفكار، بقيت مستيقظاً أكثـر من ألف ساعة من ساعات الليل ووقت الراحة.

فضـلاً عن هذا، لم يكن من السهل بـالنسبـة لي أن أطلب إذناً لرحلة طويلة جـداً، وجـولات غير اعتيـادية، وبدا لي أنه من المستحيل تقـريبـاً الحصول على هذا الاذن، كما أنه لم تكن لدي أيـة فكرة عن الطريقة التي يمكنني فيهـــا تـأمين المال للانفـــاق على مثل هذه الـرحلة العظيمـــة التكاليف، ومع هذا لم أبـق بلا حـراك، وسألت نصيحـة عـدد كبير من الناس، ولم أجد سبيلاً لتجنب الاقامة في الوطن، وعلى كل حال، حملت نفسي أخيراً إلى الأمير المشهـور، كــونت إبرهارد Eberhard الأكبر أوف وورتمبورغ Wurtemburg، الذي كـان موجـوداً في الأراضي المقدسة منذ وقت طويل، والذي هو مرتبط بعهود الفروسية، حيث كان قـد تسلم شـــارة الفـروسيـة في كنيسة الضريح المقـــدس، التي هي في القدس.

وطلبت الحصـول على نصيحتـه الفخمة، حـول كيف يمكنني القيـام بالحج، الأمر الذي تعهدت القيام به، لأنني كنت خائفاً، وشاعراً بالخطر على حيـاتي، كما أنني ارتعبت من البحـــر، الذي لم أره قط بعـد، والذي سمعت عنه الكثير، كما وكنت مـرعـوباً من مخاطر الحج الأخـرى، التي قـــرأت عنهـا كثيراً جـــداً، ولهذا سعيت إلى هنا وهناك للحصــول على النصيحـة ، وبعدمـا استمع الكونت إليّ أجابني بشكل اعتيـادي قائـلاً: هناك ثلاثة أعمال في حيـــاة الانســان، لايجوز لأحـد أن ينصـح آخـر أن يفعلهـا أو لايفعلهـــا، أولها هو إبرام عقـد زواج، وثانيهـــا الذهاب إلى

الحرب، وثالثها أن يقوم بزيارة الضريح المقدس، وأنا أقول بأن هذه الأعمال الثلاثة جيدة في ذاتها، لكن من السهل تحولها إلى سيئة، وعندما يحدث ذلك، فإن الذي أعطى النصيحة يمكن أن يصبح بسهولة ملوماً وكأنه هو السبب في تحولها إلى سيئة، وهنا استطرد الكونت العاقل يقول بأن الحج الذي أسأل نصيحته حوله هو عمل يمكن أن تكون له فضائله، وهو مقدس، وعمل محمود، ومفيد جداً، إنما فقط للذين يقومون به لحمد الرب وشكره، وهو في الحقيقة مليء بالمخاطر بالنسبة للذين يقومون به عبثاً أو غواية، حيث يكون هدفهم التفاخر في هذا العالم، أو أي أمور فارغة وزائلة أخرى.

وزرت أيضاً نبيلاً آخر كان فارساً حسناً، كان أيضاً قد تلقى شارة الفروسية منذ سنوات طويلة مضت في الضريح المقدس، وسألته ما الذي يمكن أن يشير به عليّ بالنسبة لهذه المسألة، فأجابني من صميم قلبه مباشرة وهو منفعل قائلاً:كن متأكداً ياأخي، لولا أنني معاق بتقدم السن، ما من شيء يمكنه أن يمسكني ويحول بيني وبين العودة للقيام بحج آخر، لأنني لم أتلق النعمة من الرب بمثل القدر الواسع الذي تلقيته في الأماكن التي صُنع بها خلاصنا، لأنني كنت حيثما أخذت نفسي للصلاة ، وأدرت تفكيري، كنت أرى السموات مفتوحة، والعذوبة الربانية والسلوى منصبة على روحي، وهو أمر لانظير له في مكان آخر.

ومضيت بعد هذا إلى واحد من ديرة الراهبات، والتمست الحصول على إذن راعية الدير حتى أتحدث مع فتاة من الراهبات معروفة بتقواها، وتمتعت — كما اعتقد كثيرون — بقداسة استثنائية، وكنت قد تحدثت معها مراراً من قبل حول تنويري وتثقيفي، غير أنني لم أر وجهها من قبل، وأبحت لهذه الفتاة خطتي، فأجابت بسرور غير متوقع قائلة:«أسرع، أسرع في إنجاز رحلتك التي تنوي القيام بها، ولاتقم هنا

أية مـدة أطول، وليكن الرب رفيقك على طريقك»،وتلقيت كلمات هذه الفتـاة، وكأنهن جئن من السماء،وبدأت على الفـور بالاعـداد لجولاتي ورحلاتي، وكان في تلك الآونة في الدير التابع لطائفتنا في روما، والقائم فوق معبد مينيرفا راهب من بلادنا، وهو صديق لي ولي به معرفة جيدة، وله كتبت مخبراً عن نيتـي، والتمست أن يحصل لي على إجـازة من أبينا الأعظم قـداسة، البابـا سكتوس Sixtus الرابع، ومن القـائد العـام لطائفتنا المحترم الأب ليـوناردِ دي مـانسـوتي Mansuetis أوف بيرسيوم Perusium ، الذي بدون الحصول على إذنـه أولاً، ما من أحد في بلادي سيمنحنـي إجازة بالارتحال، وقام هذا الراهـب، كصديق جيـد، دونما إبطاء، وبسرعــة، بالحصـول على الذي طلبتـه، وبعث إلي برسالة إجـازة موثقة من القـائد العام لطـائفتنا، حيث حذر جميع الناس أن مـا من واحد أدنى منه مـرتبـة يحق له التدخل لإعـاقتي، ومنعي من القيام بهذا الحج.

ولدى تسلمي لهذه الرسـالة، بعثت بنسخـة عنهـا إلى الأب المحترم لمنطقتنا الاقليميــة، وإلى الحكيـم اللاهوتي لـودويغ فـوشي Ludwig Fuchs ، راعي دير أولم، وأريتهما إجـازتي التـي حصلت عليهـا من السيـد البـابا، ومن مقدم طائفتنـا، ورجوتهما أن يقـومـا مثلهما بالتفضل بإعطائي مـوافقتهما، ولدى رؤيتهما رغبتي الشـديدة بالذهاب، لم يكتفيـا بإعطائي موافقتهما، بل منحاني مـالاً ومساعدة من أجل الرحلة، وهكذا حدث أن أصبحت خـلال عدة أيام قليلة وبتّ مـزوداً بشكل رائع بكل مـا هو مطلوب لمثل هذه الرحلة العظيمـة، وعندما بلغ هذا إلى مسـامع أحد النبـلاء والفرسان الشجعـان، اللورد أبوليناريس فون ستين Apol-linaris Von Stein ،الذي كان آنذاك حاكـم بافاريا العليا، ومقيماً في بلدة غندلفنجن Gundelfingen ، أمـر بإحضـاري إليه، وعهـد إليّ بالعناية بابنه السيد جـورج فون ستين، الذي قرر إرسـاله إلى القدس

ليتلقى شارة الفـروسية هناك، ووعدني بالتعـويض عن جميع نفقاتي، مع أعطيات فوقهن، ورعايته المستقبلية، إذا ما وافقت على أخذ ابنه كمرافق لي في رحلتي.

وقـدمت موافقتي عن طواعيـة لهذا السيد النبيل، واتفقت مع السيـد جـورج على يوم حـددناه، حيـث يمكنه أن يجدني فيـه في بلدة ميمنجن Memmingen ، فمن ذلك المكان، وفي ذلك اليـوم يمكننا أن نبـدأ رحلتنا، وبعدما قمت بهذه الترتيبات عدت إلى أولم».

وصف موجز لرحلة الراهب فيلكس فابري الأولى إلى الأرض المقدسة

في أيام الاحتفال بعيد الفصح، في سنة ١٤٨٠ لتجسيد ربنا، وفي اليوم التاسع من شهر نيسان، الذي كان يوم أحد، وهو اليوم الثامن بعد عيد الفصح، وهو الذي فيه يغنى« Quasi modo » الخ في الكنائس، والذي يحتفل فيه أيضاً بعيد تكريس كنيسة الدومينيكان في أولم، في ذلك اليوم نفسه، بعد الغداء، وحسبما جرت العادة، صعدت المنبر، ووعظت الناس الذين كانوا موجودين بأعداد كبيرة، لسماع القداس وللحصول على الغفران، وبعدما أنهيت قداسي، وقبل الاعتراف العام الذي يقوم به الناس في مثل هذه المناسبات، أخبرتهم جميعاً عن الحج الذي كنت على وشك الشروع به، وسألتهم جميعاً، والتمست أن يطلبوا من الرب في صلواتهم لي عوداً سليماً، وأن يغنوا معي في ذلك الوقت بسرور مزمور قيامة الرب، الذي اعتاد الناس على غنائه مع بعضهم، مع مزمور الحجاج بالبحر، وبعدما قلت هذا، شرعت أُنشد بصوت مرتفع«قام المسيح»الخ، وعندما انتهت هذه الترنيمة، غنيت مجدداً:

، In gottes Nahmen Fahren wir, Seiner gnaden

وغنى جميع الناس الترنيمة ورائي، وهي التي شرعت بها، غنوها بأصوات مرتفعة وجميلة، وكرروا ما غنوه مراراً وتكراراً، كما أنهم لم يضبطوا أنفسهم عن البكاء، وانفجر بعضهم بالبكاء بصوت مرتفع بدلاً من الغناء، لأنه كان هناك عدد كبير من الأشخاص من كلا الجنسين قلقين ومتوترين، وخائفين، مثلما كنت أنا نفسي خائفاً من الهلاك وسط هذا القدر من المخاطر المرعبة، وعندما انتهى الغناء أودعتهم لعناية

الرب، بأن أضفيت عليهم غفراناً عاماً، وقويت عزائمهم بشارة الصليب، وودعتهم، ونزلت من على المنبر.

وبعدما تلقيت في الصباح الباكر من اليوم الرابع عشر من نيسان المباركة التي تعطى إلى الذين على نية السفر، وبعدما قبلت إخواني وعانقتهم، ركبنا على خيولنا، أنا والمقدم المحترم لودويغ، مع خادم من مدينة أولم، حيث التقيت وفقاً لموعدي مع السيد أبوليناريس فون ستين، وبصحبته ابنه جورج، وعدداً كبيراً من الجنود المسلحين، وعلى الفور أجرينا في اليوم التالي الاستعدادات للمغادرة، وودع الشاب النبيل أباه، وجميع أقربائه وحاشيته، وركب فرسه دونما وجل أو أسى، واندفعت أنا أيضاً إلى بين ذراعي أبي الروحي اللطيف جداً والمحبوب، أطلب منه الوداع، والمباركة الأبدية، إنما ليس من دون حزن وأسى، ظهر منا كلانا بوساطة كثير من الدموع والتنهدات، ولم يكن هناك شيئاً عجيباً حول هذا، لأن الفراق الاجباري للابن عن أبيه وللرجل الصادق عن أصدقائه المخلصين، من الطبيعي هو محزن.

وفي أثناء عناقي وتنهداتي سمعت آخر كلمات أبي المحبوب جداً ونصائحه، بأن لا أنساه في الأرض المقدسة، وأنه إذا ما توفر رسول، بأن أرسل له رسالة من البحر، أخبره فيها عن أحوالي، لكي يتأكد من عودتي سريعاً، وهكذا تركني وهو آسف جداً، وعاد مع خادمه إلى أولم، إلى أبنائه الذين هم أخواني، وبعد مغادرة أبي، استولى عليّ إغواء لايمكن مقاومته، بدلاً عن رغبتي الجامحة لرؤية القدس، والأماكن المقدسة، التي كانت تتوهج في داخلي حتى ذلك الحين، فقد ماتت كلياً في داخلي، وشعرت بأنني أكره السفر والترحال، والحج، فالذي بدا لي حلواً وفضيلاً، ظهر الآن أنه مرهق، ومؤلم، وبلا فائدة، وفارغ وأثيم، وكنت غاضباً من نفسي لإقدامي على الترحال، ونظرت إلى جميع الذين حاولوا ثنيي عن القيام بالرحلة، بأنهم أحكم المستشارين، وأوثق

الأصـدقـاء، وفي الوقت نفسـه عـددت الذين شجعـوني أعـداء حيـاتي، وصرت أرى أنني سأتمتع أكثـر برؤية ســوابيـا من رؤية بـلاد كنعـان، وبدت أولم إليّ أكثر جمالاً من القـدس، فضلاً عن هذا ازداد الخوف من البحـر في داخلي وتضـاعف، وشعـرت بكثير مـن مشـاعـر المعـارضـة والرفض لذلك الحج، إلى حـد أنه لـولا الخجل، لركضت خلف المقـدم لودويغ، وعــاودت الدخــول إلى أولم معــه، وكنت سأشعــر بالسرور الأعظم لفعل ذلك.

وبقي هذا الاغـواء اللعين معي مـوجوداً طوال الرحلـة كلها، وكـان مـزعجـاً جـداً لي، لأنه ذهب بكل السرور، والمتعـة، والرغبـة، فبـذلك يدعـم الحاج جهـوده، وذلك يحثــه على الاستمـرار بعمله، وقـد جعلني باهتـاً وبليـداً في كل من مشـاهـدة الأمـاكن الجديرة بالاهتمام في البحـر والبر، وفي كتـابة رواية عنهم، وكان الذي كتبتـه هو ضد مـزاجي، لكن نجحت أحياناً في التغلب على سئمي بالعمل المرهق.

وعلى هذا انطلقت أنا والشـاب السيـد جـورج، وخـادم اختـاره من حاشيـة أبيه، وأقلعنا من ميمنجن، وفي خـلال عدة سـاعات بدأ يصبح صديقاً لي، وعـارفاً بي، وصرت أيضاً أنا صديقاً وعـارفاً به، وقد توافقنا بطباعنا المتنوعـة معاً بشكل جيد، وهذا أمـر مريح جداً للذين يقـومون بالحج مع بعضهم، لأنه إذا مــا كـان مع الانسـان رفيق على غير وفـاق معه، سيلفهما الأسى والويل طوال حجهما.

وهكذا دخلنـا إلى الألب مبتهجين حتـى انسبروك Innspruck ، وبعد مغـادرتنا لذلك المكان، ركبنا وتقدمنا مسرعين، من أجل أن نصل في أقرب وقت إلى البندقيـة، وعندما كنا في الجبال، حـدث حادث معنا أرغب في إخبـاركم عنه، فعندمـا وصلنا إلى قرية اسمهـا أدسكالام Ad Scalam، شردنا هناك وابتعـــدنا عن طريقنا الصحيـح، الذي هو الطريق الملكي العام، لأنه كان مـن المتوجب علينا تسلق الجبل، والعبور

من قـرب القلعة القائمـة على قمته، وعلى كل حـال نحن لم نفعل ذلك، بل خلفنا الجبل والقلعة على جـانبنا الأيسر، ونزلنا إلى وادي، من خلال طريق طويل، وممهـد بشكـل جيـد، وعندمـا تملكنا أخيراً إمكانيـة رؤية السهل القائم تحت الجبل، رأينا أمامنا بلدة ذات حجم جيد، الأمر الذي أدهشنا، لأننـا لم نكن نعلم بـأننا سنصل إلى أي بلـدة في ذلك اليـــوم، وعندما وصلنا إلى تلك البلدة وجدنا أنها كانت باسانو Bassano ، وأدركنا بأننـا شردنا عن طريقنـا، وبقينا على كل حـــال هناك لمدة ليلة، وشربنا نبيذاً أحمر، هو الانتـاج الخاص لذلك المكان، وظللنا نفعل ذلك حتى غلبنا النعاس، وكنا على كل حال غير مرتاحين مطلقاً، لأنه لم يكن هناك في النزل أحـداً يمكنه التحـدث بالألمانيـة معنا، وبما أننا كنا نجهل الايطالية، توجب علينا أن نسأل عن كل شيء بالاشارة.

وركبنا في اليـوم التـالي إلى قلعـة فـرانكـو، ومن هناك مـررنا خـلال تريفيسو Treviso ، حيث بعنا خيولنا، وتابعنا السفر على البغال إلى مرغيروم Margerum ، وفي مرغيروم قلنا لليـابسة وداعاً، وسـافرنا بالبحر في بارجة، حيث أبحرنا حتى البندقية ثم إلى فونداكو دي تديتشي Fondaco de Tedeschi ، وسألنـا في فـــونـداكـــو عـن نزل للفرسـان والحجاج، وأُخذنا من قبل واحـد من الألمان إلى نزل القديس جورج، الـذي كان نزلاً واسعاً ومحترمـاً، ووجدنا هناك عـدداً كبيراً من النبـلاء من مختلف البلدان، كلهم قـد ربطوا أنفسهم بالتعهدات نفسهـا مثلما فعلنا نحن شخصيـاً، وكـانوا ينـوون عبـور البحـر، وزيارة ضريح الرب يسوع الذي هو أعظم الأضرحة قـداسة، وكان هناك أيضاً بالنزل الأخـرى كثير من الحجـاج من كل مـن الكهنة والرهبـان والرجـال العلمانيين، والأعيان والعـاديين، من ألمانيا،وغاليـا وفرنسـا، وكان هناك بشكل خاص أسقفان، وهما مـولاي أسقف أورلين، ومولاي أسقف لى — مـانس، مع حـاشيـة كبيرة من التـابعين والخدم، ولقـد كـانوا هناك

ينتظرون إبحار إحدى السفن، وفضلاً عن هذ كان هناك معنا بعض النسوة المتقدمات بالسن، وكن عقيلات ثريات، عددهن ست، يرغبن بعبور البحر إلى الأماكن المقدسة، وكنت مندهشاً تجاه شجاعة تلك النساء العجائز، اللائي كن بسبب تقدمهن بالسن بالكاد قادرات على القيام بأود أنفسهن ومع ذلك نسين ضعفهن، والتحقن من خلال حبهن للأرض المقدسة بفرسان شباب، وتحملن أعباء ومتاعب الرجال الأقوياء.

وعلى كل حال لم يكن النبلاء المتكبرين راضين عن هذا، ورأوا عدم النزول في السفينة التي سوف تسافر بها هؤلاء السيدات، عادين أنها إهانة بالنسبة لهم السفر وتلقي شارة شرف الفروسية برفقة نساء عجائز، وحاول أصحاب هذه الأرواح المتشامخة إقناعنا بعدم العبور في السفينة التي عزمت النساء العجائز على الابحار فيها، لكن الفرسان الآخرين من ذوي الضمائر عارضوا هؤلاء الرجال المتشامخين، وكانوا سعيدين بحضور أولئك النسوة الصبورات، وكانوا يأملون أن قداستهن سوف تجعل رحلتنا آمنة أكثر، وعلى هذا الأساس تفجر نزاع لايمكن فضه بين هؤلاء النبلاء، وقد استمر حتى نقل الرب أولئك الرجال المتشامخين من بيننا، وعلى كل حال هؤلاء النسوة التقيات بقين برفقتنا في كل من أثناء الذهاب إلى هناك، ثم في أثناء العودة.

وكان الآن السيد أوغسطين كونتاريني Contarini ، الذي معنى اسمه هو«كونت الراين»، وهو نبيل بندقي، كان ذاهباً ليأخذ شحنة من الحجاج، واتفقنا معه حول الايجار، واكترينا غليونه، وتسلمنا منه قمرات وأغطية، أي أماكن لكل واحد منا للنوم في الغليون، وأملنا بعبور سريع، ذلك أننا انتظرنا أياماً كثيرة، كان الغليون خلالها يعدّ من أجل البحر، لكن عندما كان كل شيء جاهزاً، ولم يبق شيء لعمله سوى الاقلاع، الذي تشوقنا كثيراً إليه وللقيام به، وصلت سفينة، حملت

أخباراً سيئة، بأن امبراطور الأتراك محمداً الكبير كان يتولى حصار جزيرة رودس بحراً، بأسطول كبير في البحر، وبجيش شاكي السلاح من الفرسان والرجّالة براً، وأن بحار: الإيجي، والكارباثيان Carpath-ian ، والماليان Malean كانت تعج بالأتراك، وأنه على ذلك من غير الممكن القيام خلال هذا العام بعبور الحجاج إلى الأرض المقدسة، ولن يكون سهلاً بالنسبة لي الحديث بأي أسف تلقى الحجاج هذا الخبر وسمعوه، وسيكون مرهقاً بالنسبة لي الحديث عن الفوضى، والخلافات والنزاعات التي تفجرت بين صفوف الحجاج، وقمت على كل حال في عمل آخر، بوصف جميع المصاعب التي كابدناها في البندقية، وكيف انفصل الفرنسيون عنا، مع أنهم كانوا ينتمون إلى غليوننا، واجتمعنا الآن نحن الحجاج الألمان، مع بعضنا، وقابلنا رئيس مجلس شيوخ البندقية، مع التماس بأن يتكرم اللوردات هناك بحماية غليوننا مع إعطائه أماناً بالمرور، حتى لايؤخذ من قبل الأتراك، ونؤخذ نحن معه أسرى، وتلقينا لالتماسنا جواباً، بأن الغليون بذاته يمتلك الحرية بالجواز بين الأسطول التركي، ويمكنه القيام بذلك، دون أن يتعرض للاستيلاء عليه بفضل المعاهدة بين الأتراك والبنادقة، غير أن اللوردات كانوا على غير استعداد لإعطائنا أية ضمانة، فيما يتعلق بحرية الحجاج، ولم ينصحوا بمحاولة العبور هذا العام، لكن إذا كنا جميعاً مصرين على الذهاب، يمكننا الابحار حتى جزيرة كورفو، حيث يرسو قائد البحر مع أسطول البنادقة، ويمكننا هناك أن نتبع بأمان نصيحته، لأنه يعرف جميع أعمال الأتراك، وعندما وافقنا على فعل هذا، أعطونا رسائل توصية إلى القائد المتقدم الذكر، وأذنوا لنا بالذهاب، وزودوا قبطان سفينتنا بإذن لأن يأخذنا إلى البحر، مع أنهم من قبل كانوا قد منعوه من أخذنا إلى أي مكان.

وبناء عليه صعدنا جميعاً من حجاج وسواهم على ظهر الغليون،

وكان عدد الحجاج مائة وعشرة، وكان تعداد الناس جميعاً الذين أقلعوا بالغليون ثلاثمائة وثلاثين، ورفعنا مراسينا، ونشرنا أشرعتنا، وأقلعنا باسم الرب، وأبحرنا أمام الريح، التي كانت لطيفة بها فيه الكفاية، وهكذا سرنا في خلال ساعتين مسافة جيدة حيث ابتعدنا عن اليابسة، وصرنا في أعالي البحار، وعلى كل حال لم تستمر ريحنا الطيبة طويلاً، ورسونا في اليوم الثالث في بارنشيا Parentia (Parenzo)

الموجودة في منطقة استريا Istyria التي هي جزء من مملكة دلماشيا.

وأخافنا الناس هناك. بإخبارنا حكايات مرعبة عن الأتراك، ولهذا مكثنا هناك لعدة أيام، لأنهم أخبرونا أننا لن نستطيع الوصول إلى جزيرة كورفو دون التعرض للأذى،لأن الأتراك قد نشروا أسطولهم فوق جميع البحر الأدرياتيكي، واصطادوا واستلبوا جميع الذين قابلوهم، وعلى كل حال غادرنا ذلك الميناء، ووصلنا بعد إبحار بطيء لعدة أيام إلى زارا، ورسونا فيها، وهي مدينة في دلماشيا، إنما لدى سماعنا بأن الطاعون كان متفشياً هناك، ابتعدنا بسرعة عن تلك المدينة، وبعد رحلة بطيئة ومملة وصلنا إلى مدينة ليسينا Lesina ، وعندما كنا على وشك الدخول إلى الميناء، هبت ريح طيبة، لها نشرنا أشرعتنا، وغادرنا ليسينا، وتابعنا الابحار بشجاعة لمدة عدة ساعات، وهبت بعد ذلك ريح هادئة، كانت غير مفيدة بالنسبة لنا، فأردنا التوقف، فأتينا إلى جزء وعر ومهجور من شاطىء كراوشيا Croatia ، وأرغمنا على التوجه نحو ميناء مهجور، و لأن نطوي أشرعتنا في وسط جبال وعرة عالية، ولكي نبدل الأجواء على أنفسنا، ذهبنا إلى الشاطىء بقوارب صغيرة، وفوجئنا بأن رأينا هناك فوق الرمال جسداً قد قذف به البحر، وهو مشوه ومتعفن، وبما أن البحارة كانوا من ذوي الوهم، فقد خافوا إلى حد الموت من هذا الاكتشاف، وبدأوا يتوقعون وقوع الشرور بالنسبة لنا، وأبعدونا عن

الجسد، ولذلك لم يكن هناك أي واحد بيننا من امتلك شفقه نحوه أو تولى دفنه.

* * * * *

هذا وتهب رياح هذه البلاد أعلى فأعلى، ولقد بقينا لمدة ثلاثة أيام وثلاث ليالي واقفين راقدين بين هذه الصخور، وكنا كلما حاولنا الانطلاق، كنا نساق إلى الوراء عائدين بقوة الريح، مما كان يسبب إزعاجاً عظيماً لنا جميعاً، وعلى كل حال لقد أنقذنا هذا الازعاج، لأنه بعد ثلاثة أيام هبت ريح لطيفة خارج ذلك المكان، وأخذنا طريقنا إلى أعالي البحار، حيث التقينا بغليون حربي بندقي، وعندما مرّ بنا هذا الغليون، سأل قادتنا عما إذا «حدث لنا أي شيء في البحر البارحة أو قبل البارحة»، وعندما أجبناهم: «لاشيء سوى رياح خبيثة أرغمتنا على اتخاد ملجأ تحت الجبال» فأجابونا: «بوركت هذه الرياح التي دفعتكم إلى أماكن للاختباء، لأنكم لو كنتم البارحة في عرض البحر المفتوح، لوقعتم في أيدي الاسطول المسلح للأتراك، الذي كان مبحراً نحو أبوليا لينهب المسيحيين هناك»، ولدى سماعنا بهذا حمدنا الرب الذي أنقذنا حتى الآن من أيدي الأتراك.

ومضينا على طريقنا، ووصلنا بعد عدة أيام إلى كورزولا Cur-zola في إيليريا Illyria ودخلنا إلى ميناءمدينة كورزولا في الصباح الباكر، وسمعنا قداساً هناك، وكورزولا التي هي مدينة في إيليريا لها اسم آخر هو «بريبو في ألتو Prepo in alto» ، وهي مبنية فوق جبل مرتفع، وهي صغيرة، ومع ذلك مكتظة بالسكان، وهي تحت حكم البندقية، كما أنها جيدة التحصين بالأسوار والأبراج، وهي مقر أسقف.

وكان السكان جميعاً في حالة رعب عظيمة، من الأتراك الذين رأوهم

يوميـاً يجوبون البحـر بحثـاً عما يمكـن نهبـه، فهم قـد ينقضـون عليهم، وتساءلوا مندهشين كيف يمكن لنا أن نغامر بالإبحـار فوق بحر مرعب وخطير إلى هذا الحد، ونصحنا الأكثـر حكمة بينهم بالعـودة، غير أننا لم نصغ إليهم، وعـاودنا الاقـلاع، بعدمـا اشترينا من هذه المدينة الخمـرة، والخبز، وأشياء ضرورية أخرى، وحـدث أنهم عندما كانوا يحركون قلع السارية ويـرفعونه بدون انتباه مـن قبل واحد من البحارة، سقـط ثانية، فأصاب بحـاراً آخر، فقتله في مكانه، وكان مولاي أسقف مـانس واقفاً إلى جـانب هذا القلع الخطير الذي سقط هناك، وكنت أنا إلى جانبـه مع آخرين كثر، وكنا جميعاً على وشك أن نصـاب به وأن نقتل، وأما بالنسبة للرجل القتيل فقد لفوه بكفن، وربطوا حقيبـة مليئة بالحجارة إلى قدميه، ورموه إلى البحر.

وأبحرنا مسرعين من كـورزولا، ووصلنا في حوالي منتصف الليل إلى ايبيداروس Epidaurus ، التي اسمهـا الحديث هو راغـوثا Ra-gusa، وتوقفنا في راغوثا، وألقينا بمراسينا، وأوقفنا سفينتنا ونمنا حتى شروق الشمس، ودخلنا المدينة بعد ذلك، غير أننا لم نجد فيها نزلاً مثلما الحال في بلادنا، وبناء عليـه ذهبت أنا مع السيـد جـورج ستين، وبعض النبـلاء الآخـرين إلى دير تابع لطائفـة الدومينيكـان، وسألناهم إعطاءنا شيئاً لنأكله مقـابل مال ندفعـه، وقـد جلبوا لنا ميرة جيـدة مع دن خمرة سكلافونية Sclavonian كبير، وعاملونا بشكل لطيف.

وجـاء رئيس الدير على الفـور، جـالبـاً معـه اثنين من الرهبـان، هما الراهب فـرانسيس دي كـاتورو Catoro، والراهب دومـــــونيك، وقد عهـد بهما إليّ، وأعطاني إياها ليكونا رفيقي في رحلتي، وذلك لأنهما رغبا بالذهاب إلى القدس برفقتنا، ولقد سررت نحو هذا بشكل خاص، لأنني حتى ذلك الوقـت كنت بلا واحـد من رهبـان طـائفتنا، وكـانت رفقتهما بالنسبـة لي مرغـوبة أكثر من الـذهب الجيد، وبعـدما فـرغنا من

تناول طعامنا، ورأينا الدير، تمشينا في أرجاء المدينة ورأيناها، ومثل هذا فعل بقية الحجاج، ولقد رأينا بأن تلك المدينة كانت محصنة بشكل رائع بأبراج وبخنادق عميقة جداً، كان الناس يحفرونها آنذاك، وعجبنا لهذا، وسألناهم عما إذا كانوا هم أيضاً يخشون من التركي، مع أنهم يدفعون الجزية إليه، فأجابوني قائلين: «نحن نخاف منه دوما، ونقوم بتحصين أنفسنا ضده، لأنه وإن كان صديقنا اليوم، سوف يكون عدونا غداً»، وقد وجهوا اللوم إلى تشوقنا للمغامرة فوق البحر في مثل ذلك الوقت المرعب، وذلك في وقت لم يتجرأوا فيه على اظهار أنفسهم في البحر، وحاولوا إقناعنا بالبقاء هناك حتى تأتي أخبار أفضل، ولسوف أصف هذه المدينة والأماكن الاخرى في روايتي لدى عودتي من حجي الثاني.

وعلى كل حال عندما تأخر النهار، صعدنا إلى ظهر غليوننا، وشرعنا منطلقين من ميناء راغوثا في ذلك المساء مع ريح طيبة، وقطعنا مسافة طويلة تلك الليلة، وعند بزوغ الفجر هبت ريح معاكسة قوية، أخرجتنا عن مسارنا الصحيح، ودفعتنا نحو أبوليا، التي رأيناها أمامنا، ولم يستطع بحارتنا ببراعة ضبط مسار سفينتنا لكي نصل إلى الشاطىء عليها، وهكذا وصلنا بعد ابحار طويل إلى جزر نموزا بولس -Gqzap olis، وهناك لم يكن لدينا ريح، كما أننا لم نتحرك، إلاّ بواسطة العمل الكسول للمجاذيف بواسطة البحارة، والمهم أننا تابعنا الزحف ببطىء والتقدم نحو الأمام.

وهكذا وصلنا إلى مكان حيث توجد مدينة فوق جبل، وهي مشرفة على البحر، وكانت مسورة بشكل جيد، لكنها كانت مهجورة تماما بسبب تنفس تنين، وذلك حسبما سأصف ذلك فيما بعد، ووصلنا بعد هذا، بعد رحلة مربكة بين جبال عالية، إلى جزء من البحر، بقي الغليون فيه مثبتاً فوق سطح الماء، ولم يكن بالإمكان تحريكه بالمجاذيف لا إلى اليمين ولا إلى الشمال، بل بقي— كما قلت— ساكناً بلا حراك، لأنه

كـان تحتـه وهدة، يسمونها «متـاهه»، أو فتحـه في الأرض، كـانت تبتلع شطراً كبيراً من البحـر، وحيث كــان الماء يجري نحـو الأسفل في داخل هذه المتـاهة، لهذا وقف الماء فـوقهـا، منتظراً سقـوطه إلى داخل المتـاهة، وعندمـا لايكون في ذلك البحــر مـاءً كثيراً، يدور الماء، وكل من يحاول السبـاحـة فـوقـه هو معـرض لخطر الغـرق، وفي الحقيقـة كـانت السفن معـرضـة للابتـلاع هناك، لولا أن الذين يحركـونها تجنبـوا ذلك، وهكذا وقفنا بلا حراك في ذلك المكان، وبذل بحارتنا جهدهم بأصوات مرتفعة مع كثير من العمل لإخراج الغليـون من هذه الوهدة، غير أن جهودهم تبددت عبثاً.

وعلى كل حال، عندما رأى أهل كوركيرا Corcyra هذا— حيث كنا في مـدى الرؤية لجزيرة ومـدينة كـوركيرا— قـدمـوا لمسـاعـدتنا من كوركيرا، أو كـورفو بغليـونين صغيرين، وقد ربطوا حبـالاً إلى غليوننا، ومدوهم إلى غليونيهما، وتمكنوا بالتجـديف بغليونيهما، وبقوة عظيمة من سحب غليـوننا من بين فكي الوهدة، وذلك خشيـة أن تبتلعنا الأعماق، وبعدما جرى انقاذنا على هذه الصورة، تابعنا سيرنا إلى جزيرة كوركيرا، ودخلنا إلى ميناء المدينة بعــد غيـاب الشمس، الذي كــان مليئاً بالسفن الحربية، لأن— كما تقدم للوردات مجلس شيـوخ البندقية أن أخبرونا— قـائـد البحــر كـان هناك، مع اسطول مسلح للحفــاظ على السـلام في البحــر،وهكذا نمنا حتـى الصبــاح، وعند ظهــور الصبــاح ذهبنا إلى الشـاطىء ومـن ثم إلى المدينة في قـوراب صغيرة، ووجــدنا المدينة تعج بالناس، حيث كان بينهم كثير من الأتراك يسيرون هناك بين المسيحيين، وبعد سماعنا لقـداس هناك، قمنا نحن الحجاج السـوابيون والبـافاريون باستئجار بيت صغير في الضاحية وهناك طبخنا، وأكلنا، وشربنا، ونمنا.

وكـان ذلك البيت صغيراً، مبني مـن جـذوع أشجـار قـديمـة جـداً، وجافـة كثيراً، وهكذا حدث أنه نتيجة للنار العظيمـة التي أوقدناها من

أجل الطبخ هناك، أن المكان التهب مرة تلو أخرى، ولقد استطعنا دوما اطفاء تلك النار، ولذلك لم نواجه أية اضطرابات بشأنها، ولكن لدى حدوث ذلك للمرة الثانية، شاهد الجيران النار وقد أمسكت بالسقف، فركضوا وهم يصرخون ويندبون، وفي الوقت نفسه صعدنا فوق السقف، بواسطة سلالم، وانتزعنا الأطعمة من وسط اللهب.

وكنا في تلك المناسبة في خطر عظيم، لأن النار لو جمعت قوتها لكان المكان كله قد احترق، ووقتها كان السكان الإغريق في كوركيرا قد ضحوا بحياتنا انتقاماً لأنفسهم لفقدانهم بيوتهم، وخسارتهم لها، ذلك أنهم كانوا في الحقيقة عدوانيين جداً نحو الألمان، ومن السهل كثيراً إثارتهم لمقاتلتهم.

وبعدما تناولنا الطعام، قدمنا باحترام الرسالة التي تسلمناها من شيوخ البندقية، إلى قائد البحر،ورجوناه أن يقدم لنا نصيحته ومساعدته للاستمرار برحلة حجنا، ونصحنا، بعدما قرأ الرسالة، بالعودة إلى البندقية، ولكنه عندما أدرك أن هذه النصيحة كانت مفجعة بالنسبة لنا، قال وهو مغضب: «أية حماقة تملكتكم، حتى أنكم تريدون تعريض أنفسكم لمثل هذه المخاطر، تعريض كل من أجسادكم وأرواحكم، وتعريض حياتكم وممتلكاتكم؟، انظروا إلى البحر، إنه مغطى بالأتراك المتوحشين، حيث لاتوجد فرصة لنجاتكم من بين أيديهم، عودوا إلى البندقية، أو أقيموا في واحد من المراسي البحرية حتى تأتي أخباراً أفضل، وإذا ما كنتم مصرين تمام الاصرار على الذهاب إلى الشرق، عليكم أن تتدبروا بأنفسكم عبوراً لأنفسكم، ذلك أنني لن أسمح للغليون الذي قدمتم به بالابحار إلى هناك، لأنه من ممتلكات القديس مرقص».

وعندما سمعنا منه هذا كنا منزعجين جداً، وانصرفنا من حضرته، وطلبنا منه منحنا بعض الوقت للتشاور، وبناء عليه انعقدت عقول

كثيرين، ولاسيما الأسقفين، وأخذا بكلام القائد، وهكذا قررا العودة إلى البندقية مع جميع حاشيتهما، وكان حتى بعض من فرساننا مرعوبين، وكانوا جاهزين للعودة، لكن آخرين كانوا شجعانا فلم يتزحزحوا، والتحقت شخصياً بالمجموعة الأخيرة، وعملت بقدر ما أستطيع على تشجيع وتحميس الأفراد المترددين، بوعظهم وباقتباس بعض النصوص من الكتابات المقدسة بهدف بعث الأمل فيهم بنيل الحماية الربانية.

وحدث في بعض الأيام، عندما كنت غائباً، أن قام السادة الفرسان في جماعاتنا وأخذوا يتحدثون عن مخاوف حجنا، وكان بعضهم ماضياً بالحديث، بينما كان آخرون مترددون ووقفوا صامتين، وقد قال أحدهم:« عليكم عدم الاصغاء مطلقاً إلى كلمات التشجيع التي يقولها الراهب فيلكس لكم، فما الحياة أو الموت بالنسبة له؟ فهو راهب محترف، ليس لديه ممتلكات، ولا أصدقاء، ولا مركز في الحياة، ولا شيء آخر في العالم، مثلما حالنا نحن، وأسهل بالنسبة له أن يموت سريعاً بسيف الأتراك أو المسلمين، من أن يصبح مسناً في ديره، حيث يموت يومياً»، وقد قال أكثر من هذا بكثير محاولة منه لمنع السادة من الاصغاء لي.

وقد أخبرت بهذا كله، فقمت بعد ذلك بتحويل مجرى الحديث، في أن أضع بعض الشجاعة في الفارس نفسه لكي لايمكن اقناعه بالعودة، وأبقانا القائد في كوركيرا لمدة ثمانية أيام، وقد أخبرنا في كل يوم أخباراً أكثر إرعاباً، وكنا نحن الألمان قد اتفقنا جميعاً بوجوب عدم العودة، بل أن نذهب باسم الرب إلى القدس، وأخيراً عندما رأى القائد أننا كنا قد عقدنا العزم على الذهاب وعلى تنفيذ نوايانا، عندها أقلع عن التدخل بحجنا، وبتنا جاهزين للانطلاق، حيث نقلنا أنفسنا إلى غليون آخر، كنا قد قمنا بشرائه.

وعندما بات جميع الذين رغبوا بالقيام بالرحلة مع بعضهم على ظهر

هذا الغليـون، وفي أثناء تحدث أحدنـا إلى الآخر بسرور وبهجـة، ونحن واقفـون على الدكـة إلى جـانب السـارية، طلب واحـد من الشيـوخ منا الصمت، وشرع يخاطبنا قـائـلاً:« سـادتي وأخواني الحجـاج، نحن نقـوم بعمل عظيم، وصعب، ومرهق، بتنفيذ هذا الحج بوساطة البحر، وأقول لكم الصـــدق، وأتحدث مـن الجانب الانســـاني باننـا نعمل بشكل أحمق بتعريض أنفسنا لخطر عظيم، ضد نصيحة وقناعة قائد البحر، وضد كل واحد آخـر، ولهذا رأينا السيدين الأسقفين، وغالبية النبـلاء، والأقوياء ، والأعيـان، وربما الأكثـر حكمـة في جماعتنا، قـد تخلوا عن الرحلة، وهم الآن على طريق العودة إلى بلادهم، آخذين بالنصيحة، اتي أعطيت لهم، في حين نقف في الاتجاه المعـــاكس، والآن، ولكي لاتكـون رحلتنا مجرد حماقة آثمـة، لابد أننا نحتاج إلى إصلاح حياتنا على ظهـر هذا الغليون، وعلينا دوماً أن نطلب حماية الرب القدير وقديسيه، حتى نكون قادرين على أخذ طريقنا بين أعدائنا وبين أسطولهم».

ولدى سماعنـا لهذه الكلمات قـــررنا بـالاجماع التـــوقف عـن اللعب بالورق أو بالنرد، على ظهـر الغليـون، وعن الخصومـات، وعن الأيمان، وعن التقـاذف بكلمات التكفير، وعـــدم السماح بذلك كله، وأن يضيف رجـال الديـن والكهنة صلوات ليليـة لصلواتهم النهـــارية المعتـادة، وفي الحقيقـة، نشبت خـلافـات عظيمـة حـول هـذه المسـائل، قبل اتخاذ هذا القرار،لأن الناس كانوا يقامرون صباحاً، وظهراً، وليلاً، وبشكل خاص أسقف أورلين مع حـــاشيتـه، وفي أثناء ممارســة ذلك كـانـوا يقسمـون ويجدفـون بشكل مرعب، ويتخـاصمـون يومياً، لأن الفـرنسيين والألمان كانوا دوماً على خلاف وشجار.

وهكذا حـدث أن واحداً من أتبـاع أسقف أورلين ضرب كاهناً تقيـاً من جماعتنا، فاستحق على ذلك الحرمان الكنسي، وبما أن الفرنسيين قوماً متشامخين، ورجـالاً انفعاليين، لهذا اعتقـدوا أنه كان عمـلاً مصدره الهام

رباني وحكمة، أن انفصلوا عنا، وتخلصت عيوننا منهم، لأنه كان من شبه المستحيل الوصول إلى القدس برفقتهم من دون إراقة للدماء ومقتل لبعضنا.

وقد أمضينا ليلة واحدة في كوركيرا، ونمنا على ظهر السفينة، وفي تلك الليلة أصابنا رعب عظيم، لأنه في آخر النهار، وعندما أخذت الدنيا تزداد إظلاماً، وفي الوقت الذي كنا ما نزال فيه واقفين حول السارية نتبادل الأحاديث، اكتشفنا وجود قارب غريب، واقفاً إلى جانبنا، والذين كانوا فيه هم أتراك، وجواسيس، كانوا يحاولون الاصغاء إلى ما كنا نقوله، وعلى الفور فزعنا بأنفسنا إلى الحجارة ، وقمنا برميها عليهم، وخلفهم عندما شرعوا يجذفون مبتعدين عنا، وتمكن على كل حال، القارب من الافلات نحو البحر، والنجاة .

وفي الصباح التالي زعقت الأبواق لدينا، للاعلان أننا كنا على وشك الاقلاع، ورمينا بأربطة الغليون، وأدرنا ظهورنا للميناء ونحن نغني ببهجة، أما الحجاج الذين بقيوا بعدنا، فقد وقفوا على الرصيف يضحكون علينا، وقالوا بأننا كنا رجالاً يائسين — Waghels ، وكانوا يتحدثون بشكل عام في كوركيرا، أننا لابد من أن نقع بالأسر قبل أن نصل إلى مودون Modon ، وهكذا ابتعدنا عن كوركيرا ومضينا نتابع سفرنا بمزيج من البهجة والخوف.

وعاد الأربعون حاجاً الذين خلفناهم في كوركيرا في سفينة مستأجرة إلى البندقية، وعندما وصلوا إلى هناك، قالوا إنه لمن المؤكد أننا اعتقلنا من قبل الأتراك،وتحدثوا بالقصة نفسها في مدن أخرى في إيطاليا، وفرنسا، وألمانيا، وفعلوا هذا رغبة منهم لتسويغ جبنهم، وذلك بالاشارة إلى سوء حظنا، ونتيجة لهذا، عقدت قداسات كثيرة لفائدة روحي في عدة أماكن من سوابيا، لأن الحجاج نشروا هذه الأكاذيب في جميع

أرجاء سوابيا وبافاريا.

وتقدمنا بالوقت نفسه تقدماً حثيثاً، وعبرنا بشكل مريح إلى مودون، ولم نشهد خلال الطريق ولاحتى قارباً فوق سطح البحر، الأمر الذي اندهش نحوه أهل مودون، لأن جميع العاملين بالبحر كانوا خائفين كثيراً، وحاول الألمان الذين كانوا يسكنون هناك، بإخلاص عظيم، ثنينا عن محاولة الذهاب مسافة أبعد، وحدثونا بحكايات كثيرة مرعبة، لكن بالنسبة إلينا، كنا كما كنا من قبل، فنحن الآن غير خائفين من الاقدام على إنجاز رحلتنا، ومتابعة السير على طريقنا، وبتوجيه من الرب وإرشاد، وصلنا إلى كريت بسلام، ودخلنا بسرور إلى مرسى مدينة الخندق.

ولدى وصولنا إلى هناك يمكن للانسان أن يقول بأن أهل المدينة كلها قد خرجوا لاستقبالنا،لأنه كان أمراً عجباً، لابل إعجازاً، أن يتمكن غليون مسيحي من النجاة من الأتراك المتوحشين، الذين رأوهم يومياً يتجولون في البحر في غلايين مسلحة ذوات ثلاثة صفوف من المجذفين،وذلك بحثاً عما ينهبوه، ولقد دخلنا إلى بيت واحد من الألمان، الذي كان لديه بيت سيء السمعة، ومع هذا عندما وصلنا قام بتنظيف مسكنه، وأبعد العاهرات اللائي كن لديه، ذلك أنه لم يكن هناك نزل آخر للحجاج، وفي مقابل هذا البيت كان هناك بيت آخر، كان نزلاً لتجار أتراك، وكان به بالفعل كثير من التجار الأتراك الأثرياء، من القسطنطينية، وقد قال هؤلاء — كما أخبرنا — لنا:«هؤلاء الرجال سيضيعون إذا ما حاولوا المضي أبعد»، وأكثر من هذا جاء بعض هؤلاء الأتراك إلى بيتنا، ونصحونا بعدم الابحار في الوقت الحاضر، لأننا من المؤكد سنقع بالأسر، فضلاً عن هذا حاول دوق الخندق ومستشاروه أن يصنعوا معنا معروفاً، فأرسلوا بخطيب من عندهم لنا، حاول بكلام لاتيني منمق، أن يوجه حجاجنا، وأن يحثهم بكثير من الحجج، على أن

يكونوا ضد متابعة السفـر، وأوضح أن المخاطر خلف هذا المكان سوف تكون أعظم من المخـاطر التي واجهناها خـلال سفـرنا إلى ها هنا، لأنه يوجد ما بين كريت وقبرص، جزيرة رودس، التي كانت في تلك الآونة محاصرة من قبل الأتراك، ولا يمكننا في أثناء عبورنا أن نتجنب مـواجهة القرصان الأتراك.

وقد بقينا هنـاك لمدة خمسة أيام، وسمعنا أخباراً أسـوأ كل يوم، وعلى الرغم من هـذا علونا ظهـر غليـوننا، وعملنا الاستعــدادات للشروع، وأقلعنا مبحـرين ونحن خـائفين من أن تثـور زوبعـة، وتحمل الغليـون وتضعه بين الأسطول والجيـش التركي الذي كان يقـوم بأعمال الحصار، وعلى كل حـال، ما أن غـادرنا الميناء حتى كنا في البحـر المفتـوح، ورأينا ريحاً قـوية جداً قـد هبت، إنها موافقـة جداً لنا، حملتنا بعيـداً عن الجزيرة التي اسمها سيكلادس Cyclades ، حيث ابتعدنا أولاً عن رودس، ودفعنا على المتـابعـة بقـوة مع ريح طيبـة، التي ازدادت بشكل مستمـر، وزمجر البحـر، وهاجت الأمواج، وتبع ذلك عـاصفة هوجـاء، وغطت الميـاه جميع الجزء الأعلى مـن السفينة، ومع ذلك كـانت هذه العــاصفـة مفيـدة جداً لنا، لأنها حملتنا نحـو الميناء الذي نريد، ولأنها جعلتنا ناجين من المهــاجمة من قبل الأتراك، ذلك أنـه بات من غير الممكن بالنسبــة لسفينتنا أن تقع بالأسر، وهي مبحرة بهذه الدرجة من السرعة.

وقمنا بـإزاحـــة جميع مظـاهر الحرب لدينا، مـن مــدافع، ورمـــاح، وحـراب، وترسـة، وواقيـات، وقسي عـادية، وقسي زيارة، وحجـارة، وسهـام، التـي كنا قـد جهــزنا بها أنفسنا في كيركـورا، من أجـل صـد هجمات الأتراك، لأننا رأينا أننا الآن قد نجـونا من أعداء صليب المسيح هؤلاء، ووصلنا في اليـوم التـالي إلى قبرص، ودخلنا إلى ميناء ليماسـول، لأن ريحاً مضادة أرغمتنا على التوجـه نحو الميناء، وعندما همدت الريح، أبحـرنا من هناك إلى ميناء لارنكا، عـازمين على البقاء هناك لعـدة أيام،

لأن قبطان سفينتنا كان له أخ في نيقوسيا في خدمة ملكة قبرص، وكان لديه بعض الأعمال ليبحثها معه، وطلب منا الانتظار حتى تنتهي هذه الأعمال.

وعندما انتهت أعماله وسويت، رفعنا مراسينا، وبتنا راغبين ومتشوقين للوصول إلى الميناء الآخر، لأنه لم يكن هناك مكان للوقوف فيه، ونحن على مسافة قصيرة من الأرض المقدسة، وأبحرنا بشكل مستقيم، فرأينا الأرض المقدسة في اليوم الثالث، وصدوراً عن البهجة في قلوبنا غنينا: « Tedeum Laudamus »بأصوات مرتفعة، ووجهنا سفينتنا نحو جوبا Joppa ، التي تعرف بشكل عام باسم يافا، وألقينا مراسينا إلى جوار صخرة أندروميدا Andromeda ، ومن هنا بعث قبطان السفينة واحداً من العبيد إلى القدس ليعلن إلى الأب مدير دير جبل صهيون، لكي يقدم مع رهبانه ومع حميره وسائقيهم لحملنا إلى القدس، وبناء على ذلك مكثنا في غليوننا لمدة سبعة أيام ننتظر وصول أدلائنا، ونزلنا بعد هذا في قوارب صغيرة، وأقمنا في غرف مقببة قديمة جداً، وكانت مدمرة وذوات روائح نتنة،حيث مكثنا هناك لمدة ليلة واحدة فقط، وركبنا بعد هذا الحمير التي أحضرت من أجلنا، وعلى هذا جرت مرافقتنا وحراستنا من قبل مسلمين، وغادرنا البحر وقدمنا إلى بلدة الرملة، حيث أقمنا لبضعة أيام، ثم دخلنا إلى القدس، حيث لم نؤخذ إلى مشفى (نزل ضيافة) بل إلى بيت في ميلو Millo حيث أكلنا، ونمنا وهكذا.

ولم نمض أكثر من تسعة أيام في الأرض المقدسة، حيث قمنا بجولة على الأماكن المقدسة المعهودة، بسرعة عظيمة، وكنا نعمل ليلاً ونهاراً لإنجاز حجنا، وهكذا نادراً ما أعطينا وقتاً للراحة، وبعدما أكملنا بسرعة زيارة الأماكن المقدسة، وبعدما تسلم مولاي جورج فون ستين مع النبلاء الآخرين الفروسية في كنيسة الضريح المقدس، أخذنا أدلاؤنا

من المدينة المقدسة عبر الطريق حيث نزلنا إلى البحر، إلى المكان الذي كان غليوننا راسياً فيه.

ولم يبق أحد من الحجاج في القدس، إلاّ اثنان من الانكليز، اللذان رغبا في عبور الصحراء إلى القديسة كاترين (دير جبل سيناء)، وكنت راغبا بالبقاء معهما، لو أنهما عرفا اللغة الألمانية أو اللاتينية، وبما أنني كنت غير قادر على الحديث معهما، وكنت سأتحمل الحاجة إلى لغة عامة مع الصبر،ولولا أنني عزمت على العودة ثانية إلى القدس، لأنه منذ حلول ساعة مغادرتنا للمدينة المقدسة، قررت، وقطعت عهداً على نفسي بأنني سوف أعود بأسرع ما يمكن، وعددت هذا الحج مجرد توطئة للحج الذي أنوي القيام به.

وكان حالي هنا حال تلميذ أراد حفظ بعض النصوص وخزنها بالذاكرة، حيث كان يقوم أولاً بالقراءة دونما عناية، ثم يقوم ثانية بالقراءة ببطىء وتؤدة، ويأخذ من الوقت ما فيه الكفاية لإبقاء النص وحفظه بالذاكرة، وهكذا كنت بالنسبة لما قررته، ذلك أنني لم أكن مقتنعاً بما شاهدته، ثم أنني لم أودع ما رأيته في الذاكرة، بل تركت ذلك لحج مستقبلي.

وعندما وصلنا إلى البحر، كنا جميعاً ضعفاء بسبب ما بذلناه من جهد، وكنا قد أصبنا بالإنهاك بسبب الحرارة، وسهر الليالي، والمصاعب التي تحملناها، وكما كنا مرضى وضعنا على ظهر غليوننا، الذي صار مليئاً إلى حد بعيد بأفراد تعساء، وبعد مضي كثير من الأيام عدنا إلى قبرص، وإثر رحلة طيبة وصلنا إلى ميناء اسمه سالينا Salina، وقمنا من هنا برحلة حج اسبوعية إلى قرية مجاورة ولكن الأثرياء منا قاموا باكتراء خيول وركبوا مع بعضهم برفقة قبطان السفينة إلى نيقوسيا، التي هي حاضرة قبرص والمقر الملكي، وهي تبعد ستة أميال ألمانية عن البحر.

وهناك عـادة قـديمـة قضت بأن الذين عملوا فـرسـانا في الضريح المقـدس، عليهم أن يقـدمـوا أنفسهـم إلى ملك قبرص، وعقـد نوع من أنواع معـاهدات الولاء معـه، وهو سيدعـوهم باسم إخـوانه وسيـدرج أسماءهم في كتـابه، ويعطي كل واحـد منهم خنجـراً فضيـاً وغمـده مع حـزام، ويكون معلقـاً في نهاية الخنجر وردة مصنوعـة من الفضـة، تمثل اللون الأرجواني الذي هو شعار الطائفة.

وبناء على هذا ركب مولاي جـورج فون ستين، الذي لم أفـارقه أبداً، في نيقوسيا معي، ومع النبـلاء الآخرين، ذلك أننا مكثنا هناك لمدة ثلاثة أيام، وبما أنـه لم يكن هنـاك ملك في قبرص، سأل النبـــلاء الملكـة بأن تسمح لهم بالانتماء إلى طائفـة ملـوك قبرص، وقـد دعتهم للحضـور إلى القـاعـة الكبرى، وهناك صفتهم أمـامهـا، وأوصلت إليهم من خـلال مترجم قـوانين هـذه الطائفـة، التي قضت أنه يتـوجب عليهم في وقت الحاجة النضـال للدفاع عن مملكة قبرص، مقدرين ومـدركين أنها واقعة بين المسلمين، والترك، والتتـار، وبعـدمـا أقسمـوا يمين الولاء إلى الملكة بأيديهم، أعطتهم خناجرهم، وسمحت لهم بالمغادرة.

وركبنا بعد هـذا عائدين ثانيـة إلى البحر، ولدى مـرورنا بسفح جبل مرتفع جداً، توجد على قمتـه بيعة، أخبرونا أن فيها صليب اللص الجيد معلق بشكل رائـع، وكنت أتمنى رؤيتــه، لكن لم يتــوفـر لـدي الوقت، ولذلك أجلت هـذا إلى حجي الثـاني، وعنـدمـا وصلنا إلى البحــر وإلى غليوننا، وجـدنا أن اثنين من الحجاج قد ماتا، وكـان واحد منهما راهب من طائفـة الـفرنسيسكان، وكان رجـلاً شجـاعاً ومثقفـاً، وكان الآخـر خياطاً من بيكاردي picardy ، وكان رجـلاً أميناً وجيــداً، وكان عـدد آخـر في سكرات الموت، ونحن أيضاً الذيـن قدمنا من نيقـوسيـا، رمينا أنفسنا على فرشنا مرضى كثيراً، وصار رقم المرضى كبيراً جداً، إلى حـد أنه لم يعد هناك من يتـولى خـدمتهم وتزويدهم بالضروريات وعلى

كل حـال نظرت العقائل المسنات إلينا وإلى تعـاستنا، فتحـركن بعاطفـة ورحمة، وتولين العناية بنا، لأنه لم يكن بيننـا من ليس مريضـاً، وهنا قـام الرب، بوسـاطة قوة هؤلاء العجائـز، بالتقليل من شأن شجـاعة أولئك الفرسان الذين عاملوهن باستخفاف، وكانوا لايرغبون بالابحار معهن، فقـد تنقلن مـن مكان إلى آخـر في جميع أرجـاء الغليـون، أي بين رجل مـريض وآخـر، وخـدمن الذين سخـروا منهـن واستخفـوا بهن، وهم ممددون فوق فـرشهم لايملكون حراكـاً، فضلاً عن هذا استـولى علينا، بالاضـافـة الى مـرضنا وعـذابنـا، الخوف مجدداً من الأتراك، وبدأنا الآن نخاف حتى منهم أكثـر مما فعلنا من قبل، وفي الوقت نفسـه رفع رجال الغليون أربطة الغليـون ومكنوه من الابحار، وعندمـا صرنا في البحر لم نجـد ريحاً تساعـدنا، بل بقينا نسيربطىء شـديد أمام سـواحل قبرص، ولهذا عـدنـا ثانيـة إلى قبرص، ورسينا في ميناء ليماسـول غير المسكون، حيث انتظرنا بفارغ الصبر هبوب ريـح طيبة، وبعد انتظار يومين انطلقنا مجدداً نحـو البحـر، إنما هبت الآن ريح قـذرة، حيث جـرفتنا إلى داخل البحز، بعيداً عن اليابسـة، وخارج مسارنا، وبقينا ندور لعدة أيام كثيرة، حتى بدأنا نعـاني من نقص في الميرة وفي الحاجـات الضرورية، وفي تلك الأثناء أنهى واحد من الفرسان أيامه بشكل مؤلم جداً، فلففناه بقطعة من القماش، وربطنا جسده بأحجار، ورميناه بالبحر ونحن نبكي عليه.

وفي اليـوم الثالث بعـد هذا، مـات فارس آخـر، بعـد ما فقـد عقله، وعـانى مـن آلام عظيمـة، وكـان يصرخ بشكل مخيـف، وقـد حملناه إلى الشاطـىء في قاربنا الصغير للدفن هناك، لأننا كنا آنذاك على مقـربة من شـواطىء قبرص قـرب بافـوس، وكنا في تلك الأثناء غير قـادرين على التحرك بأي اتجاه، وكنا بحـاجة إلى الماء والخبز، وأشيـاء أخرى، وحملتنا الريح الخبيثـــة بعيـــداً عن قبرص، ولمدة ثلاثة أيام وثـلاث ليـــال لم نر اليـابسـة، ثم كـان بعـد هذا أن حملنا عـائـدين إلى ميناء بافـوس، الذي

جرت الاشارة إليه في الاصحاح الثالث عشر من أعمال الرسل، واشترينا في ذلك الميناء ما نحتاجه من مؤن، وغادرناه مسرعين، وأبحرنا مسايرين شواطىء قبرص دون أن نحرز أي تقدم في سفرنا، وإلى جانب هذه التعاسات نزلت تعاسة أخرى عظيمة، في تلك الليلة نفسها، ففي الوقت الذي كان فيه ملاحو الغليون يتعاملون مع الأشرعة، ويحاولون تحريك الغليون، حدثت مفاجأة، فقد سقطت قطعة كبيرة من رأس السارية بشكل مفاجىء، وأصابت وقتلت أفضل الملاحين لدينا، وكان رجلاً يطيعه البحارة بأبسط إشارة تصدر عنه، فقد كان مطاعاً من قبل جميع الملاحين ومن قبل عبيد الغليون.

وقد كان هناك حزن عظيم ونحيب في الغليون بسبب موت هذا الرجل، حيث لم يكن هناك على ظهر الغليون من يماثله ليحل محله، وأبحرنا بشكل بطيء لمدة أيام كثيرة، وكنا حذرين، نأمل بالوصول إلى واحد من الموانىء في كريت، وأن نمر دونما إعاقة من أمام رودس، لكننا كنا غير قادرين على فعل ذلك، ورأينا في أحد الأيام، على مسافة بعيدة عنا غليوناً حربياً،قادماً بسرعة خلفنا، فكنا خائفين بشكل مرعب جداً، لأننا اعتقدنا أنه كان تركياً، وأن الأتراك كانوا قادمين فيه، لكنه عندما اقترب منا عرفنا بأنه كان غليوناً بندقياً، وكنا وقتها قابعين إلى جانب أسلحتنا ، التي أمر قبطاننا بإخراجها للدفاع عن أنفسنا ضد الأتراك، وانتظرنا وصول الغليون حتى يمكن أن نسمع أخباره، وعندما اقترب هذا الغليون منا علمنا بأن الأ تراك قد هزموا، وأنهم رفعوا الحصار عن رودس، وأنهم تراجعوا باضطراب وفوضى، ولدى سماعنا هذه الأخبار امتلأنا بغبطة لايمكن التعبير عنها، وغيرنا اتجاه غليوننا وتركنا مسارنا المتقدم، واتجهنا نحو جزيرة رودس، وعلى كل حال لم نتمكن من الوصول إليها خلال كثير من الأيام، ذلك أننا أعقنا وتأخرنا بسبب رياح معاكسة، فضلاً عن هذا كنا قد حملنا إلى بلاد الأتراك،

وعبرنا من خـــلال قناة حيث كـــانت هناك أراضي تركيــة وجبـال على طرفينا، وهنا تجددت مخاوفنا، وكنـا نخشى إذا مـا رآنا الأ تراك، سـوف ينزلون انتقـامهم بنا، بسبب هزيمتهم في رودس، ولم نمتلك ريحاً أيضـاً، وعبرنا البــلاد التركيـة بطريقـــة بطيئة جــداً، بوســاطة العمل البطيء للمجــاذيف، وأخيراً هبت ريح حملتنـا بلا معيقــات من هذه الأرض، وجلبت الغليون بشكل مفـاجيء إلى جزيرة رودس، غير أننا وصلنا إلى محاذاة ســاحل جبلي بعيـداً جـداً عن مــدينة كـولوسـا Colossae، ووصلنا على كل حال إلى نبع ماء للحياة يتدفق عند سفح أحد الجبال، إليه ذهب البحارة في قارب وجذفوا ومعهم براميل، وجلبوا مياه جديدة إلى ظهر غليـوننا، وعندما عادوا إلى ظهـر الغليون، خـرج جميع الركاب يركضـــون من حجـــرهم وفـــرشهم، يحملون الصحـــون، والجرار، والأحـواض الصغيرة، والأباريق، والكؤوس، والزجـاجات، يلتمسـون الماء من البحارة ومن رجال القارب.

وكـان هناك صراع وتدافع للحصول على الماء أكثـر مما شهـدته قط، من أجل الخمـرة أو الخبـز، وعن رغبة وطواعيـة وسرور ناول أحـدهم بعض الماء إلى الآخــر، وبتـــذوق ذلك الماء الجديـد انتعشنا مجدداً، وبدا وكأننا قـد عـدنا للحياة مـن جديد، مثل المزرو عـات والأشجـار التي عطشت وجفت بسبب حـــرارة الشمس، فعـــادت خضراء من جـــديد عندما تبللت بقطرات المطر أو الندى، وانتعش الغليون كله بتذوق هذا الماء، والذين كانـوا من قبل غير قادرين على التنفس إلا بصعـوبة بالغة، بدأوا الآن بالغنـاء، لأن شرب الماء بعــد عطش طويـل يجعل الانســان مسروراً ولطيفاً مثل المتناول لقطرات من الخمرة.

فأية تعـاسات ومصاعب قـد عانينا منهـا منذ أن غادرنا ميناء يـافا في الأرض المقـدسـة حتـى وصلنا إلى هذا المكان، هذا مـا أنا عـــاجـز عن التحـدث عنه، وكنت خلال أيـام المعاناة هذه غـالبـاً ما أتسـاءل، كيف

يمكن لأي إنسان يتساهل بازعاج نفسه بالقيام بالتفكير بصوم أربعين يوماً خلال السنة، وهي أيام الصوم الكبير، وأن لايصوم عن الخبز والماء في يوم الجمع الحزينة للرب، لو أنه عانى مثلنا يوماً واحداً من الأيام التي عانينا منها، وأنا لاأقول بأن أجر الصوم الكبير كبير، لابل ليس مثل الأجر المعطى يوم صوم الجمعة الحزينة وزناً وحجماً، ولهذا علينا عن طواعية أن نصوم يوم الجمعة الحزينة، لأن الذين يصومون يوم الجمعة الحزينة يتلقون خبزاً جيداً وجديداً، وماء نقياً، وبارداً، وعذباً، وطيب المذاق، وإذا ما حصلنا على مثل هذا، لابد من أن نشعر بأنفسنا بأننا سعداء، متذكرين أن الذي نلناه على ظهر الغليون، كان ماء قذراً، وآسناً، ولو أن أياً من البحارة كانت لديه مياه غير آسنة، لأقدم الحجاج على شرائها بأسعار أعلى من أسعار الخمرة، وعلى كل حال لقد كان ماءً مليئاً بالديدان، وأبيض ومتغير اللون.

وفوق هذا كله، وما قد يكون غريباً إلى الذين لم يعانوا من مثل هذه الرحلة، ومؤلماً أكثر للذين عانوها، هو أننا كنا في حالة من الحاجة والتعاسة، حتى أن ما كان لدينا من مياه عفنة آسنة عدت ثمينة إلى حد أن قبطان السفينة وملاحيها كانوا في قلق عظيم خشية أن نخسر حتى هذه المياه، ولهذا أعطى القبطان أوامر إلى ساسة الخيول بعدم إعطاء ماء من هذا النوع إلى الحيوانات التي جرى الاحتفاظ بها على ظهر الغليون من أجل ذبحها للأكل، بل ينبغي الاحتفاظ بها من أجل الاستعمالات الانسانية لأنه كان أكثر وحشية أن نموت نحن من العطش وليس البهائم، وعلى هذا بقيت هناك الأغنام والماعز والبغال والخنازير لمدة عدة أيام بلا ماء، وكانت تعاني من الهلاك من العطش، وغالباً ما رأيت في هذه الأيام هذه المخلوقات وهي تلحس ألواح الخشب والحبال، وتمتص ما تجمع عليها من ندى في أثناء الليل.

ومع أنه توفرت لدينا مياه لاحدود لها من حولنا، إن مياه البحر غير

قابلة للشرب بالنسبة للانسان والحيوان سواء، وكان معنى شرب تلك المياه قتل الانسان أو الحيوان بدلاً من إنعاشه، هذا ولم أحدثكم عن الخبز الفاسد، وعن البقسماط المليء بالديدان، وعن اللحوم المتنتة، والطبخ المقيت، وهو ما توجب علينا القبول به، لو أننا امتلكنا ماء نقياً بكميات جيدة كافية، إن لم يكن للناس الأصحاء، فعلى الأقل للمرضى التعساء.

وعانيت في غالب الأحيان من عطش مرعب، وكان بي شوق لايوصف إلى ماء بارد، حتى أنني قلت في نفسي إنني عندما أعود إلى أولم سوف أذهب مباشرة إلى بلوبيرن Blauburen ، وأجلس إلى جانب البحيرة التي تنبع هناك من الأعماق حتى أشبع رغباتي، هذا ولم يكن هناك نقص بالخمرة في الغليون — وفي الحقيقة كان بإمكان الانسان بسهولة الحصول عليها بكميات كبيرة وجيدة — غير أننا لم نتمتع بها من دون مزجها مع الماء، وذلك بسبب قوتها وحرارتها، وهذا يكفي بالنسبة لهذه القضية.

وحدث الآن أن حملتنا بشكل مفاجىء ريح طيِّبة من المكان الذي شربنا فيه الماء إلى ميناء كلوسوس Clossus ، القائم أمام مدينة رودس، وكان الوقت ليلاً، وكانت الساعة تقارب الساعة التاسعة في المساء، وكنا لانستطيع أن نرى إلى أين نحن ذاهبون بشكل واضح، لولا فضل نور القمر، وعندما كنا نحاول الدخول إلى الميناء، وكان بحارتنا — حسب ما اعتادوا عليه — يعملون بصوت مرتفع لانزال الأشرعة، أشعل الناس الذين كانوا على الشاطىء المشاعل فوق أبراجهم، وأحدثوا ضجة عظيمة، وأخذوا يركضون ذهاباً وإياباً فوق الأسوار، حيث خيل إليهم أننا أعداءهم الأتراك، وأنذرونا بإطلاق نيران مدفع كبير نحونا، وقمنا نحن وسط رعب عظيم بإضاءة عدد كبير من المصابيح، ووقفنا على ظهر الغليون نرجوهم عدم إيذائنا، حيث كنا

نحمل علامـات الصليب، كما كنا أصدقاء للذي صلب، ونعـرف جيداً بأن أعـداءه قد تعـرضـوا قبل وقت قليل للمهـانة والمذلة في هذا المكان نفسه.

وعندمـا سمع حـراس الميناء هـذا، أبعـدوا مجانيقهم التي كـانوا قـد أعدوها لرمي حجـارة ضخمة علينا، وحلوا أوتار قسيهم، وأعقب هذا سعي الناس مـع بعضهم من جميع أجـزاء المدينة إلى أعلى السـور وهم يحملون المصابيح والمشاعل، متشـوقين لرؤية غرباء مسيحيين، لأنهم منذ أن صدوا الأسطول التركي لم يروا مسيحياً.

وقـام الآن حـارس من على أحـد الأبراج بالترحيب بنا، سـائـلاً من نحن، ومن أين جئنا، وقـام أحـد البحـارة بإجـابتـه دونما تفكير:«نحن بنادقة، والغليـون ملك للقديس مرقص»،لكن القبطان أمـر بصفعه على فمه، وأمر بحاراً آخراً بأن يصرخ قائلاً:«جاء هذا الغليون من يافا، وفيه فرسان وحجـاج من القدس، ونحن عازمون على الإبحـار إلى إيطاليا»، ذلك أن القبطان كان يخشى أن يكون البنادقة غير مرحب بهم كضيوف، بما أن أهل رودس لايحبون البنادقة، بسبب تحالفهم مع الأتراك.

وعندمـا أخبر الحراس الذين كـانوا فـوق الأبراج الشعـب بأننا كنا حجاجاً، رحبـوا بنا بمثابة أصدقاء، وسمحـوا لنا بإرساء سفينتنا خارج الميناء، غير أنهم لم يأذنوا لنا بـالدخـول إلى الميناء خـوفـاً من خيـانة مـا، وبناءاً عليـه عندما ألقت السفينة مـراسيها، نزلنا إلى أمـاكن نومنا، ونمنا حتى الصباح.

وفي اليوم التالي، وقبل استيقاظنا، قدم بعـض الساد ة من رودس إلينا ليقومـوا بفحص الغليون وليروا الحجاج، وقـد جذفنا داخلين إلى المدينة معهم، وقد مررنا من بين أجساد الموتى الأتراك الذين كانوا مرميين على جانب البحر، حيث كـان الشاطىء مغطى بهم، وعندما دخلنا إلى المدينة

وجدناها مهدمة بشكل مريع، مليئة بطلقات المدافع الصخرية من كبيرة وصغيرة، وهي التي أطلقها الأتراك عليها، حيث كان هناك منها ثمانية آلاف طلقة وطلقة موزعة على الشوارع والأزقة، وكانت الأسوار والأبراج مهدمة بشكل محزن، وقد رأينا أشياء أخرى عنها سأحدثكم عندما أجيء إلى هذا المكان ثانية في حجي الثاني.

ولقد مكثنا في رودوس لمدة أربعة أيام، وأنفقنا كميات كبيرة من المال، لأن كل شيء كان باهظ الثمن لأن الأتراك نهبوا البلاد وهدموها، وقد شريت طائرين لمولاي جورج للعلاج، لأنه كان بحالة صحية سيئة، وكنت أنا مثله، ذلك أنني كنت آنذاك أعاني من إسهال، وكنت تقريباً يائساً من حياتي.

وعندما حان الموعد الذي كان علينا به مغادرة رودس، سافر معنا على ظهر غليوننا عدد من فرسان القديس يوحنا، وبعض ممن كانوا أسرى لزمن طويل بين الأتراك، وكانوا ممن بعث بهم إلى رودس مع الجيش التركي، وقد تخلوا عنه وهربوا إلى تلك المدينة في أثناء الحصار، وحملنا معنا بعضاً من اليهود الذين قاتلوا بشجاعة في أثناء الحصار، وكان من بين الذين نجو من الأسر من بين الأتراك نبيل نمساوي، وكان في حالة بائسة، وقد أخذه مولاي جورج ووضعه تحت حمايته، وأعاده إلى ألمانيا.

وبصعود هذه الأعداد الكبيرة على ظهر غليوننا، غدا هذا الغليون مزدحماً وغير مريح، وفي أثناء الرحلة جرفنا إلى هنا وهناك من قبل الرياح المعاكسة، وعانينا كثيراً من النقص بالحاجيات حتى دخلنا مدينة الخندق، حاضرة كريت، ومكثنا هناك لعدة أيام، صعدنا بعدها إلى ظهر الغليون في أحد الأيام في آخر النهار عند حلول المساء، وجلبنا مشترياتنا معنا، وكنا عازمين على الإبحار في الليلة نفسها، لكن عندما جاء الصباح، وأطلق الغليون مما كان مربوطاً به، أخذنا بعنف نوجه رأسه

نحو الرياح، وآنذاك اصطدمت عصا التوجيه بالصخور، وتحطمت تحت الماء، وكانت السفينة على وشك أن يصطدم رأسها فوق الصخور الناتئة خـارج الشـاطىء، وفي تلك الحالـة كـان الغليـون سيتحطم كليـاً، وكنا سنغـرق، ولهذا صـدر صـوت مـرتفع، وتراكض النـاس من المدينة لمساعـدتنا، وبما أن عصا التوجيـه قد تحطمت، لم يعـد بإمكاننا الإبحار، وأرجعنا غليوننا إلى الميناء، إلى المكان الذي كان راسياً به من قبل.

وهنا جـاء عامل بحـري وقام بالإعـداد لاصلاح عصـاتنا، وقد نفـذ ذلك كما يلي ونحن واقفون ننظر إليه: فقد تعرى حتى سراويله، ثم أخذ معه مطرقـة ومسامير، وكماشة، ثم ألقى بنفسـه ونزل في البحر، وغطس إلى حيث كـانت العصـا مكسـورة، وعمل تحت الماء، فـاقتلع مسـامير، وثبت آخـرين، وبعد وقت طويـل، عندما أصلح كل شيء، ظهـر مجدداً من تحت الأعماق، وتسلق صـاعـداً إلى طرف الغليـون إلى حيث وقفنا، ولقد رأينا هذا، إنما كيف كـان بإمكان هذا العامل أن يتنفس تحت الماء، وكيف كان يمكنه أن يضرب بمطرقتـه هناك، وكيف استطاع البقاء مثل هذه المدة الطويلة في الماء المالح، هذا مـا لم أستطع فهمـه، والذي أعرفـه هو أن العقل البشري له سلطة على النـار وعلى الماء، حتى مثلما للنجـوم سلطة على العقل الإنساني.

وعندما اكتمل اصلاح العصا، وفكرنا بالإنطلاق والسفر، هبت ريح معـاكسة، ولذلك لم يستطع الغليـون الابتعـاد عن الميناء، وقد عـدنا إلى مكان رسونا ومن ثم إلى إقامتنا في المدينة، نأكل ونشرب هناك.

وهذا الميناء من أفضل مـوانـىء البحـر وأغناها، ومليء بجميع أنواع الأشيـاء الجيدة، خـاصة الأشيـاء المحليـة، لاسيما الخمرة، التي ندعـوها باسم مالفويسي **Malvoisie** ، وهي خمرة مشهورة في جميع أنحاء العـالم، هذا وكل شيء رخيص هناك، ولذلك لم نبـال بمـدة إقـامتنا، بل تمتعنا بها، وفي حـوالي وقت العشـاء استـدعينا جميعاً إلى ظهـر الغليـون،

وجاء بعضهم على الفور، وجاء بعضهم الآخر متأخراً، وكنت أنا شخصياً واحداً ممن صعد أولاً إلى السطح، ووقفت على مدخل الغليون لأنظر فيما إذا كان قد قدم غرباء، إلى جانب الذين التحقوا بنا في قبرص أو رودس، ويريدون الصعود إلى ظهر الغليون، وقد جاء أسقفان إغريقيان، مع آخرين كثر، وبالنسبة لأشياء أخرى أنا رأيتها، أنا لن أقوم بتدوينها، إذا ما أردت أن لاتكون« الرحلات والجولات» قصة مأساوية، لكنني كما وعدت إخواني في تمهيدي التكريسي غالباً ماقمت بمزج الأمور المضحكة والمسلية مع المسائل الجدية، وعلى هذا عندما كنت واقفاً هناك أراقب أولئك القوم الذين صعدوا إلى ظهر الغليون، رأيت كثيراً من حجاجنا واقفين على جانب البحر، فوق حافة الرصيف وهم سكارى يخشون من النزول إلى القوارب، لأن الخمرة الكريتية التي هي حلوة وممتع شربها، تجعل الإنسان فاقداً للوعي عندما يشرب منها كميات كبيرة.

وكانت هناك درجات حجرية على الشاطىء تقود إلى سور المدينة، وينزل على هذه الدرجات من يريد الصعود على ظهر الغليون ويماشيهم قليلاً، ومن ثم يحصل في داخل قارب صغير، يحمله إلى الغليون، وبعد ذلك يغادر الإنسان القارب، ويتسلق بعض الدرجات ليدخل إلى الغليون، وفي ذلك المساء وجد عدد كبير منهم أنه من الصعب كثيراً عليهم القيام بذلك، أي أنه توجب حملهم من الدرجات الموجودة تحت سور المدينة إلى القارب، ومن القارب إلى الغليون، ومن ثم مباشرة إلى حجر نومهم، وجاء بين البقية حاج كان خادماً لواحد من سادة المدينة، وكان هذا الرجل يحمل حقائب سيده، مع بعض دنان الخمر وحقيبة مليئة بالخبز الجديد، وقد كان منحنياً نحو الأسفل بسبب الوزن الذي كان يحمله، يضاف إلى هذا كان مخموراً تماماً، وعندما صار فوق الدرجات، وبدأ يمشي نازلاً عليهم نحو طرف الماء حتى يصل إلى

القارب هناك، وقع فجأة في داخل البحر العميق، مع كل ماكان يحمله، ولدى صدور صوت عن الواقفين هناك، جذف البحارة مباشرة، وساقوا قاربهم إلى المكان الذي سقط فيه، ولدى خروجه من الماء، سحبوه منه، وطافت أرغفة الخبز وكل ماكان يحمله فوقه، وقد تلفوا جميعاً.

وكان هناك حاج آخر، كان كاهناً دلماشياً، وكنت أعرفه معرفة جيدة، وكان قد شرب كثيراً من الخمرة الحلوة، ولذلك عانى من اضطرابات كثيرة حتى يصعد على ظهر الغليون، ويصل إلى موضع السارية، حيث وقف هناك يتحادث مع دلماشي آخر حتى حلول الظلام، وقد وقف على مقربة من البويب الجانبي الذي لايذهب الناس إلى تحته أثناء الليل، بل يفعلون ذلك فقط أثناء النهار، وذلك من أجل أنه عندما يحل الظلام ينزل على السلم الذي يأخذه نحو الأسفل، وبذلك لن ينزعج الذين كانوا نائمين على ذلك الجانب من السفينة بقدوم الناس وذهابهم، وهكذا عندما أكمل هذا الحاج كلامه، وكنا وقتها فوق سطح الغليون الأسفل، متمددين جميعاً في فرشنا ونحن نتبادل الأحاديث، وقد أراد الذهاب إلى مكان نومه من خلال أقرب بويب جانبي، وبما أنه لم يكن متوازناً على رجليه، فقد سقط نحو الأسفل من خلال البويب الجانبي إلى السطح الأسفل محدثاً صدمة كبيرة إلى حد أن الغليون كله قد اهتز، لأنه كان رجلاً كبيراً وسميناً،وتمددنا جميعاً صامتين وخائفين، وانتظرنا لنسمع من الذي كان قد وقع، وقد قام على الفور دون أن يصاب بأذى، وشرع يصرخ مزمجراً قائلاً:« انظروا الآن، لقد وضعت السلم تحت قدمي، ونزلت ثلاث درجات، عندما قام أحدهم بسحبه من تحت قدمي، فسقطت»، وقد أجابه أحدهم قائلاً بأن السلم قد أنزل من قبل منذ ساعة مضت، غير أنه أجاب« هذا غير صحيح، لأنني نزلت ثلاث درجات، وعندما كنت واقفاً على الدرجة الثالثة سحب من تحتي»،

ولدى سماعنا هذا انفجرنا ضاحكين لمعرفتنا بأن السلم قد أنزل من قبل منذ مضي ساعة، وكنت مسروراً بأن رفيقي لم يتعرض للأذى بسبب هذا السقوط الخطير من مكان مرتفع، وضحكت بشكل غير معقول، وعندما رآني أضحك غضب غضباً شديداً مني، وقال:« على هذا إنني أرى بوضوح ياراهب فيلكس من الذي سحب السلم من تحتي، ومن المؤكد أنك لن تغادر هذا الغليون قبل أن أنتقم منك»، وعندما حاولت أن أبرىء نفسي، أصبح أكثر غضباً فأكثر، ولعنني، وأقسم أنه في اليوم التالي سوف ينتقم مني، وعلى كل حال شفا النوم جميع هؤلاء المرضى والرجال السكارى، الذين كانوا هم الأسوأ بسبب الخمرة الكريتية، وقد نسوا في اليوم التالي كل ماتعلق بهذا الموضوع، لكن لو أن ذلك الحاج قد سقط غير سكران، بل صاحياً تماماً، لكان من المتوقع انكسار رجليه، أو اندقاق رقبته، لأنه غالباً مايحدث بشكل عام أنه في الحالات الخطرة يكون السكارى من الناس أحسن — بدون تعليل من الآخرين....

وبعد الليلة التي حدث هذا فيها، أطلقنا غليوننا من الأربطة، وحملتنا الريح إلى خارج الميناء، إنما بعدما مضينا قليلاً في طريقنا هبت ريح معاكسة، وبقينا نتأرجح فوق الأمواج دون أن نتمكن من التقدم، ولهذا حاول البحارة العودة إلى ميناء كريت، ولكن بما أن الريح كانت قذرة، لم يستطيعوا ذلك، فضلاً عن هذا صار البحر فيما بيننا وبين مدينة الخندق هائجاً، وغدت الأمواج عالية ، ورأى الملاحون، أنه سيكون تهوراً تعريض سفينة محملة بهذا القدر إلى قوة الرياح الكاملة والأمواج، ولذلك سعوا جاهدين للوصول إلى اليابسة، بالابحار خلف الريح، وهكذا وصلنا بعد بذل جهود عظيمة إلى الجزء الجبلي من كريت، وكان ذلك على بعد حوالي الميلين عن البلدة، وهناك ألقينا مراسينا في منطقة جرداء مهجورة، وقمنا في الليلة التالية برفع أشرعتنا والانطلاق، فوجدنا أمامنا ريحاً قوية في البحر، وكانت ريحاً قذرة، وواجهنا في تلك

الليلة وفي اليوم التالي عاصفة ثقيلة، وكانت الرياح في الليلة التالية هائجة بشكل مخيف، وقد وافقت تلك الليلة عيد القديس ميكائيل، وكان هيجان البحر أعظم مما شهدناه خلال رحلتنا كلها، وتعهد أثناء هذه العاصفة كثيرون أمام الرب بأمور كثيرة، من ذلك على سبيل المثال، تعهد الذين أمضوا أمسية قداس عيد القديس ميكائيل وهم يعانون من آلام معوية، بأنهم سوف يصومون بقية أيام حياتهم، وانصبت مياه الأمواج على السفينة وفوقنا، وسببت لنا كثيراً من الازعاج، وكنا جميعاً مرضى، وعانينا من الصداع ومن الغثيان، أثناء تحرك السفينة وبسبب ذلك.

وفي أثناء العاصفة، غدت الرياح التي كانت قذرة، رياحاً لطيفة بالنسبة لنا، ولذلك أبحرنا بسرعة كبيرة، واجتزنا أماكن كثيرة، ووصلنا إلى مقربة من مودون، غير أننا لم نتمكن من الدخول إلى الميناء هناك، وخوفاً من أن نساق إلى الخلف ثانية بقوة الريح، دخلنا إلى ميناء مهجور بين جدران من الصخر، وكنا في هذا المكان على بعد قرابة ميل ألماني عن مودون، وحملنا نحن الحجاج حقائبنا إلى الشاطىء، وأخذنا طريقاً إلى مودون براً، وهناك انتظرنا وصول الغليون، وغادرنا من هناك مودون، فوصلنا إلى كوركيرا، بعد عبور سريع، أي إلى المكان الذي تركنا فيه الحجاج الآخرون، وأبحرنا في مساء اليوم نفسه من كوركيرا إلى جزر غوزابولس Gozapolis.

وبينما نحن لانزال في الظلام، وما من نجم من النجوم يمكن رؤيته، وفيما نحن نتجه مع الريح، هبت هناك عاصفة مرعبة جداً، وحدث هياج مخيف في البحر وفي الهواء، وكانت الرياح عاصفة دفعت بنا نحو الأعلى، وكان هناك برق، ورعد يزمجر بشكل مخيف، زيادة على هذا كان هناك من حولنا سقوط لبروق وصواعق مخيفة، حتى ظهرت أماكن كثيرة من البحر، وكأنها اشتعلت بالنيران، وتساقطت الأمطار بشكل

مخيف، وصـار الحال كـأن مطر الغيـوم قـد تجمع كله، وتـدفق علينا، واستمرت التيارات العنيفة تضرب الغليـون، حيث غطته بالمياه، وكانت تدق على الجوانب بشدة مثل حجارة أرسلت من فوق جبال عالية حيث كانت تتطاير على الجنبات.

وغالباً مـاتساءلت عندما كنت في البحر في أوقـات العواصف، كيف يمكن للماء ، الذي هو رقيـق وناعم، وضعيف البنيـة ، أن يسـدد مثل هذه الضربات ضد كل مـايواجهه، لأنه تصـدر عنه زمجرة عندما يسعى ضـد السفينة، وكأن أحجـار طاحـون قـد تطايـرت ضـدها، ولايمكن للانسـان أن يعجب لتحطيمهـا السفينة حتـى وإن كـانت قـد بنيت من حديـد، وأمواج البحر هـي أكثر ارهاقاً، وأكثـر ضجة، وأكثـر إثارة من أمـواج المياه الأخـرى، وكنت أتمتع كثيراً بالجلوس فـوق الطابق العلوي أثناء العـاصفـة، وأراقب الأمـواج المتـواليـة من الضيـوف المرعبين من الريح، والإندفـاع المخيف للميـاه، ومـن الممكن تحمل العـواصف أثناء النهـــار، لكنهم في الليـل أدوات رعب، لاسيما عندمـــا تكـون هذه العـواصـف عنيفـة، مثل العـاصفـة التي أتحدث الآن عنهـا، ذلك أن العاصفـة كانت عاصفـة عنيفة جداً، وكـان الظلام كثيفاً، ولم يكن هناك أي ضوء، سوى الضوء المتتابع الذي ينبعث من البرق.

واستمرت هذه الريح العنيفـة في هز الغليون ونقله صعـوداً وهبوطاً، وإدارته من الجانب إلى الجانب، وهزه حول نفسه خلال ذلك، إلى درجة أن مـامن انسان استطاع أن يتمـدد في مخدعـه، لابل لم يستطع الجلوس، ومطلقـاً لم يستطع الوقـوف، وكنا مـرغمين على التعلق بالأعمـدة التي وقفت في وسط القمـرة، وكـانت تدعم الأعمال الموجـودة فـوق، أو أن نستند على ركبنا المنحنيـة إلى جانب الصنـاديق، حيث احتضناهم بأيدينا وبأذرعتنا، وبذلك حافظنا على ثباتنا، وكان يحدث أحياناً انقلاب لبعض من الصناديـق الثقيلة والكبيرة مع الرجـال الذين كـانوا متعلقين بهم،

ذلك أن الغليون كان يتحـرك بعنف وباتجاهات مختلفة مما كان يؤدي إلى قلب كل شيء واقف عليـه، والشيء الذي بدا اعجـازيا، لكنه صحيح تمامـاً، هو أنه حتى الأشيـاء التي كـانت معلقـة بكلاليب في مقـابل الرؤوس الكتلوية، كانت تخرج من أماكن تعليقها وتسقط نحو الأسفل، ومع أن السفينة كـانت مغطاة من كـل جـانب بالزفت وبأشيـاء أخـرى تستخـدم لمنع تسرب الميـاه، وحفظ الداخل من الميـاه، مع هذا دخلت المياه خـلال هذه العاصفـة من خلال أمـاكن غير متوقعـة في كل مكان، ولهذا لم يكن هناك شيء في السفينة كلها لم يكن مبللاً، فقـد كانت فرشنا غـارقـة، وتلف خبزنا وبقسماطنـا بمياه البحـر، وكـان في الطابق السفلي رعب وضجيج، وكـان على الطابق العلـوي تعب واضطراب، ومـزقت الريح شراعنا الـرئيسي إلى مـزق، ولذلـك أنزل البحـارة نحـو الأسفل العـارضـة التي استند عليهـا، وربطوه بشراع آخـر لاستخـدامـه في العواصف التي يسمونها Papafigo إنها بعد مارفع البحارة العارضة وأداروها لفـوا الشراع معهـا، وعندما كـان البحـارة يمـدّون العارضـة لوحـدها ويـدعـون الأربطة تذهب، نزل الشراع نحـو الأسفل، وكـان البحـــارة ممسكين بـأيديهم بـالحبل الذي ربطـت به الزوايـا السفلى من الشراع، وقتها اندفعت الريح نحو الشراع، ومـلأته بقوة عظيمة جعلت قماشه يتمزق بين أيدي الملاحين، وأطاحت به وبالشراع نفسه فوق رأس السـارية وفوق القبـة Keba أو الرأس، عاليـــاً بالهواء، ورمت به بقـوة وعنف في الريح حتى أن العـارضة انحنت مثـل قوس، والسـارية نفسهـا، مع أنها كـانت ضخمـة وقـوية مصنوعـة من عـدد من جـذوع الأشجـار المحزومـة مع بعضهـا، صدر عنهـا صـوت مرتفع وكأنها قـد تمزقت وتحطمت.

وكنا في ذلك الوقت في أعظم المخـاطـر، لأنه لو تحطمت السـارية في مثل هذه العـاصفة، لتغلب علينا البحـر وقهـرنا نحن والغليون جميعـاً،

فكما أن الطير لايستطيع الطيران من دون ريشـــه وجناحيــه، كـــذلك السفينة من ذوات الحمل الثقيل، لايمكنهـــا التحـرك من دون أشرعـة، التي هي بمثـابة أجنحتهـــا وريشهـا، ولهذا عندمـا تحدث الشعـراء عن الخيـول المجنحـة، كان الذي عنـوه هو السفن فقط، من ذلك على سبيل المثال جاء بيرسوس Perseus من بلاد الإغريق على فرس مجنح وأنقـذ أندروميـدا Andromeda من الصخـور عند يافـا، الخ، وبناء عليـه عملت ساريتنا كثيراً من الأصـوات العالية المرعبـة، وفعلت العارضة مثل ذلك، وبدا كل شيء في الغليون كله آيل لأن يصبح قطعاً، ومـا مـن شيء أرعبني قط في العـواصف بقـدر الأنين المرتفع للسفينة، الذي كان كثيفاً جداً إلى حد يدفع الإنسان إلى الإعتقاد بأن السفينة لابد أنها محطمـة في واحـد من الجوانب، كما لايمكـن للانسـان أن يتمنع من الصراخ بصـوت مـرتفع بسبب أصـوات الأنين هذه المرعبـة المفـاجئة، وهكذا وقفنا ننظر إلى مشهد محزن، وفي وضع خطير كثيراً.

ولدى تطاير الشراع في الهواء على هذه الصورة، ركض عبيـد الغليون والبحـارة إلى الأمـام وإلى الخلف، وهم يصرخـون بقدر مـااستطاعـوا، وبذلك كـانت الضجـة عظيمـة، وكـانوا كمن يركضـون بين السيـوف، وتسلق بعضهم فـوق الغطاء الموجـود على العارضـة، وحـاولوا سحب الشراع نحـوهم، وكان بعضهم الآخـر على سطح الغليـون في الأسفل، يركضون هناك وهم يحاولون الإمسـاك بقماش القلع ثانية، وقام بعضهم بإدخال حبـال من خلال بعض الأثقال، ووضعـوا أربطة حول الشراع، وفي الوقت نفسـه قـام الحجـاج والذين كـانوا بلافـائـدة في هذا العمل بالصـلاة إلى الـرب، وتوجهـوا بالدعـاء إلى القـديسين، وعمل بعضهم اعترافاتهم وكأنهم باتوا على حافة الموت نفسها، وعمل بعضهم تعهدات عظيمـة بأنهم سوف يسـافـرون من هنا إلى روما، وإلى القـديس جيمس (في كومبوستالا)، أو إلى بيت العذراء المباركة(في لوريتو Loretto)،

لو أنهم فقط نجو من هذا الموت، لأنه فقط عندما يكون الموت حاضراً أمام أعيننا نخاف منه، ولقد تذكرت الأقوال المأثورة للفيلسوف آنا كاريسيس Anacharsis الذي قال بأن الذين يكونون في البحر، لايمكن عدّهم لابين الأحياء ولا بين الأموات، فضلاً عن هذا لقد قال بأنهم أبعدوا عن الموت بمساحة أربعة أصابع، والأربعة أصابع هي سماكة جوانب السفينة، وأيضاً عندما سئل: أي السفن هي الأسلم؟ أجاب:« السفن الموضوعة فوق أرض يابسة، وليست في البحر»، وبهذا أعلن أنه لايوجد أمن في البحر، بسبب مخاوفه الكثيرة والمفاجئة، وحدث أثناء هذه العاصفة المخيفة مفاجأة، فبدون توقع جاءت استجابة للمساعدة من السماء، ففي وسط أضواء البرق ظهر ضوء مثبت في الأعلى في الهواء فوق قوس السفينة لبعض الوقت، ومن ثم تحرك ببطىء خلال الغليون بطوله حتى مقدمته ثم اختفى، وكان هذا الضوء هو شعاع نار عرضها حوالي الغلوة، وحالما رأى قباطنة الغليون وعبيده، والملاحون الآخرون، وكذلك بعض الحجاج الذين كانوا فوق ظهر الغليون، حالما رأى هؤلاء هذا الضوء حتى توقفوا عن العمل، وأوقفوا صراخهم وضجيجهم وركعوا نحو الأسفل رافعين أيديهم نحو السماء، ورددوا بصوت منخفض لاشيء سوى «قدوس، قدوس، قدوس»، ولم نعرف نحن الذين كنا بالأسفل مالذي كان يحدث، فارتعبنا لدى هذا الهدوء المفاجيء والصمت، والصلاة غير المعتادة، وتصورنا أنهم تخلوا عن العمل بعدما قنطوا، ولهذا كانوا يصرخون «قدوس»، لأنهم كانوا على حافة الموت، ووقفنا مندهشين ننتظر ما الذي سوف تكون عليه نهاية هذا، وهكذا فتح أحدهم الباب الذي يغطي البويب الرئيسي للغليون، الذي من خلاله يأتي الناس من ظهر الغليون إلى القمرة، وكلمنا بالإيطالية بما معناه:«أيها الحجاج، سادتي، لاتخافوا لأننا في هذه الليلة وفي هذه العاصفة لن نعاني من الشر، لأننا تلقينا عوناً من السماء»، وبعد هذا وبما أن العاصفة استمرت، عاد عبيد الغليون إلى أعمالهم

المعتادة، ولم يعودوا الآن يصرخون كما كانوا من قبل، بل عملوا بصرخات بهيجة، لأنهم لايعملون قط بدون صراخ.

وينبغي ألا يفترض أي إنسان أن الذي تحدثت عنه بشأن الضوء هو مزيف، لأنه صادق بقدر كل ما هو ممكن، ويمكنني أن أبرهن عليه بأيمان أكثر من مائتي شاهد، هم أحياء في هذه الأيام، لأن ذراع الرب ليست قصيرة حتى تكون غير قادرة على إنقاذ، أولئك الذين كانوا في وضع بائس.

وفي أثناء هذه العاصفة قطعنا مسافة جيدة على مسارنا الصحيح، وأخيراً رأينا الريح قد قذفت بنا نحو الميناء الذي تشوقنا للوصول إليه، واقتضى ذلك جميع تلك الليلة واليوم التالي، وعندما أشرق اليوم التالي، وبما أن العاصفة كانت مستمرة، بقينا هادئين، وتحملنا أحوالنا بصبر، ذلك أننا كنا بلا ماء ولاطعام، ذلك أنه لم تكن هناك نار في الغليون، وكان المطبخ على السطح ملىء بالماء، بالإضافة إلى ذلك كنا جميعاً مصابين بدوار البحر، وأنفسنا عائفة لجميع الأطعمة والأشربة، لأن معدة كل واحد منا كانت مضطربة غير مستقرة، وفي الحقيقة ما من أحد منا أكل شيئاً في أثناء استمرار تلك العاصفة، وتمكن من إبقاء الطعام في جوفه، بل تقيأه ورماه ثانية، وما من شيء أفضل من إبقاء المعدة خاوية أثناء العواصف، فضلاً عن هذا كان الخبز كله قد فسد، ولم يكن قابلاً للأكل بالماء المالح، ولهذا كنا مرغمين على الصيام.

وتابعنا الإبحار في اليوم التالي، وقد خلفنا مدينة راغوسا Ra-gusa على يميننا، وكورزولا على يسارنا، ووصلنا إلى مدينة ليسينا، حيث نزلناها، فأنعشنا أنفسنا، وتخلصنا مما كنا نعانيه من دوار البحر، وقد بقينا في ليسينا لمدة ثلاثة أيام، لأن الرياح في البحر كانت قوية جداً، مع أنه كان هواءً لطيفاً بالنسبة لنا، وانتظرنا أيضاً حتى تسترد السيدة الحامل قواها، ذلك أنها عانت كثيراً، وغدت ضعيفة جداً في أثناء

العاصفـة، وفي الحقيقة كـان أمراً عجباً أنها لم تهلك مـع حملها أثناء ذلك الوقت العصيب، وبعد هذا أبحرنا من ليسينا بريح طيبة.

لكن مع حلول المساء ازدادت الرياح قوة، ورمت بنا جانباً بين أماكن وعـرة، مليئة بالعشب والصخـور، حيث كـان من غير الممكن الابحـار أثناء الليـل، والتجأنا إلى سفـح جبل وعـــر، وألقينا بالـدليل، محاولين العثـور على قعـر يمكن أن نلقي المرسـاة فـوقـه، لأن الظلام حلّ علينا بشكل مفـاجىء، حتى أننـا لم نستطع الوصـــول إلى ميناء، كما لم يعـــد بإمكاننا متابعة السير، وفي هذه الأثناء، عنـدما كنا قريبين من الجبل وكنا نحاول إدارة رأس الغليون نحو الريح، تعـرض لضربة قاسية من الريح والأمـواج، وكانت من العنف بمكان أنه لم يعـد من الممكن التحكم به، وبات مهـدداً بأن يمضي قـوسه نحـو الشـاطىء فوق الصخـور الحادة، وكان معنى ذلك تحطم الغليون، وعنـدما رأى رفيق الغليون أن المركب يتأرجح، وصل صراخهم نحـو السماء، وبدأوا يركضون إلى هذا الإتجاه وذاك، واستعدوا للقيام بالنجاة بأنفسهم.

وفي تلك الأثناء كنـا نحن مع الأسقفين جميعـاً في الأسفـل، عندمـا ركض خدم الأسقفين نحو البويب الذي كـان فوقنا، وصرخوا بصوت مخيف ومرعب قائلين:« سادتنا تعـالوا إلى الظهر، المركب قد تحطم وهو يغـرق»، ولدى سماع هذا الصراخ قفـز الأسقفـان وأتبـاعهما، وركضـوا نحو ظهـر المركب في فوضى عظيمة، وذلك مثلما فعل الآخـرون، وكان هناك تصادم على السـلالم المرافقة، واندفـاع سريع نحو مـؤخرة المركب، للحصول في داخل القـوارب التي كانت قـد أقلعت، فقد كان مـلاحوا السفينة مع عبيدها قـد استلوا سيوفهم وقطعـوا بها الحبال التي أمسكت القـــوارب، وهكـذا سقطت القـــوارب في البحـــر في سبيل أن يتمكن القبطان نفسه مع أخيه وزوجة أخيه وأتباعه، من النجاة أولاً.

وعلى كل حال لم ينزل أحـد إلى القوارب، ولو أن رجـلاً واحداً نزل

إليها لكان هناك مشهداً مرعباً من الفوضى، حيث كان هناك عدداً كبيراً ممن سيحاول القفز إلى القوارب، وبذلك يؤذي الآخرين الذين على ظهر القوارب، وسيقوم هؤلاء برميهم في البحر، وسيستل الذين يكونون في القوارب سيوفهم وخناجرهم ويمنعون الآخرين من الدخول عليهم، لأنه في مثل هذه الأوقات من الرعب، غالباً ماتحمل القوارب أكثر من وزنها وتغرق، ويقوم الرجال الفقراء بمحاولة إنقاذ حياتهم، فيندفعون قبل الآخرين، وبذلك يتعرضون للقتل بسيوف النبلاء وسيوف خدمهم، فضلاً عن هذا فإن الذين يرون المخاطر التي يحياها الذين هم في القوارب، يقومون بسيوفهم فيقطعون أصابع وأيادي الرجال المتعلقين بالمجاذيف وبجانب السفينة لدى عملهم للحصول بالقوارب، وبذلك يسقطون في البحر، ولقد سمعت حكايات مرعبة عن جنوح سفن وتعرضها للغرق، من الذين كانوا في مثل هذه المخاطر، التي بدا أننا كنا على وشك المعاناة منها.

وحدث أيضاً على كل حال أن الرب أنقذنا، فقد هدأت الفوضى، وربطت السفينة إلى الصخور، وطويت الأشرعة، وألقيت المراسي، وبناء عليه، بما أن عبيد الغليون، وصلنا بسبب إهمالهم وعدم اكتراثهم إلى هذه الحالة من الخوف، فقد جرت عقوبتهم بضربهم بشدة، غير أننا نحن الحجاج توسطنا من أجلهم، بعد ماتلقينا الرحمة الربانية التي أنقذتنا، وذلك احتذاء بمثلها، مع أننا لم نكن جديرين بالإنقاذ من الموت، وتابعنا في اليوم التالي السفر على طريقنا، وغادرنا يادرا ladera، وهي إحدى مدن دالماشيا، وقد خلفناها على يسارنا(كذا)، وتابعنا جرينا أمام الريح، لكن مع حلول المساء، شرعت ريح قوية جداً بالهبوب، ومع ازديادها فيما بعد، أصبح البحر هائجاً، وقد دفعنا إلى خارج مسارنا إلى أماكن جبلية، ومع ذلك لم نتجرأ على الإقتراب من الشاطىء، خشية من أن نصطدم بصخرة سيلا Scylla أو كاريبدس Charybdis،

ووصلنا إلى مجرى هوائي، حيث كـانت الريح فيه ثقيلة جـداً، ومع هذا حاولنا أن نلقي مراسينا في وسط هـذا المجرى، وبناء عليه رمينا بدليلنا، فوجدنا العمق كان هائلاً، ولهذا أبحرنا لمسافة أوسع، ولكن لدى غياب الشمس وحلول الظلام، لم يعـد بإمكـاننا المسير مسـافـة أبعـد من دون مخاطر عظيمة، وأجـرينا عملية القياس مجدداً، ووجدنا القعـر، لكنه كان عميقـاً جـداً، ومع هذا رمينا مـرساتنا الكبيرة، لإمسـاك الغليـون، لكن عندمـا وصلت المرساة إلى القعـر لم تجد لاصخـور ولاحجارة ولارمـال يمكن أن تلتصق بها شعـابها، بل جـرت وراء الغليـون فـوق قعـر الماء، وذلك أثناء متـابعـة الغليون لإبحـاره، مما أقلقنا كثيراً، وبعـد هذا، وإثر بذل جهـد عظيم انتشلـت المرسـاة، وألقي بها في مكان آخـر، ومجدداً جـرت المرسـاة وراء الغليـون، مثلما يجري المحـراث وراء الحصـان، ثم رفعت مجدداً، ورمينا بها في مكان ثالث، حيث أمسكت بصخـرة، ولكن عندما توقف الغليـون، كانت عصـا التوجيه تتحـرك من مكان إلى آخر، مما أدى إلى انزلاق شعبـة المرسـاة من على هذه الصخـرة، وبدأ الغليـون بجـر المرسـاة مجدداً، لكن حـدث فجأة أن وصلت المرسـاة إلى صخـرة أخرى، حيث التصقت بها بشدة، وهكذا بقينا واقفين طوال الليل.

وحملنا نحن الحجـاج أنفسنا إلى فـرشنا، لكن القبطـان بقي مع جميع الملاحين وعبيد الغليـون بدون نوم طوال الليل، متوقعين مـوتهم وموتنا في كل لحظة، لأن الريـح هبت بشكل عنيف، وتأرجح الغليـــون كثيراً، لأننا رسونا خـارج ميناء، يحمينا من قوة الريح، وكـان الملاحون— لهذا السبب— يخشون انزلاق المرساة وخـروجها من الصخرة، أو أن ينقطع الحبل، ففي حـال حـدوث أي من الأمـرين سـوف نهلك بدون شك، ذلك أننا كنا في قوارنيرو Quarnero ، الذي كان أخطر خليج في البحر ، وذلك في مقابل ميناء أنكونا Ancona ، حيث كان البحر عالياً جداً وقوياً في سرعته.

ولهذا، وتقـديراً من القبطان للمخـاطر التي كنا فيهـا، نذر أنه مـا أن يصل إلى ميناء بارنزو Parenzo سـوف يبحر مع جميع الحجـاج مباشرة إلى جزيرة القديس نيقولا، ليستمـع هناك لقداسات تقال وتنشد للشكر على خلاصنا، وهـذا مافعلناه، لأننا قمنا بالصبـاح برفع المرساة، وأبحرنا مـروراً بعدد من مدن دالماشيـا، ووصلنا إلى بارونزو في استريا، وذهبنا في اليـوم التالي مع القبطان، ونفـذنا نذرنا، ومكثنا في بارنزو لمدة خمسـة أيام، ثم وصلنا إلى ميناء البندقيـة بعد إبحـار يوم واحـد، وأخيراً وصلنا إلى البندقية، وتفرق جمعنا، ومضى كل رجل منا إلى موطنه.

وأصبحت في الوقت نفسه مريضاً، لكن ليس إلى حد أن أكون طريح الفـراش، ومع ذلك كنت مـريضـاً جـداً إلى حـد منعي من المشي، أو ركـوب حصان، حتى استرديت عـافيتي، ولذلك ذهب مولاي جـورج مع النبـلاء الآخـرين إلى الوطـن، غير أنني بقيت في البندقيـة بين أيدي الأطبـاء لمدة حوالي خمسـة عشر يومـاً، حيث عوفيت بعـدها واستردیت صحتي، فـانطلقـت من البندقيـة برفقـة تاجـر، واشتريت حصـاناً من تريفيسـو Treviso وسـافـرت مـع رفيقي حتى ترنت Trent ، وسافرت من ترنت وحيداً حتى وصلت إلى الناصرية Nassereit ، وقـد وصلت هناك بعـد الظهـر، فـوجـدت بالنزل، أربعـة من أخـواني الحجـاج من الأرض المقدسـة، وكـانوا من الإنكليز، وقـد حيينا بعضنا بعضاً بسرور وبهجة، وكانوا يقومون بالإستعداد للسفر، ويأملون بعبور الجبل الذي اسمه سيريسيوس Sericius في ذلك اليوم نفسه، غير أنني رجوتهم الانتظار حتى الغد، حتى يمكننا السفر إلى أولم مع بعضنا، وقد طلبوا مني أن أركب معهم، لكنني رجـوتهم بالبقاء معي باسم حق الرفقة والصـداقة، ولكنهم رفضوا، لأنهم— كما أخبروني— قـد سمعوا بشكل مؤكـد، أنه سوف تصل في ذلك اليوم بالذات مجمـوعة كبيرة من الفرسان المسلحين، التابعين لبلاط دوق النمسا، إلى تلك القرية والنزل،

وهم يرغبون بتجنبهم، لأنه لم يكن سليما العيش بين رجال مسلحين.

وهكذا افترقنا، وابتعدنا عن بعضنا بعضاً ثانية، فقد ذهبوا، وبقيت أنا خلفهم، وجاء في المساء إلى النزل عدد كبير من النبلاء المسلحين مع أتباعهم، وكانوا مرسلين من قبل دوق النمسا للدفاع عن قلعة كريجين Kregen التي كان ايبرهارد Eberhard الأكبر صاحب وورتمبورغ Wurtemburg محاصراً لها، ويحاول تدميرها، وعلى هذا كان النزل مليئاً برجال مسلحين أشداء، لكنهم عندما عرفوا بأنني قادم من الأرض المقدسة عاملوني باحترام ككاهن وراهب، وكذلك كجندي من جنود الأرض المقدسة والضريح المقدس، ودعوني لعمل قداس لهم في اليوم التالي، ومن ثم بالسفر معهم، وقمت في اليوم التالي بعمل قداس لهم، وتناولت طعام الإفطار معهم، وعندما انطلقنا لنسافر سددوا الحساب عني، وأخذوني معهم وسط قوتهم بسرور ومتعة وراحة، وعندما وصلنا إلى كمبتن Kempten ، وجدت هناك في نزل التاج الملكي، الحجاج الانكليز الأربعة المتقدمي الذكر، وقد جرحوا، وضربوا وسلبوا كل مقتنياتهم، وكانوا في حالة محزنة جداً، ومخجلة وتعيسة.

فقد انقض عليهم في الغابة على مقربة من كمبتن لصوص، أنزلوهم من على خيولهم مرغمين بالسيوف، وعندما حاولوا صد القوة بالقوة، والدفاع عن أنفسهم، أصابتهم الجراحات بضربات سيوفهم، وقاموا بشد وثاقهم، وجروهم بعيداً عن الطريق العام إلى داخل الجزء الداخلي من الغابة، إلى حقل معزول منفرد، وقاموا هناك بسلبهم وسط إهانات كثيرة، وفتشوا في جيوبهم، وأفرغوا محافظ نقودهم وجعبهم، وعروهم من ملابسهم تماماً، وبحثوا في ملابسهم بكل عناية ليعرفوا فيما إذا كانوا قد خاطوا على شيء من المال فيهم، وأعطوهم أخيراً بعضاً من الملابس السيئة بدلاً عن ملابسهم، وأرغموهم على أن يقسموا يميناً أنهم في

مجال ثلاثة أيام لن يخبروا أحداً بما حدث لهم.

ولقــد أسفت كثيراً من أجل إخـــواني، إنما هنأت نفسي لأنني لم أبق بصحبتهم، لأنني لـو بقيت لوقعت مثلهم في أيـدي هؤلاء اللصـــوص، ووصلت في اليوم التالي إلى ميمنجن مع هؤلاء الفرسان، وأمضيت ذلك النهار معهم، وفي اليوم التالي الذي كـان يوم عيد القديس أو ثمار Oth-mar[٢٥ — تشرين أول]، سـافـرت من ميمنجن إلى أولم بصحبـة كاهن.

ولدى دخولي إلى ديري، استقلبت بسرور ولطف، ومن ثم ذهبت إلى قـلايتي وإلى عملي المعتـاد فيها، ويمكنني القول صـادقـاً، إن هذا الحج الأول الذي قمت به، يعادل مائـة ضعف من حيث المتاعب والمآسي، أو أكثـر، من حجي الثـاني، وهو أعظـم خطراً في كل من البحـر والبر، وكانت جماعتنا في الحج أثناء حجي الأول أكثر فـوضوية، لأنه كان فيها كثيراً من الرجـال الانفعاليين، ولهذا كانـت هناك خصومات يـومية، كما كـان هناك بعض السرقـات الخاصة، وكـان بعضهم دومـاً مريضـاً، وفي الحقيقــة، كـانت رحلتي الاولى هذه في كثير مـن الجوانب أكثـر حـزناً وتعاسة، في حين كانت رحلتي الثانية أكثـر اتعاباً، وأبعد مسافة، وأعظم انفاقـاً، وأشد خطراً، ومع ذلـك تحملت أكثر فأكثـر المخاطر اليـومية في رحلتي الثانية.

وبهذا يمكن لجميع الناس أن يروا بـوضـوح، كيف أنه غير صحيح، ماهو رائج بين الناس في قولهم بأن الحج بالبحر من البندقية إلى الأرض المقــدسـة، هو مجرد رحلـة ممتعـة مع مخاطـر قليلة، أو بدون مخاطر على الإطلاق، فيـا إلهي أية رحلة متعبـة وصعبة كـانت رحلتنا، وكم كـانت المعـاناة التي كـابدناها كبيرة ومـزعجة، فلقـد رأيت خـلال هذه الرحلة كثيراً من الشبـاب النبـــلاء النشطاء يهلكون، من الـذين تصـوروا في أذهانهم أن بإمكانهم أن يتحكمـوا بأمـواج البحـر، وأن يرفعـوا الجبـال

العـاليـة ويزنوها، لكن الذي مـات بالأخير مـات بقضـاء الله العـادل، وهلك بفعل المصاعب، وكان أمره محزناً في روحه.

أرجـو الرب أن يعطي الذين قـالـوا بأن هذا الحج كـان رحلة سهلة، القدرة على الشعور بالأسفِ وأن يتعلموا امتلاك الرحمة نحو الحجاج إلى الأرض المقدسة، وذلك حسب مايستحقـونه، فمحاولة هذا الحج تحتاج إلى الشجـاعـة والقـدرة على التحمل، ذلك أن كثيرين يقـدمـون عليهـا ويندفعون نحـوها بتسرع غير مغفور، وبلا شك بفضـول بليد، ذلك أن الوصـول إلى الأمـاكن المقـدسة، ومن ثـم أن يعود الإنسـان إلى مـوطنه نشيطاً ومعافى، هو منحة خاصة من الرب.

هنا نهاية أولى جـولات الراهب فيلكس فـابري ورحـلاته إلى الأرض المقدسة.

الطريقة التي استعد بها الراهب فيلكس فابري لجولته الثانية أو حجه إلى الأرض المقدسة، والقدس، وصهيون، وجبل سيناء

بعد إكمالي لجولتي الأولى، حسبما شرحتها جزئياً، عدت إلى أولم، معافى في بدني، وبدوت سعيداً متحمساً، لكن كنت في قلبي وروحي حزيناً، وغير مستقر، بسبب القلق الذي شعرت به، لأنه كان عليّ تحمل حجاً آخر، وعودة إلى الأرض المقدسة، وعلى كل حال لم أخبر أحداً بهذا القرار، ذلك أنني لم أكن قانعاً بأي حال من الأحوال بحجي الأول، لأنه كان قصيراً إلى أبعد الحدود وسريعاً، وقد ركضنا حول الأماكن المقدسة دون أن نفهم أو نشعر ماذا كانوا، يضاف إلى هذا لم يكن قد سمح لنا بزيارة بعض الأماكن المقدسة في كل من داخل القدس، وفي خارجها، كما أنه لم يسمح لنا بالسير فوق جبل الزيتون، وفي أماكنه المقدسة أكثر من مرة، وقد زرنا بيت لحم وبيت عنيا مرة واحدة فقط، وكان ذلك في الظلام.

ولهذا حدث بعد عودتي إلى أولم، وشروعي بالتفكر حول الضريح الأكثر قداسة لربنا، والمعلف الذي تمدد فيه، ومدينة القدس المقدسة، والجبال التي هناك من حولها، ومظهر وشكل وأوضاع هذه الجبال والأماكن المقدسة الأخرى، ذلك أنها ضاعت من ذاكرتي، حتى بدت لي الأرض المقدسة، والقدس مع أماكنها المقدسة وكأنها مغلفة بالضباب الكثيف، وكأنني قد رأيتهم في المنام، وبدوت شخصياً بالنسبة لنفسي وكأنني أعرف أقل حول الأماكن المقدسة، مما كنت أعرفه قبل أن أزورهم، ولهذا حدث أنني عندما سئلت عن الأماكن المقدسة، لم يكن بإمكاني إعطاء أجوبة دقيقة واضحة، كما لم يكن بإمكاني كتابة وصف واضح لرحلتي، ولهذا السبب كنت حزيناً إلى أبعد الحدود، ولكوني عانيت ما عانيته من متاعب،وشقاء، ومخاوف، وأنفقت مبلغاً كبيراً من المال، وكثيراً من الوقت، دون أن أتلقى أية ثمار، أو مواساة، أو معرفة.

وفي غالب الأحيان عندما كنت أحاول حصر نفسي وتوجيه أفكاري نحوالقدس والأماكن المقدسة، كنت قادراً فقط على تجميع صورة غير واضحة حولهم، ولهذا قلت وأنا مغضب لنفسي:«أرجوك، توقفي عن التفكير حول هذه الأماكن، ذلك أنك كنت هناك بالتوهم والخيال فقط»، ومن هذه الساعة اعتدت على امتلاك رغبة ملحة جداً بالعودة، وبرهنت على صحة هذا غير أن هذا أوجد أسفاً جديداً بالنسبة إليّ وفيّ،لأنني لم أستطع رؤية أي سبيل للرجوع إلى هناك، كما أنني لم أتصور أن ذلك العود ممكناً.

وهكذا بقيت مرهقاً فكرياً، ولم أتجرأ على الحديث حول هذا الموضوع مع أي إنسان، وكنت خائفاً من ذكر هذا الموضوع إلى الأب المحترم السيد لودويغ فوكس، مع أنه كان صديقاً مقرباً مني، وشريكاً لي في جميع أسراري، حيث ما كنت أتردد في إخباره بجميع الأشياء السرية التي كنت أشعر بها بقرارة نفسي، ومع هذا لم أتجرأ على البوح بذلك لأبي بالرب، ولم أذكر له خطتي بالعودة إلى القدس، خشية من إثارته وإزعاجه، وخشية أنه وغيره عندما يسمعون بذلك سيظنون ظن السوء بي، ويحكمون بأنني صاحب عقل خفيف، ومتضايق من العزلة الانفرادية الهادئة، أوربما أعاني من إغواء الشيطان، أو مدان بذنب الفضول المرفوض، أو مصاب بدوافع طائشة ملتهبة جامحة، ولذلك بقيت بلا قرار، ولم أظهر إشارة بما شعرت به سوى أنني عندما سئلت عن القدس وعن الأرض المقدسة، لم يكن بإمكاني الكلام بدون تنهد، أو القول أحياناً:لست أدري فيما إذا كنت قد رأيت القدس حقيقة أم لا، وعندما سألوني، فيما إذا كنت أرغب بالعودة إلى هناك ثانية، أجبت بكل بساطة، نعم أنا أرغب بذلك، وفي الوقت نفسه ألقتني رغبتي في العودة في قلق محموم، ولذلك لم تقدم لى الدراسة، ولا الكتابة أية بهجة أو متعة، إلاّ الحكايات التي وردت في التوراة وفي أماكن أخرى فيها

إشارات وذكر للقدس، ولهذا قرأت بعناية كل شيء تعلق بهذا الموضوع، ووصل إلى يديّ، فضلاً عن هذا جمعت كل حكايات حجاج الحروب الصليبية، والرحلات التي كتبت من قبل حجاج، وكذلك أوصاف الأرض المقدسة، وقرأتهم بعناية، وكنت كلما قرأت أكثر كلما ازداد اضطرابي، لأنني بقراءتي لروايات الآخرين، علمت كم كان حجي، ناقصاً، ومصطنعاً، وغير نظامي، ومضطرباً متداخلاً.

وأمضيت في أعمال القراءات والكتابات هذه سنة واحدة، لكن بعد مضي سنة عدم الاستقرار هذه، قدم إلى منطقتنا القائد العام لطائفتنا كلها، أي طائفة الرهبان المبشرين، وهو سالفوس دي كاسيتا، Salvus de Casseta أوف بالرمو(بلرم)،وقد جاء مرسلاً من قبل الأب المقدس البابا سكتوس الرابع، للتصدي للسيد أندرو، رئيس أساقفة كارنيولا Carniola ، الذي تحرك لاأدري بأية روح، وكان يحاول عقد مجمع عام في بازل، وكان يسكن هناك تحت حماية الامبراطور فردريك الثالث، ومن أجل أن يتمكن رئيس طائفة الرهبان المبشرين المتقدم الذكر، من العمل بشكل فعال أكثر، استدعى أفضل الوعاظ في منطقتنا للاجتماع به في دير كولمار Colmar ، وقد بعثت بين هؤلاء، وقدمت إلى الدير المتقدم الذكر، لكي أسمع أوامره وأطيعها، وهكذا عندما كنت بحضرة رئيس الطائفة، كان بين الأشياء التي قلتها لذلك الأب، وتحدثت بها إليه، أن أخبرت فخامته وحدثته عن رغبتي بالعودة إلى الأرض المقدسة وفلسطين، فما كان منه إلاّ أذن لي بالذهاب مباشرة وبدون عمل أية مصاعب، وأعطاني رسالة سماح مختومة بختم الطائفة، فيها حظّر على كل واحد من المراتب الأدنى منه عمل أية عوائق في طريق إنجاز ذلك الحج.

ولدى حصولي على هذا السماح عدت مسروراً إلى أولم، وأبقيت رسالة الرئيس مكتومة، وانتظرت متشوقاً لفرصة مناسبة حتى أعلن

عنهـا، وليس بعـد مضي أيام كثيرة على هذا، حتى قـدم إلى أولم مـولانا المحترم في المسيح أودالريكـوس غيسلينوس Udalricus Gislinus أسقف أدراميتـوم adramyttium ، ونائب أسقف لمولاي أسقف أوغسبورغ Augsburg ، الذي كان صديقاً لي، وقد شملني بمعـروفـه، وجـاء معـه حكيم باللاهوت، وكـان راهبـاً من طـائفـة الـفرنسيسكان، وكـان راغباً بالذهاب إلى رومـا ليتسلم ترسيمه أسقفـاً، لأن السيـد أسقف فريزيا قـد جعل منه مسـاعد أسقف له، وقـد زرت هؤلاء السادة، ورجـوت الحكيم المتقدم الذكـر أن يتفضل عليّ فيحصل لي من الأب المقـدس البابا، على إجـازة لي لزيارة الأمـاكن المقدسـة فيما وراء البحـر، وهو مـا رجـاه أيضـاً الأب المحترم المتقـدم الذكـر أودالريكوس أن يفعله إكـراماً لخاطره، وهكذا وعـدني بأن يفعل ذلك، وقـد حـافـظ على وعـده وبعث لي رسـالة تحتـوي على الاذن بالسفـر، وعندما حصلت على هذه الرسالـة حافظت على الصمت فقد كنت آمل بتوفر فرصـة موائمة أكثر، وكنت أرجو أن الفرصـة المرغوبة هي ستقدم نفسهـا، وتلبي رغبتي وتشـوقـي من دون أن أطلبهـا، وهذا مـا حـدث بالفعل.

وكان في ذلك الوقت في أولم رجل اسمه كونراد لوخرLocher ، وكان إنسـاناً محترماً يشغل وظيفـة النائب العام للامبراطورية الرومـانية المقدسة في ذلك المكان، وكان معروفاً بشكل جيد من قبل عدد كبير من النبـلاء، وقد نظر إليّ نظرة تقـدير وأولاني عناية خاصـة، وله — بحكم كـونه صـديق مـوثوق — فتحت أولاً قلبـي، وأبحت له خبر رغبتي، والاجـازتين التي حصلت عليهما، ورجوتـه إذاكان يعـرف أي شخص من نبلاء المنطقـة، يرغب بالقيام بالحج إلى الضريح المقـدس في القدس، وهو بحاجـة إلى خادم وشماس، فيـوصي بي إلى مثل هذا الشخص، على أنني إنسـان صاحب تجربة،ومعين في مثل هذا الحج في كل من القضـايا

الروحية والدنيوية.

وبناء عليه نظر الرجل المتقدم الذكر في لائحة نبلاء المنطقة، فوجد السيد ذي الأصل النبيل جون تروخسيس فون وولدبورغ John Tru-chesess Von Woldpurg ، كان يعدّ العدة للقيام بحج إلى ما وراء البحار مع عدد آخر من البارونات والنبلاء، وقد زار هؤلاء النبلاء، وقام بإخلاص عظيم بالتوصية بي لهم، كما برهنت الأحداث.

لأنه مباشرة بعد هذا، وكان ذلك في سنة ١٤٨٣، وفي يوم عيد القديسة العذراء جيرترود Gertrude ، قام النبيل المتقدم الذكر، أي تروخسيس فون وولدبورغ، بالقدوم إلى أولم مع عدد كبير آخر من النبلاء، ومن أصدقائه، وأرسل على الفور رسولاً إليّ واستدعاني من الدير، وعندما قدمت إليه إلى النزل الذي كان نازلاً به، وبدأ يسألني، وكأنه يطلب مشورتي حول كيف يمكن للذين يرغبون بعبور البحر والقيام بالحج إلى القدس، أن يفعلوا ذلك، وما الذي عليهم القيام به بشأن هذه القضية، وقال:«لقد سمعت بأنك كنت في تلك المناطق فيما وراء البحار، أرجوك، أشر عليّ، ما الذي ينبغي أن أفعله من أجل أن أعود إلى الوطن سالماً»؟ ثم استطرد يقول:«إنني أنوي زيارة الأرض المقدسة، ومدينة القدس المشهورة، ومعلف الرب، الذي هو الأكثر عذوبة، وضريح الرب الأكثر تمجيداً»، وقال:أخبرني، «أرجوك بحرارة، ما هي المصاعب في طريقي،وكيف يمكن تجاوزها»؟، وعندما كنت أجيبه على أسئلته،كان ينظر إليّ بإخلاص عظيم، ومع أنه توقف عن سؤالي مثلما فعل في البداية، لكنه استوضح عما إذا مازلت أمتلك أيةرغبة في العودة إلى القدس، فأجبته أنه لايوجد شيء في العالم أنا متشوق إليه بشدة، في الوقت الحالي، أعظم من رؤية ثانية لهذه الأماكن المقدسة، وبعدما علم هكذا رغبتي بالذهاب، جعلني هذا النبيل أعود إلى ديري، مؤكداً لي، أنه ينبغي أن أذهب إلى القدس برفقته ورفقة

أصدقائه.

وكان النبـلاء التاليـة أسماؤهم قد تعهـدوا مقسمين على القيام بالحج مع بعضهم، وهم: السيد جون وورنهير Wornher ، بارون فون كيمبيرن Cymbern ، والسيـد هنري بارون فـون ستـوفل -Stoe fel ، والسيد أورسـوس Ursus فون ريخبيرغ Rechberg فون هوهنريخبيرغ Hohenrechberg، والسيد المتقـدم الذكر تروخسيس فـون وولـدبورغ، الذي كـان والد جميع المتقــدمي الذكـر، ومنـه تلقـوا التحريض والدافع الذي جعلهم يقررون القيام بحجهم.

ومبـاشرة في السـاعـة نفسهـا التي عـدت بها إلى ديري، أرسل النبيل المتقدم الذكر رجلاً محترماً مرافقاً بحاشيته الخاصة، ليلقي كلمة يرجو بها السيد المحترم رئيس الدير، باسم البارونات النبـلاء الذين تقدم ذكرهم، بأن يتكرم ويحسن بمنـح الراهب الذي كـان في بلدان مـا وراء البحـر، والذي وقع اختيـارهم عليـه بـالاجماع لأن يكون شماسهم والقس الذي يعترفـون إليـه، إجـازة بالمغـادرة، وإذناً بالسفـر من البـلاد معهم، ولهذا الغـرض أضفت بأن السيـد جـون تروخسيس قـد قدم الآن مع رفـاقـه والنبلاء الآخرين إلى هذه المدينة.

وعندمـا سمح رئيس الديـر هذا افتعل كثيراً من المصـاعب، وأخـذ وقتـاً لتقدير الجواب الذي ينبغي أن يعطيـه، وعندمـا رأى السيد جـون هذا، وخشية منه أن ينتهي النقاش في شيء يضـاد رغباته، قام مباشرة في اليوم التالي، وجلب معـه جميع النبلاء وأصدقائـه، وكذلك النبيل كونت فون كيرخبيرغ Kyrchberg الذي جاء أيضاً معــه، ولقد اصطحب هؤلاء جميعـاً وذهب إلى مقـر محكمـة العـدالة المدنيـة، حيث كـان جميع أعيان مـدينة أولم مجتمعين، وترجاهم لكـي يستمعوا له، وعندمـا جرت الاستجـابة لهذا الطلب، توسل إلى القناصل لكي يستخـدمـوا نفـوذهم لدى رئيس دير الـدومينيكان لكي يدع الراهب فيلكس، الـذي اختـاره

هو ورفاقه ليكون شماسهم أثناء الحج فيما وراء البحار، يدعه يغادر بدون عوائق، ولاسيما أنهم يعرفون بشكل خاص أنه راغب بالذهاب، وبناء عليه دخل عمدة المدينة مع عدد من القضاة إلى الدير ليلتمسوا من الأب، الموافقة على التماس النبلاء، من أجل خاطر أعيان المدينة، وعندما قال بأنه لايمتلك السلطة ليمنحني إجازة للارتحال إلى القدس، لأن ذلك العمل هو في يدي أبينا المقدس، البابا، وكذلك هو من شأن القائد العام للطائفة، قمت على الفور بتقديم الرسالتين، اللتين هما من البابا، ومن القائد العام للطائفة، وعندما رآهما أعطى على الفور موافقته باسم الرب.

وبناء عليه التقيت بالسيد جون تروخسيس، وتباحثت معه حول المكان وحول اليوم الذي سألتقي به فيه مع سادتي الثلاثة الآخرين، وقام بتحديد يوم خاص، أما بالنسبة للمكان فقد كان بلدة إنسبروك Innspruck حيث مقر دوق النمسا، وبعد إعداد هذا، ذهب سيادته إلى موطنه مع جماعته، واعتباراً من هذا اليوم أطلقت لحيتي، وزينت قبعتي وردائي بصليبين حمراوين، وجرت خياطة هذين الصليبين على ثيابي من قبل عذراوات، مكرسات للرب، اقترن بالذي صلب، وعملت جميع الشارات الأخرى لذلك الحج المقدس، كما ينبغي أن أفعل بشكل صحيح، حيث هناك أربطة خمسة خارجية للحاج هي: أولها صليب أحمر فوق رداء رمادي طويل، مع قلنسوة راهب مخاطة إلى القميص، ما لم يكن الحاج منتمياً إلى إحدى الطوائف التي لاتسمح له بارتداء رداء رمادي، وثانيها قبعة سوداء أو رمادية، عليها في الواجهة صليب أحمر، وثالثها لحية طويلة نامية من وجه حاد وممتقع اللون بسبب متاعبه والمخاطر، ذلك أنه في كل بلد من البلدان، حتى في البلدان الكافرة، يطلق الناس لحاهم ويدعون شعورهم تطول أثناء سفرهم، وإلى أن يعودوا إلى وطنهم، ويقولون إن أول من فعل ذلك هو أوزوريس،

وكان ملكاً قديماً لمصر، وكان مقدساً إلى درجة عدّه رباً، وكان قد ارتحل خلال العالم كله، والرابع هو مخلاة تعلق على الكتفين فيها طعامه القليل مع زجاجة، وهي كافية ليس لرغد العيش، بل لمجرد ضرورات الحياة، والخامس، وهو مايحصل عليه فقط في الأرض المقدسة، وهو أتان، مع سائق مسلم، عوضاً عن عصاه.

وهكذا تطلعت بشـــوق عظيم إلى يوم مغـــادرتي، وبصمت وهدوء جهــزت نفسي من أجل حجي المقــدس، وذلك بسبب المشــاكل التي أثارها الذين كانوا قلقين على سلامتي، والذين دأبوا على إزعاجي.

هنا بداية الرحلة الثانية للراهب فيلكس فابري إلى الأرض المقدسة والقدس

الجزء الرئيسي الثاني من الكتاب كله.

سوف أبدأ الآن جولاتي حول حجي الأكثر رغبة فيه والذي كان الأعظم إشراقاً وسروراً، وهو الحج الذي عزمت على وصفه في اثني عشر فصلاً، تبعاً للاثني عشر شهراً — أكثر أوأقل — التي استغرقها الحج، وقد قسمت كل فصل إلى كثير من العناوين، مثلما هناك أيام في الشهر، وبناء عليه سوف يكون كل شهر في فصل، وكل يوم تحت عنوان.

ولسوف أبدأ بيوم مغادرتي، وأنتهي بيوم عودتي، وسآتي بشكل صادق وأمين على ذكر جميع الأماكن التي رأيناها شهراً تلو شهر، ويوماً تلو يوم، وسأتحدث بصدق عن كل ما نزل بنا في كل شهر، وفي كل يوم، مضيفاً أوصاف جميع الأماكن المقدسة وغيرها من الأماكن، لكي أحسّن روايتي وأشرحها، لأنني لم أر يوماً واحداً، أثناء رحلاتي، دون أن أكتب بعض المذكرات، حتى عندما كنت في البحر، وفي العواصف، أو في البلاد المقدسة، وغالباً ما كنت في الصحراء وأنا راكب على ظهر أتان، أو جمل، أو في الليل عندما يكون الآخرون نياماً، حيث كنت أجلس وأدون كتابة ما كنت قد رأيته.

والآن عندما اقترب موعد المغادرة، وبات عليّ السفر، ترقبت يوماً مناسباً يمكنني أن أغادر فيه أولم، من دون أن ألاحظ، ومن دون تجمع حشد كبير من الناس، لأن رفاقي وذوي النوايا الطيبة نحوي قد انزعجوا كثيراً، وكانوا غير سعداء إلى أبعد الحدود بسبب مغادرتي، وقدأزعجوني كثيراً بنصائحهم التي وجهوها إليّ بالبقاء في الوطن،

وبسبب مخاوفهم الحمقاء، وقد بدا نحيبهم بالنسبة لي مزعجاً جداً، لأنني أحب البهجة ولاأخاف، لأنني كنت ذاهباً لتلبية دعوة إلى الاحتفال مع أعز أصدقائي.

وبناء عليه في الثالث عشر من نيسان، الذي كان يوم أحد ويعرف باسم Misericor dia Domini وذلك في سنة ١٤٨٣، ومع حلول الظلام، جاء إليّ رسول أرسله النبيل السيد فيليب كونت كيرخبيرغ، يطلب مني القدوم في الصباح التالي بدون تأخير لزيارة الكونت والقيام ببعض الأعمال معه، وكنت في وضع الرئيس لجميع أسرتي،لأن جميع آل بيتي اعتادوا على الاعتراف إليّ، من كل من الكونتات والكونتسات، وعندما تتوفر أية مصاعب، يمكنني أن أتعامل معها، كانوا دوماً يكتبون رسالة إليّ، أو يبعثون إليّ للقدوم إليهم، وبناء عليه رتبت مع الخادم بأنني سوف أقدم عليه بصحبته في الغد.

وفي الرابع عشر، الذي كان يوم عيد تيبورتيوس Tiburtius وفالنتاين، وبعد قراءة القداس وتناول طعام الافطار دعوت للاجتماع بي جميع الرهبان، وقلت لهم أنني الآن أرغب في مغادرتهم والسفر، ورجوت بنيل مباركة الحج من أبينا المحترم المقدس لودويغ Ludwig، وقد اقتادني إلى السدة حيث رافقني كل رهبان الدير، وجثوت في وسط السدة بوجود القربان المقدس، وتلقيت المباركة من المذبح، وسط بكاء مرّ ونحيب من رئيس الدير وجميع الرهبان، وبعدما تلقيت مباركتي جعلني بكائي ودموعي غير قادر على القول وداعاً لإخواني الرهبان بالكلمات، لكن دموعي، ووجهي الحزين، وتنهداتي تكلمت عني.

وبناء عليه عانقت وقبلت كل واحد من إخواني، ورجوتهم أن يتذكروني في صلواتهم، غير أنني لم أستطع إلاّ بصعوبة بالغة إقناع الأب المحترم لودويغ بالبقاء مرتاحاً في البيت،لأنه أراد أن يراني سليماً حتى ميمنجن، كما فعل من قبل، لكنني رفضت كلياً أن أسمح له، حتى

لايعـاني من ألم جـديد واضطراب عنـدمـا نفترق، وعلى كل حـال كنت لدى انطلاقي لهذا الحج مسروراً ومنتشيـاً، وروحي مبتهجـة، ومع ذلك عندمـا تركت الأب، الذي هو صـديق مخلص جـداً، وغادرت إخـواني المحبـوبين إليّ كثيراً، الذين كـانوا حـزينين كثيراً ومحبطين، لم أستطع أن أمنع نفسي من ذرف دموعي.

وبعدما جـرى جمع الحقائب التي نويت حملها معي، وبعـدما وضعتها على ظهـر الحصان الذي كنت قـد اشتريته، امتطيت حصـاني، وبت على نيـة السير والابتعـاد برفقـة خـادم الكونـت، لكن حـدث لدى امتطائي لحصاني أن تحلق جميع إخـواني الرهبان من حولي، ورجـوني أن أتنبه وأن أعتني بكتـابة مذكـرات عن جميع الأمـاكن المقدسـة التي سأراها، وأن أكتب رواية عنهـا وأجلبهـا معي إليهم، وذلك مـن أجل أن يتمكنوا أيضـاً بأفكارهم — طالما لم يستطيعـوا بأجسادهم — من الحصـول على متعة زيارة الأماكن المقدسة، وقـد وعدت إخواني بفعل ذلك، وخرجت برفقـة خادم الكونت وقتهـا من الدير، وسرنا بدون جلبـة وكأننا مخفين لأنفسنا، وخرجنا من المدينة، وعبرنا نهر الدانوب عبر الباب الذي يقود إلى جسر الضأن، وصـدف أن هذا الحج قد توافق مع الحج الآخـر، فيما يتعلق باليـوم الذي بدأ به، ذلـك أنني كنت قـد بدأت حجي المتقـدم في يوم عيد القديسين تيبورتيوس وفالنتاين.

وفي الحقيقـة بدأت بعـد مضي عـامين رحلتي الثانيـة في اليـوم نفسـه والساعة نفسها، مثل الرحلة الأولى، وسرت أنا وخادم الكونت فوصلنا بسرعة إلى قرية ديسين Dissen ، وصعدنا بعـد ذلك إلى القلعة القائمة فوقها، التي سكن فيها مولاي الكونت، وكان السبب في إرساله خلفي هو مايلي: كـان يوجد في قـرية جيدينشيم Jedensheim أو إيهديمشيم Iheidemsheim ، القائمة عند سفح الرابية التي قامت فوقهـا القلعة، كان يوجـد هناك فتاة قد فقـدت عقلها، التي من الممكن

تبيـان أنها متلبسـة من الشيطان، وقـد أراني الفتاة وعـرضهـا عليّ لأنظر إليها وأتفحصها، حتى يمكنني تقرير ما الذي يمكن العمل معها، وكان قراري أنها كـانت فاقـدة لعقلها، ولهذا كـان الأجدى العهـدة بها لعناية أطباء وليس لعناية لاهوتيين.

ومع انتهـاء هذا العمل أخبرت مـولاي الكونت، بأنني قـد بدأت رحلتي، ورجـوتـه أن يبعث معي بخـادم يرافقني حتـى سفح جبـال الألب، لأنه بالنسبة للطريق خـلال تلك المسافة غالبـاً ما يكون خطيراً، وقـد خفت من السير وحيداً، وبناء عليـه غادرت ثيسا Thyssa في ذلك اليوم نفسه مع الخادم الذي عين لي، وسـافرنا حتى ميمنجن حيث أمضينا الليل.

وسافـرنا في اليوم الخامس عشر مسرعين من ميمنجن حتـى كامبتن Kampten، وهناك تناولنا طعام الغـداء معاً، وبعـد الغداء صرفت الخادم وطلبت منه العـودة إلى سيـده، ذلك أنني خشيت من احتمال أن يغادر مـولاي انسبروك Innspruck قبل وصولي إلى هناك، ولذلك سافرت حتى قرية ريوتي Reutte القائمة على ضفتي نهر ليكوس Licus، وهو الذي يعرف بشكل عـام باسم ليخ Lech، حيث أمضيت الليل هناك.

وغادرت في يوم السادس عشر ريوتي وحيداً، وكان ذلك في الصباح الباكر، وشرعت في تسلق ألب ريهتك Rhaetic، في مكان يقوم فيه المدخل إلى ريهتك الألب، وذلك فوق طريق منحـدر، يكون في أوقات الأمطار سيئاً جـداً للسفـر عليـه، لأنـه عميق ومـوحل، وقـد وجـدت الطريق سيئاً جـداً، لأنه كـانت هناك أمطار في اليـوم المتقدم، وتسـاقط الثلج في الليلة التـاليـة فوق الوحـول، ولهذا لم أستطع رؤية التجمعـات المائية والحفر العميقة، وعلى هذا غرق حصاني الذي قدته طوال الطريق صعوداً حتى بطنه أثناء كل خطوة، وغـرقت أنا مثله حتى ركبتي، فضلاً

عن هذا غرقنا معاً في حفر عميقـة، ومهما يكن من أمر لقد عبرت حتى حدود الريهتك ألب Rhaetic Alps ، التي هي موجودة عند مكان اسمه ايهرنستين Ehrenstein ، ووصلت إلى حيث يقود الطريق صعوداً فـوق مونـز فيريشيوس Mons Fericius، وعندما وصلت إلى قمة هذا المكان ونزلت إلى الجانب الآخر، وجـدت أنه مايزال أمامي جزء من النهار، ولهذا عبرت خلال قـرية الناصرية، وتسلقت ثانية جبلاً عاليـاً جداً ووصلت إلى قـرية Schneckenhusen ، حيث قررت إمضاء الليل.

وجلس في النزل بعـض عمال المناجم من منـاجم الفضـة، وكـانوا يقمـرون،ويشربون ويمتعـون أنفسهم، وقـد نظرت إليهـم نظرة ريبـة، وكنت حذراً في كلامي معهم، ووضعني صاحب النزل في غرفة صغيرة لوحدي، حيث قمت بإغلاق الباب بكل اتقان وحذر، ورحت نائماً.

وفي الصبـاح الباكـر من اليـوم السابـع عشر، عندما استيقظنا جميعـاً، كـانـت هناك ضجـة كبيرة في دار النزل، لأن اثنين من الحمالين كـانا يشتكيان بأنهما فقـدا نقودهما مع أموالهما كلها، لأنهما عندمـا كانا نائمين، دخل عمال المناجم إلى غـرفتهما، وسحبـا حـافظتي نقـودهما من تحت وسادتيهما، وأفـرغاهن ورموهن في الحديقة المجـاورة لدار النزل، ونجوا مع المال، بينما كان كل إنسان نائم.

وعندما أشرقـت الشمس غادرت ذلك المكان، ومضيت مسـافراً على طريقي تخالجني المخـاوف مـن أن يكون أولئك اللصـوص قـد جلسـوا كامنين لي على الطريق، وعلى كل حال لم يلحقني أي ضرر، ووصلت في منتصف النهـار إلى بلدة إينسبروك Innspruck حيث أملت بلقـاء مـولاي، لكن خـاب أملي، ويطلق على إينسبروك اسم بونتينا Pontina في اللاتينية، وذلـك اشتقاقاً من عبـارة بونز إن Pons Ini ، ذلك أن الجسر القـائم على نهر إن Inn ، هو المعنـي بالألمانيـة بـاسم

إينسبروك، ولدى اقترابي مـن جسر البلدة، وعندمـــا كنـت على وشك الدخول إليه، قابلت خمسة رجال مسلحين، كانوا من أتباع موالي، حيث كانوا قد صرفوهم عائدين إلى موطنهم، عندما كانوا أنفسهم قد انطلقوا من اينسبروك في ذلك اليـوم نفسه، وكـانوا يعملون في بلاط الدوق منذ أيام طويلة، وكـانوا متعبين من ذلك، ولذلك مـا أن أنهوا أعمالهم هناك، حتى استأذنوا بالانصراف، قبل يوم واحـد قبل الموعد الذي كـان السيد جـون التروخسيس قـد حـدده للقـاء معي، وكـانت الأعمال التي كـان عليهم تصريفهـا مع الدوق هي أنه عهـد إليهم بالمسـؤوليـة عن كل مـا خلفـــه وراءه هـو ومن معـــه، أي:أزواجهم، وأولادهـم، وأراضيهم، وقراهم، وبلداتهم، وقـلاعهم، وكونتياتهم وإقطاعيـاتهم، فضلاً عن هذا كانوا قـد تسلموا من الدوق رسـائل توصية مـوجهة إلى أعيـان وشيوخ البندقية، وكانوا عندما أكملوا هذا كانوا قد شرعوا بالانصراف.

وبما أنني لم أجد موالي في البلدة، عبرت مـن خلالها مسرعاً، من أجل اللحاق بهم، وتسلقت الجبال، وبعد عبـوري الكثير من الممرات الملتوية بين الجبـال، وصلت إلى واد كبير اسمـــه مـاتري Matrae وأمضيت الليل هناك.

وفي يوم الثـامن عشر تسلقت جبـالاً أكثر علواً، وعبرت الممـر الذي اسمه برينير Brenner ، حيث عانيت من البرد القارص، لأنه يوجد هناك دومـاً حتى في الصيف جليـــد، وبخـار على شكل صقيع، وذهبت من ذلك الشرف نزولاً إلى الطرف الآخـر عبر طريق طويل سرت عليـه حتى وصلت إلى بلدة ستيرتزنغ Stertzing حيث وجـدت مـــوالي في النزل مع نبلاء آخرين وأتباعهم، والذين وجدتهم هناك كانوا : السيد هينريخ Heinrich فون ستوفل، والسيد جون التروخسيس، والسيد أوسـوس فـون ريخبيرغ، غير أن العضـو الرابع من جماعتنا، وهو السيـد جون ويرنر Werner ، بارون فـون سيمبيرن، كان قـد مضى في

مقدمتهم وسبقهم، من أجل أن يحضر مكان إقامة موائم في البندقية من أجل السادة جميعاً، ومن هم في جماعتنا.

وفي يوم التاسع عشر من نيسان غادرنا ذلك المكان بعد الغداء، ولدى مرورنا بدير نيوستفت Neustift ، العائد إلى طائفة كهنة نظاميين، على مقربة من بركسن Brixen ، خرج راعي الدير لاستقبالنا وأخذنا جميعاً إلى الدير برفقته، وقد فعل ذلك صدوراً عن احترامه للسيد جون التروخسيس، الذي عدّه حاميه، لأنه جاء من وولسي Walsee ، مقر السيد جون التروخسيس، وبفضله جرى تعيينه راعياً لذلك الدير، ولم يرغب راعي الدير المتقدم ذكره بأن يدعنا نذهب، بل أجبرنا على البقاء هناك، وعاملنا باحترام عظيم، ذلك أن الدير كان عظيماً جداً وثرياً، ونادراً ما رأيت في أي مكان آخر مثل الكثرة التي رأيتها هناك من صحون الذهب والفضة في قاعة طعام راعي الدير، ويمتلك هذا الدير كنيسة كبيرة، مزينة بشكل ثري، كما يحتوي على مكتبة جيدة، والرجال هناك متزمتين ومحترمين، ويرعون إقامة القداسات الربانية، ولاأعتقد أنني سمعت في أي مكان آخر مثل صحة غناء الجوقة وجودته في هذا الدير.

وفي يوم العشرين، الذي كان يوم أحد عرف باسم«اليوبيل» بقينا لسماع القداس الرباني، ومن أجل الغداء في نيوستفت، ثم غادرنا الدير، ومررنا مسرعين من خلال بلدة بركسن، لأن السادة قد علموا بأن الطاعون كان منتشراً هناك، وفي مرات مقبلة عندما مررت من هناك أمضيت الليل فيها، ويوجد فيها أسقفية غنية، وكان غالباً ما تنشب إثر وفاة الأسقف هناك صراعات بين النبلاء، حول الأسقفية، وهذه المنطقة كلها مشحونة بالخلافات والصراعات اللاهوتية، وكانت المنطقة كلها محرومة لاهوتياً، ويمكنني أن أتذكر الوقت الذي وضع فيه دوق النمسا الحالي سيغسموند Sigismund ، والمنطقة كلها تحت حرمان واضح

دقيق، وكانوا جميعاً محرومين كنسياً بسبب ما كان يتفجر من خلافات حول الأسقفية، وبناء عليه فإن كل إنسان عبر خلال تلك المنطقة، سواء أكان عارفاً أم جاهلاً، أصبح محروماً.

ويوجد هناك كنيسة كاتدرائية جميلة، فيها وقفت مرة مع واحد من إخواني الرهبان من طائفتي ورددنا الساعات القانونية في تلك الكنيسة، وبناء عليه قام مولاي رئيس تلك الكنيسة والقانوني الكبير فيها، فبعث شماسه إلينا، وسأل عما إذا كنا رهباناً متسولين، وعندما عرف صدق ذلك منحنا صدقات جيدة وسخية، ويمكن لدير لرهبان جيدين أن يكون مفيداً جداً هناك، لأنه لايوجد في الأسقفية كلها دير للرهبان المتسولين، فالرهبان القانونيين هناك متزمتين ومحترمين، ولذلك ليس هناك أي راهب سوى الذين هم في ريكوليت Recollets في نيوستفت، والدير في نيوستفت هو من ممتلكات هؤلاء الرهبان القانونيين، وليس قبل وقت طويل جداً كانت الكنيسة في نيوستفت كنيسة كاتدرائية، لكن عندما نقلت إلى البلدة، جرى وضع الكهنة النظاميين هناك.

وغادرنا بركسن وخلفناها وراءنا، فوصلنا إلى كونترسويغ Kun-tersweg ، حيث تابعنا سيرنا من جانبها بسهولة، لأن دوق النمسا قد حصنها بقوة، ويذهب الآن إلى أعلاها وأسفلها بعربات ذوات دواليب، وقد تخلو عن ممرات الخيول القديمة، وكان الدوق المتقدم الذكر يبني لهذا بناءً عالياً بنفقات عظيمة، ليكون بمثابة بيت طويل، وقبل أقل من سنتين مضيتا كان هذا الطريق على درجة كبيرة من السوء، وخطيراً إلى حد أن الانسان يستطيع عبوره وسط أعظم المخاطر، وهو يقود فرسه خلفه، وأنا أعرف درجة المخاوف والمخاطر عبر هذا الطريق عندما مررت به أثناء سفري في حجي الأول، لأنه يوجد على جهة اليمين وديان عميقة جداً، وكان الطريق شديد الضيق،

لوجـود شعاب جبليـة عـالية على يسـاره، ونظراً لأن هذا الطريق كـان ضيقـاً وخطيراً كان الأدلاء الشعبيـون يغنون حـوله، لكن الآن — كما قلت — بذل الدوق جهوداً فنية لكي ينسف الصخور بوساطة البارود، حتى يقطع واجهـات الشعاب الجبليـة، ويجرف بعيداً كميـات كبيرة من الصخور، وجعل بالانفاق العظيم من الأماكن الوعرة أماكن سهلة، ولم يقتصر هذا على هذه المنطقـة فقط، بل شمل منـاطق كثيرة من -Rhae tia التي هي خاضعة لحكمه.

وكـان طول الطريق المتقـدم الـذكـر ميلين ألمانيين، وعندمـا عبرناهما وصلنا إلى بلدة بوتزن Botzen، التي وجـدناهـا لسـوء حظهـا قـد تعـرضت مؤخـراً للحـريق كلياً تقـريبـاً، وفي الحقيقة لم تكن النيران قـد زالت كليـاً، بل إننا رأينا اللهب، وشممنا الدخـان وكان مـايزال ينبعث من بين أكـوام الخرائب، وكـانـت الديرة والكنائس قـد بقيت دون أن تتعرض للنار،وكان دير طائفتنا للرهبـان المبشرين قد تعرض للنار، لكن بفضل جهـود الرهبان الغيـورة، الذين عملوا من فوق الأسطحـة أمكن إطفـاء اللهـب، ومع ذلك تمكنت النيران من الانتشـار بقـوة، حتى أن ديرنا، لم يكن بالامكان إنقاذه إلاّ بأكثـر من العون البشري، لأنه عندما التهب سقف المهجع — كما أخبرني عدد من الشهـود الصادقين — قام رئيس الدير المحترم، الأب نيقـولا مـونخبيرغـر Munchberger، بالركوع على ركبتيه تحت اللهب، ودعا طالباً العون من العذراء المباركة، وهو ما تلقاه.

وكـان قـد حـدث قبل سنين كثيرة مضت، أن جـاءت النار إلى باب المدينة على مـرأى من جميع الناس، وانتشرت خـلال جميع الشـوارع، وأحرقت البلدة كلهـا، ومثلما ساد اعتقاد بأن النار المتقدمـة كانت بكل وضوح قد جـاءت انتقاماً من السماء، كذلك هو الاعتقـاد نفسه بالنسبة لهذه النار الأخيرة، لأن الناس هنـاك آثمين جـداً، سلمـوا أنفسهم إلى

السكر، وإلى المتعة والتكبر بلا حدود ولاقياس.

وفي الحقيقـة كل شيء هناك رخيص جـداً، وهناك وفـرة عظيمـة بالأشياء الجيدة، والخمرة هي بشكل خاص جيدة، وجميع الفواكه حلوة، لكن الهواء غير صحي، لأنه قـد قيل بأنه يوجـد مـن الجانب الذي من الممكن أن تهب منه رياح جـديدة جبـال عاليـة جـداً، وقد دلني عليهـا إخواني الرهبان، وفي الوقت نفسه يوجد في الجزء الذي تتلقى منه البلدة الرياح، مستنقعـات آسنة جـداً، ونتيجـة لهذا كله، هناك دومـاً كثيراً من الأشخـاص يعانون من أعـراض الحمى، ومن الدارج كثيراً المعـاناة من الحمى، لأنهم لايعدون الحمى مرضاً.

وعندما يلتقي واحد منهم بصـديق، ويراه ممتقع اللون، ووجهه متغير يقـول له:«ياصـديقي، ما القضيـة أراك ممتقع اللون ومتغيراً»؟ يجيبـه: في الحقيقـة ياصـديقي، إنني أشكر الرب لأنني غير مـريض، لكن الحمى غيرت مظهـري»، وهكذا حـدث عندمـا كنت أزور بـوتزن في إحـدى المرات بصحبـة صديق علماني نظر إلى البلدة وقـال لي:«انظر إلى هناك يا أخي، أنا لاأعتقـد أن هناك بلدة في العـالم هي أبرد مـن هذه البلدة» واندهشت لقـوله، فقلت له:«ليس الأمـر كـذلك، أعتقـد أنها من أكثـر البلدان دفئاً»، فأجـابني:«إنني لم أقـدم قط إلى هذه البلدة، حتى في أكثـر الأيام حـرارة، في أيام الصيـف، دون أن أرى دومـاً كثيراً مـن الناس جـالسين هناك في فـرائهم الشتـوية، وهم ممتقعي اللـون من البرد، وأسنانهم تصطك»، وقـد قـال هـذا على سبيل المزاح، مشيراً بذلك إلى المعاناة من الحمى، ويعتقـد كثير من الناس أن الشعب لايصاب بالحمى بسبب الهواء السيء، بل بسبـب الخمـرة الجيـدة، والطبخ الجيـد الذي يلتهمونه بأنفسهم فيصبحون مرضى.

وكـانت هذه البلدة قبل سنين قليلـة بلدة إيطاليـة، واللغـة الايطاليـة كانت هي اللغة الرائجة فيهـا، بين الناس، وفي الحقيقة إنني أعرف كاهناً

إيطالياً، لايمكنه التفوه بكلمة ألمانية، وقد كان في شبابه ساعياً وواعظاً في الدير في بوتزن، لكن مع مرور الأيام، مع ازدياد تعداد الألمان، غدت البلدة بلدة ألمانية، والدير الذي كان من قبل من أملاك منطقة القديس دومينيك Dominic ، قد ألحق الآن بمقاطعتنا.

وقد أمضينا الليل في هذه البلدة، ورأينا كثيراً من الشقاء والتعاسة، لأن كثيراً من الناس كانوا يعيشون بين خرائب بيوتهم بدون أية أسقف، أو مكان للإيواء، وكان عدد كبير منهم يغادرون البلدة كمتسولين، مع أنهم كانوا حتى وقت قريب أناساً أثرياء، والآن يجري إعادة بناء البلدة، والأبنية التي يقيمونها الآن في تكاليفها أعلى من الأبنية التي كانت موجودة قبل النار.

وفي الحادي والعشرين من نيسان غادرنا ذلك المكان بعد سماعنا القداس وتناولنا الغداء في دير طائفتنا، وقد جعلنا على جهة اليمين نهر أثيسيس Athesis أو لافيسيوس Lavisius(أدجي Adige) ، وهو الذي يعرف بشكل عام باسم ايتسخ Etsch ، ورأينا عبر أدجي منطقة هضبية خصبة جداً، مليئة بالقلاع وبالقرى، القرية الرئيسية بينها اسمها ترامينجم Tramingum التي هي قرية واسعة، وعلى مقربة منها هناك كروم تنتج خمرة ممتازة تصدر إلى سوابيا حيث هي معروفة هناك باسم ترامينجر Tramminger اشتقاقاً من اسم القرية.

وكان بيننا وبين أدجي، باتجاه بلدة ميران Meran مستنقعات عميقة، ويوجد خلف هذه المستنقعات في مقابل بلدة ترنت Trent تلال منخفضة، يقوم على قرنتها قلعة قديمة اسمها فيرميانوم Fir- mianum ، منها جاءت وصدرت أصول الأسرة النبيلة للوردات فيرميانوم، الذين رأيت بعضهم، وهذه القلعة مملوكة الآن من سيغسموند دوق النمسا، الذي يعيد الآن عمارتها على مستوى أوسع،

مع أسـوار سميكة جـداً، محيطاً إياها بأبراج كبيرة وعـاليـة، وقـد بلغت سماكـة السـور عشرين قـدماً منتعـلاً، وتحتـوي في زواياها الأربعـة على أماكن إقـامة واسعة وقـد بنيت بقوة حيث واحـدها منفصل عن الآخر بأسـوار معترضة وبـأبراج، ولكل مكان إقامـة وسكن سـاحـة خاصـة، واسطبلات للخيـول خاصـة، وبناء على ذلك يمكن لأربعة مـن الأمراء أن يقيموا هناك بأمان، وقـد دخلت إلى القلعة، وكنت بها ورأيت كل ما فيهـا، وليس فيها مـاء إلاّ ما ينضحـونه بالدولاب من نهر أدجي، الذي يجري عبر الصخرة التي تقف عليها القلعة.

وكـان هـذا المكان سيء السمعـة وممجـوجـاً كسكن بسبب النتـانة الصادرة عن المستنقع، مما كـان يسبب بسرعة مـوت السكان، وبناء عليه ولإزالة هذا كله، قام الدوق بالأمر بحفر مجاري في المستنقع، وذلك من نهر أدجي حتى الجبال، ولذلك يوجد الآن مروجاً جميلة، حيث كان من قبل مستنقع ناعـم مـوبوء، والأقنيـة أنفسهـا مليئة بالماء المجـرور من المستنقع إلى حد أن الناس يعبرونها صعوداً ونزولاً بالقوارب.

وأمـر الدوق بزرع كـروم طويلة جـداً على ضفـاف الأقنيـة من كـلا الجانبين، حيث يجمع منهـا في مـوسم الجني حمولة مـا يزيد على عشرين عـربة من العنب الممتـاز، ومع هذا، وعلى الرغم من زوال نتن المستنقع، لقد قيل ليس بمقدور أي إنسان أن يعيش في القلعة أطول من ذي قبل، وسبب هذا كما حدثني مؤخراً حاكم القلعة، هو أنها عالية شامخة، وفيها هواء صحي قـوي، يجعل الناس الـذين يعيشـون هناك يشعـرون دومـاً بالجوع والعطش، وشهيتهم مثـارة بشكل عظيم، حيث لو حاول إنسـان أن يشبع فـوق حده، يدمـر نفسه، لأنه لايوجـد خدم هناك، بل المائـدة دوماً ممدودة وجـاهزة عليها انتشرت الأطعمـة، والخمور ليست مخبأة أو مقفول عليها، وتجعل هذه الوفرة المكان ليس عزيزاً على النفس.

وسألت حـاكـم القلعـة عن الغـاية التي جعلـت الدوق يتكلف هذه

النفقات العظيمة في مثل هذه القلعة المحصنة بشكل غريب، في وقت نجد فيه أن المنطقة هناك من حولها ملك لكونتية تيروك Tyrok ، فأجابني بأنه فعل ذلك، من أجل أنه إذا ما حاول عامة الناس طرد رئيسهم، وتحرير أنفسهم من التابعية الاقطاعية له، مثلما فعل الـ Hel-vetions ، أو السويسريون، فوقتها يمكن للدوق أن يلتجىء إلى تلك القلعة، وبذلك يمتنع من الذين سيرغموه على القبول والرضوخ، لأن القلعة — حسبما يمكن للانسان أن يقول — لاترام، وقائمة في حلقوم ذلك الوادي.

وتابعنا سفرنا، ووصلنا إلى نيومارك Neumark ، التي هي قرية كبيرة واسعة، حيث توقفنا لمدة ساعة في نزل حتى نعلف لخيولنا ونريحها، وجاء في ذلك الحين رجل خادم إليّ، من البيت القائم في مقابلة النزل، وقال بأنه أرسل من قبل واحد من رهبان طائفة الرهبان المبشرين، ليسألني من أنا ومن أين قدمت، فأجبته إذا ما أراد ذلك الراهب أن يعرف من أنا، ومن أين قدمت، يمكنه أن يأتي إليّ، ولسوف أعطيه جواباً أدبياً، ثم قلت:«ذلك لأنني لن أعطي أي جواب لخادم»، وقد قلت هذا له على هذه الصورة لأنني شككت به أن يكون واحداً من الرهبان المتجولين التابعين لطائفتنا، الذين يتجولون حول تلك المنطقة التلية، لأن رهباناً غير راضين وهاربين من طائفتنا والطوائف الأخرى، قد حملوا أنفسهم إلى هذه المناطق وإلى المنطقة التلية، حيث يمكنهم العثور على أفضل أماكن الاختباء سلامة، ولأن كل شيء هناك رخيص ويمكنهم العيش حياة هانئة، وهم يزورون الناس في المنطقة، ويخبرونهم عن قيمة القداسات العالية، ولهذا يشتري الذين يستمعون إليهم القداسات منهم لهم ولأقربائهم الموتى، غير عارفين بأن إثم السيمونية يقترف بمثل هذا العمل، وبناء عليه يعطون هؤلاء الرجال المال حتى يقرأوا عليهم القداسات، ويكون الأفضل منحهم المال بمثابة

هدية وكـرم منهم، لأنهم لايقتربون مطلقاً من المذبح لتقـديم أي احترام للرب، ولقد رأيت هناك أناسـاً تعساء من كل طائفة دينيـة يتجولون في هذه الجبال، ولاحظت أنهم يعـاملون بالفعل بشيء من التغاضي من قبل الأساقفة والكهنة.

وسرنا من نيـومارك خـلال الوادي الذي يقـود إلى ترنت Trent ، ويردد العامـةقولاً متـوارثاً بأنه خلال هذا الوادي أو القناة تـدفق البحر حتى ميران Meran، وأن نهر أدجي جـرى نزولاً من الجبـال فـوق ميران، وصب بالبحر هناك، وفي برهان على صحـة هذا، أنه يتم العثور حتى الآن في صخور الجبـال على حلقات حديدية، كـان من المعتاد ربط السفن بها، وعلى هذا فإن المنطقة كلها التي يجري فيها نهر أدجي ليصب في البحـر المتـوسط، كـانت فيما مضى بحـراً، بسبب أن البحـر كـان في العصور القديمة أعلى مما هو عليه الآن.

ووصلنا إلى قرية اسمها نوفا Nova حيث يجري هناك جدول جبلي سريع، يشكل الحدود مـا بين إيطاليا وألمانيـا، ويقوم فـوق الجدول من جهتنا بيعة، جـرى فيها دفن ما في جـوف القديس أودالريخ Udal-rich أسقف أوغـزبورغ Augsburg ، وتذهب الحكاية إلى القول بأن القديس المتقدم الذكـر كان في روما، وعلى طريقه إلى الوطن، مـرض مـرضـاً شـديداً، لذلك توسـل إلى الرب أن يسمح له بالموت في ألمانيا، وليـس في إيطاليا، وهذا مـا حدث وكان، لأنـه ما أن عبر الجسر المقـام على هذا الجدول مات، ولـذلك جرى دفن أحشـائـه هناك، لكن جسده جرى حمله إلى أوغزبورغ.

وسافرنا من هذا المكان إلى مدينة ترنت، وأمضينا الليل هناك، وترنت واحـدة من المدن القـديمـة جـداً، التي تأسست في هذه الجبـال من قبل تراجـان الذي جـاء إلى هناك بصحبـة أنتينور Antenor ويجري نهر أدجي عـابراً أسـوارها، وهي مقامـة في وضع هو الأكثـر جمالاً، وهواء،

وصحة، وهي تتألف — كما يمكن القول — من مدينتين، المدينة العليا، والمدينة التحتـــا، بسبب الجنسين البشريين اللذان يسكناهـا، ففي المدينة العليا يسكن الطليـان، ويسكن في المدينة التحتا الألمان، وهـذان الشعبان مختلفـان باللغـة، وبعـادات الحيـاة، ونادراً مـا كـان أحـدهما بسـلام مع الآخـر، وفي الحقيقة، غـالبـاً ما جـرى تهديم المدينة قبل أيامنا، وجـرى تهديمهـا أيضاً من قبل الطليـان صـدوراً عن كراهيتهم للألمان، وأحيـاناً من قبل الألمان أيضاً صدوراً عن كراهيتهم للطليان، وقبل سنوات قليلة مضت، كـــان الألمان مجرد قلـة من الغـــرباء في تلـك المدينة، وهم الآن بيرجوازية المدينة وحكامهـا، وسيأتي اليوم قريبـاً — لابل إنه جاء وحلّ بالفعل — عندما سيقوم فيه دوق أثيسيس Athesis(كذا) صاحب إينسبروك بضمهـا كلهـا إلى ممتلكاته ومن ثم إلى ألمانيـا، مثلما حـدث في بوتزن، لأن تعـــداد الألمان يزداد هناك يوميـاً، ولكن مـا هو سبب هذا التزايد، ولماذا يتـوجب على شعبنا الانتشار في بلدان الشعـوب الأخرى، بدلاً من انتشارهم في بلداننا؟ هذا ما لم أتفهمه، ما لم نكن قد اخترنا — كما يقـال — عدم التعلق ببـلادنا، بسبب فقرها وجـدبها، ولذلك دفعنا إلى بلدان أخـرى، أو بسبب حـدة طبــاع الألمان، الذين لايمكن لشعب آخر أن يتحمل البقاء إلى جوارهم، بل يتهربون من أمامهم، ويفسحون لهم المجـال ولايواجهـون غضبهـم، غضبهم الذي لايمكن لانسـان أن يقاومه.

وأقـام عبر المدينة وفي مـواجهتهـا، فـوق ضفتي نهر أدجي، الرهبـان المبشرون ديراً جميلاً حقـاً، من حوله أجمل الحدائق، واسمـه دير القديس لورانس، وكـــان هذا الدير قـــد بني من قبل القـديـس جـــوردان -Jordanes الخليفـة المباشر لأبينا القـديس دومينيك، في رئاسـة طائفتنا، لكن لايوجد فيـه قداسات أو نظام للحياة، والذي هو مـوجود فيه مجرد عدد من الرهبان، يسكنون هناك من دون هدف، وفي هذه المدينة جرى

استشهاد الطفل المقدس سمعان في سنة ١٤٧٥، على أيدي اليهود، بعدما عذبوه كثيراً، ولهذا حكم على اليهود بالشنق بعد تعرضهم لعذاب عظيم، وأنا شخصياً كنت قد رأيت أجسادهم الملعونة معلقةعلى المشانق عندما ذهبت في السنة التالية إلى روما، وعندما تم العثور على جسد الطفل المقدس، صار مشهوراً بسبب المعجزات التي صنعها، وهو مايزال مشهوراً، ولهذا يأتي الناس من أجزاء نائية من ألمانيا وفرنسا وإيطاليا حاجين إلى هناك، ويجلبون معهم تقدمات من الشمع، والأقمشة، وصحون الذهب والفضة، والمال، وكل ذلك بكميات مدهشة عندما تنظر إليها.

ونتيجة لهذا هدموا كنيسة القديس بطرس القديمة، التي من المعتاد حفظ الجسد فيها، وبنوا كنيسة أوسع فوق الموقع نفسه، وأنفقوا عليها من خلال هذه التقدمات، فضلاً عن هذا قاموا بتنظيف بيت الشهيد، وكرسوه كنيسة[من أجل رواية عن استشهاد هذا الطفل انظر ملحق أخبار الأيام — السفر ١٥ص ١٧٧]، وهكذا عندما خلعنا نحن الحجاج ملابس سفرنا، ذهبنا إلى الكنيسة للحصول على غفران، ورأينا في كنيسة القديس بطرس جسد الطفل المقدس، والمكان الذي استشهد فيه، والكنيسة الكاتدرائية القديمة، والبيع الأخرى والكنائس،لأن هذا ما يتم صنيعه من قبل الحجاج المحترمين الذاهبين إلى القدس، أي يتوجب عليهم عندما يتوقفون في أية بلدة على طريقهم، فيسألون عن الكنائس، وعن آثار القديسين ويقومون بزيارتهم، وهذا ما فعله موالي، وفعلت ذلك معهم، حسبما سأتحدث عن ذلك فيما بعد.

وعندما كان الوقت متأخراً، وكنا جميعاً جالسين نتناول العشاء، جاء زمّار، أو بهلواني، ومعه زوجته، وكان يحمل مزماراً، وقد غنت زوجته لحناً جيداً، فيما كان هو يلعب بمزماره، وكان هذا الرجل عاقلاً بما فيه الكفاية، ومع ذلك عمل أثناء لعبه أعمالاً بليدة، وكشر وكأنه كان أحمقاً،

وجعلتنا حماقـاته هذه نضحك من صميـم قلوبنا، وذلك بالاضـافـة إلى متعتنا لدى سماع الموسيقـى، وعندمــا فـرغ مـن لعبـه تشــاور ســادتي البارونات، كما جرت العادة، واحدهم مـع الآخر، حول ما الذي سوف يدفعونه إلى البهلوان، وعلى كل حال قال واحد من النبلاء إنه لن يدفع، وأوضح بأن الكاهن في أسقفيتـه، غالبـاً ما قـال في قداسـاته بأن إعطاء المال أو تسلمــــه في مثل هذه الحالات هو ذنـب مــدان، وإثـم عظيـم، وقال:«وبما أنني الآن في حج مقـدس، إنني أكره أن أتلوث بصرف المال بشكل آثم، وإنني سوف أدفع المال إلى الفقراء»، وبناء عليه تفجر نقاش عظيم بين النبلاء،وتناقشوا مطولاً وهم في حالة غضب.

وسألوني أخيراً القيــام بفض هذه القضيــة، وقــالوا بأنهم ســوف يلتـزمـون بقـراري وحكمي، وبناء عليـه أعلنت وقـررت بدون خـوف وجــوب إعطاء المال إلى البهلوان، وبناء عليــه أعطوا هـدايا إلى لاعب المزمار وإلى زوجته، وبعـد عودتي إلى البيت بحثت في كتابات المفتين من العلماء فيما إذا كنت قد قررت بشكل صحيح، وقد وجدت القرار الذي اتخذته مرتين لدى غيرسون Gerson (١) وفي مكانين، عندما عالج الشرور في قضية سبعـة ذنوب مهلكة، وفي معارضـة المذنبين، أوضح أن اللعب بـالمزامير، والاضحــاك وأعمال البهلوان لاتستحـق الادانة، وأن مثل هذه الأشيـاء يمكـن أن تقـال وأن تمارس، دون اقتراف لإثم كبير، ومع أن الكلمات التي قـد تقال هـي عبثية، وفيهـا مـزاح، وأحياناً فيهـا أخطاء، لكن طالما أنه ليـس فيهـا مـا هو مخجل قـولاً، وطالما أنها تعمل لمجـرد التسلية، فصحيح ممارستهـا، إذا كان ذلك للتسليـة والربح، ومن أجل تأمين انفـراج لدى الأمراء والنبـلاء، وعندمـا يكونون تحت ضغط المسؤوليـة، وقد اكتشفنا أن هذا هو الحال مع هذا البهلـوان، الذي كان حرفياً مقيماً في ترنت، والذي كان لايمارس اللعب بشكل دائم، بل فقط

١ — جون غيرسون، قنصل باريس، كتب في اللاهوت وفي مواضيع أخرى، توفي حوالي ١٤٢٩.

لدى وصـول أمراء ونبلاء، وذلك أنـه عندما كان يعلـم أنهم حجاج إلى الأرض المقدسة، كـان يلعب من أجل تسليتهم، ومن أجل فائدته، ومن أجل أن نضع حزننا وقلقنا جانباً لوقت قصير.

وسمعنا في الثاني والعشرين قداساً عند مذبح سمعان الطفل المقدس، وبعـد تناولنا لطعـام الغـداء في النزل، أسرجنا على خيـولنـا، وغـادرنا المدينة، وخارج باب المدينة مبـاشرة صعدنا إلى هضبة شـديدة الانحدار، وتخلينا عن الطريق المنخفـض الذي يسـاير وادي أدجي إلى فيرونا Ve-rona، وإلى جانب كون هذه الهضبـة منحدرة، هي مكونة من قطعة واحـدة من الرخـام الأحمر القاسي، ولهذا فإن جميع أسـوار مـدينة ترنت وأبنيتهـا معمـولة من رخـام ثمين وجميل، مع أنه غير مصقـول، وبعـد تسلق طويل، نـزلنا عبر الجانب الآخـر مـن الرابيـة، ووصلنا إلى قـرية فيرسا Persa .

وفيرسا قـرية واسعة، ويقوم على الصخـرة فوق القرية قلعـة عظيمة، كأنها مدينة، ولها أبراج عالية، وسور عظيم يحيط بها، ويتفق معي بالرأي عـدد كبير من الناس، ويرون أنه من اسم هذه القلعـة يمكن أن نعـرف أنها بنيت من قبل فيرسوس Perseus ، أبو النبلاء الاغريق، وهي تعرف في هذه الأيام بـاسم فيرسا صدوراً عن اسمـه، ومثل ذلك مملكة فـارس، وهو اسم اشتق من الاغـريقيـة، ومن استيلاء الاغـريق عليهـا عرفت باسم فارس، ويحتفظ دوق النمسـا دوماً بعدد كبير من الجنود في هذه القلعة، يتولون حراسة كل من القلعة والمقاطعة.

ومـررنا عبر هذه القلعة واجتـزناها، ووصلنا إلى بحيرة، يتدفق منهـا نهر اسمـه برنتـا، وهـو يجري من هناك إلى بادوا، ويصب بعـد هذا في البحر على مقربة من البندقيـة، وعبر هذا وصلنا إلى واد طويل وعريض وخصب، ثم وصلنا إلى بلدة اسمهـا بالعـاميـة الدارجة فـالسيـان Val-scian، حيث توقفنا مـن أجل استراحـة قصيرة، ويـلاحظ أن هذه

البلدة، والمنطقة كلها امتداداً حتى البحر، تتكلم الايطالية، وعلى كل حال كانت غالبية السكان تعرف كل من الألمانية والايطالية، وقد سألت أحدهم عن معنى اسم فالسيان، ولماذا أطلق هذا الاسم على البلدة ، وقد أجابني بأن معنى فالسيان هو«الوادي الجاف»، وقد نال هذا الاسم،لأنه في العصور القديمة جداً، وقبل أن ينزل البحر إلى مستواه الحالي، كان البحر ممتداً حتى هذا الوادي، وكان الوادي بأكمله مليئاً بالماء، ولهذا من الممكن أن نرى على جنبات الجبال، التي تطل على الوادي، من كل جانب حلقات حديدية كانت، لربط السفن حتى يمكن بقاءها مثبتة إلى الصخور، وعندما تراجع البحر، أصبح الوادي جافاً، وهكذا حافظ على اسمه فالسيان.

ومن هذه القصة كنت قادراً على إدراك أن جميع الوديان في هذه الجبال، التي هي متجهة نحو البحر، كانت فيما مضى مليئة بالماء، وكانت هي أقنية تقود إلى البحر المتوسط، مثلما يحدث الآن في أراض مجاورة للبحر، كما قلت من قبل، ويطلق الألمان على فالسيان اسم إن در بورغ In der burg ، لأنه يوجد هناك قلعتان تطلان على البلدة، والبلدة قائمة بين سور القلعة، وتابعنا من فالسيان سفرنا، وسرنا متقدمين، ووصلنا في وقت متأخر في الليل إلى قرية اسمها سبتلي Spiteli ، أي«مشفى صغير» حيث توقفنا لإمضاء الليل.

وفي يوم الثالث والعشرين، كان عيد القديس جرجس، الفارس والشهيد، وسألني السادة في الصباح بأن نحتفل بعمل قداس القديس جرجس لهم، ولجميع النبلاء، الذين ينظرون إلى القديس جرجس بتبجيل خاص، وكانت هناك بيعة واحدة في القرية، بدون كاهن، وواجهت مصاعب جمة للحصول على أدوات القداس العائدة للكنيسة، ولفتح هذه البيعة، والحصول على الأشياء الضرورية لإقامة القداس، وبعدما ارتديت ثيابي الكهنوتية، واجتمع سادتي النبلاء وأهل القرية مع

بعضهم، بوساطة صوت الناقوس، وكما جرت العادة أردت إعداد الخميرة قبل صلاة الاعتراف، فلم أجد لاخبزاً ولارقاقة عجين في الصندوق في الخزانة، كما لم يتوفر شيء من هذا القبيل في القرية كلها، لذلك التفت بذاتي نحو الناس وأخبرتهم بعدم وجود خبز القربان، ولكي لانذهب جميعاً فارغين، قرأت من المذبح القداس لوحده، وجميع أدعية القداس، وتركت ما بعد صلاة التقدمة لوحده، مثلما يفعل تماماً في السفن في البحر، ويطلق على هذه القداسات اسم القداسات«الحارة» أو «الخام» أو «الجافة» أو «الفارغة».

وبعد أداء هذا القداس التفت نحو الناس وقدمت عرضاً قصيراً عن القديس جرجس وكان عرضاً مشجعاً، وعندما كنت أفعل ذلك، وقف أهل القرية ونظروا إليّ بدهشة، لأنهم كانوا طليان، ولعلهم لم يسمعوا قط قداساً يتلى في كنيستهم بالألمانية إلاّ من قبلي، وبعد الفراغ من هذا رجعنا إلى نزلنا لتناول طعام الافطار، وبعد الانتهاء من الطعام، بدأت تمطر، ومع هذا امتطينا خيولنا وغادرنا القرية، وازداد المطر ثقلاً وكثافة، وتبللنا حتى الجسد، وكنا مبللين جداً عندما وصلنا إلى مدينة فلتر Fel-tre ، وبما أنها كانت تمطر بكثافة، دخلنا إلى نزل هناك، وبنيتنا البقاء هناك لمدة ساعة أو ساعتين، ومن ثم نغادر عندما يتوقف المطر، وعلى كل حال ازداد المطر سوءاً فسوءاً، وبذلك كنا مرغمين على البقاء هناك لمدة يوم، كان غير مريحاً، لأن النزل كان صغيراً، وكان مليئاً بإيطاليين من أهل المنطقة، وتحدث صاحب النزل، وصاحبته، وجميع العاملين فيه بالايطالية فقط ،فضلاً عن هذا لم يكونوا معتادين على خدمة النبلاء، ولم تكن لديهم المواد اللازمة لخدمتهم بشكل لائق واحترام،وكانوا على كل حال جيدين، وأناساً بسطاء، وقد فعلوا كل مايستطيعون، الأمر الذي قدرته، لكن خدم النبلاء كانوا غير راضين عنهم.

وفي يوم الرابع والعشرين استمرت تمطر بدون توقف، مثلما فعلت في

اليوم المتقدم وفي الليلة السالفة، وسبب هذا تدفق المياه، وقاد إلى جريان السيول الجبلية، وعلى كل حال، وعلى الرغم من المطر، ذهبنا إلى الكنيسة التي تقوم فوق البلدة، وبعد سماعنا للقداس شاهدنا البلدة نفسها، وكانت إحدى البلدات التي بنيت من قبل أنتينور، من أجل الدفاع عن المنطقة الجبلية، وهي بلدة قديمة جداً، كما تبرهن أبنيتها على ذلك، وهي بلدة طويلة جداً، تمتد على طول جرف جبلي، ولها أسقف وفيها بعض الديرة القائمة عند سفح الرابية التي تقوم عليها المدينة، وعدنا إلى نزلنا، وتناولنا طعامنا، وعندما كنا جالسين إلى المائدة توقف المطر، وهكذا أسرجنا على خيولنا وغادرنا فلتر، وأخذنا طريقنا وسط خطر عظيم، بسبب ارتفاع المياه، لأن أصغر المجاري تضخمت وصارت أنهاراً سريعة، وكانت مجاري الوديان الجافة تفيض بالمياه.

وعلى كل حال صارت أحوال المناخ طيبة، وأخذت المياه تتناقص بشكل تدريجي، وكنا قد غادرنا فلتر قبيل حلول المساء، وقد وصلنا إلى نهر عظيم، عبرنا ضفتيه بوساطة بيت حراسة بندقي، ومن هناك وصلنا إلى بلدة اسمها أوور Ower، حيث أمضينا الليل، وكان نزلنا الآن مثل بقية القرية، قائماً على سفح رابية جميلة مليئة بالأعشاب، وفي الوقت الذي كان يجري فيه إعداد طعام عشائنا، خرجت مع موالي إلى ساحة البيت، وكنا ننظر فيما حولنا عندما قلت: «انظروا لو أن إنساناً كان على قمة تلك الهضبة، لكان بإمكانه رؤية البحر المتوسط»، وعندما سمع موالي هذا قالوا: «دعونا نصعد إلى هناك، لنرى البحر، الذي ربما سيكون قبرنا»، ومباشرة تسلق ثلاثة من موالي مع اثنين من خدمهما وأنا، تلك الرابية، التي كانت أعلى بكثير مما تصورناه، وألقينا بأبصارنا باتجاه الجنوب، فرأينا وراء الجبال سهل إيطاليا، وخلف السهل منطقة البحر المتوسط، ولدى رؤيتنا له، وقف موالي، الذين كانوا شباباً ذوي نشأة رفاهية، وقفة فيها شيء من التفكر، مما عكس الشعور بالمخاطر التي

سنظرهم في البحـر، وكنت بهدوء قد مددت بصري نحـوه، لأنني كنت قد ذقت مرارته، لأنه كما بدا من هذه التلال، كان له مظهراً مرعباً، وبدا قريبـاً جداً، وتسلطت أشعـة الشمس على الجزء الذي كان هـو الأقرب منا، وبقية البحر التـي لم يكن بإمكان أحد رؤيتها، بدت عاليـة، وغيوماً سميكة سوداء، على شكل ولون الهواء المظلم.

وبعدما شبعنا بما رأيناه منه، تحولنا بعيـداً لننظر إلى الجبال التي قامت من حولنـا، وقد شاهدنا عـدداً كبيراً من القلاع القـديمة المهـدمة، وعلى الجبل نفسـه الذي وقفنا عليـه هناك، كـان يوجد تحت أقـدامنا خـرائب أسوار ضخمـة وخندق يطوق شطراً من الجبل، وصهريج جميـل مايزال يحتوي على الماء، ورابية لرعاية القطعان، قائمة في الأعلى داخل الأسوار، ومن المعتقد أن هذه القـلاع كلها قد بنيـت من قبل أنتينور، أو تراجان، الذي بعـدما بنى مـدينة بادوا في السهل، صعـد إلى المنطقة التليـة، وبنى البلدات والقلاع للدفـاع ضد الشعب الذي كان مـوجوداً وراء الألـب، حيث كـان في ذلك الحين مـايزال متـوحشـاً، يعيش في الغـابات، مثل الحيوانات الضارية، وعندما كنت أنا ومـوالي وقوفاً نتحدث فوق الجبل، غابـت الشمس، وبدأنا نحن بالنزول، وعندما وصلنا إلى النزل صـارت الدنيـا أكثـر ظلاماً، وتناولنـا عشاءنا على ضـوء الشمـوع، ثم أوينا إلى الفراش.

وكان يوم الخامس والعشرين هو يوم عيد القديس مرقص، وتمنينا لو كنا في البندقيـة، لأنه يحتفل بالعيـد هناك، بشكـل محكم ورائع الشكل، وسمعنا — على كل حال — القداس من أجل عيد القديس مرقص في القرية، وتناولنا بعد ذلك طعامنا، ومن ثم انطلقنا مسافرين على طريقنا، ويقـود الطـريق من تلك القـريـة نزولاً إلى سفـوح الجبـال، ثم يخلفهم بالوراء، وهكـذا وصلنا إلى منطقـة منبسطة، وخصبـة جـداً، ومليئة بالحبوب، وبأشجار الفـواكه، والكروم، التي ارتحلنا خلالها حتى وصلنا

إلى قرية تـريفيسو Treviso ، حيث عزمنا على البقـــاء لعدة أيام، وذلك حتى نستطيـع بيع خيـولنـا، ذلك أننا لم نعـد الآن بحـاجــة إلى الخيول،لأننا صرنا مجاورين للبحر.

وكـان يوم السادس والعشرين يوم عيـد القديس ديسيـديروس De-sidrius، الذي هو مـدفون في كـاتدرائية تريفيســو، واحتفل سكان المدينة بالعيـد بشكل فخم بوساطة مسيرة مهيبـة خلال المدينة، وعندمـا اجتمع عامـة الناس في ساحة السوق الأكبر، مثلوا لعبـة المعجزة، حيث ظهر القديس في الحكاية، من خلال الممثلين المدربين لهذه الغاية، بمظهر فخم جداً، نظرنا نحن الحجاج نحوه بإعجاب، ولست أدري فيما إذا كنا قد فعلنا ذلك بتقوى أيضاً.

وجـاء بعـد الغـداء عـدد كبير من الايطـاليين إلى نزلنا، طلبـوا رؤية خيـولنا لابتياعهم، وأثناء بيعنا لهم اختلف الايطاليـون فيما بينهم بشكل مثير، حيث ركضوا نحونا، محاولاً كل واحد منهم إبعاد الآخر، وتدخل كل واحـد منهم بشراء الآخـر، وصب كـل واحـد منهم الاهانات على الآخـــر، وكـانوا كلهم ســواء، حتى الشيـــوخ، والأغنيـاء، والرجـــال المحترمين، حيث كـان كل واحد منهم يتقـاتل مع الآخر مثل الأطفـال، ويعـرض كـل واحـد منهم سعـــراً أكبر مما تسـاويـه الخيـول مــراغمـة للآخرين، وكل منهم يعرض عن تعمـد سعراً أكبر من أسعار الآخرين، وبينما كان هذا الشجـار مستمراً وقفنا نحن بدون حـراك، وحافظنا على صمتنا، وبعنا خيولنا بشكل جيد، وهكذا مضى النهار.

ولابدمن أن نلاحظ بأنني وصفت الأمـاكن مـا بين فلتر وإنسبروك، لأننا عندمـــا عـدنـا إلى الوطن ثانيـة، لم أســافــر عبر ذلك الطريق إلى إنسبروك، بل جئـت عبر طريق آخــــر، وذلك حسبما سـأتحدث عنه في مكانه الصحيح، وبعـــد هذا المكان لن أقـوم بوصـف أي مكان خـلال رحلتنا كلهـــا، بل سـأتولى وصف جميع الأمـــاكن التـي مكثت بها أثناء

رحلتنا عائدين إلى الوطن، ولهذا سوف أحتفظ بوصفي لتريفيسو والمدن الأخرى، حتى يحل موعد عودتي، لأنني الآن متعجل للوصول إلى القدس، التي وجهت نحوها وجهي بشكل ثابت ولن أصرفه وأستريح حتى أرى تلك المدينة الأعظم شهرة، والمرغوبة أكثر من سواها.

وفي يوم السابع والعشرين، الذي كان يوم أحد، واسمه -Can tate، سمعنا قداساً في تريفيسو وتناولنا الطعام، وبعد تناول الطعام اكترينا بعض الخيول التي يدعونها باسم Martyrs، لتحملنا نحن أنفسنا وحقائبنا إلى البحر، وانطلقنا نحو شاطىء البحر، ووصلنا إلى بلدة ميستري Mestre، وكنا راغبين بالمتابعة حتى ملغيرا -Mal ghera التي هي قائمة على شاطىء البحر المتوسط، والتقينا على كل حال في البلدة المتقدمة الذكر بألماني، سأل عما إذا كنا جماعة اللورد بارون فون سيمبيرن Cymbern، وعندما سمع بأننا كنا نحن هم، أخذنا إلى نزل، وأرانا مائدة ممدودة بالأطعمة والأشربة، وأخبرنا بأن اللورد جون فون سيمبيرن قد أمر بهذا لنا، وأخذنا أيضاً إلى حديقة البيت، وأرانا مركباً ضخماً في النهر الذي يجري هناك نزولاً من الجبال ليصب في البحر، وأن القارب قد أرسل من البندقية إلى ميستري من قبل اللورد بارون فون سيمبيرن، حتى يمكن لنا الابحار إلى هناك عبر النهر، ولدى رؤيتنا لهذا سررنا وتحمسنا بأرواحنا،وجلسنا وأكلنا وشربنا الذي أعد لنا سلفاً، وبعد هذا حملنا جميع حقائب اللوردات إلى ظهر المركب، ثم صعدنا جميعاً على ظهره، فصارت الحمولة ثقيلة إلى حد كبير، لأنه كان هناك عدد كبير منا، وكانت حقائب اللوردات وخدمهم كبيرة الحجم، وإثر هذا قلنا وداعاً لليابسة، وعهدنا بأنفسنا إلى المياه، وكان ذلك بعد إقلاعنا، حيث أبحرنا نزولاً مع النهر حوالي الميل نحو البحر، وعندما وصلنا إلى المكان الذي ينزلق فيه النهر إلى بين فكي البحر المتوسط، عند حافة البحر وحدوده، وأبحرنا داخل البحر المالح المياه، وقتها بدأنا نغني

بصـوت مـرتفع وبنغمات فـرحـة، مـزمـور الحجـاج، وهو الذي اعتـاد المسـافرون إلى الضريـح المقدس لربنا على غنائـه مـرددين:In gottes" Namen Fahren wir, Seiner genaden begehren wir: Nurhelff uns die Gottiche Kraft, und das heylige grab: Kyrie eleyson » والـذي معناه مترجماً عـن اللغـــة اللاتينيـــة كمايلي: «باسم الرب نحن الآن مبحـــرون، نحن نحتـــاج إلى نعمتـه، فلعل قـدرتـه تحمينا، والضريح المقـدس يقينا:« -Kyrie elee .«son

وبينما كنا في الوقت نفسـه نقترب من قلعـة ملغيرا Malghera ، ونعبر البرج الذي اسمه«بـرج ملغيرا» التقينا بقارب كان يجذف بـه عدد من الشباب الأقوياء، ويدفعونـه بعنف شديد نحو مارغيروم -Marger um ،وقـد اصطدم بقـاربنا، وبذلـك ارتطم قـوسـا قـاربينا ببعضهما بعضاً، واندفع قـاربنا إلى أحد الجوانب بالصدمة، واصطدم بعمـود كان قائماً في وسط الماء، مما هدد بانقلابه، ففي الحقيقة كاد أن ينقلب مع جميع الناس الذين فيـه والأشياء، وكـان ذلك مـرعباً ومـؤلماً، وتبادل بحـارة القاربين الشتـائم فيما بينهم، وهكذا تابعنا السير على طريقنا، وبعد وقت قصير التقينا بقارب آخر على ظهره مجموعة من الناس، سألنا أحدهم:في أي النزل ننوي النزول في البنـدقيـة؟ وعندمـا أخبرناه في نـزل القـديس جـورج، حيث كان اللـورد فون سيمبيرن قـد حجـز غرفـاً لنا فيـه، بدأ يشتم ذلك النزل ويشتم صاحبـه، ووقف على قوس قاربه، محاولاً منعنا من الذهاب إلى هناك، ومشيراً إلى نزل آخر لنذهب إليه، وفيما هو واقف هناك وهو يصرخ محاولاً إقناعنا، أصيب فجأة بحـادث، وسقط من على قوس قـاربه إلى البحر، الذي سحـب منه بوساطة رفـاقه بعد مصـاعب جمة، وبذلك أنقذ من الموت، ومـا لبث أن ارتدى ثياباً حـريرية جديدة، تلقت التعميد معه، مما سبب ضحكاً كثيراً على ظهر قاربنا.

وبعدما سرنا مسافة صغيرة نحو الأمام، وجدنا أمام أعيننا، مدينة البندقية الجليلة، والشهيرة والعظيمة، والغنية، سيدة البحر المتوسط، وهي قائمة بشكل رائع في وسط المياه، بأبراجها العالية، وكنائسها العظيمة، وبيوتها وقصورها الرائعة، ودهشنا لدى رؤيتنا مثل تلك الأبنية المرتفعة والعالية والتي تقوم أساساتها في الماء، وأبحرنا فوراً إلى داخل المدينة، وسرنا عبر القناة العظمى حتى ريالتو Rialto ، حيث رأينا على الجانبين أبنية لها جمال رائع وارتفاع مدهش، وتحت ريالتو خرجنا من القناة العظمى، ودخلنا إلى قناة أخرى، يقوم على ضفتها اليمنى فونداكو دي تديستشي Fondaco de Tedeschi ، من حيث تابعنا سيرنا بين البيوت حتى وصلنا إلى باب نزلنا، الذي يعرف باسم نزل القديس جورج، ويعرف بالألمانية بشكل عام باسم Zu der Fleuten ، ونزلنا هناك، وصعدنا حوالي الستين درجة حجرية من البحر إلى الغرف التي كانت معدة لنا، وقد حملنا جميع حاجياتنا إليها.

واستقبلنا هناك السيد جون، وصاحب النزل، والسيدة مرغريت صاحبة النزل، استقبلونا بسرور وحرارة، وحيوني بعبارات صديقة خاصة، لأنني كنت الوحيد بين فريقنا الذي عرفوه من خلال حجي السالف، حيث كنت ضيفاً في بيتهم لأيام كثيرة، واستقبلنا بقية العاملين، وحيونا وأبدوا تشوقهم للقيام بخدمتنا، وكان جميع العاملين بالنزل بما فيهم صاحبه وصاحبته، وكل الخدم من الرجال، وجميع الوصيفات، من الشعب الألماني ويتكلمون الألمانية، ولم نسمع كلمة إيطالية في النزل، مما سبب راحة كبيرة لنا، لأنه مزعج جداً أن تعيش بين قوم دون أن تستطيع التحدث معهم، وأخيراً جاء بعد الجميع، عندما دخلنا، الكلب الذي يحرس النزل، جاء لتحيتنا، وكان كلباً أسود كبيراً، وقد عبر عن سروره الكبير بتحريك ذنبه، وقفز علينا مثلما اعتادت الكلاب أن تفعل مع الذين تعرفهم، وكان هذا الكلب يستقبل

جميع الألمان بالسرور نفسه، وذلك سواء من أي جهة من ألمانيا قد قدموا، لكن عندما يدخل إلى النزل إيطاليون، أو لومبارديون، أو غاليون، أوفرنسيون، أو سلافيون، أو إغريقيون، أو أي أناس من أي بلد غير ألمانيا، يصبح غاضباً جداً، إلى حد أنك تظن بأنه صار مجنوناً، ويركض نحوهم، وهو ينبح بصوت مرتفع، ويقفز بحدة عليهم، ولا يتوقف عن إزعاجهم حتى يقوم أحد الناس بتهدئته.

ولم يتعود بعد حتى على الايطاليين، الذين يسكنون في البيوت المجاورة، بل تراه ثائراً ضدهم، وكأنهم غرباء، وثابر على عداوته لهم، فضلاً عن هذا ما كان ليسمح بأي شكل من الأشكال لكلابهم بالدخول إلى النزل، لكنه كان لايعترض على الكلاب الألمانية، وكان لايهاجم المتسولين الألمان الذين يقدمون يسألون الصدقات، بل كان ينقض على المساكين الايطاليين، الذين يودون الدخول للتسول والحصول على الصدقة، ويطردهم بعيداً، وغالباً ما أنقذت رجالاً فقراء من بين أسنان هذا الكلب، ويقول الألمان بأن هذا الكلب برهان على أنه طالما هو عدو غير متهاون مع الايطاليين، كذلك الألمان لايمكن أن يتوافقوا مع الايطاليين من صميم قلوبهم، وكذلك الطليان معنا، لأن كل أمة لديها كراهية متجذرة في طبيعتها تجاه الأمة الأخرى، وبما أن الحيوان غير عاقل، وتتحكم فيه انفعالاته فقط، فإنه يتخاصم مع الايطاليين لأن طبيعته تأمره أن يفعل ذلك، ولكن بما أن الانسان قادر على التحكم بمشاعره بمعونة عقله، فهو يستطيع إخفاء مشاعر الكراهية المزيجة بطبيعته.

ووجدنا في النزل عدداً كبيراً من النبلاء من مختلف أجزاءألمانيا، مع بعض من هنغاريا، كانوا جميعاً قد ارتبطوا بالعهد نفسه، مثلما فعلنا نحن أنفسنا، وكانو عازمين على عبور البحر إلى أقدس الأضرحة العائد إلى ربنا يسوع في القدس، وكان في النزل الأخرى المزيد من الألمان، وكلهم

قد شكلوا أنفسهم في مجموعات كان بعضها كبيراً، وبعضها الآخر صغيراً، وكان الآن في مجموعتنا اثني عشر حاجاً، كلهم مع بعضهم من نبلاء وخدم أسماؤهم هي كمايلي:

اللورد جون ويرنهر، بارون فون سيمبيرن، وكان رجلاً وسيماً، وعاقلاً، ومتميزاً بأخلاقه الرفيعة، وكان يعرف اللغة اللاتينية.

اللورد هنري فون ستوفل، بارون الامبراطورية المقدسة، وكان رجلاً قوياً، وفعالاً، تمتع بسمات الرجولة، مثلما يكون الرجل السوابي النبيل الحقيقي.

اللورد جون تروخسيس فون وولدبورغ، وكان رجلاً نبيلاً، طويل البنية، وكان رجلاً محترماً له أخلاق رفيعة، وجدياً، وكان مهتماً بعمق حول إنقاذ روحه.

اللورد بير Ber (أورسوس) فون ريخبيرغ، وكان رجلاً نبيلاً من أسرة هوهنريخبيرغ، وكان أصغرهم سناً، وأكثرهم حيوية، وشجاعة، وطولاً، وأعظمهم سروراً،والأكثر لطفاً وكرماً في المجموعة.

وكان هؤلاء النبلاء الأربعة معهم رجال حاشيتهم للقيام بخدمتهم، وفيمايلي أسماؤهم مع وظائفهم مرتبة كالتالي:

بالثازار بوخلر Balthazar Buchler ، وكان رجلاً عاقلاً، صاحب خبرة عظيمة، اقتاد بنصيحته جميع اللوردات وتحكم بهم، ذلك أنهم عدّوه بمثابة أب لهم.

آرتوس Artus ، حلاق اللوردات، وكان رجلاً بإمكانه أن يلعب ببراعة وجودة على جميع الآلات الموسيقية، إلى حد أن الانسان لايعتقد أنه من الممكن العثور على مثله في أي مكان.

جون الذي كنيته شمدهانز Shmidhans ، وكان جندياً، قاتل

في معارك كثيرة، وقد جاء في هذا الحج بمثابة خادم للوردات.

كونراد بيك Beck ، وكان رجلاً محترما وعاقلاً، وقد كان من أهل مدينة ميرينجن Merengen، وكان المسؤول عن مؤن اللوردات، كما كان حاجبهم.

بطرس، وكان إنساناً بسيطاً، صبوراً تحت الشدائد قدم من بلدة وولدسي Waldsee ، وقد عمل طباخاً للنبلاء وللجماعة كلها.

أولرك فون رافنزبورغ Ulric von Rafenburg ، وكان رجلاً عمل فيما مضى في البحر بمثابة عبد غليون، وقد عانى كثيراً من المآسي، وكان من حيث اختصاص العمل تاجراً، أما وظيفته فكان ترجمان اللوردات.

جون، وكان مسالماً، متشوقاً لخدمة اللوردات، وكان من قبل معلم أولاد، ورئيس مدرسة في بابنهوزن Babenhusen .

الراهب فيلكس فابري، كاهن من طائفة الرهبان المبشرين في أولم، حاج للمرة الثانية إلى الأرض المقدسة، شماس للوردات ولجميع الذين تقدم ذكرهم.

واجتمع هؤلاء الاثني عشر مع بعضهم منفردين، وعاشوا على الحساب العام للوردات الأربعة المتقدم ذكرهم، وبناء عليه استدعى اللوردات الأربعة صاحب النزل إليهم، وعملوا معه الترتيبات من أجل إقامتهم، ومائدتهم، وجميع الأشياء الأخرى العائدة له، والتي سوف يستخدمونها، وعندما عملت هذه الترتيبات أمامنا جميعاً، فكرت بخطة أخرى من أجلي شخصياً، وبدون معرفة موالي اللوردات، ذهبت بقارب إلى ديرالقديس دومينيك، وسألت رئيس الدير أن يستقبلني بمثابة ضيف حتى يحين موعد مغادرة غليون الحجاج الميناء، الأمر الذي تمكنت بعد معالجات كثيرة، من إقناعه بعمله، ذلك أنني وجدت أنه من

غير اللائق بالنسبة لي، ومناقض لتفكيري، أن أعيش كلياً بين أشخاص علمانيين، وبناء عليه عدت إلى نزلي، وحزمت أمتعتي، ثم زرت موالي، وأخبرتهم بما نويته، ولم يرضهم هذا الاقتراح، وفي الحقيقة أزعجهم كثيراً، ولم يوافقوا على تركي لهم بأي حال من الأحوال، ومن أجل إمكانية بقائي معهم برضاي، عملوا ترتيبات مع صاحب النزل، فأعطاني غرفة خاصة بي، حيث يمكنني أن أجلس بهدوء لوحدي، ويمكنني أن أنام، وأن أصلي، وأن أقرأ وأكتب، وأن أنجو من ضجيج النزل كله، بحيث أكون كما لو أنني في قلايتي في أولم، وعلى هذا بقيت مع بقية جماعتنا الوقت كله الذي مكثناه في البندقية، لكن غالباً — في الحقيقة مرة كل يوم — ما اعتدت على زيارة دير رهبان طائفتنا.

وخرجنا في الثامن والعشرين من نزلنا في الصباح، وسرنا خلال شوارع التجار، وذهبنا إلى كنيسة القديس مرقص لحضور القداس هناك، وبعد انتهاء القداس سرنا حول الساحة المفتوحة أمام قصر الدوج، وقام في هذه الساحة، أمام الباب الكبير لكنيسة القديس مرقص، علمان ثمينان جداً، وقد نشرا عالياً فوق رمحين طويلين، وكان لونهما أبيض، ورسمت عليهما علامة صليب أحمر، فقد كانا علما الحج إلى الأرض المقدسة، وأدركنا من هذين العلمين بأنه جرى إعداد غليونين وتعيينهما لنقل الحجاج، ذلك أن سادة البندقية عرفوا عدد الحجاج الذين تدفقوا إلى هناك واحتشدوا مع بعضهم، ولذلك وقع اختيارهم على اثنين من النبلاء من بين شيوخهم، وعهدوا إليهما بالعناية بالحجاج.

وكان اسم الأول من هذين الشيخين:المعلم بطرس دي لاندو Lando ، واسم الثاني المعلم أوغسطين كونتاريني Contarini ، ووقف خدم هذين النبيلين إلى جانب العلمين، ودعا كل واحد منهم الحجاج للابحار مع معلمهم، وبذلوا جهودهم لاقتياد الحجاج

وجـذبهم: فئة أولى إلى أوغسطين والفئة الثـانيـة إلى غليـون بطرس، وأطرت الفئة الأولى وكـالت المديح لغليون أوغسطين، وشتمت غليـون بطرس، وفعلت الفئـة الثـانيـة عكس ذلك، ونتيجـة لهذا غـدا هذان السيدان: أوغسطين وبطرس عدوان أحـدهما للآخر حتى الموت، وشتم أحدهما الآخر، وشهّر به أمام اللوردات والحجاج، وحاول كل منهما أن يجعل من الآخر مكروهاً من قبل الحجاج، وطلب من الناس فعل ذلك.

وبدأ ينشأ عن هذا شر آخـر، هـو أن الحجـاج أنفسهم تحزبوا ووقف كل فـريق منهم مع إحـدى جماعتي هـذين القبطانين، وبات كل واحـد متعصباً لقبطانه وقـائده، واحتار موالي ولم يعرفـوا بعد إلى أي من هذين القبطانيين الأفضل أن يعهدوا بأنفسهم، وسبب ذلك لما سمعوه من آراء مختلفة بشأن كل واحـد منهما، أما أنا شخصيـاً، فقد وافقت على القبطان أوغسطين كونتاريني، الذي عـرفت أنه رجل عاقل، ويمكن الوثوق به، لأنني عبرت البحـر في حجي المتقدم على ظهـر سفينته، لكن الآخـرين شتموه وامتدحوا الآخر، ولذلك ومن أجل خاطر السلام، لم أتدخل في هذه القضيـة، وأعلنـت أن كليهما كـانا قبطانيين جيـديـن، إذا مـا حملانا بسرعـة إلى الميناء الذي نقصده، وأضفت أننـي لو عرفت أي واحـد من الاثنين سوف يكون الأسرع، والمستعد حالاً لـلابحار، فهو الذي سوف أوصي الحجـاج باختيـاره، وعلى كل حـال، وعـد كـلاهما، أنهما سـوف يشرعان برحلتهما فوراً، الأمر الذي عرفت أنه كذب.

وفي يوم التـاسـع والعشرين، الذي كـان يوم عيـد القـديس بطرس الشهيد، لدى طائفة الرهبان المبشرين، أخـذت سادتي إلى كنيسة القديس يوحنا والقديس بولس، حيث كان هناك ديراً في غـاية الفخامة والعظمة للر هبـان المبشرين، واستمعنا هنـاك للقـداس، الذي نفـذ بشكل مهيب جـداً، وكـان هناك اندفـاع كبير للنـاس في هذا اليـوم إلى كنيسـة هؤلاء الرهبان، لوجود عيد هناك، وقـد احتشد الناس ووصلوا بتزاحمهم حتى

أطراف المذبح، فقــد تقــاطر الناس إلى هناك مـن المدينة كلهــا لسماع القـداس، ولتقبيل آثار الشهيـد المقدس، ولشرب مـاء القـديس بطرس، هذه الميـاه التي بعـد مباركتهـا باسم الرب، وبعـد لمسهـا بآثار الشهيـد المقدس، يعتقـد أنها ثمينة ومفيدة للجسـد وكذلك للروح، ولهذا يـأخذ المؤمنون من معظم أجـزاء العـالم مـاء القـديس بطـرس هذا، ويعطونه للنساء في أثناء خوفهن لشربه، حيث ينقذهن من خوفهن، ومثل هذا إنه يعطى للمـرضى من الحمى، فبـوسـاطتـه يمكن أن يصبحـوا أصحـاء، ويحمله الملاحون أيضـاً في سفنهم، ويصبون قليـلاً منه في الأوعية حيث يجري حفظ الماء، وبفضله تبقـى الميــاه الأخـرى وتحفـظ من أن تصبح آسنة، ومهما كـانت المياه قـديمة، فإنها لاتفسـد أو تتغير رائحتها، إذا مـا صب فوقها بعضاً من هذا الماء، وقد عرف البحارة أن هذا صحيحاً من خلال الممارسات اليومية.

وهكذا بعـدمــا سمعنا القـداس، وقبلنا آثار هذا القــديس، وتذوقنا بعض نقـاط من هذا الماء المانح للحيـاة، عـدنا إلى نزلنا لتناول الطعـام، وبعد تناولنا للطعام، أخذنا مركبـاً وجذفنا في خلال شوارع البلدة حتى القـديس مـرقص، ومن هنـاك ركبنا إلى قصر دوج البندقيـة، على القناة العظمى، حيث رسـا غليونا القبطانين، بغـرض أن نراهما معا، وجـذفنا أولاً نحو غليـون المعلم بطرس دي لاندو، وصعدنا من قـاربنا إلى ظهر الغليـون، ومن إلقاء النظرة الأولى كـان كل من السـادة وأنا راضين عن مظهـر المركب، لأنه كـان غليـوناً له ثلاثة صفـوف من المجـذفين، وهو واسع وعـريض، وبالاضافـة إلى ذلك كـان جديداً ونظيفـاً، وفي الوقت الذي كنا نسير فيـه هناك، جـاء معلم الغليـون بطرس لاندو، الذي هو القبطان، على ظهـر قارب، ورحب بنا باحترام كبير، ومـدّ مـائدة طعـام على مــؤخــرة المركب، حيث قــدم لنا بعض الخمــرة والمربيــات من الاسكندرية، وعـاملنا بكل احترام، وذلك كإنسـان يود أن يأخذنا معـه

كركاب.

واقتادنا بعد هذا نحـو الأسفل، عبر بعض الدرجات، إلى القمرة، ثم إلى المكان الذي يجلس فيـه الحجاج، ووضع تحت تصرفنا مسـاحة كبيرة من القمـرة، حيث يمكننا اختيـار اثني عشر فراشـاً لاثني عشر شخصـاً على أي طرف نرغب فيه، وبعدما تفحصنا هذا الغليون، أخبرنا القبطان بأننا سوف نعلمـه بالغد فيما إذا كنا قـد نوينا الابحار معـه أو مع انسان آخـر، وهكذا عدنا إلى قـاربنا ثانيـة، وجذفنا نحـو الغليون الآخـر، أي غليـون المعلم أوغسطين كونتـاريتي، الذي وجدناه جـالساً على ظهـره، وقد استقبلنا بتـواضع كبير، وقادنا حول غليونه، وأعطانا الخيـار لانتقاء مكان لاثني عشر شخصاً، وقدم إلينا بعض الخمرة واللحم الحلو، وأكد لنا أنه سوف يتعامل معنا باخلاص، وقد عرفني بشكل جيد، وأشار إليّ كشـاهد على صدقـه وأمانتـه قائـلاً: «ها هو الراهب فيلكس، شماسكم، الذي يعـرف كيف أتعـامـل مع الحجـاج، وأنا أرجـوه أن يقـول الحق، ولسـوف تقررون البقـاء معي»، وقـد نظرنا جميعـاً خلال الغليـون، فلم يرضنا مثلما أرضـانـا الآخـر، لأنـه كـان يحتـوي فقط على صفين من المجـذفين، ومساحتـه أقل، ومظهره قـديم ورائحتـه كريهة، وأنا أعـرف ذلك شخصيـاً، وكنت قـد عـانيت من كثير من المتـاعـب فيـه، وبعـد تفحصنا لهذا الغليون عدنا بالقارب إلى نزلنا.

وفي يوم الثـلاثين من نيسـان، الـذي هو اليـوم الأخير من الشهـر، استمعنا إلى قـداس في نزلنا، بسبـب وجـود لورد كبير من النمسـا كـان مقيماً هناك، مع أنه لم يكن حاجاً، وبعـدما تلا شماسه القداس في البيت، اجتمعنا نحن الاثني عشر مع بعضنا لنتباحث حول مع أي من صاحبي الغليـونين سـوف نبحـر،وأية شروط سـوف نعمل معهما، وقـرر مـوالي وجـوب ذهابهم مع المعلم بطرس لاندو، في غليـــونه ذي الصفـوف الثـلاثة، ومن جهتي أنا، كنت أفضل الذهاب مع القبطان الآخـر، وهو

أوغسطين، لكنني نفرت من غليـونه ذي الصفين، وذلك بسبب المتاعب العظيمـة التي عـانيت منهـا على متنه، ولهذا قـررنا الـذهاب مع المعلم بطرس، فضلاً عن هـذا وضعنا عشرين شرطاً، حددنا فيهـا إطار عقدنا معه، وأوضحنا أن القبطان ملزم بتنفيذ ذلك لنا.

وكان الشرط **الأول**: إن على القبطان أن يأخذنا حجـاجاً من البندقية إلى يافـا، وهو ميناء في الأرض المقـدسة، وأن يعيـدنا ثانيـة من هناك إلى البندقية، ولهذا الغرض عليه أن يكون جـاهزاً خلال أربعة عشر يوماً في الخارج، أي أن عليه عدم الإقامة هنا أكثـر من أربعة عشر يوماً بعد هذا اليوم.

والثـاني: هو أن يجهـز الغليـون بشكـل لائق ببحـارة ذوي خبرة، من الذين يفهمـون فن الملاحـة مع أي نـوع من الريح يمكن أن تهب، وأن يكون معـه على ظهر الغليـون ما يكفي من سـلاح للدفاع عن الغليـون ضد هجمات القراصنة، إذا ما حدث شيء من هذا القبيل.

والثالث: على القبطان أن يكون متيقظاً، فـلا يتوقف في أي ميناء غير اعتيـادي أو غريب على طـريقه، بل عليـه أن يتـوقف فقط عند الموانىء التي اعتـاد أن يحصل منهم على الميرة لغليـونه، وأن يأتي توقفـه عبـوراً، ذلك أن عليـه أن يتجنب التـوقف في أي ميناء، بل أن يتـابع المضي على طريقه، ومرغوب منه بشكل خـاص تجنب مملكة قبرص، وعدم التوقف هناك، وإذا ما فعل ذلـك، عليه عدم البقـاء في الميناء لمدة تزيد على ثلاثة أيام، لأن لدينا اعتقـاد متـوارث بأن هواء قبرص غير صحـي بالنسبـة للألمان، وعلى كل حـال، إذا مـا رغـب واحـد من جماعتنا أن يقـدم التحيـات لملكة قبرص ومن ثم خـدمتهـا في نيقوسيـا، وأن يتسلم منهـا شـارة طائفتها، على القبطان القيـام بانتظاره حتى عـودته، ذلك أن هذه عادة قديمة بين النبلاء ما دام هناك ملك في تلك المملكة.

والرابع: هو إن على القبطان تقديم وجبتين من الطعام والشراب، إلى الحجاج كل يوم بدون انقطاع، وإذا ما حدث لأي سبب أن واحداً منا لم يرغب بالجلوس إلى مائدة القبطان، أو أن يحضر طعام العشاء في المساء، أو اننا جميعا اخترنا البقاء في مخادعنا، على القبطان إرسال الطعام والشراب إلينا من دون إثارة أية خلافات.

والخامس: ويتوجب على القبطان أن يزود الحجاج، أثناء رحلتهم من البندقية إلى الأرض المقدسة، ومن هناك عائدين إلى البندقية، بما يكفي من الخبز الجيد، والبقسماط، والخمرة الجيدة، والماء العذب، الذي وضع حديثاً على ظهر المركب، وباللحم، والبيض، وجميع الأطعمة من النوع نفسه.

والسادس: هو إن عليه في كل صباح، قبل أن نتناول طعامنا، أن يعطي كل واحد منا قدحاً صغيراً من الخمرة المالوفيه Malovoisie، حسبما جرت العادة على ظهر السفن.

والسابع: إذا ما طلب الحجاج انزالهم إلى الشاطىء قرب أي ميناء، توقف الغليون على مقربة منه، دون رغبة في الدخول إليه، أو لأي سبب معقول آخر، مثل الحصول على الماء أو الدواء، أو حاجيات ضرورية أخرى، وقتها القبطان ملزم باعطائنا قارب، وطاقم قارب ليتولى نقلنا إلى ذلك الميناء.

والثامن: إذا ما قام القبطان بالتوقف على مقربة من أحد الموانىء غير المسكونة، حيث لن يستطيع الحجاج الحصول على الضروريات لأنفسهم، هو وقتها ملزم بأن يزودهم بالطعام وكأنهم ليسوا في ميناء، ومن جهة أخرى إذا ما توقف في ميناء جيد، هم ملزمون وقتها بالتزود بما يحتاجونه لطعامهم.

والتاسع: القبطان ملزم بحماية الحجاج، في كل من داخل الغليون

وخارجه، من الاعتداء عليهم، ومن سوء سلوك عبيد الغليون، وذلك إذا ما رغب الحجاج بالجلوس مع العبيد، وهو أيضاً ملزم بمنع العبيد من السخرية بهم فوق اليابسة، وذلك بقدر ما يستطيع، وعليه عدم وضع أية شيء في مخادع الحجاج.

والعاشر: ينبغي على القبطان أن يترك الحجاج يبقون في الأرض المقدسة طوال المدة المستحقة ولن يستعجلهم كثيراً جداً، وعليه قيادتهم إلى الأماكن المعروفة، وأن يصاحبهم شخصياً، ونحن نرغب بشكل خاص أن لايثير أي اعتراض في قيادتهم إلى نهر الأردن، وهو الأمر الذي يجد الحجاج دوما صعوبة في تحقيقه والقيام به، وهو سوف يجنبهم وينقذهم من جميع المشاكل مع الكفار.

والحادي عشر: جميع المكوس، وجميع الأموال من أجل المرور الآمن، ومن أجل الحمير والنفقات الأخرى، مهما كان اسم المطالبة بها، أو أية مدفوعات في أي مكان يتوجب دفعها، هذا كله على القبطان القيام بدفعه من قبله وحده لصالح جميع الحجاج، الذين ينبغي أن لايدفعوا شيئاً أو أن يطالبوا بأية مدفوعات، ومثل هذا عليه أن يدفع الايجارات الكبيرة، وأما الايجارات الصغيرة فنحن سوف نتدبر شأنها بأنفسنا.

الثاني عشر: وفي مقابل جميع هذه النفقات، ومقابل جميع ما سيتحمله القبطان، يتوجب على كل حاج أن يدفع إليه أربعين دوقية ducats من النوع الذي اسمه de zecha، أي المسكوكة حديثاً، على شرط، أن يدفع الحاج نصف هذا المبلغ في البندقية، والمتبقي في يافا.

الثالث عشر: وإذا ما حدث وتوفي أحد الحجاج، لن يتدخل القبطان بأي حال من الأحوال في أشيائه التي يخلفها بل عليه ترك هذه الأشياء دون أن يلمسها في حوزة الشخص أو الأشخاص الذين ترك الميت لهم وصيته.

الرابع عشر: وإذا ما مات أحد الحجاج قبل الوصول إلى الأرض المقدسة، القبطان ملزم بإعادة نصف مبلغ المال الذي تسلمه من قبل، حتى يتصرف به الأوصياء وفقاً لتعليمات المتوفى.

الخامس عشر: وإذا حدث ومات واحد من الحجاج على ظهر الغليون، لن يقوم القبطان مباشرة بالأمر برمي جسده في البحر، بل عليه أن يتدبر أمر أخذه إلى الشاطىء ودفنه في احدى المدافن، وإذا كان الغليون— على كل حال— بعيداً عن اليابسة، سوف يتم الاحتفاظ بجسد الميت حتى تتاح الفرصة للوصول إلى أحد الموانىء، أو أن يوافق رفاق الميت على رمي جسده في البحر.

السادس عشر: إذا ما رغب أحد الحجاج بالذهاب إلى القديسة كاترين في جبل سيناء، يتوجب على القبطان أن يدفع لكل شخص عبّر عن مثل هذه الرغبة عشر دوقيات من المبلغ الذي دفع إليه من قبل.

السابع عشر: قبل أن يغادر القبطان القدس مع الحجاج، عليه باخلاص مساعدة الحجاج الذين سوف يسافرون إلى القديسة كاترين، بأن ينظم اتفاقية صداقة فيما بينهم وبين دليلهم.

الثامن عشر: يتوجب على القبطان أن يعين للحجاج مكانا موائماً على ظهر الغليون، ليحتفظوا فيه ببعض الفراخ والطيور، وأن يسمح طباخيه لطباخ الحجاج باستخدام نارهم ليطبخ للحجاج عندما يرغبون بذلك.

التاسع عشر: إذا ما وقع أحد الحجاج مريضاً وهو على ظهر الغليون، ولم يعد قادراً على البقاء في مخدعه وتحمل روائح النتن، وقتها يتوجب على القبطان أن يعطي مثل هذا الانسان مكانا ليرتاح عليه في الطبقة العليا، أو في القمرة، أو على المؤخرة، أو أن يعطيه واحداً من مقاعد المجذفين.

العشرون: إذا ما ترك شيء وأغفل ولم يرد ذكره في اتفاق التعليمات

هذا، أو وجد أمر لم يوف حقـه بالتعبير عنه، أو لم يشرح بها فيه الكفاية، إنما هو بحكم القانون والعـادة من واجبات القبطان وعليـه فعله، وقتها يعدّ هذا وكأنه قـد ورد ذكره في هذه التعليمات، وسيعـدّ وكأنه قد كتب بينها.

وبعـدمـا وضعنا هذه الشروط وكتبناهـا، بعثنا بها إلى المعلم بطرس، وهو القبطان الذي كـان يتولى انتظارنا في النزل، وقـد قرأ هذه الشروط حسبما وضعناها، وأخبرنـاه إنه إذا كـان راضيـاً بالتعـامل معنا وفقـاً لروحهـا، وعلى استعـــداد لأن يقسم يمينا بأن يفعـل ذلك، نحن على استعـداد لعقد عقـد معه واتفـاق كما تقدم القـول، ولدى سماع القبطان بهذا، أخـذ قـائمة الشروط، وقـرأها واحـداً واحـداً بعناية كبيرة، وأمـا بالنسبـة للشرط الأول، فقد قـال: إنه بالنسبة للفقـرة الأولى من الشرط الأول، هو على استعداد لقبـولها، ولسوف يأخذنا إلى يافا ويعيـدنا ثانية، أما بالنسبة للفقـرة الثانية من الشرط فهو لايمكنه الموافقـة عليها وتعلل بعدة أسباب، على أسـاسها كان من غير الممكن له الابحـار خلال شهر أيار، وبناء عليـه هو لايمكنه الاقــلاع بنا خــلال أربعـة عشر يومـاً، ولاحتى خـلال ستـة وعشرين يومـاً، إنما عندمـا تنقضي الأيام الستـة والعشرين، هو سيشرع في أي سـاعة تتـوفـر فيهـا ريح طيبة، وبالنسبـة للشرط الثاني عشر، أعلن أنه لن يأخذ أقل من خمس وأربعين دوقية من كل واحـد من الحجـاج، وتعلـل لهذا بأسبـاب كثيرة، وبالنسبـة للشرط الخامس عشر، قال بأنه سوف يبقي جثة الرجل الميت على ظهر السفينة، غير أنه أوضح أن البحـــر لن يسمح بـذلك، وأن ذلك ســـوف يعيق رحلتنا، ويمكن للقـــارىء أن يرى مـدى الصـدق في هـذا في الصفحـة ١٩٨ المقبلة، أمـا بالنسبـة للشروط الاخـرى فقـد أعلن عن رضـاه بها، وبناء عليه وبعد أحاديث طويلة عقدنا اتفاقاً معه.

وبعدمـا عقدنا اتفـاقنا، أخذنا جميعـا إلى القديس مـرقص حيث قصر

الدوج، وأحضرنا أمام شهود عـدل المدينة، الذين عندما سمعوا السبب الذي حضرنا من أجله أمـامهـم، كتبـوا اسماءنا وأوضـاعنا الحيـاتيـة في كتاب كبير، وكـان اسمي قد كتب فيه مـن قبل، عندما ذهبت في حجي المتقدم، وبذلك تأكد اتفاقنا وتأصل، وبعد الفراغ من هذا كله، ذهبنا في قـارب مع القبطان إلى الغليون، واخترنا مكاناً لاثني عشر شخصـاً على جـانب اليـد اليسرى، وقـام القبطان بتقسيم ذلك الفـراغ إلى اثني عشر مخدعـاً، أو سرير، وكتب اسم كل انسـان على مخدعـه بالحكك،من أجل أن لايأخـذ انسـانا آخـر هذه الأمـاكن، وبالنسبـة لي وافقني حظ طيب، فحصلت على أفضل مخدع، أو سريـر بين جماعتنا، والمخـــدع أو السرير، هو مكان لإنسـان واحـد، يمتـد طوله من رأسـه حتى قـدميـه، يعين له للمنامة، والجلوس، والعيش فيه، سواء أكان مريضاً أو معافى.

وبعدما فرغنا من هذه الإعدادات، جذفنا عائدين الى مقرنا في النزل، ونحن راضين تماماً بكل شيء، إلاّ بأننا كنا مـرغمين على البقاء مثل هذه الأيام الزائدة في البندقية، وهذا كان محزن جداً بالنسبة لنا.

هنا نهاية الفصل الأول .

الفصل الثاني
ويحتوي على أعمال الحجاج خلال شهر أيار

وفر لنا شهر أيار السار والبهيج وقتاً للتعبد التقوي في يومه الأول في عيد القديسين الرسولين: فيليب وجيمس، وبناء عليه في الصباح الباكر، عندما استيقظ موالي وبقية جماعتنا أعدوا أنفسهم للذهاب إلى الكنيسة والاستماع للقداس، وسألوني: في أي الكنائس يتوجب علينا سماع القداس في هذا اليوم؟ فأجبتهم: «أيها السادة، خذوا بعين التقدير، أننا أقلعنا بقصد الحج باسم الرب، وليس من اللائق بالنسبة للحاج الوقوف من دون نشاط، وطالما نحن محاطون بالماء من كل جانب، لايمكننا حبس أنفسنا وتمضية الوقت بزيارة حدائق الورود، أو السهول المشرقة، أو الغابات الظليلة، أو المروج الخضراء، أو الحقول البهيجة، أو الأشجار، والورود، والزهور والليلك، كما لايمكننا التسلي بالصيد، وفي الوقت نفسه ليس من اللائق بنا حضور المبارزات أو احتفالات الرقص، وبناء عليه إن نصيحتي، هي: أننا مادمنا هنا، علينا أن نحج كل يوم إلى احدى الكنائس، ونزور أجساد وآثار القديسين، حيث يوجد حشد عظيم منهم في هذه المدينة، وبذلك يمكننا خلال شهر أيار أن نقطف، ورود وزهور وليلك الفضائل، والنعمة، والغفران»، وعندما سمعوا هذا، وافق الجميع على نصيحتي، وجاءت الموافقة بالاجماع بأن علينا أن نركب في القارب أو أن نسير على الأقدام في كل يوم إلى احدى الكنائس، وإذا لم نذهب نحن جميعا، ينبغي على الأقل أن يذهب بعض جماعتنا، وأن يفعلوا ذلك، حتى يمكنهم فيما بعد اخبار البقية بما رأوه.

وبناء عليه قمنا في اليوم الأول من شهر أيار باستئجار قارب، ذهبنا به إلى كنيسة الرسولين المقدسين: القديس فيليب، والقديس جيمس،

وحضرنا القداس هنـاك، وبعد القداس صعـدنا إلى المذبح وقبلنا الرأس المقـدس للقـديس فيليب، الذي كـان محفـوظاً هناك، والذراع المقـدس للقـديس جيمس، وكـان هناك اندفـاع عظيم وضغط شـديد بين الناس لرؤية الآثار المقدسة وتقبيلها، وعندما انتهى القداس ذهب الناس، لكننا بقينا نحـن حتى يمكننـا أن نحصل على مشهـــد أفضـل للآثـار دون التعـــرض للدفـع والضغط، ويمكننا أن نلمسهم بمجـــوهـراتنا، لأن الحجـاج إلى الأرض المقدسـة قـد اعتادوا أن يحملوا معهم إلى الأمـاكن المقـدسـة خـواتم منتقـاة من الذهب أو الفضـة، أو بعض الحبـوب من الحجـارة الكريمـة من أجل أن يعمل منهـا رقى أو سبحـات، أو يكون المحمول سبحـاتهم المصنعة، أو بعض الصلبـان الصغيرة من الذهب أو الفضة، أو أي شيء مماثل هو ثمين، وسهل حمله من الحلي، التي عهد بها إليهم من قبل آبائهم أو أصدقائهم، أو أشياء اشتروها في البندقية أو من أي مكان من بلدان مـا وراء البحر لتكون هـدايا للأشخاص العـزيزين عليهم، وكـانوا كلما التقـوا بأيـة آثار مقـدسـة، أو وصلوا إلى أي مكان مقـــدس، كـانوا يـأخـذون هذه المجـــوهرات، ويلمســـون بها الآثار أو الأماكن المقـدسة، علهم يحصلون بـذلك على بعض القداسـة من عملية اللمس، وبذلك يعودون إلى أصـدقاء الحجاج أثمن وأكثر قيمة من ذي قبل.

وكنت أنا شخصيـاً الأقل بين الجميع، وأفقـر واحـد في جماعتنا، ومع هذا كـان معي كثيراً من الجواهر الثمينة أعيرت إليّ من قبل أصـدقـائي، أو نصرائي أو نصيراتي، من أجل أن ألمس بهن الآثار والأماكن المقـدسة التي سأزورها، ثم سأعيدهن إليهم، وأتسلم جائزة لقيامي بذلك، وكان بين هؤلاء من آخرين صاحب السيـادة السيد جون اخنغر Echinger، وكان في تلك الأثناء عمـدة أولم، فقد عهد إلي بخاتم ثمين جـداً وعزيز لأنه كان خاتـم والده جيمس اخنغر، فقد كان قـد سحبه من اصبعه في

ساعـاته الأخيرة وأعطاه إلى ابنه، مثلما تسلمه من أبيـه من قبله، وأعتقد مؤكـداً أنه يساوي بـالنسبة إليه أكثـر من مـائة دوقية، وأنـه يقدره الآن بأكثر من مائتي دوقية.

وهكذا بعدمـا انسحب الناس، اقتربنا— كما تحدثت— أكثر، ولمست آثار الرسولين المقدسين، وكان واجبي أن أحمل جميع المجوهرات العائدة إلى الحجـاج العلمانيين في الأماكن المقـدسـة، أو في الأماكن التي كـانت الآثار محفـوظة فيهـا، وبيـدي لمست الأشيـاء المقـدسـة، بكل قطعـة من المجـوهرات، ثم أعدتهم جميعـاً إلى أصحـابهم، لكن بعض النبلاء أبقـوا مجوهراتهم في يدي طوال الحج، وفعلنا هذا في جميع الأمـاكن المقـدسـة، ومع جميع الآثار التي وجـدناها خـلال حجنا كله، شروعاً من سمعـان الطفل المقدس في ترنت، وبناء عليـه عندما فرغنـا من هذا كله عدنا إلى النزل لتناول طعام الغداء.

وفي اليـوم الثـاني من أيار ذهبنا في الصبـاح إلى القـديس مـرقص، وحضرنا القداسات في الكنيسة الكبرى للقديس مرقص، وعندما انتهت القداسات ذهبنا إلى قصر دوج البندقية، حتى نقـابله شخصيا لنقدم إليه الرسالـة التي بعثها صاحـب السمو العظيم سيغسمونـد، رئيس دوقات النمسـا، والتي عهد بها إلى مـوالي لتقـديمها إليـه، وذلك حسبما قلنا في الصفحـة ١٥٣، لدى الحديث عن اليـوم السـابع عشر، وهكذا صعـدنا على السلم الحجري من سـاحة القصر إلى الرواق المعمـد، ووقفنا خارج قـاعـة القضـاء، وطلبنا أن يسمح لنا بالدخـول إلى الشيخ Senate، وسمح لنا على الفور بالدخول إلى مكان القناصل، ثم وضعنا في حضره الدوج والشيخ، وقـام اللورد جـون، بارون فـون سيمبيرن وهو حـامل الرسـالة عـالياً، أي رسـالة رئيس دوقـات النمسـا، ومشى نحو الأمـام بطريقة جريئة حتى وصل إلى وسط القاعة، ثم توجه نحو الدوج، وقدم الرسالة إليه باحترام وأدب، ثم عاد.

ونظر الدوج إلى الختم، ولدى تعرفه عليه، قبل الرسالة، ثم ناولها إلى الشيوخ الذين جلسوا معه، حتى يقوموا أيضاً بتقبيلها، ثم أمر بقراءة الرسالة على مسامع جميع الحضور، وعندما استمع إليها وقف الدوج، وعرض— من خلال ترجمان— خدماته على الحجاج، ودعا إليه كل واحد منهم على التوالي، وقدم يده لكل رجل منهم، ثم سحبه إليه وقبله وفق الطريقة الايطالية، والتمس بعد هذا موالي منه رسائل توصية إلى قائد البحر العام، وإلى حكام الجزر، من أجل أنه إذا توفرت الحاجة أن يحصلوا على حماية هؤلاء الأشخاص الذين تقدم ذكرهم، وتمت الاستجابة لهذا الطلب مباشرة، وكتبت الرسائل وسلمت إلينا.

وفي اليوم الثالث، الذي كان يوم عيد اكتشاف الصليب، ذهبنا بالقارب إلى كنيسة القديس الصليب، وبعد سماعنا للقداس هناك، رأينا وقبلنا جسد القديس أثناسيوس، الذي هو راقد هناك، ولمسناه بمجوهراتنا، حسب الوصف الذي قدمناه عن اليوم المتقدم، وكان هذا القديس من أعظم أبطال الدفاع عن الايمان وأقدرهم، وقد كتب ضد الهراطقة وليوقع الاضطراب بينهم عقيدة: «من الذي سوف يتم إنقاذه» الخ، وعدنا بعد هذا إلى نزلنا لتناول الغداء.

وبعد الغداء ذهبنا عبر الماء إلى أعظم ديرة الفرنسيسكان، وشاهدنا البناء، الذي كان كبيراً جداً، وفي بيعة مرتبطة بالكنيسة، هناك حصان قد بني بطريقة فنية رائعة، ذلك أن البنادقة يقلدون عادات الأمم الكافرة، وعلى هذا الأساس قرروا مكافأة واحداً من قادتهم البحريين، كان قد قاتل بشجاعة في سبيل الجمهورية، وربح بشجاعته كثيراً من المناطق الجديدة لصالحها، مكافأته بإقامة نصب تذكاري دائم له، فنصبوا تمثالاً من البرونز للحصان ولراكبه في واحد من شوارع المدينة أو ساحاتها، ومن أجل أن يجري تنفيذ ذلك بأروع ما يمكن، أرسلوا وراء النحاتين الموجودين في بلادهم، وأمروا كل واحد منهم أن يصنع حصاماً من أية

مادة يختارها، وقالوا بأنهم سوف يختارون واحداً من الثلاثة الأفضل من بين الخيول، ومن ثم يأمرون بصب حصان من النحاس حسب النموذج الذي اختاروه، وإلى جانب ثمن هذا التمثال، اقترحوا إضفاء تشريف خاص على الفنان الذي صنع شكل حصان.

وبناء عليه اجتمع النحاتون مع بعضهم في البندقية، وصنع واحد منهم حصاناً من خشب، غطاه بجلد أسود، وهو الحصان القائم في البيعة المتقدمة الذكر، وجاء هذا التمثال مشابها جداً لحصان حي، لكن مع فارق هو أنه جاء بحجم غير معتاد، ولايمكنه التحرك، لأنه حصان مصنوع بشكل فني، وصنع فنان آخر حصاناً من الطين، وشواه في الفرن، وقد جاء بشكل يجذب الاعجاب ولونه أحمر، وصنع الثالث حصاناً مدهشاً بشكله من الشمع، واختار البنادقة هذا النموذج الأخير، لأنه صنع ببراعة أعظم من الجميع، وأجازوا الفنان، لكن كيف سيصبونه، لم أسمع عن ذلك، ولعلهم تخلوا عن المشروع، وبناء عليه، بعد ما رأينا هذا الدير، والأشياء المتقدمة الذكر، عدنا إلى مكان إقامتنا.

وفي اليوم الرابع، الذي كان يوم أحد اسمه Vocem Jucunditatis ، وكان ذلك عيد العذراء الأكثر قداسة، أي القديسة كاترين المدفونة في جبل سيناء، وقد عبرنا من مكان الاعتكاف والتوبة للقديس دومينيك إلى كنيسة القديس يوحنا والقديس بولص، ورأينا هناك مسيرة مهيبة، وحضرنا قداساً، وكانت الكنيسة كلها محتشدة بالناس، وكان هناك عدد كبير من النساء قد لبسن مثل الـ Beguines، وعندما انتهى القداس، ذهبت إلى دير الرهبان، ووجدت هناك راهباً من طائفتي، مقيماً هناك وهو مسافر على طريقه، وكان يحمل شارات حاج إلى الأرض المقدسة، وقد جاء من بلاد فرنسا، ومن دير تابع لطائفتنا موجود في جزيرة فرنسا، وكان ينوي الإبحار معنا، ولهذا تعرفت عليه، واتفقنا على أن يتحمل أحدنا صحبة الآخر، وعلى كل حال، هو لم

يسافر على غليوننا نفســه، بل على الغليون الآخر، ومع هذا كان يزورني دومـا في القدس، وغـالباً مـازرته أنا هناك، وقـد تحملنا صحبة أحـدنا الآخر.

وبعـد تناول طعـام الغداء ذهبت وحيـداً في قـارب إلى دير القـديس دومينيك، لرؤية كهنة الـدير هناك، وقـد أروني ذراعـاً كـامـلاً للعـذراء كاترين المبـاركة جداً والمدفـونة في جبل سيناء، وكان ذراعـاً كبيراً جداً، وجميـلاً، وفيه جلده كله وعظامـه، وقد قبلت هذا الذراع مـرات كثيرة، ووجـدت في الدير نفسه راهبـاً آخر مـن رهبان طائفتي، قـدم من نابل، وكان يحمل شـارات الحج، وهو أيضاً لم يبحـر في غليوني، وعـدت بعد هذا بالقارب إلى النزل.

وذهبنا في اليوم الخامس بالماء إلى جزيرة الامبراطورة القديسة هيلانة، وهناك قـرأت قـداساً لموالي، وبعـد القـداس فتح الرهبـان قبر القديسـة هيـلانـة من أجلنا، ورأينا جسـدهـا كله، مع آثار أخــرى كثيرة، وبعـد تقبيلهم ولمسهم بمجـوهراتنا، عــدنا إلى النزل، وبعـد الغـداء، ذهبنا في قارب إلى الغليون الذي استأجـرناه، ورأينا القبطان قد أمر بوضع ألواح فوق الجزء المنخفض من مخادعنا، وقد اصطدم بعضهم بأقدامنا وكان في المكان الذي أردنا أن نضـع فيـه أحـذيتنـا وصندوق آنيتنا، ولهذا أخبرنا الرجـال الذي كانوا مسـؤولين عن الغليـون، أنه ما لم يقم في الغـد بنزع هذه الألواح، سنعـدّ اتفاقنا ملغى، ذلك أننا رأينا في عملهم هذا مخالفـة للشرط التــاسع، وبناء على ذلك نشب خــلاف فيما بين الحجــاج وبين القبطان، وقـررنا على كل حال أنه إذا أراد الحفـاظ علينا، يتوجب عليـه تدمير العمل الذي أقـامـه، وبعـدمـا فـرغنـا من تنظيم مخادعنا على هذه الصورة، عدنا إلى نزلنا.

وذهبنا في اليوم السادس في قارب إلى القديسة لوسيا Lucia، وبعدما سمعنا هناك قداساً شاهدنا جسـد تلك العذراء وقبلناه، ذلك أنه محفوظ

هناك في ضريح وسط تكريم عظيم، وذهبنا في ذلك اليوم نفسه إلى السوق، واشترينا كل ما يمكن أن نحتاجه في غليوننا من أجل الرحلة، من وسائد وفرش، ومخاد، وشراشف، وأغطية، وحصر، وجرار، وما تبقى من أشياء لكل مخدع، وسألتهم أن يشتروا لي فراشاً محشياً بشعر البقر، وكنت قد جلبت أغطية صوفية معي من أولم، من أجل أن أنام على ظهر الغليون مثلما أنام في قلايتي، لأنني رأيت أنه لايصح بالنسبة لي أن أنام على مكان أنعم فوق ظهر الغليون مما أفعل في قلايتي.

وفي اليوم السابع، الذي يوم عيد انتقال القديس بطرس الشهيد، ذهبنا في قارب إلى خارج البندقية، إلى جزيرة مورانو، واستمعنا إلى قداس دومينيكاني في كنيسة القديس بطرس الشهيد هناك، ثم ذهبنا إلى الكنيسة الأبرشية، وهناك عرض علينا كهنة الأبرشية، الأجساد الكاملة لعدد كبير من الأبرياء المقدسين، وكانوا جميعا ممددين في قبر واحد، حيث قبلناهم، ثم قصدنا إلى أفران صنع الزجاج، حيث يجري هناك صنع آنية من الزجاج بفن عالي الجودة والرقي، ذلك أنه لايوجد مثل أعمال الزجاج هذه في أي مكان آخر في العالم، وهم يصنعون آنية غالية السعر من الكرستال، وأشياء أخرى كثيرة رائعة من الممكن مشاهدتها هناك، وبعدما شاهدنا هذا كله عدنا في قاربنا إلى نزلنا في البندقية.

وفي اليوم الثامن، الذي كان يوم عيد صعود ربنا، ذهبنا إلى كنيسة القديس مرقص، من أجل حضور القداس هناك، وللتمتع بالمشهد العظيم، ذلك أن أعداداً لاتحصى من الناس تتدفق على هناك وتحتشد في ذلك اليوم، وعندما احتشد الجميع واجتمعوا، سار البطريرك مع إكليروسه ورجال الدين من جميع الديرة، والدوج والشيوخ ونقباء الحرف، ساروا جميعا بعدما وقف كل فريق منهم في مكانه المحدد، وقد لبس كل منهم لباسه الخاص مع شعاراته، وأعلامه، ومشاعله، وذخائره، ومشوا في مسيرة من كنيسة القديس مرقص إلى البحر، وهناك

صعـدوا على ظهـر سفن أعـدت خصيصاً لهم، وأقلعـوا بها، وصعـد البطريرك مع الدوج والشيـوخ على ظهـر الـ Bucentaur (في اللاتينية Bucephalus ، وسميت هكذا على اسم حصـان الاسكندر الكبير) التي كـانت سفينة عظيمـة تشبه خيمـة العهـد، وكانت مطليـة، ومغطاة بالذهب وبشقق الحرير المعلقـة، وأخـذ هـذا مكانا وسط احتفـال فخم، وقـــرع لجميـع نواقيس المدينـة، وزعق الأبـواق، وغناء مختلـف أنواع التراتيل من قبل رجـال الـدين، وعندمـا ابتعـدت الـ Bucentaur من الشـاطىء بضربات مجاذيفهـــا، التي كـان تعـدادها أكثـــر من ثلاثمائـة، صاحبها ما يزيد على خمسة آلاف مـركب، وقد أبحروا حتى القلاع التي تشكل ميناء البندقيـة، وعندمـا عبرت السفن جميعهـا وصـارت خـارج الميناء في البحر، بارك البطريرك البحر، حسبما جرت العادة بمباركة المياه في مثل هذا اليوم.

ولدى الفراغ من احتفال المباركة، انتزع الدوج خاتماً ذهبياً من اصبعه ورماه في البحر، وبذلك اقترنت البندقيـة بالبحر، وبعد احتفال الخاتم، خلع كثيرون ثيابهم وغطسوا نحـو الأعماق بحثا عن الخاتم، وكان الذي يعثـر عليـه، يحتفظ به لنفسـه، وفـوق ذلك يسكن طوال ذلك العـام في المدينة وهو معفى مـن الأعبـاء التي يخضع لها سكان تلك الجمهـــورية، وفي أثناء القيام بهذا كله تتجمع السفن كلهـا حول Bucentaur، وهي تضغط بشـــدة وتتـأرجح، وتصـــدر أصــــواتاً باطـلاق المدافع، والنفخ بالأبواق وقرع الطبـول، وبالصراخ والغناء، إلى حد بدا فيـه البحر وهو يهتز، وكنا حضوراً أثناء هذا العرض، في مركبنا المستأجر.

وبعد الفراغ من المبـاركة، وعملية الاقتران بالبحر، جـــذفوا بالـ Bu-centaur نحو ديـر القديس نيقـولا على الليدو Lido، ولدى الوصول إلى الشـاطىء هناك، نزلوا جميعاً من جميع السفن، ودخلوا إلى الكنيســة، التي لم يستطع جـزء من مائـة من الناس الدخـول إليها، مع أنها كـانت

كنيسة عظيمة، ولم يكن بين ذلك الجمهور العظيم ولا امرأة واحدة، ذلك أن الذين نفذوا الاحتفال كانوا من الرجال فقط، وعندما يكون البطريرك سائراً نحو الكنيسة، وهو مرتدياً لثيابه الحبرية، ومعه الدوج الذي برفقته حاشيته كلها، يأتي راعي الدير، وعلى رأسه قلنسوته الحبرية، وبرفقته جميع الرهبان بأرديتهم المقدسة، نحو الخارج لاستقبال الجمهور، ولاصطحاب البطريرك والدوج بيده ولأخذهما نحو سدة الكنيسة حيث يعقدون القداس لذلك اليوم، وسط مهابة عظيمة، ويعودون بعد هذا إلى سفنهم، ويتوجه كل انسان نحو بيته لتناول طعام الغداء.

ولقد رأيت في بعض الأحيان مثل هذه المشاهد في أماكن أخرى، وبالنسبة لذلك انظر الصفحة ٢١٠، في القسم الثاني، وفي خلال الاسبوع الذي يلي يوم الصعود، ينعقد هناك سوق تتوفر فيه مشاهد رائعة.

وذهبنا في اليوم التاسع بالمركب إلى دير اسمه دير الرهبان العكاكزة، وبعد سماعنا للقداس هناك أرونا جسد القديسة بربارة مع كثير من الآثار الأخرى، التي قبلناها باحترام، ثم عدنا إلى نزلنا، وذهبنا في اليوم نفسه إلى بيت، كان موجوداً فيه فيل، الذي هو حيوان ضخم ومخيف، وقد رأيناه، واندهشنا لدى رؤيتنا لمخلوق بمثل هذا الحجم غير الاعتيادي، وقد تلقى تدريبات عظيمة، ذلك أنه كان يقوم بأعمال رائعة، فعلها أمام أعيننا، بإشارة من سائسه، وقد اشترى هذا الرجل هذا الحيوان مقابل خمسة آلاف دوقية، وأخذه من البندقية إلى ألمانيا، وكسب من ورائه مالاً كثيراً، لأنهُ لم يدع انساناً يراه، دون أن يدفع لذلك، وأخذه بعد ذلك إلى بريطانيا، وهناك رماه البحارة فوق ظهر السفينة أثناء احدى العواصف فهلك.

وفي اليوم العاشر، الذي كان يوم سبت، ذهبنا بالقارب إلى كنيسة

اسمها كنيسة القديسة مريم ذات النعمة، وسمعنا قداساً، وذهبنا من هناك بالقارب إلى كنيسة القديسة مريم صاحبة المعجزات، فهناك قد بنوا كنيسة ذات جمال رائع مع دير جميل جداً، وفي أثناء حجي الأول كان الناس قد بدأوا يتدفقون على ذلك المكان، حيث لم تكن آنذاك بيعة هناك، بل مجرد صورة للعذراء المباركة فوق رافعة مثبته إلى جدار، وقد قيل بأن معجزات قد صنعت هناك، ولذلك أخذت جماعات من الناس تأتي إلى هنا، وتوفرت تقديات كثيرة، مما أدى إلى بناء كنيسة بنفقات عالية، وهي الكنيسة القائمة الآن هناك في ذلك الموضع، والتي أطلق عليها اسم كنيسة القديسة مريم صاحبة المعجزات، ولسوف أذكر المزيد عنها في القسم الثاني — الصفحة ٢٠٨.

وفي اليوم الحادي عشر، وكان يوم أحد ضمن الأسبوع التالي ليوم الصعود، استمعنا إلى قداس في أقرب الكنائس منا، وكانت واقعة في مقابل النزل الذي نحن فيه، وذهبنا بعد الغداء بالقارب إلى الكنيسة التي اسمها كنيسة القلعة، حيث يسكن بطريرك البندقية، وحيث يتم الحصول في كل يوم على توبة وغفران، وشاهدنا المكان، وكانت الكنيسة واسعة وقديمة، وقد وجدنا هناك واحداً من رهبان طائفة المبشرين، وهو الذي كان يتولى الوعظ، مع أننا لم نفهم ما قاله في القداس، لكن بعد انتهاء القداس رجعنا إلى النزل.

وفي اليوم الثاني عشر، الذي كان يوم عيد الشهداء نيروس Nereus وآخيليس Achilles وبنكرايتوس Pancratius ، ذهبنا عبر الماء إلى كنيسة القديس زكريا، وحضرنا قداساً هناك، وبعثنا بعد القداس برسالة إلى راعية الدير المرتبط بالكنيسة سألناها فيها السماح لنا برؤية الآثار، وهؤلاء الراهبات ثريات ونبيلات، وهن متساهلات جداً بنظامهن، الذي هو نظام القديس بينيت، وقد فتحن لنا الضريح الذي فيه أجساد الشهداء الثلاثة، الذين كنا نحتفل بعيدهم، أي: القديس نيروس،

والقديس آخيليس، والقديس بنكرايتوس، ورأينا في ضريح آخر مصنوع من الفضة الجسد الكامل للقديس زكريا، والد يوحنا المعمدان، وفمه مفتوح، وإلى جانبه جسد القديس غريغوري نازيانزن Nazianzen ، وجسد القديس ثيودور المعترف، وجسد القديسة سابينا، العذراء الشهيدة، ودهشت إزاء ثراء هذه الكنيسة بالآثار، وقد أخبرت بأن ابنة أحد الأباطرة، كانت مرة راعية للدير هناك، وأن الامبراطور، حباً لابنته، جلب هذه الأجساد إلى هناك،وهكذا بعدما رأينا هذه الآثار وقبلناها، عدنا إلى مكان إقامتنا.

وفي اليوم الثالث عشر، ذهبنا إلى الكنيسة الكاريثية Carthusian العائدة للقديس أندرو، حيث يوجد هناك دير عظيم وكبير جداً، وعلى جزيرة خاصة به، مع أربعة أروقة وقلايات جميلة وواسعة، ورأينا هناك كثيراً من الآثار، من ذلك إصبع القديس أندرو الرسول، وذراع القديس لورانس الشهيد، وهكذا كثير، وعدنا بعد هذا إلى مكان اقامتنا.

وذهبنا عبر الماء في صباح اليوم الرابع عشر إلى دير القديس جرجس، القائم في مقابل قصر القديس مرقص، وذلك عبر القناة العظمى، وجعلنا رهبان ذلك الدير يغنون لنا قداساً عن القديس جرجس، وبعد القداس أرونا الآثار المقدسة التي لديهم، وهي: رأس القديس جرجس، وذراعه الأيسر ويده، وكذلك رأس الرسول القديس جيمس الأصغر، والجسد الكامل للقديس بولص، دوق القسطنطينية، وقطعة من الليفة التي منحت لربنا، وأشياء أخرى كثيرة، وعندما فرغنا من رؤية هذه الأشياء، عدنا إلى مقر إقامتنا.

وفي يوم الخامس عشر الذي كان نهاية الاسبوع التي أعقب الصعود، وعدّ مقدساً مثل اليوم الأول من الصعود، ذهبنا باكراً إلى القديس مرقص، وبعدما استمعنا إلى القداس، أمكننا رؤية كنز القديس مرقص، الذي لايمكن تقدير قيمته لا بالذهب ولا بالفضة ولا بالحجارة

الكريمـة، فقـد رأينا هناك ضريح وجسـد القـديس ايزيدور Isidore، وأمـا جسد القـديس مـرقص، الذي جلبـه البنادقـة من الاسكندرية إلى مـدينتهم، فلم نره، لأنه قـد قيل بأن راهبـاً قد استـولى عليـه، وحمله إلى ألمانيا إلى أويا Owia ميجر، وحول هذه المسائل سوف تتوفر رواية أكثر كمالاً، في ص ٢٠٦ من القسم الثاني.

ومن الكنيســة ذهبنا إلى قصر الدوج، حيث تولى واحـد مـن رجـال بلاط الدوج ارشــادنا والطواف معنا حـول الغـرف الـداخليـة للدوج، وشمل ذلك أيضا خزانة الدوج، التي رأيناها، وكـان هذا اليوم يوم عيد خاص للنســاء، وقد شاهدنا عـرضاً للنساء المزينات بزينة دنيـوية كانت ثمينة جداً، وكان رائعاً مشاهدتهن.

وفي اليـوم السـادس عشر، وبينما نحن في فـرشنا، سمعنا أسرة النزل يبكون وينتحبـون، لأن صـاحب نزلنا المعلم جـون، قـد توفي في الليل، وكـانوا يتجهــزون لدفنه، وبناء عليـه، اعتقـد بعـض منا، أنه ربما هناك طاعون قد نزل هناك، لذلك استأجروا قوارب وأبحروا إلى بادوا، حيث أقـاموا لعـدة أيام، أمـا أنا والذين بقيـوا، فقد ذهبنا عبر الماء إلى كنيسـة القديس روخ Roch ، في مدينة البندقية، وطلبنا عون القديس المتقدم الذكر، الذي هو معين خاص للذين يخافون من الوباء، وذلك خشية أن نصاب بالعدوى.

وفي يوم السابع عشر، الذي كـان عشية عيد الحصـاد، ذهبنا بالقارب إلى دير القـديس يوحنا، العـائد لطائفـة الرهبـان البيض، وهناك حضرنا قـداساً، وقبلنا الآثار، وذهبنا بعـد الغداء إلى مخزن سـلاح المدينة، الذي يسمــونه آرسنال (دار الصناعــة)، ورجـونـاهم السماح لنا بالدخــول، وعندمـا سمح لنا، شـاهدنا كميـات رائعـة من آلات الحرب، مع مخازن تابعـة للدولة لتـزويد الرجـال للقتـال في البحر، أو خيـالة، أو رجـالة، وذلك حسبما سيأتي وصف ذلـك في الصفحـة ٢٠٥ من القسم الثـاني،

ومثل ذلك، ذهبنا بعد هذا إلى بيت الخبازين، الذين يتولون خبز البقسماط للاستخدام في البحر، ودهشنا لدى رؤيتنا الأفران الكبيرة، والنيران، والأعمال والعاملين، وقفلنا بعد هذا كله عائدين إلى النزل.

وفي يوم الثامن عشر، الذي كان يوم أحد، ويوم عيد الحصاد،ذهبنا في الصباح إلى كنيسة القديس بارثلميو الرسول، التي هي الكنيسة الأبرشية لنزلنا، واستمعت هناك إلى اعترافات بعض الحجاج، وبعد الحصول على أذن المغادرة من الكاهن الأبرشي للكنيسة المتقدمة الذكر، توليت إدارة قداس القربان من أجلهم، وبقينا في الكنيسة خلال جميع وقت القداس، وذهبنا بعد الغداء عبر الماء إلى كنيسة الروح القدس، التي تدفق عليها جمهور كبير للحصول على الغفران، ولمشاهدة مسيرة مهيبة للنقابات التي يسمونها مدارس.

وذهبنا في اليوم التاسع عشر بالماء إلى الكنيسة التي اسمها القديسة مريم ذات الشفقة، التي هي فائقة الجمال، وهي أيضاً الأغنى والأكثر قدماً من أية كنيسة أخرى في المدينة، وحضرنا هناك قداساً، وعجبنا لرؤية الرسوم والمنحوتات التي زينت بهم، ولدى عودتنا إلى نزلنا زرنا كثيراً من الكنائس الأخرى، حصلنا فيها على الغفران، وسيكون مرهقاً لي تولي كتابة أسمائهم جميعاً.

وذهبنا في اليوم العشرين في الصباح الباكر، وقبل أن ترتفع حرارة الشمس، إلى كنيسة القديسة مريم الجميلة، وكانت الكنيسة في الحقيقة واسعة وجميلة: وهكذا استمعنا هناك قداساً، وقفلنا بعد ذلك عائدين إلى نزلنا، ولم نتجرأ خلال بقية ذلك النهار على الخروج، بسبب الحرارة العالية جداً، لأن الحر كان أعظم مما عرفته البندقية قط من قبل، وبسبب هذه الحرارة جفت الآبار، وصار الماء العذب عزيزاً جداً، ذلك أنه لم يعد ماء الشرب متوفراً هناك، إلا الماء الذي جلبته السفن من نهر برنتا Brenta وقد بيع هذا الماء بثمن مرتفع جداً، وجرى صبه من حول

الآبار، على أمل أن يتصفى خلال الأرض، وينفذ إلى الآبار.

وذهبنا في اليوم الحادي والعشرين بالقارب إلى دير القديس أنطوني، وكان على مقربة من دير القديس دومينيك، وحضرنا هناك قداساً، وخرجنا بعد ذلك نتجول هناك، وشاهدنا الأبنية العملاقة التي كان سادة البندقية يقيمونها هناك في ذلك المكان، واستولى علينا العجب تجاه النفقات الكبيرة لمثل هذه الأعمال، لأنهم كانوا يقيمون جدراناً ضخمة في ماء البحر بالذات، وكان مكلفاً جداً عمل الأساسات هناك، وبسبب هذا المبنى كان الدوج مع أعيان البندقية الآخرين، غاضبين جداً من أخواني رهبان القديس دومينيك، لأنهم طلبوا من الرهبان منحهم نصف أرض حديقة ديرنا، من أجل توسعة دير القديس أنطوني، لكن إخواني الر هبان لم يوافقوا، ووقفوا في وجه الدوج والشيوخ وقفة جريئة مما أثار غضباً كبيراً ضدهم.

ولكي يحصلوا على موافقة الرهبان، عرضوا منحهم المساحة التي أرادوا من الأرض في البحر، باتجاه الشرق، وحسب اختيارهم وقبولهم، وأن يقوموا بارساء الأساسات على حساب الدولة، لكن رئيس الدير، وكان جريئاً، رفض مطلقاً إعطاء الموافقة، وكان سادة البندقية يتولون عمارة هذا البناء بهذه الروعة، مع بيوت جميلة وكثير من الغرف، من أجل استقبال الحجاج الذاهبين إلى القدس، وإقامتهم فيها، لأنهم أدركوا أنه من غير اللائق، أن يقيم الحجاج في نزل عامة، مع أنهم عازمون على القيام بالحج المقدس، وأنه في مثل هذه المدينة العظيمة ليس لديهم من مكان يأوون إليه إلاّ الحانات العامة، لأن سمعة النزل العامة، كانت فيما بينهم سيئة وغير محمودة، ولذلك عندما كانت تزورهم بعض الشخصيات الكبيرة، كانوا يعينون لها بعض البيوت الخاصة، ليحولوا دون نزولها وإقامتها في النزل، فضلاً عن هذا، كانوا غير راضين، أن تذهب وجبات الأطعمة التي كانوا يرسلونها إلى الغرباء المهمين على

الحساب العام، وتؤخذ إلى النزل، وكان إذا ما أرسل شيء إلى أحد النزل، كان كمية صغيرة ورديئة.

وعندما تسلم موالي وجبة أهديت إليهم من قبل الدولة، أخبروهم أنهم لو كانوا مقيمين في أي مكان غير النزل العام، لبعث إليهم أعيان البندقية بالوجبات بشكل متواصل، ولتعاملوا معهم بكرم أعظم، ولهذا السبب كانوا يتولون عمارة هذا البيت بنفقات عظيمة إلى هذه الدرجة، من أجل أن يتمكن الحجاج ذوي المكانة من الإقامة هناك، ولكي ينالوا التكريم على أيديهم، وذهبنا من هناك بوساطة القارب إلى غليوننا، ووجدنا عدداً كبيراً من الرجال يعملون عليه، في تثبيت مقاعد المجذفين، والمجاذيف، والسواري، والأشياء الأخرى المحتاجة، وكانوا يثقلونه ويوازنونه بالرمل، وعندما رأينا هذا ابتهجنا، آملين بالإقلاع في القريب العاجل.

وفي اليوم الثاني والعشرين، ذهبنا عبر الماء إلى الكنيسة التي اسمها كنيسة الرسل، وحضرنا القداس هناك، وبعد القداس أرونا جسد القديسة مريم العذراء، التي يوجد حولها رواية رائعة في القسم الأول من كتاب«حياة الآباء»(ص٤٩)، وبعد الغداء ذهبنا ثانية إلى الغليون، وأخذنا بعض الصناديق والخزائن لوضعها في مخادعنا، وذهبنا في القارب أيضاً إلى المكان الذي ترسو فيه السفن ذات الحجم الأعظم، وصعدنا إلى ظهور هذه السفن، وتملكتنا الدهشة تجاه ما رأيناه، وتساءلنا كيف يمكن تحمل مثل هذه العمائر الضخمة، وهذا الوزن العظيم.

وذهبنا في اليوم الثالث والعشرين عبر الماء إلى كنيسة القديس إرميا، حيث أرينا بعد القداس جسد القديس الأسقف مغنوس Magnus الذي كان أول أسقف لمدينة البندقية، ومضينا من هناك إلى كنيسة القديسة مريم، التي اسمها القديسة مريم صاحبة العذراوات، ورأينا كثيراً من آثار القديسين هناك، وزرنا بيعاً أخرى كثيرة في ذلك اليوم،

نسيت أسماءها.

وفي اليوم الرابع والعشرين الذي هو يوم انتقال القديس دومينيك، ذهبنا عبر الماء إلى كنيسة القديسة آن Anne ، التي هي بالجوار، حيث شاهدنا كثيراً من الآثار، وفي طريق عودتنا إلى مقر إقامتنا، ذهبنا إلى كنيسة القديسة مريم صاحبة الكرمة، فهناك يمتلك الرهبان الفرنسيسكان ديراً جميلاً جداً، هو الذي يعملونه يومياً أكثر نفاسة، وقمنا هناك بتوجيه التحية إلى العذراء المجيدة، وعدنا إلى مقر إقامتنا.

وفي اليوم الخامس والعشرين، الذي كان يوم أحد، وكان أيضاً يوم عيد الثالوث المبارك، نهضنا باكراً، وعبرنا القناة العظيمة إلى كنيسة الثالوث المقدس، حيث يوجد هناك البيت العائد للرهبان الألمان النظاميين، وهناك حضرنا مسيرة وقداساً، ودعينا إلى الغداء من قبل السادة هناك، وكان في هذا اليوم حشداً عظيماً من الناس هناك، وكانت القناة طوال اليوم مليئة بالقوارب فيها أناس قادمون، وأناس ذاهبون، وعندما عدنا إلى نزلنا علمنا بأن السادة قناصل البندقية قد أصدروا أوامر إلى كل من القبطانين بالاقلاع مع حجاجهم في ذلك الأسبوع، وعدم الانتظار مدة أطول، ولدى سماعنا بهذا ابتهجنا، لأننا كنا قد بدأنا نملّ كثيراً من الاقامة في البندقية.

وعبرنا القناة في اليوم السادس والعشرين إلى كنيسة القديس اسطفان، حيث يوجد دير القديس أوغسطين، وسمعنا قداساً هناك، وبعد القداس أرانا الرهبان بعض الحجارة التي من المعتقد أن القديس إسطفان قد رجم بها في القدس، وفي ذلك اليوم أصدر قبطاننا الأوامر بوجوب إحضار جميع خزائننا وحقائبنا ووضعهم على ظهر الغليون، الأمر الذي نفذناه مباشرة وسط سرور عظيم،لأننا كنا نتطلع بشوق عظيم لموعد مغادرتنا.

وذهبنا في اليوم السابع والعشرين إلى كنيسة القديس كارتيانوس CARTIANUS، حيث كانت الكنيسة كنيسة أبرشية، فيها سمعنا قداساً، وبعد القداس أرانا رجال الدين جسد الأسقف القديس مكسيموس، المحفوظ بعناية داخل غلاف فضي، وذهبنا أيضاً إلى كنيسة فيها يرقد جسد راعي الدير، القديس سابا، وبعدما قبلنا هذه الآثار، عدنا إلى نزلنا، وعملنا في ذلك اليوم بنشاط كبير، في إعداد أمورنا على ظهر الغليون، وبدا لنا أن الأيام التي بقيت لنا لنقيم بها في البندقية تكاد لاتكفي لإكمال استعداداتنا.

وفي اليوم الثامن والعشرين ذهبنا باكراً عبر الماء إلى كنيسة القديسة مريم الكرملية، وذلك حيث يمتلك الرهبان الكرمليون ديراً، وبعد سماعنا قداساً عدنا إلى نزلنا بسرعة أكبر مما اعتدنا عليه، ذلك أن موالي قد عينوا موعداً مع طبيب كان سيتناول طعام الغداء معنا،وتسلموا منه أحكاماً مكتوبة ينبغي اتباعها في البحر، وذلك كل رجل حسب أوضاعه الجسدية، وأعطاهم وصفات أدوية، وأخذ كثير منا منه أشربة مطهرة، لأن من الضروري بالنسبة للمسافرين عبر البحر تناول الشراب المطهر قبل السفر.

وفي اليوم التاسع والعشرين الذي كان عيد«جسد المسيح» الأكثر قداسة، ذهبنا إلى كنيسة القديس مرقص، وحضرنا مسيرة مهيبة هناك، فنحن لم نر قط مثل الفخامة التي رأيناها في ذلك اليوم في البندقية، وكانت المسيرة رائعة، وقد حوت حشداً عظيماً من الرهبان ورجال الدين التابعين لجميع الطوائف، وكانوا جميعاً يرتدون أرديتهم المقدسة، ويحملون آثاراً ثمينة جداً من كل نوع، ومشوا وفق نظام محدد حول الساحة الكبيرة للقديس مرقص، التي كانت مغطاة بأقمشة كتانيةمن جميع جوانب الدائرة التي تحركت فوقها المسيرة من الباب الأول لكنيسة القديس مرقص حتى الباب الآخر، وحمل البطريرك خبز القربان،

ومشى إلى جانبه الدوج، وهو واضع قبعة الدوقية الثمينة جداً، وجاء من بعدهما رعاة الديرة، وهم يرتدون قلنسواتهم، ثم شيوخ البندقية جميعاً، وإلى جانب العرض اللاهوتي، الذي كان رائعاً جداً، كان هاماً رؤية مهابة السادة الشيوخ، وثيابهم الجميلة وغير الاعتيادية، وقد جاء من بعدهم كثير من الأصناف، ثم العامة من الناس، وقد مشى رجال الدين والرهبان من نظاميين وعلمانيين في الطليعة، وسط الغناء وعزف آلات الموسيقى والألحان والمشاهد العرضية من كل نوع، وفي هذه المسيرة ما من دير، أو نقابة ظهروا من دون عرض خاص بهم وأبهة ذاتية لنيل الاعجاب، ولإدخال السرور إلى قلوب المشاهدين، وزين الرهبان المبشرون التابعون للقديس يوحنا والقديس بولص المسيرة بوساطة عروضهم المضحكة وتمثيلياتهم الجميلة، ولقد رأينا هناك كثيراً من الذهب والفضة، وكميات كبيرة من الأحجار الكريمة، والملابس الثمينة، مما لايمكن لانسان أن يقدر أثمانها، والذي كان هناك هو حشود متداخلة تركض وتتدافع في فوضى.

ومضينا بعد الغداء عبر الماء إلى دير جسد المسيح، حيث تقيم سيدات نبيلات وغنيات من البندقية، هن راهبات في طائفة القديس دومينيك، وفي الحقيقة، جاءت المدينة كلها تقريباً، بعد الغداء، عبر الماء إلى تلك الكنيسة، وكان هناك حشد عظيم وضغط شديد من أجل مشاهدة المسيرة، لأن الرهبان التابعين لثلاثة أديرة، هي: دير القديس يوحنا، والقديس بولص، ودير القديس دومينيك، ودير القديس بطرس الشهيد، قدموا جميعاً إلى هناك، وعملوا مسيرة فائقة الجمال مع جسد المسيح، وكانت مسيرتهم طويلة جداً فوق القناة العظمى، وقدموا كثيراً من العروض، ولايمكن لانسان أن يتخيل كم من العروض العبثية قد عرضت وسط هذه المباريات المقدسة، وكم من الملابس العظيمة البذخ التي ارتدتها النساء، وكم من التصرفات غير اللائقة التي صدرت عن

رجـال الدين، والأعمال غير النظـاميـة التي مـارسهـا رجـال الدين النظاميون وغير النظـاميون، هذا كله لايمكن لانسـان أن يتصوره، وأن يتصـور العـدد الهائل من الجمهـور الذي احتشـد هناك، وفيما إذا كـان التشريف المضفـى على القـداس الأعظم مكانة، قـد دنس على هذه الصورة؟ الرب وحده الذي يعرف الأشياء كلها، يمكنه أن يقول ويخبر، وبعدما انتهى هذا كله، عدنا إلى مقر إقامتنا لتناول طعام العشاء.

وذهبنا في اليـوم الثلاثين إلى القـديس دانيـال، وسمعنا قداسـاً هناك، وأرونا بعد القـداس الجسد الكامل لشهيد اسمـه القديس يوحنا، وقبلنا هذه الآثار، وعـدنا إلى مقـر إقامتنـا، وفي ذلك اليوم بالـذات، قام عـدد كبير من الحجـاج، بعـد تناول طعـام الغـداء بحـزم أمتعتهم، وذهبـوا بوسـاطة القـارب إلى الغليـون، حيث صعـدوا إلى ظهـره، ومن هناك لم يعودوا ثانية إلى المدينة، بل مكثوا على ظهر الغليون حتى أقلع بنا جميعاً.

وفي اليـوم الحادي والثـلاثين الذي كـان اليـوم الأخير في شهـر أيار، نهضنا باكراً، وذهبنا لسماع قـداسات في كنيسـة القديس المخلص، حيث يوجد هناك رهبان نظاميون يتولون مراعاة الأعمال التعبدية بشكل دائم، واستأجرنا بعد هذا مـركباً، وتدبرنا أمر الذهاب إلى الكنائس التي حماتها من القديسين يقدمون خدمات خاصة إلى الذين على نية السفر إلى الحج، لأن موعـد مغادرتنا بات قـريباً، وكنا نرغب بـالتوجه بالـدعاء إلى جميع القديسين من أجل الحصول على عونهم، وبناء عليه ذهبنا أولاً إلى كنيسة القـديس رافـائيل، الذي هو رئيس للمـلائكة، حيث صلينا للرب حتى يرسل إلينا رئيس الملائكة المقدس لديه، ليتـولى قيادتنا مثلما فعل لطوبيا، ومن هناك ذهبنا بالقارب إلى كنيسـة القديس ميكائيل الذي كـان رئيساً للمـلائكمـة، ورجـوناه أن يحطم تحت قـدميـه كل شيء شرير يمكن أن يهاجمنا، سـواء أكان من الأعـداء المرئية أو غير المرئيـة، وذهبنا من هناك إلى كنيسـة القديـس كريستـوفـر ورجوناه أن يحملنـا سالمين عبر البحـر

الكبير، ذلك أنه يوجد فيها بين البندقية وجزيرة مورانو جزيرة ، عليها تقوم كنيسة جميلة وجديدة هي كنيسة القديس كريستوفر، وذلك مع دير للرهبان البيض، وفي تلك الكنيسة هناك لوحة قد رسمت عليها خريطة جميلة جداً للعالم.

وذهبنا بالقارب من تلك الجزيرة إلى كنيسة القديسة مرثا، السيدة التي أكرمت الرب يسوع وخدمته، ورجوناها أن تهتم بنا وتزودنا بنزل جيدة ومحترمة، أو في جميع الحالات أن تزودنا بالصبر حتى نتحمل نواقص النزل التي سوف نسكن بها خلال رحلتنا الطويلة، ويسكن من حول تلك الكنيسة راهبات يرتدين أردية بيضاء، وانظروا كيف أننا عندما كنا نقيم في المدينة، لم نستطع منع أنفسنا عن القيام بالحج، ولقد دونت فقط المشاهد الرائعة والمحترمة والجولات التي قمنا بها في مدينة البندقية، وكل ما قمنا به بدافع الفضول، أو استحق المشاهدة، تجاوزت ذكره، مع أننا فعلنا ذلك أيضاً.

وهنا تنتهي جولاتنا في البندقية، وكنا طوال ذلك اليوم مشغولين في إعداد أنفسنا للذهاب والصعود على ظهر السفينة غداً، وعملنا تسوية مع طبيبنا، ودفعنا ما علينا من استحقاقات للسيدة مرغريت، صاحبة نزلنا، وعهدنا بالأشياء التي لافائدة منها في البحر، إلى السيد نيقولا فرج Frig وكان ألمانيا، وكان هو وكيل المؤونة في النزل، وانتظرنا قدوم الغد.

وفيما يلي بعض الأشياء، التي من الضروري تبيانها من أجل فهم جولاتنا ورحلاتنا فوق البحر. وقبل الشروع في تدوين أخبار جولاتنا ورحلاتنا في البحر، رأيت من الضروري التمهيد لذلك ببعض الايضاحات الضرورية، لتبيان كثيراً من المصاعب التي لابد من أن تقوم أثناء الحج في البحر، لأن الحج إلى الأرض المقدسة، ينفذ جله عبر البحر، ويتم تمضية الجزء الأكبر من الوقت في الرحلة البحرية، ولذلك عزمت على كتابة ثلاثة تماهيد لذلك.

والتمهيد الأول: حـول أنواع البحار الكثيرة، وطبيعتهم، والمخـاوف فيهم.

والتمهيد الثـاني: حـول الغليـون ذي الصفوف الثـلاثة للمجـذفين، وتراتيبه.

والتمهيـد الثـالث: حـول النظام وطبيعـة الحياة على ظهـر الغليـون، ونصيحة إلى الذين يبحرون في غليون.

وعندما يجري فهم هذه التهاهيد بشكل صحيح، فإن الانسان الذي لم ير البحر قط، يمكنه أن يرتاح راضياً، [أي أنه سوف يفهم حكايتي].

حول أنواع البحار الثلاثة

يتألف البحـر بطبيعتـه من ثلاثة أنواع هي: البحـر الكبير، والبحـر الأكبر، والبحر الأعظم، والبحر الكبير هو البحـر المتوسط، الذي يطلق عليـه اسم بحرنـا، والبحر الأكبر هو بحـر بنطش، والبحـر الأعظم هو المحيط الذي يمتـد حول العـالم، وسوف نقـوم أولاً باستعراض مـوجز للمحيط، وبعـد ذلك للبحـرين الآخـرين، والمحيط، أو البحـر المحيط الأعظم، هو الذي يحيط بالعـالم كله ويغلفه، ويلتف حـوله مثل الخاتم، وهو يسمى بالمحيط من قبل كل من الإغريق واللاتين، لأنه يجري حول العالم، وجاء ذلك إما بسبب سرعته، لأن معنى محيط هو يجري **Ocius**، أي يسرع، أو بسبب ضم عبـارة **Ce** مع **Coelum** التي تعني السماء، لأن هذا البحر فيـه شبه للسماء باللون، ومهما كـان لون السماء، سيكون المحيط له اللون نفسه، وينشأ المحيط وينمو من العالم، وجذوره وبداياته في العـالم، فضلاً عن ذلك فإن بداية الأول هي عند نهاية الآخـر، ومثل هذا فإنه أصل جميع الميـاه في العالم، فمنه تتـدفق وإليه تعـود، وبناء عليه أطلـق على المحيـط اسم بيـت الأنهار، ونبـع الأمطـار، ومع ذلـك هـو لايزداد بتدفق نهر من الأنهار، ولاينقص بعـدم تدفق نهر آخر، لأنه يعيد

من المياه بقـدر الكميات التي يتلقاها، ومـع هذا إنه ليبدو أمرا مـدهشاً، أن نرى مثـل هذا العـــدد الكبير من الأنهار تصب في المحيـط، وبشكل متواصل، وتتدفق بكميات غير محدودة من المياه، ومع ذلك لايغدو هذا المحيط أكبر بسبب ذلـك وليس أقل عجبـاً أنـه مع أن كثيراً من الأنهار تنبع من قاعه، وأن النجـوم تسحب شطراً كبيراً من مياهه، لأن الشمس والنجوم الأخـرى تتولى بقوتها النارية الحادة سحب كميـات عظيمة من المياه، وتصبها حـول جميع النجوم لتلطف الجزء الناري منهم، ومع ذلك إن هذه المياه التي تأخذها النجـوم من المحيط لاتنقصه، لأنه كما قلنا من قبل، يسترجع ثانيـة بقدر مـا يفقـده من هذه المياه التي تشربها النجـوم، وكيف حصل هذا وانتظم، الله وحده هو العليم بذلك، لأن العالم صنع يديه، وهو وحده يعلم جميع أجزائـه، ويتبع هذا البحر، دون سواه مسار القمر، ولهذا فإن الـدوامة التي تبتلع الميـاه والسفن، وتقذف بهم مجدداً، وهي تبتلع مياههـا ثم تقذفها بقـوة تيار أعظم، عندمـا يكون هناك قمر جـديد، ويطلق على هذه الدوامـة اسم المهواة العظيمـة، وهكذا نقـرأ في سفر التكويـن: ٧/ ١١ «انفجرت كل ينابيع الغمر العظيـم»، ويوجد في مقابل هذا أغـواراً عظيمة، وكهوفـاً مفتوحة وواسعـة، فيها تنشأ الرياح وتهب من خـلال تنفس الميـاه، ويمكن تشبيـه هذه الكهـوف والأغـوار بفتحتي أنف العالم، واسم التنفس في الكتابات المقـدسة، روح العاصفة، وتقـوم الرياح بتحـركها في داخل هذه الكهـوف المفتـوحـة بسوق ميـاه البحر نحـو المهاوي العميقـة، وترغمهم على الاندفـاع ثانية بقـوة أكثر، وبتيـار أشـد عنفـاً، وقـد نوقشت هذه المسـائل بتـوسع من قبل Vin-centius في كتـــاب «Speculum Naturae»، ومياه هذا البحر مالحة، مثل ميـاه البحار الأخرى، وهو ما سـوف نشرحه فيما بعد، وفيما يتعلق بحجم هذا المحيط واتسـاعـه لايمكن لشيء أن يقـارن به، ويبلغ عرضـه مقداراً عظيماً بحيث لايمكن عبوره، ولايوجـد خلفه بلاد، بل إن ذلك البحـر محاط فقط بغيــوم وبهواء كثيف يشكل حـدوده، وهناك

على كل حـال أرض تحتـه، فتبعـاً للنظام الطبيعي للخليقـة، كـان وجـه الأرض كلها ستغطيه الميـاه، غير أن الله برحمته اللامحدوده تفضل بإبقاء جـزء من الأرض جافـاً لسكنى البشر والحيـوانات، وذلك عندما قـال: «لتجتمع المياه تحت السماء إلى مكان واحـد ولتظهر اليـابسة» [التكوين: ١/ ٩]، وهذا الجزء القائم فوق الماء، هو الذي عني عندما قيل عن العالم نفسه بأنه «قد أقـامه فوق البحار» (المزامير: ٢١/ ٢)، وعليـه كانت المياه ستغمر الأرض، لـولا أن الأمواج قد صـدت بقوة الخالق، ولذلـك قال في المزمـــور: «أنت وضعت لها تخماً لاتتعـــداه، لاترجع لتغطي الأرض» [١٠٤/ ٩]، وقال أيضاً في أيوب [٣٨/ ٨]: «من حجـز البحر بمصاريع حين اندفـق فخـــرج»، وكل مـن يرغب أن يمتلك فهما واضحـــاً لهذه الأشياء، عليـه أن يقرأ شروح بولس أوف بـورغوس Burgos، على الـ Postilla لدي ليرا Lyra حـول مـا وقع في اليـــوم الثـالث من أعمال حيث قــرأنا: «لتجتمع الميـــاه تحت السماء إلى مكان واحـــد»، ومن هذا البحـر وإليه وفيـه تصب مياه البحـار الأخرى: البحـر المتوسط، وبحـر بنطش، والبحر الأحمر، وهي بذلك تشبه أغصان جذع واحد.

ويطلق على بحـر بنطش اسم البحر الأكبر، لا لأنه في الحقيقـة أوسع من بحـرنا، بل لأنه غير مقسم بوسـاطة أية جـزر، أو لأنه لاجـزر فيـه تقريبـاً، واسمه بحر بنطش، لأن جميع تلـك المياه التي فيه تتـدفق خلال قناة ضيقـــة، عبرها اكسرسيس بوســـاطة جسر (Pons) مصنوع من السفن، ولهذا السبب أطلـق على هذا المضيق اسم هيلـوسبـــونت -Hel lespont أو من الممكـن تسميتـــه ببحـــر بنطش، لأنـــه بدون جسر، ولايمكن عبوره بوساطة جسر، وكذلك من الممكن تسميته ببحر بنطش من كلمـــــة «نقطـة Point »، لأنه كما قيل هو مستدير مثل نقطة أو بقعة، وأيضاً من الممكن تسميتـه ببحر بنطش بسبب قصره، ويعرف هذا البحر بشكل عام باسم بنطش يوكسينوس Pontus Euxinus، وذلك

بسبب طباع سكانه، وذلك حسب رواية ايذيدور، لأنه تبعاً لبطليموس امتلك شعب يوكسين Euxine أسوأ طباع ممكن توقعها من الجانب الأخلاقي، ولهذا ما من أحد يمكنه التمازج معهم، ولقد كان أشبه بملجأ إليه يفر الناس من البلدان الأخرى بغرض اللجوء، وفضلاً عن هذا فان نهر اكسوس Euxes ، الذي ينبع من جبل القوقاز، يصب في هذا البحر، وبالتالي أعطاه اسمه، أو ربما نال النهر اسمه من البحر، ويوجد خلف بحر بنطش مستنقعات واسعة جداً، هي التي تتلقى مياه نهر تانيس Tanais، الذي يشكل الحدود فيما بين أوربا وآسيا، وهو ينبع من جبال ريفائين Rhiphaeon ، وبحر بنطش يوكسينوس هذا مياهه أقل ملوحة من مياه البحار الأخرى، وذلك بسبب عدد أنهار المياه العذبة التي تصب به، وفي الحقيقة نجد أن نهرنا الدانوب، الذي ترفده مياه ستة أنهار كبيرة، يصب لمدة سبعة أشهر في بحر يوكسين.

والبحر الكبير هو الذي نسميه «بحرنا»، و«البحر المتوسط»، ومقصدي الحديث عن هذا البحر أكثر من الحديث عن سواه، ومن حيث البداية أطلق عليه اسم «البحر الكبير»، لأنه بالمقارنة معه نجد البحار الأخرى والبحيرات أصغر منه، وثانيا، أطلق عليه اسم «بحرنا» لأنه معروف من قبلنا، وقريب منا، ويستخدم من قبلنا، وثالثا، أطلق عليه اسم «المتوسط» لأنه قائم في وسط الأرض، فمن الغرب حتى الشرق، نراه قائماً بين الأجزاء الرئيسية للعالم، أي بين أوربا، وآسيا، وأفريقيا، ويفصل فيما بينهن ويرسم الحدود فيما بين كل واحدة منهن بنفسه وبفروعه، ففي الغرب والشمال منه هناك أوربا، وفي شرقيه آسيا، وعلى جنوبه أفريقيا، ولهذا فإن الحاج الذي يذهب إلى القديسة كاترين، سوف يلامس البحر عند كل واحد من هذه الأجزاء الثلاثة للعالم، ذلك أنه يبدأ رحلته من أوربا، ويصل عبر كريت ورودس وقبرص إلى آسيا، وعندما يصل إلى الاسكندرية في مصر سوف يكون في أفريقيا، لأن نهر

النيل يفصل فيما بين آسيا وأفـريقيا، وهناك على الجانب الأفـريقي توجد الاسكندرية، ويتصل بحرنا بالبحرين المتقدمي الذكر، ومياه بحر بنطش والبحر المتوسط هي نفسها، وتتدفق هذه المياه — كما نرى — من مملكة إسبـانيا وتمر بغـاليـا، وإيطاليـا، وصقلية، وكـريت وصـولاً حتى مصر، ويطلق بشكل صحيح على الفرع الذي يصل المحيط قـرب اسبانيا، اسم مضيق المغــرب، فهـو يفصـل فيما بين مملكة المغـرب — الموجـودة في أفـريقيـا — وإسبـانيـا، وفيما بين هاتين المنطقتين يتلقى البحـر المتـوسط ميـاهه من المحيـط من خـلال المضيق المتقـدم الذكـر، الذي لايتجـاوز عـرضه ربع ميل، ذلـك أن النساء الغسـالات في اسبـانيا قـد يقفن على أحد الشواطىء، وتقف في مقابلتهن النساء الكافرات في المغرب، وتشتم كُل فئة منهن الفئة الأخرى، وهناك تنفصل أفريقيا عن أوربا.

ويصلها ذراعها الآخر الذي اسمه الهيلوسبونت — أو ذراع القديس جرجس — ببحر بنطش، ويفصل هذا الذراع أوربا عن آسيا الصغرى، التي يطلق عليهـا الآن اسم تركيا، لأن الأتراك قـد استولوا على المنطقـة كلها، وفي الدارجـة يطلق على هذا الذراع اسم خليج القسطنطينية، لأن مدينة القسطنطينيـة قائمة على شاطئه الأوربي، ويقـال بأن مدينة طروادة القديمـة والقوية، قـد قامت عند المكان الذي يبـدأ فيه هذا الذراع بترك البحـر المتوسط، وذلك على سـاحل آسيا الصغـرى، ولم يتبرهن — على كل حال — بتأكيـد كامل بأن مدينة طروادة قـد قامت هناك، وعلى كل حـال إن تسمية بحـرنا بالبحر المتـوسط، تسمية صحيحـة، لأنه واقع في وسط البـلاد، ويحتل المكان الوسط فيما بين البحرين الآخـرين، وتصب جميع الأنهار المعـروفة من قبلنا في هذه البحـور الثلاثة، فنهـرنا الدانوب يحمل نفسه ويتجه نحو الشرق ليصب في بحر بنطش، الذي عرف أيضاً باسم يـوكسين، وجميع الأنهار التي تنبع من جبـــال الرايتك Raetic ، فنهـر الرايـن ينبع من جبـال يوكسين، ثم يجري بـاتجاه الغـرب، ويحمل

عدداً لايحصى معه من الأنهار إلى البحـر المحيط، ونهر الرون الذي نبعه قـريب من نبـع الراين، يجري باتجاه الجنوب، ويحمـل معـه المتبقي من الأنهار إلى البحر التيراني Tyrrhenian ، وكذلك أنهار الأدجي، وبرنتا، فهي تنبع من جبال الألب، وتصب في البحر المتوسط.

وهناك بحـار أخـرى معروفـة بشكل جيـد بالنسبـة إلينا من خـلال الكتابات المقدسة، وهي مرتبطة بواحـد من البحار المتقدمة الذكر، بأقنية نحن لانستطيع رؤيتهـا، أو كما هو معتقـد بوسـاطة أنهار تحت الأرض: من ذلك على سبيـل المثـال، يوجـد في الشرق بحـر الخزر، الذي هو منعـزل، وليس له اتصال ظاهر مـع أي من البحار الأخـرى، ومع ذلك قـد قيل بأنه يتـدفـق بشكل سري من تحت الأرض ويصب في بحـر بنطش، فضـلاً عن هذا لقد قيل بأن بحـر الجليل، والبحر الميت يصبـان بوساطة قناة خفية في البحر الأحمر، الذي يتلقى المياه من المحيط، وهناك لسان من المحيط حيث حدود كل من بلاد فـارس وشبه جزيرة العرب، ومنه يبحر الناس إلى الهند، فهـذا ما حكاه جيروم في رسالته إلى فـابيولا Fabiola .

فضلاً عن هذا، ينبغي أن نعرف أن البحـر المتوسط هذا، مع أنه بحر واحد، له مع ذلك أسماء مختلفة تبعاً للبلدان المتنوعة التي تشاطئه، وهذا مثل الأرض، مع أنها واحـدة، لها أسماء متنوعـة، فهـو يستعير أحيـاناً أسماءه من البلـدان، من ذلك على سبيـل المثـال، إنه يسمى البحـر الآسيوي، والبحـر الشامي، والبحـر الايبيري، وينال الأسماء أحياناً من الجزر، فيسمى البحر البيلياركي Balearic والبحر الصقلي، والبحر الكريتي، أو البحـر القبرصي، وأحياناً من قنن الجبـال مثل البحر الايجي أو البحـر المالي Malean وأحيـاناً من أسماء الشعـوب، مثل البحـر الألماني، والبحر الغـالي، والبحر الايطالي، والبحـر الدلماشي، وأحياناً من المدن المجـاورة، مثل البحـر الأدرياتيكي، والبحـر التيراني، والبحـر

اليـافاوي، والبحـر الاسكندراني، أو البحـر البندقي، وبناء عليه عندمـا تقـرأ في جولاتي عن بحـار مختلفـة، ينبغي أن تعرف أن المعني هو بحـر واحد، لكن له أسماء مختلفة.

وهذا البحـر مثله مثل المحيط والبحـار التي تصدر عنه، يحتـوي على ميـاه مـالحة، ومرة، وغير سـائغـة وغير صحيـة، وهي بشكل عـام غير صالحة للشرب، وملفـوظة أكثر من البـول، من قبل الانسـان والحيوان، وسبب هذه الملوحة هو سر عظيم غامض، وذلك استناداً — فيما أعرفه — إلى أن الفلاسفة القـدماء بذلوا جهوداً كبيرة وشاقـة في سبيل معرفة سبب ذلك، ويبدو أنهم أخطأوا وابتعـدوا كثيراً عن الحقيقة في تحديدهم لأسبـاب ذلك، وذلك مثلما أخطأوا في مسألة النيل، ومكان ينابيعـه،كما سنرى في الصفحـة ١١٩ من القسم الثـاني، وقد وقعـوا بحماقـات أكبر عندما بحثـوا في أسباب ملوحة البحر، ذلك أن علماء الأصـول القدماء جـداً لم يتمكنوا مـن الارتقـاء فـوق الأفكار الحسيـة، حيث ذكـروا في أسطورة مخترعة أن الكائن الأول الذي هـو أبو الأشياء كلها، قـد انتزع كتلة نارية كبيرة من جبل Acroceraunus وبعـدمـا ضغطهـا مع بعضها وصنع منهـا كرة صلبة، أسقطها ست مـرات في المحيط، ونتيجة لذلك الانغمار، بدأت الميـاه كلهـا بالغليان، وصـارت حـارة، ولولا أنه سحب تلك الكرة مباشرة وأخرجها، لصارت مجموعة المياه الهائلة كلها، وتحولت إلى ملح يابس، وبما أنه رغب ببقـاء البحـر بقيت الميـاه ميـاهاً، لكن مالحة.

فضلاً عن هذا نجـد لدى أرسطو في كتابه الثاني حول الأنواء نقـاشاً حول أسباب ملوحة البحر، وبالاضافة إلى ما قاله أرسطو نفسه، أوضح بعضهم، أنه عندما تصير الأرض دافئة بوسـاطة الشمس تتعرق وتصدر ما فيها من رطوبة، وبناء عليه تشكل البحر باجتماع هذا التعرق، وبما أن العرق مـالح، كذلـك صار البحر مـالحاً، ذلك أن عرق الأرض مـالح،

وبناء عليه يقول هؤلاء الناس بأن البحر ليس إلاّ مجرد العرق الذي يتدفق دوماً من على سطح الأرض، ويقول بعضهم بها أن البحر قائم فوق الاقليم الحار للأرض، صار سميكاً بسبب حرارته، وذلك مثلما تصير المياه مالحة من خلال الحرارة، وكذلك يقول آخرون، بأن بعض أجزاء الأرض مالحة، وعندما امتزج البحر معها صار مالحاً بسبب هذه الأرض، وذلك على سبيل المثال مثل المياه التي تجري تصفيتها من خلال الرماد تصبح مالحة، ويقول آخرون بأن الملوحة تنتج من خلال امتزاج التبخر الدافىء مع جزئيات الماء، لأن العرق والبول يتفاعلان فوق النار، ويصبحان ملحاً، ويقول آخرون بأن مياه البحر قد جفت بفعل حرارة الشمس، لأن الشمس تجفف وتشرب كل شيء، وهكذا يتداخل الطعم المالح وينتشر في البحر،لأنه مفتوح بشكل واسع لتلقي حرارته، وهكذا فإن المياه بعدما تغلي بحرارة الشمس والنجوم، تصبح مالحة، والانسان الذي يشرب خمرة حلوة وماء عذباً يخرج منه بول مالح، بسبب أن الحرارة تنتج ملوحة، ويقول آخرون بأن الشمس تمتص جميع الحلاوات والجزيئات الرقيقة، التي من السهل جذبها بوساطة قوة النار، وبذلك فإن الجزيئات الخشنة والأسمك تبقى متخلفة، ولهذا فإن وجه البحر حلو كثيراً، وقعره عظيم المرارة، والآن إن القمر يتغذى بالمياه العذبة لكن الشمس تتغذى بالمياه المالحة، والمياه المالحة لاتتجمد بسرعة مثل المياه العذبة، لكنها تصبح حارة بشكل أسرع، ولهذا فإن الحلاوة والملوحة قد امتزجتا في البحر، ويمكن البرهنة على ذلك فيمايلي: إذا ما جرى صنع وعاء من الشمع، وأغلق من جميع الجهات، بحيث لايمكن للمياه أن تدخل إليه، ثم جرى وضع هذا الوعاء في البحر، عندها تأخذ مياه البحر بالتسرب إليه من جميع الجوانب، ووقتها يصبح مافي داخله عذباً وسائغاً للشرب، وجميع الجزيئات المالحة سوف تزول منه، وكأن ذلك حدث بوساطة مصفاة، فضلاً عن هذا إذا ما حفر إنسان حفرة على الشاطىء قرب البحر، فإن الماء الذي يتسرب إليها من البحر،

يصبح عذباً بسبب مروره من خلال الرمال، وسائغاً للشرب.

ويعزو آخرون ملوحة البحر إلى سبب لاهوتي: ولهذا إنه لائق أكثر أن نقول بأن البحر قد خلق مالحاً من قبل الرب، وأنه مثلما كل عنصر من العناصر الأخرى له طبيعته الخاصة، كذلك ملوحة البحر لها طبيعتها الخاصة، لأنها مالم تكن ممزوجة بالملح، لصارت آسنة مثل بقية أنواع المياه الراكدة النتنة، وبعض البحيرات القذرة: ولهذا السبب قُضي من قبل الرب بقاء البحر بحركة دائمة، فبتلك الحركة يمكن لعناصره البقاء بدون فساد، لأنه بوساطة الحركة الدائمة يتصفى ويحفظ من الفساد، ولقد قضي من قبل الحكمة الإلهية بهذه الملوحة من أجل أن تتمكن السفن من الابحار فوق مياه البحر بسهولة أكبر، لأن الماء المالح أغلظ وأكثر وزناً من الماء العذب، لأن الماء العذب مصفى ومنقى، وبناء عليه فإن الماء المالح أفضل لحمل السفن، ذلك أن السفن التي لايمكن أن تغرق في المياه المالحة تغرق في الغالب في المياه العذبة، وهذا يمكن البرهنة عليه، بسبب أن البيضة تغرق بالماء العذب، لكنها تطوف في الماء المالح، فضلاً عن هذا، إن في ملوحة البحر خدمات عظيمة لصحة الانسان، لأنه لو كانت مياه البحر قابلة للشرب، لايمكن للناس عبوره أحياء إلاّ بصعوبة بالغة، لأنه من خلال حرارة الشمس، والتعب في البحر، تجد البحارة دوماً على درجة عالية من العطش، ولوكانت لديهم مياه عذبة للشرب بقدر ما يريدون، فإنهم يدمرون أنفسهم، ولذلك إنه مفيد من أجل الحفاظ على حياة الذين يبحرون فوق سطح البحر، أن تكون مياه البحر مالحة.

ومياه البحر غليظة وممجوجة، ولهذا عندما تنضح من البحر، وتُصب فوق صخور، تتغطى هذه الصخور على الفور بالملح بسبب حرارة الشمس، ومن طبيعة ملوحة البحر هذه اشتق اسمه، وصار يدعى باسم البحر (Mare) ، وذلك بسبب مرارته (Amaritudo) ، وقد ورد ذكر

هذا البحر في سفر عاموس:٥/٨، «اطلبه ... الذي يدعو مياه البحر ويصبها على وجه الأرض، الرب هو اسمه»، وقد علق جيروم (الكتاب السادس ص٣) كمايلي:« يدعو الرب مياه البحر، عندما يرفعها نحو الأعلى، كما هي مالحة، لكن من خلال حرارة الهواء وبوساطة ذلك تتصفى وتصبح نقية وعذبة من خلال مياه المطر»، وبالنسبة لملوحة البحر انظر «Speculum Naturae »— الكتاب السادس، الفصل التاسع، وتمتلك مياه البحر سمات متباينة، قامت وتكونت وفق مايلي: بما أن الأرض فيها تجاويف، وبما أن الماء سائل، فإنه يجري نحو الأسفل، ويمر خلال مجار للمياه، حيث يتصفى ويصبح أكثر رقة، ومن ثم يمتلك سمات متباينة من خلال طبيعة الأرض، لأنه يمر من خلال أرض رملية وأخرى صخرية، فيحصل من هناك على طعم العذوبة، ويصبح نقياً، ومتماسكا وباردا، وإذا ما مرت المياه من خلال أرض ملحية، أو من خلال أرض موحلة، تصبح ذات طعم مقيت، وإذا ما مرت من خلال أماكن كبريتية، أو كلسية، أو نحاسية، تصبح مرة، وإذا ما مرت من بؤر مليئة بالشب والكبريت، تكسب عناصر منهما، فتصبح حارة وذات روائح كريهة، وعلى هذا تملك سمات متباينة تبعاً لتباين أنواع الأرض، التي تنبع منها، كما أن ألوانها تتغير تبعا لتباين أنواع الرياح، فتجدها في وقت من الأوقات صفراء، وفي وقت آخر بيضاء، ثم في وقت بعد ذلك سوداء، وساعة موحلة، وساعة أخرى داكنة، وساعة صافية، ومرة أخرى سميكة غير صافية، وأحياناً لونها ذهبي، وفي حين آخر لونها مائل إلى الاحمرار، فأي لون من الممكن رؤيته في السماء يمكن رؤيته في البحر أيضاً، وعلى كل حال تبدو بعض المياه للذي ينظر إلى نوعين من المياه مع بعضهما ويقارن بينهما أنهما في الغالب مختلفين، وفي كثير من الأحيان قد تبدو السماء صاحية ومشرقة ومع هذا يبدو منظر المياه أسود مثل الفحم، ويحدث هذا لأن المياه تأخذ لونها أحيانا من الرياح الهابة، وأحيانا من أشعة قبة السماء.

المخاطر المتنوعة التي تواجه الذين يرتحلون بوساطة البحر

تخضع الرحلة بوساطة البحر إلى كثير من المصاعب، والبحر نفسه عظيم الإيذاء إلى الذين لم يعتادوا عليه، وهو خطير جدا في كثير من الجوانب، من ذلك إنه يلقي الرعب في النفس، ويسبب الصداع، ويثير الغثيان وعدم استقرار المعدة والدوار ويدمر القابلية للطعام والشراب، ويعمل بشكل مرهق على جسد الإنسان، ويثير الانفعالات، وينتج كثيرا من الشرور الغريبة، وهو يسبب كثيرا من المخاوف القاتلة، وغالبا مايقود الناس إلى حالات موت مرعبة، وأعظم مخاطره ارعابا هي أن العاقل يكون أكثر الناس خوفا منه، في حين ينظر الأحمق إليه نظرة استخفاف، وبناء عليه عندما كان الفيلسوف العظيم أرسطيبوز Aris-tippus في عاصفة في البحر، يعاني من الدوار، وغثيان في المعدة، وأثقل بالصداع، بات خائفا من أجل حياته، وعندما عاد الهدوء، ورجعت الأمور طيبة كما كانت من قبل، جاء انسان ثرثار، وقال للفيلسوف:« ماهو السبب في أننا نحن الأناس العاديون شجعان، وأنتم الفلاسفة مرعوبون»؟ فأجابه:«لأننا لانمتلك نوع الحياة نفسها حتى نعتني بها، وسيكون أمرا استثنائيا بالنسبة لك أن تهتم أو تعتني بحياة واحد بلاشعور أو اهتمام مثلك، لكن عندما أكون أنا في خطر، تجدني محقا حين أخاف على الفيلسوف من الموت، لأن الرجل الغني يخاف من اللصوص أكثر من المعدم، ذلك أنني أحمل في ذاتي روحا مليئة بالفضائل، ولهذا إنه مسوغ بالنسبة لي في أن أخاف من أكثر اللصوص براعة، ومن أعظم قطاع الطرق والسارقين خطورة ووحشية، وهو البحر».

ولايمكن البرهنة على هذه المخاطر البحرية المتقدمة الذكر من قبل انسان عرفها من خلال القراءة في الكتب، أو من خلال الاصغاء إلى الرحالة، مثلما يفعل ذلك انسان عرفها من خلال المشاعر التي كسبها

بخبرته، وانظر في الالهيات، الاصحاح:٣/ ٥/ ٢٦(٢٤) قوله:« الذين يبحرون على ظهر البحر يتحدثون عن المخاطر فيه، وعندما نسمع ذلك بآذاننا يتولانا العجب نحو ذلك»، وكقاعدة يعاني الذين يعبرون البحر من مخاطر، سببها إما البحر، أو الرياح، أو السفينة، وهناك على كل حال مخاطر خاصة لايمكن تعدادها، تتأتى اما من وضع الإنسان الخاص، أو من رفقة السوء، أو من الحاجة إلى الشراب، أو من رجال القيادة السيئين، أو من الحرارة الزائدة جدا، أو من البرد القارص، أو من سوء التجهيزات وما شابه ذلك، وفي الحقيقة هناك مخاطر لو أردت ذكرها جميعا، وحاولت ذلك، لأعوزتني الكلمات ولعجزت عن ذلك نحوها جميعا، ولهذا سوف أتحدث بعض الشيء حول المخاطر العامة للبحر، أما المخاطر الخاصة فسوف أتحدث عنها خلال مجرى حديثي، وقد وصفت بعض هذه المخاطر إلى حد ما في الرواية التي قدمتها عن حجي الأول.

ويصدر الخطر الأول الذي يقع فيه البحارة عن البحر، لأن البحر إذا كان غليظا مليئا بالصخور والنتوءات، كما هو الحال بين الجزر التي اسمها سيكلاد Cyclades وفي بحر أثينا، وخارج ساحل إيليريا -Il lyria ودلماشيا، فهو في مثل هذه الحال لايمكن عبوره من دون رعب، ففي تلك الأجزاء من غير الممكن الإبحار في الليل بسبب الصخور والرؤوس والنتوءات، وخاف من هذا الخطر البحارة الذين حملوا القديس بولص، وذلك حسبما نقرأ في أعمال الرسل:٢٧/ ٢٩، وغالبا ما وجدت أنا شخصيا في هذا الخطر، أو ثانية إذا كان قعر البحر ليس مستوياً، بل هو مرتفع في أحد الأماكن بأكوام من الرمل، أو هو عميق جداً مثل الهاوية في مكان آخر، أوهو في جميع الأحوال غير مستوي، فيه حفر عميقة ووديان، ففي مثل هذه الأماكن من الصعب بالنسبة للسفن العبور، لأنه مع أن البحر يبدو مستوياً في كل مكان (حيث يسمى في بعض الأحيان باللاتينية aequos) عندما تصل السفينة إلى مكان غير

مستـو، تتوقف قليـلاً، ومالم تكن هناك ريح لتـدفعها كي تتـابع سيرها، سيكون من الصعـب تحريكهـا ونقلهـا من هناك، وقـد تعلمت هذا بالتجربة والخبرة كما وضح في ص١١٦.

وثانيـا: إنهم يعـانون من رعب الريح، ذلك أن أي ريح لطيفـة تحول البحـر إلى بحـر غير هادىء، وعـاصـف، وقـاس، يفـور ويمـور، ولهذا السبب، غالبا مـاأطلق على البحر اسم Fretuem باللاتينية، وخطير أن يقلع الإنسان في بحر عاصف، وغـائم، ورطب، ومظلم الأنواء، خاصة عندمـا توضع السفينة في خطـر، والخطر (لا) يمكن رؤيتـه، والذي هو أكثر ارعـابا وخطرا هو الريح العنيفة جـدا، ولاسيما عندما تكون الرياح مضـادة، وتهب بشكل مفاجىء، فعندهـا يصبح جنوح السفينة وغرقهـا مرعب حقا، وهذا الخطر عام، ووقعت فيه شخصيا مرارا.

وينشأ الخطر الثالث عن ضعـف السفينة نفسها، وعدم كفـايتها، لأنه ليس من الأمان أن يعهد الإنسـان بنفسه إلى سفينة صغيرة جدا، أو هي ضعيفة، أو محطمة أو قـديمة، لأن مثل هذا النوع من المراكب ليس أميناً أثناء حـركة العـاصفـة، لأنها أمـا أن يتم قهرها بـالأمواج بسبب صغـر حجمهـا، فتنقلـب، أو أنها تتحطم بسبب ضعفهـا، ويكون ذلـك بقـوة الرياح والأمواج، وفي بعض الأحيـان يحدث من خلال الحاجة إلى قـائد بارع أن المركـب يستهلك وقتـا أكثـر مما ينبغي حتى يصـل إلى المرفأ المنشود، وعلى هذا من الممكن إضافة عامل رعب رابع عام إلى اللائحة، وهو الرعب الـذي ينشأ عن جهل، أو كسل، أو إهمال، أو نوم قبـاطنة السفن، وهذا أيضا قد جربته.

وإنه لمرعب رؤية المخـاطر وأنت هناك تنتقل من الغليـون إلى قـارب صغير وقت هبـوبها، أو وقـد انتقلـت من الغليـون إلى قـارب صغير، ووقتهـا على الإنسـان أن يعمل خطـوة واحـدة أو أن يقفـز قفـزة، وإذا حـدث ولم تصل قـدم الإنسـان إلى الغليـون أو القـارب، فـلابد من أن

يسقط في البحر، ويهلك دون أمل بالحصول على عون، انظر ص٢٨١ .

زد على هذا هناك خطر آخر، لايخطر على بال غير المجرب أبدا، كما أنه غير موجود في كتب الكتّاب الذين تحدثوا عن مخاطر البحر، وهذا الخطر مزعج جدا، مع أنه لايسبب الرعب، فعندما تكون الرياح جميعها هادئة، والبحر صامت ساكن، والهدوء موجود في كل مكان، أصرح قائلاً: الحقيقة أن هذا النوع من هدوء البحر وسكون الريح هو أكثر ازعاجاً للمسافرين في البحر من المخاوف المتقدمة الذكر، وذلك باستثناء غرق السفينة الفعلي، لأنه عندما لاتهب الرياح، ويكون البحر بلاحركة، والسفينة واقفة ثابتة في مكانها، وقتها يكون كل شيء على ظهر السفينة قد صار عفنا، ونتناً، ومتجمدا، وتبدأ المياه بالتحول إلى آسنة، وتغدو الخمرة غير قابلة للشرب، وتصبح اللحوم، حتى وان كانت جافة ومدخنة، مليئة بالدود، التي تغدو كلها حية بشكل مفاجيء، ويصير هناك أعداد لاتحصى من الذباب، والبعوض، والقمل، والبراغيث، والديدان، والفئران، والجرادين، فضلا عن هذا يصير الناس جميعا على ظهر السفينة كسالى، نائمين، ومنزعجين من الحرارة، ويشعرون بالنكد من المعاناة الشريرة بالمينالوخيا، والغضب، والاثارة والاضطراب مع الآخرين كمن فقد السيطرة على نفسه، ولقد رأيت قليلاً من الناس يموتون على ظهر السفينة أثناء العواصف، غير أنني رأيت عدداً أكبر يمرضون ويموتون في أوقات السكون المتقدمة الذكر، وهذا كله سوف يرد ذكره في سياق قصتي.

وهناك مخاوف في البحر تعرف باسم الانحلال من عنف الأمواج، أو باسم Syrtis أو Charybdis، والانحلال يكون عندما يندفع بحران مع بعضهما، فذلك الاندفاع يعرض السفينة للخطر، و Syrtis هو اسم مكان توجد فيه أكوام من الرمال، وحيث يكون قاع البحر غير مستو، فبذلك يكون الماء في مكان عميقاً، ومجاوراً لما هو غير عميق، أو تتوفر

هناك بعض الصخـــور الخفيـــة التي من الممكن أن تـرتطم السفينة بها، وكانت Charybdis تبعاً لحكايات الشعـراء امرأة عجـوزا جشعة، ولأنها سرقت ثور هرقل رماها جوف Jove بصاعقة، وألقى بها في البحـر، وهي حتى هذا اليـوم تطوف خلسـة حـول قاع البحـر جـاهدة لسحب السفن العابرة إليها نحـو الأسفل، حتى يمكنها سرقتها، حسبما اعتادت فيما مضى، ولهذا السبب فإن الأماكـن التي غرقت فيها السفن، وحيث هناك متـاهات أعماق خفيـة، مثل الأمـاكن الموجـودة بين جـزر غوزابولس Gozapolis، التي ورد ذكرها في ص١١٤، قد أطلق عليها اسم Charybdises، ويدعـى الخطر نفســه بـاسم Charybdis ، نسبـة إلى المرأة القـديمـة Charybdis، التي يعتقـد القـدمـــــاء بأنها أغرقت سفناً في أماكن مثل هذه.

وهناك مصـدر رعب آخـر، يسميـه بعضهم خليج، وهو مـايواجهـه البحارة عندمـا تهب الرياح مندفعة من كهوف وسط الجبـال بقوة ترمي بالسفن وتقلبهـا على جنبها، وهناك مصـدر رعب آخر اسمـه Grupp، وهذا يحدث عندمـا تحارب الرياح بعضهـا ضـد بعض، وتتلقى السفينة فيما بينهم الضربات من الجهات المتعاكسة، وهناك خطر آخر من الممكن مـواجهته، يطلق عليـه اسم Troyp اشتقـاقـاً من اسم سمكة Troys، التي عندمـا تعـرف بوجـود سفينة، تنطلق نحـوها من الأعماق، وتخرق السفينة بأنيـابها، لأن لها أنيـاب مثل مثقب النجار بشكلهـا، ومـالم تطرد ويتم ابعادها، يمكنهـا خرقها، والنفـاذ فيها، ومن غير الممكن طرد هذه السمكة وإبعادها عن السفينة إلا بوسـاطة نظرة انسان لاتعرف الخوف، وبناء على ذلك على الانســان الانحناء من فـوق السفينة والنظـر بعـدم خوف في عيني السمكة، حيث تنظر السمكـة إليه في الوقت ذاته وتحدق به بشكل مرعب، وإذا ما ظهـرت ملامح الخوف على الرجل الذي ينظر إلى السمكة وبدأ يشيـح بناظريه، تقفـز السمكـة على الفـور، وتلتقطه

مباشرة، وتأخذه إلى تحت الماء وتلتهمه، وليكن في هذا كفاية حول المخاوف في البحر.

حول السفينة التي عبر الحجاج البحر بها، والتي اسمها غليون، وكم كان حجمها كبيراً، ومن أي الأنواع هي

يمتلك البحر أنواعاً من السفن مختلفة، منها ماهو كبير الحجم، ومنها ماهو متوسط الحجم، ومنها ماهو صغير، وفي البداية لم تكن هناك سوى السفن الصغيرة في البحر، واستمر ذلك حتى أيام ياسون Jason الذي بنى له أرغوس Argus سفينة كبيرة، حيث أبحر هو ورفاقه الأرغونيون Argonauts إلى كولخيس Colchis ، وبنى بعد ذلك أمينودس Aminodes سفناً ذوات ثلاثة مجاذيف من أجل أن يستخدمها الكورنثيون ضد كورسيرا Corcyra، ويحكى أن أول من اخترع السفن هو أثلس Athlas في ليبيا، وهو الذي أبحر في البحر.

وأنوي — على كل حال — أن اتحدث هنا عن نوع السفن التي اعتاد الحجاج على عبور البحر بها إلى الأرض المقدسة، وهو النوع الذي اسمه غليون، وهو اسم أطلق على هذا النوع من المراكب حتى في كتب الشريعة من الكتابات المقدسة، كما أنه موجود في روايات اليهود والمسلمين، والغليون هو نوع من المراكب المتوسطة الحجم العاملة في البحر، وهو ليس النوع الأكبر، وبالوقت نفسه ليس النوع الأصغر، واسم هذا المركب باللاتينية Bireme أو Trireme، وأطلق ايزودورس في كتابه التاسع عشر حول أصول الكلمات Etymologies على هذه السفينة اسم درمون Dorma ، وعلى كل حال أطلق عامة الناس سواء من الألمان أو الطليان عليها اسم غليون، ومنحت هذه السفينة هذا الاسم لأن مقدمتها لها شكل الخوذة (gALEA)، وذلك عندما ينظر إليها من الأمام، ولأنها تواجه الأمواج مثل رجل مسلح، والغليون هو مركب مستطيل الشكل يتحرك بكل من المجاذيف

والأشرعة، والغلايين متشابهة، أو شبه متشابهة بالشكل، غير أنها تختلف من حيث الحجم، لأن بعض الغلايين كبيرة، ويطلق عليها اسم Tri-remes، وبعضها صغير اسمه Biremes كما أن هناك فوارق أكبر، ذلك أن بعض الغلايين هي سفن حرب، وبعضها الآخر سفن حمولة، وذهبت في حجي الأول عبر البحر في Bireme ، وفي حجي الثاني في Trireme، والـ Bireme هي سفينة تتحرك بواسطة زوجين وزوجين من المجاذيف، ولكن الـ Trireme هي السفينة التي تتحرك بوساطة ثلاثة وثلاثة من المجاذيف، وبالقدر نفسه المحتاج من المجذفين، ويمتلك الغليون الذي عبرت على ظهره في المرة الثانية، ستين مقعداً متصالباً، حيث جلس على كل مقعد ثلاثة من المجذفين مع مجاذيفهم، ولو أن هذا الغليون كان مجهزاً على أن يكون حربياً، يكون فيه أحد الرماة مع قوسة فوق كل مقعد، وذلك مع المجذفين.

وكان طول الغليون ثلاثة وثلاثين ذراعاً، على أساس أن الذراع يساوي مقدار امتداد ذراعي أحد الرجال، وهذا الطول هو مقياس مابين المقدمة والمؤخرة، وعرض الغليون هو سبعة أذرع، وهو المقياس عبر السفينة حيث توجد السارية، هذا وإذا ماأردنا قياس العرض كله، بإزاحة المجاذيف ووضعهم جانباً على كلا الجانبين، فوقتها يكون هذا العرض ثلاثة عشر ذراعاً، أما بالنسبة للارتفاع فإذا قسناه من البئر إلى القبة الموجودة فوق السارية، في القمة المستديرة، فإنه يساوي أكثر من ثمانية عشر ذراعاً.

هذا وإن الغلايين ذات الحجم الواحد متشابهة كثيراً من جميع الجوانب، إلى حد أن انساناً إذا ماانتقل من غليونه إلى ظهر غليون آخر، سيكون من الصعب كثيراً عليه أن يلاحظ أنه صار على ظهر غليون آخر، باستثناء تمييز القباطنة والملاحين الموجودين فوق الغليون، لأنهم مختلفون عن أولئك في غليونه، ذلك أن الغلايين العائدة للبنادقة يشبه

أحدها الآخر مثل تشابه أعشـاش السنونو، وقد بنيت هذه الغلايين من أمتن الأخشاب، التي ربطت مع بعضها بعـدد كبير من المسامير الملولبة، والسـلاسل، والحديد، والجزء الأول والمتقدم مـن الغليون، الذي اسمـه القيـدوم، هو حـاد حيث يواجـه البحر، ولـه منقار قـوي، صنع شبيهـا برأس التنين إلى حد ما، ذلك أن له فم مفتوح، وكله مصنوع من الحديد، وبه من الممكن ضرب أي سفينة قد يواجهها، ويوجد على جانبي المنقار فتحتين، في خـلالهما يمكن لانسـان أن يضـع رأسـه، فمنهما تمر حبـال المراسي، ومن خلالهما يمكن سحب المراسي ورفعها، ولايمكن للبحر أن يمر من خلال هاتين الفتحتين إلاّ أثناء العواصف العظيمة، ويمتد منقار القيـدوم عـاليـاً، ومنه يبدأ جـوف السفينة بالامتـداد والاستـدارة أمـام البحر، وللقيدوم شراع خاص به اسمه dalum وعليه يطلق بشكل عام اسـم trinketum ، ويوجد تحته حجرة صغيرة، فيها يجري خزن الحبال والأشرعـة، وفيها ينام قبطان القيدوم، الذي له مـلاحين خاصين به، وهو يسكن هناك وليس في أي مكان آخـر، ويقـوم ملاحـوه بأعمال ووظائف ذلك الجزء من السفينـة، وهذا الجزء أيضـاً هو مكان الفقـراء التعسـاء الذيـن يلتقطهم عبيـد القيـدوم، ومعلق على جـانبي القيـدوم مرساتين حديديتين عظيمتين، تلقيان نحو قاع البحر في الوقت المناسب، والمؤخرة الموجودة في النهاية القصوى الأخرى للغليون، ليست حادة في المكان الذي تواجـه به البحـر، أي ليست مثل القيـدوم، كما أنه ليس لها منقار، بل هي عريضـة، وهي تنحني من الأعلى نحو الأسفل حتى الماء، وهي أعلى بكثير من القيـدوم، ويوجـد فـوقهـا بناء يطلقـون عليـه اسم القلعـة، ومعلق منهـا هناك نحـو البحر الدفـة، أو عمـود الدفـة، حيث يوجد فوقها حجرة شبكية، هي للموجه الذي يمسك بيديه ذراع الدفة، وتتألف القلعـة من ثلاثـة طوابق، يجلس في الأول منهـا الموجـه للدفـة، والمسـؤول عن البـوصلة، وهو الذي يخبر الموجـه للدفـة عن مـؤشرات البوصلة، وهناك أيضـاً الذين يتولون مراقبـة النجوم والرياح، ويشيرون

إلى الطريق عبر البحر، والطابق الوسط هو الذي فيه قمرة صاحب السفينة وقبطانها، ومعه رفاقه النبلاء، وخدم المائدة، والطابق المنخفض هو المكان الذي تقيم فيه السيدات النبيلات في الليل، وفيه يضع القبطان أمواله وثروته، ولاتتلقى هذه الحجرة النور إلاّ من خلال فتحة باب جانبي موجود في السطح فوقه، ويجري على طرفي المؤخرة تعليق القاربين، اللذين أحدهما كبير، وثانيهما صغير، ويجري انزالهما في الموانيء إلى سطح البحر، لاستخدامها في انزال الناس إلى اليابسة، ويوجد على الجهة اليمنى السلالم، التي تستخدم للنزول عليها إلى القاربين عندما يكونا على سطح البحر، أو يتم الصعود عليهم إلى ظهر المركب، وللمؤخرة شراعها الخاص، وهو أكبر من شراع القيدوم، وهم يطلقون عليه اسم Mezavala أي الشراع الأوسط، واسم هذا الشراع باللاتينية epidromus ، ويرفع العلم دوما على المؤخرة، لإظهار الاتجاهات التي تهب فيها الريح، وهناك مقعدين خلف البيت على المؤخرة، وذلك على الجهة اليمنى، فهناك مكان المطبخ، وهو غير مغطى، ويوجد تحت المطبخ مخزن الأطعمة، ويوجد أيضاً إلى جانب المطبخ الاصطبل المعمول من أجل حيوانات الذبح، وعليه يوجد فيه أغنام، وماعز، وعجول، وثيران، وأبقار، وخنازير كلها واقفة مع بعضها، وبعيد ذلك، يوجد على الجانب نفسه مقاعد متصالبة عليها مجاذيف وهي ممتدة حتى القيدوم، ويوجد على الجانب الأيسر مقاعد مجذفين، وذلك طوال الطريق من المؤخرة حتى القيدوم، وهناك فوق كل مقعد ثلاثة مجذفين مع رامي للقوس، ومعلق بين مقعدين على حافة السفينة على كل طرف من الطرفين bombarda بوصلة حديدية متحركة، كما ويوجد على كلا الطرفين bombardana ، منها يجري في أوقات الضرورة رمي الحجارة.

وتقف في وسط السفينة السارية، التي هي طويلة، وسميكة، وشجرة

قـوية معمـولة من عـدد من الجذوع، مـربوطة مع بعضهـا، وهي تدعم العارضة بالـ accaton أو بالشراع الرئيسي، ويوجد على رأس السارية حجـرة يطلق عليهـا الألمان اسم «السلة»، والطليـان «القبـة»، وهي باللاتينية carceria، وعلى ظهر المركب، هناك إلى جانب السارية مكان مكشوف، يجتمع الناس فيه للتحادث، مثل ساحة سوق عائدة للغليون، ويتألف الشراع الرئيسي من ثلاث وخمسين قطعة قماش، طول كل قطعة أكثر من ذراع، ومن أجل مواجهة مختلف أنواع الأنواء يجري رفع أنواع متعددة من الأشرعة، إنها ليست بسعة الـ occaton، ويسكن فوق ظهر الغليون ضبـاط الغليون، وعبيـد الغليون، حيث يجلس كل انسـان فوق مقعده، وهناك ينامون، ويأكلون ويعملون، ويوجـد بين المقاعد على كل طرف من الطرفين فسحـة واسعة إلى حـدما، يقوم عليهـا صناديق كبيرة مليئة بالسلع والبضـائع، ويوجد فوق هذه الصناديق طـريق يصل مابين القيـدوم والمؤخـرة، يسعى عليـه الضبـاط صعـوداً ونزولاً أثناء عمل المجاذيف، وبجوار السارية توجـد الفتحة الرئيسية للباب نحو الأسفل، حيث ينزل الإنسـان سبع درجـات إلى القمـرة، التـي هي المكان الذي يعيش فيـه الحجـاج، أو حيث توضع حمولات وبضائـع الغليون، وتمتـد هذه القمـرة طوليـا من غـرفـة المخزن في المؤخـرة إلى الحجـرة الصغيرة الموجـودة في القيدوم، وأمـا من حيث العـرض فهـو من الطرف الأول للسفينة إلى الطرف الثـاني، وبذلك تشكل المسـاحة مكـاناً كبيراً وغرفـة واسعـة، وهي لاتتلقى إنارة إلاّ مـا يأتي من خـلال فتحـات النزول الأربعة، ويمتلك كل حاج في هذه القمرة مخدعه الخاص أو مكان نومه، وجـرى ترتيب المخـادع بحيث غطـت كل السفينة، أو بالحري القمـرة، وكل مخدع هو ملاصق للآخـر من دون أية فسحة فيما بينهما، ويضطجع كل حـاج إلى جانب الآخر، على طـرفي السفينة، وقدما كـل واحد منهما ممتـدة نحو قـدمي الآخر، وفي المكان الـذي تكون القمرة فيـه عريضـة، وضعت صناديق الحجـاج وحقـائبهم فيما بين المخـادع، وهي ممتـدة من

غرفة المخزن حتى الحجرة الموجودة في القيدوم، وفيها يحفظ الحجاج حاجياتهم الخاصة، وتمتد أقدام النائمين من على الجانبين حتى هذه الصناديق، ويوجد تحت الحجاج فسحة واسعة، تصل حتى قعر الغليون، ويطلق على هذه الفسحة اسم معدة الغليون، لأن قعر الغليون ليس مستوياً، مثل السفن الأخرى، لكنه حاد من الدفة حتى المؤخرة، وبناء عليه ينتهي الغليون بالأسفل بقدم حادة، وهي حادة إلى حد أنه عندما يكون الغليون خارج الماء، لايمكنه الوقوف قائماً فوق الأرض، بل لابد من أن يميل على أحد جانبيه، ويجري تعبئة هذا الفراغ الحاد بالرمل، حتى دعامات ظهر السفينة، ويدفنون في الرمال الزجاجات التي يحفظون فيها الخمرة، والبيض والأشياء الأخرى التي تحتاج إلى البقاء باردة، ويوجد في الأسفل حيث يعيش الحجاج بئر من أجل الماء الآسن، وهو موجود إلى جانب وسط السارية، ولايحتوي هذا البئر على القاذورات البشرية، بل يحتوي على جميع المياه المرئية وغير المرئية التي تدخل الى الغليون وتتسرب إليه، وتتجمع بعد ذلك في ذلك البئر، وهي ذات رائحة مقيتة، وهذه الرائحة الصادرة عنها أبشع من أية روائح صادرة عن الغائط البشري، ويتوجب نضح مياه هذا البئر كل يوم، ولكن في الأنواء القاسية يجري تصريف المياه منه بدون توقف، ويوجد على طرفي الغليون أماكن أعدت للمقاصد الضرورية.

والغليون كله مغطى من الداخل ومن الخارج ومطلي بأشد أنواع الاسفلت سواداً، ويفعل مثل ذلك بالحبال لابل حتى بالألواح الخشبية، وبكل شيء آخر، من أجل الحيلولة دون الاهتراء بالماء، وتحتل الحبال التي هي من أجل عمل الأشرعة والمراسي حيّزاً كبيراً في الغليون، وذلك لكثرتهم، ولطولهم، وغلظتهم، ولكثرة أنواعهم، ومن المثير للدهشة النظر إلى حشد الحبال وربطاتهم، ولفهم من حول المركب، ويشبه الغليون الدير، لأن مكان الصلاة موجود على الظهر إلى جانب

الســارية، وذلك حيث يوجـد مكان الســوق، ويشغل المكان الوسط من المؤخـرة مكان المائدة العـامة، ومقـاعد عبيـد الغليون، ومخادع الحجـاج مكان مهجع النوم، ومكان القـداس مـوجـود أمـام المطبخ، والسجـون مـوجودة تحت المقـدمـة والمؤخرة، والمخـزن، والمطبخ، والاسطبل كلهـا أماكن مفتـوحة نحو السماء، وذلك فوق ظهـر المركب، وهكذا بمرورنا بأشياء كثيرة، تملكنا صورة للغليون.

وقارن القـديس جيروم في رسالتـه إلى الرجل المريض العالم بـالبحر، والدير بالسفينة، وكـذلك الأوضـاع الأخـلاقيـة والخلقيـة هناك، وقـد أوضح كيف أن البحـر يشبـه العـالم، لأنه بطبيعتـه غير مستقـر، وهو صـاخب من دون ريح، ثائـر حتى في وقت الهدوء، حـاد وفيـه أمـواج مـرعبة، وهو حتى عندمـا لايؤذي الذين لايعـومون فـوقه، فإن سعتـه، حتى عندما لايـؤذي، تقذف الرعب في القلب، ويعاني الـذين يبحرون فوقه دومـا من الرعب، ومن تضارب الأمواج وهياجهـا، ومع ذلك قد ينشر الموجـه للسفينة بعد هيـاجهـا جميع الأشرعة من دون خـوف، وفي العالم مثلما هي الحال في البحر، الإزدهار نادر، والفوضى عامة، وكلاهما مليئين بالمنغصـات وبالرعب، والانزعاج أيضـاً، ليس معدومـاً، والملجأ الأمين الوحيد هو الموت.

النظام الذي يدار الغليون به

جـرى إعـداد نظام السفينة بدقـة متناهيـة مثل بقيـة الأنظمـة، ولهذا السبب استقى أرسطو مع الكتاب الآخـرين حول السيـاسة أمثلتهم من أنظمة الملاحة، واستقوا شواهد منها، كما هو في بداية الكتاب الأول من كتـاب «الأخـلاق»، لأنه في السفينة أكثـر من أي مكان آخـر يوجـد في مكان الجماعـة العـام الموضع الذي يضم جميع الشعـوب الأخـرى، لأنه بدونه من غير الممكن وجـود أي مملكة، أو مدينة، أو قـرية، وهو الأول بين الجميع، هـذا ويضم البيت الكـامل ثـلاث جماعـــات هـي: الزوج

والزوجـة، أو السيـد والخادم، أو الأب والابن، ولايحتـوي البيت في السفينة على الجماعـة الأولى من هؤلاء، والجماعـة الثـانيـة موجـودة فيـه بالتمام والكمال، وهو يحتـوي على بعض الشبه مـع الثالث، حيث يوجـد فيـه السيـد والقبطان، مع كثير مـن الخدم، والسيـد هو مثل الأب، وهو الحامي للحجـاج، الذين هم بمثـابة أولاده، وحـدد أرسطو في الكتـاب الأول من كتـاب «السياسـة» الأشكال الثلاثة من أحكام هذه البيـوت، ففي البيت الأول الحكم للـزوج على زوجتـه، وهذا ثانيـة مـوجـود في السفينة، الذي معناه أنه بالوسائل العامة يمكن لجماعة البيت الاستمرار، لكن ما من أحـد يحاول الإبقاء على جماعـة السفينة، بل يسعى إلى فضها في لحظة الوصول إلى المرفأ المرغوب، والثاني هو نظام أحكام الأبوة، أي حيث يحكم الأب أولاده، وهذه الصلة قائمة فيما بين القبطان والحجاج، بقـدر مـاتقتضي الطاعـة، حيـث يرى الحجـاج أن من واجبهم إطـاعـة القبطان، والثـالث هو نظام التسلط الطغيـاني، حيـث القبطان الذي هو المحرك الأول والمعلم، يتولى تعيين الوظائف والأوامر بالنسبة للآخرين، ويحدد لهم درجـات السلطـة لأحـدهم فـوق الآخـر، ويبقى هو ثـابتـاً لايتحـرك مثل الملك أو الحاكم، الذي تنفـذ السفينة أوامره مهما كـانت، وهو لايتـدخل بفن الملاحة، كما أنه لايفهم هذا الفن، بل الذي يقـوم به هو مجرد إعطاء الأوامـر إلى السفينة لتبحـر إلى هنا أو إلى هناك، ويقف جميع الذيـن في السفينة مـرعـوبين منه، ويحال كل خصـام شـديد بين الحجـاج أو بين طاقـم الملاحين إليـه، ومـامن أحـد يجري تعيينه قبطانا لغليون، خـاصة الغليـون الذي يحمل فرساناً حجـاجاً، مـالم يكن نبيلاً، وقـوياً، وغنيـاً، وحكيماً، وشريفاً، وعندمـا يجري تعيينه، يصطحب معـه بعض الأصدقاء، الحكماء، والمجربين، حيث معهم يتشاور، وإليهم يبوح بأسرار أفكاره، فضـلاً عن ذلـك، كـان يتـولى اختيـار واستئجـار أحـد الرجـال الشجعـان ممن لديه امكانات قتـاليـة، وله خبرة في الحروب البحـرية، فيعينه قائـداً حـربيـاً، أو كما يقولون «معلما للسـلاح»، ويزود

الغليـون بالمدافع، والمجـانيق، والقسي، والرمـاح، والعصي، والسيـوف، والدروع، والترسة، ولدى القبطان أيضاً حـاجب، يتولى توفير كل شيء له علاقة بالأطعمـة، وهم يطلقون عليه اسم Schalk، وهو يتولى إدارة مخزن الأطعمة والمطبخ، ويراقب أمور الخبـز والخمرة، والحيوانات المعدة للذبح، ويصدر كل يوم الأوامر إلى الطهاة، وإلى صاحب مخزن الأطعمة بأن يقومـا بكذا وكذا من الترتيبـات المتعلقة بالطعـام والشراب، وإذا ما حـدث نقص بالطعام أو الشراب، فتلك لـن تكون سوى غلطتـه، وهو وحـده يتحمل المسؤوليـة عن ذلك، ولهذا السبب نجـد أن الـ Schalk مكروهين بالعادة على ظهر السفينة، فضلاً عن هذا للقبطان موظف آخر قوي، يسمـونه الخليفة، فهو الذي يتـولى حكم الغليون، والنظر في جميع أجـزائه، فيرى هل هناك أي شيء غلط، أو أي جـزء منه محطم، أو أي شيء يعيق إبحاره، فهـو الذي يتولى ترتيب البضائع، ويتـولى اصلاح أو ترميم مافسد، ويرعى شـؤون الغليون من بئره إلى رأس ساريته، وذلك من قيـدومه حتى مـؤخرته، وهناك مـوظف قوي آخـر للسفينة يسمى القرصان Pirate، ونفترض نحن الألمان أن اسمه يعنـي المرشد Pilot، فهو يعـرف أكثر الدروب سـلامة وأقصرها عبر البحـر، وتأخذ السفينة طريقهـا وتتوجه وفقـاً لأوامره أو نصـائحه، وإذا مـاوصل إلى مكان في البحر غير عـارف به، يأمرهم بالرسـو في أقرب ميناء، وهناك يتخلى عن عمله، في حين يقوم القبطان باستئجار مرشد آخر، يعرف ممرات البحر، وذلك خشيـة أن تتـواجـه السفينة من خـلال الجهل مع charYbdi أو syrtis أو Bythalassium.

ويكون مع المرشـــد نفســـه، بعض الرجـــال البـــارعين، والفلكيين، والمنجمين، الذين يتولون مراقبة علامات النجوم والسماء، ويقررون أي نوع من الرياح سوف تهب، ويقدمون المشورة إلى المرشد نفسه، وهؤلاء الرجـــال كلهـم مثل بعضهم على دراية واسعـــة بفنهم، إلى حـــد أنهم

بنظرتهم إلى السماء يمكنهم أن يخبروا سلفاً هل ستكون هناك عاصفة أم هدوء، ذلك أنهم يستطيعون قراءة الشارات في لون البحر، وفي تجمع الدلافين مع بعضها مع حركتها وكذلك الأسماك الطائرة، وفي دخان النار، وفي رائحة الماء الآسن، وفي بريق الحبال والكابلات في الليل، وفي لمعان المجاذيف لدى غطسها في البحر، ويعرفون في الليل جميع الساعات بالنظر إلى النجوم، ولديهم إلى جانب السارية بوصلة، وبوصلة أخرى في الحجرة العليا للقلعة، وإلى جانبها مصباح مشتعل بشكل دائم طوال الليل، وهم لايزيحون أعينهم عن المصباح لدى إبحارهم أثناء الليل، بل يتوجب على أحدهم التحديق بالبوصلة بشكل دائم، والغناء بنوع من الأغنيات الحلوة، تظهر أن كل شيء يسير على مايرام، ويغني باللحن نفسه إلى الذي يمسك بعصا الدفة، موضحاً إلى أي اتجاه ينبغي للدفة أن تتحرك، ولايتجرأ الممسك بالعصا والموجه للسفينة على تحريك الدفة مطلقاً إلاّ بناء على أوامر الذي يراقب البوصلة، فهو الذي يرى فيما إذا كانت السفينة تسير بشكل مستقيم، أو متخبط، أو جانبي، وانظر حول هذا الموضوع فيما يلي، ولديهم أيضاً أدوات أخرى، يمكنهم بوساطتها معرفة مسارات النجوم، وهبات الرياح والممرات في البحر، من ذلك على سبيل المثال لديهم خريطة، طولها ذراع، وعرضها أيضاً ذراع، عليها جرى رسم البحر كله بآلاف وآلاف الخطوط، ورسمت البلدان وعلمت بنقاط، أما الأميال فبالأرقام، ومن خلال هذه الخارطة يمكنهم معرفة أين هم، حتى عندما لايمكنهم رؤية أية أرض يابسة، والنجوم أنفسها مغطاة بالسحب، ويمكنهم اكتشاف ذلك بمدّ خط منحني من خط إلى آخر، ومن نقطة إلى أخرى ببذل جهد رائع، ولديهم أيضاً أدوات أخرى كثيرة بوساطتها يجدون طريقهم فوق البحر، وهم يجلسون كل يوم يتباحثون حول ذلك.

ويأتي بعد هذا الموظف الرئيسي للغليون، والذي يتولى القيام بالعمل

الفعلي، والذي يتلقى أولاً أوامر الابحار ويتسلمها، موظف آخر اسمه cometa وهو وكيل ربّان الغليون، ومكانه هو تحت القلعة فيما بين مقاعد المجذفين والطابق الأعلى، وإليه يبوح القبطان برغباته، وبناء على ذلك يقوم هو بتحريك طاقم الملاحين، وهو قد علق حول رقبته صفارة فضية، بوساطتها يعطي الاشارة للبحارة ليقوموا بالأعمال المتوجب تنفيذها، ويتم سماع هذه الصافرة في كل وقت من النهار والليل، ويستجيب لها على الفور جميع الرجال باصدار صفير جواباً له، ويأمرهم هذا الموظف بالرسو في أحد الموانىء أو بالخروج منه، أو بانزال المراسي أو سحبها، أو بنشر الأشرعة أو طويها، أو بالعمل بوساطة المجاذيف أو بالتوقف عن العمل، أو بتحريك السفينة للوقوف عند الشاطىء في الصباح، أو بانطلاقها، ويخاف الموظفون الذين دونه منه مثلما يخافون من الشيطان، لأنه يضرب بالعصي، ويعاقب كل من أراد بقبضتيه أو بأطراف الحبال، ولايتجرأ أحد بالتمتمة ضده، لأن الجميع سوف ينهضون ويهاجمون المتمتم عندما تعطى الاشارة اليهم، ولقد رأيت ممارسة أعظم الأعمال الوحشية من قبل هؤلاء والوكلاء على عبيد الغليون المساكين.

ويوجد تحته موظف آخر اسمه البارون، أو عريف الملاحين في الغليون، وهو الذي يحُرك ويتحرك بوساطة أوامر الوكيل، ويعيش بشكل دائم في وسط الغليون قرب السارية، وهو أيضاً يحمل صافرة علقها حول رقبته لاصدار الأوامر بها، وحيث لايوجد وكيل للربان يركض عريف الملاحين وهو يصفر، ويصرخ، ويشجع الرجال على العمل، ومسؤوليته الخاصة هي عن الحبال، والأشرعة، والمراسي، بأن يكونوا دوماً موائمين، وجاهزين للاستخدام، وله امتيازات خاصة وحقوق على ظهر السفينة، ويوجد تحته موظف آخر يعرف باسم «تحت البارون sub parono »، وهو يتلقى أوامره، ويعطيها إلى الآخرين.

ويأتي بعــد هذيـن بعض الرجـــال الذيـن اسمهم compani، أي الرفـاق، وعـددهم حـوالي التسعـة، وبعض هؤلاء يرأسـون آخـرين في العمل، وهؤلاء الرجـال هم الذين يعـرفـون كيف يعتنون بالحبـال مثل السنانير، وهـم الذيـن يتسلقـون على القلع بسرعـة كبيرة وصــولاً حتى الرأس، ويركضون على طول عارضة الشراع، ويقفون منتصبين حتى في أشد العواصف، وهـم الذين يرفعـون المراسي، ويغطسون عميقاً في الماء، إذا مـاالتصقت المراسي ولم تتحـرك، وهـم الذيـن يتـولون القيـام بأخطر الأعمال على ظهر السفينة، وهـم بشكل عـام شباب على درجة عـالية من النشاط، وهـم لايعرفون السكون في حياتهم، وهـم أيضاً شجعان وأقوياء في الغليـون مثـل أتبـاع البـارون المسلحين، ومجدداً يوجــد تحت هؤلاء آخرين يسمـون الملاحين، وهـم يغنون أثناء القيام بالعمل، ويكون الغناء بقيــام واحـد بالغنـاء بالأوامـر الصــادرة، ويردد العمال خلفــه مغنين متجـاوبين معه، ويقف هؤلاء الناس إلى جـانب الذين يعملون، ويغنون لهم، ويشجعـونهم، ويهددونهم بتـوجيــه الضربات لهم، وبهذه الواسطة يجري سحب أوزان كبيرة، وهؤلاء بـالعــادة رجــال متقــدمين بالسن ومحترمين، ودون الجميع في الغليـون العبيـد من الطبقـة الأولى والطبقـة الثانية، وهـم الذين نسميهم باللاتينية remiges ، أو المجذفين، وهـم الذين يجلسـون على المقاعد المتصـالبة للعمل بـالمجاذيف، ويوجـد عدد كبير منهم، وهـم جميعا رجال لهم أحجام كبيرة، ذلك أن عملهم مناسب فقط للحمير، وهـم يحرضـون على تنفيـذ أعمالهم، بالصراخ، والضربات، والشتائم، مثل حال بعض الخيول وهي تتولى جرّ عربات مثقلة بالأحمال صعـوداً فــوق طريق منحــدر، وكلما جـروا أكثـر وأثقـل، كلما جـرى تحريضهم أكثر ودفعهم، ولدى قيام هؤلاء التعساء بالجر أكثر يتعرضون للضرب ليجروا بشـدة أعظم، ولقد أعيتني الكتـابة، وإنني لأرتجف وأنا أفكر بعــذاب وعقـوبات هـؤلاء الناس، ذلك أنني لم أرقط حيــوانات تحميل ضربـت بمثل هـذه الوحشيـــــة التـي ضرب هؤلاء بها، وكثيراً

مـاأرغموا على ترك قمصـانهم ومـآذرهم معلقة من أوسـاطهم، والعمل بظهـور عـارية وأذرعـة وأكتـاف، وذلـك من أجل أن تصل الأسـواط والمقارع إليهم.

والشطر الأعظم من عبيد الغليون هؤلاء، قـد شريوا بمثابة رقيق من قبل القبطان، أو أنهم أناس مـن سـوية متـدنيـة، أو سجناء، أو رجـال فـارين، أو مطرودين مـن ديارهم، أو منفيين، أو تعسـاء، لايمكنهم العيش أو كسب مـورد للعيش على اليـابسـة، وكلما توفـرت خشيـة من فـرارهم كـانوا يربطون إلى مقـاعـدهم بالأغـلال، وبشكل عـام هم من مقدونية، أو رجال من ألبانيـا، أو آخيا، أو إليريا أو سكلافونيا، ويكون في بعض الأحيـان بينهم أتراك ومسلمين، يخفـون — على كل حـال — دينهـم.

وأنا لم أرقط عبـد غليـون ألماني، لأن مـامـن ألماني يمكنه أن يعيش ويبقى حياً وسط هذه التعاسة، فعبيـد الغليون قد اعتادوا على تعاستهم، إلى حـد أنهم يعملون بضعف شـديـد وبدون قصـد، مـالم يقف انسـان فـوقهم، ويقـوم بضربهم مثل الحمير، ويلعنهم، وهـم يطعمـون بتعاسـة متناهية، وتراهم دوماً نائمين على مقاعد تجذيفهم، وهم دوما في كل من الليل والنهار جـاهزين في العراء للعمـل، وعندما تكون هناك عـاصفة، يقفـون في وسط الأمواج، وهم بشكل عـام لصوص، ولايوفـرون شيئاً يجدونه، مع أنهم يتعـرضـون مقابل كـل جريمـة إلى التعـذيب الوحشي الذي لاحدود له، وعندما يكونون بدون عمل يجلسون ويلعبون بالورق والنرد من أجل الذهب والفضـة، مع أيمان لاتحتمل وتجديفـات، وأنا لم أسمع قط مثـل هذه الأيمان المرعبـة التي سمعتهـا على ظهـر المركبين المتقدمي الذكر، لأنهم لايفعلون شيئاً سواء أكان بادرة خير أو أمانة، من دون تجديف قـذر جداً، وشتم للرب وللقـديسين، ويكون بينهم أحيـاناً بعض التجـار المحترمين، الذي أخضعـوا أنفسهم لمثل هذه العبـودية

القاسية جداً، من أجل إمكانية الترويج لتجاراتهم في الموانىء، وبعضهم ذوي اختصاصات فنية، مثل الخياطة أو صناعة الأحذية، حيث يمكنهم في أوقات الهدوء صناعة أحذية ومآزر، وقمصان على ظهر السفينة، وبعضهم عمال غسيل، يتولون غسل القمصان على ظهر المركب، مقابل أجر.

وفي الحقيقة، بالنسبة لهذا المجال، جميع عبيد الغليون كلهم سواء، فهم جميعا تجاراً، وكل واحد منهم لديه شيء ماللبيع موجود تحت مقعده، وهو يعرضه للبيع عندما يكون في أحد الموانىء، والتجارة قائمة يومياً فيما بينهم، فضلاً عن هذا، هم بشكل عام، يعرفون على الأقل ثلاث لغات هي: السكلافونية، والاغريقية، والايطالية، ويعرف الشطر الأعظم منهم التركية أيضاً، ويوجد حتى بين عبيد الغليون أنظمة ودرجات، ذلك أن بعضهم لديهم سلطة كلفوا بها فوق آخرين، والذين هم محل أعظم ثقة بينهم يوضعون حراساً حول ممرات ومجازات الغليون، ويطلق عليهم اسم «الحراس»، ويتولى بعضهم العمل في قيادة القيدوم، وبعضهم على جهة اليمين، والآخرين على جهة اليسار، ويخدم بعضهم في دفة القيادة، ويعامل هؤلاء بشكل أفضل، ويوجد أيضاً في أغلب الغلايين ثلاثة أو أربعة شباب أقوياء قد تعلموا الركض فوق الحبال، وقد دربوا أنفسهم على الأعمال الأخرى التي تحتاج شجاعة، وإلى جانب عبيد الغليون هناك بعض اختصاصيي المدفعية، وبعض الذين ينفخون بالأبواق، فهؤلاء يزعقون بأبواقهم في الصباح وفي المساء، وقبل الغداء، وبعد الغداء، وفي جميع الموانىء، ويجري استخدام بعضهم في تنظيف الغليون وتزيينه، ويوجد على ظهر الغليون حلاقين على الأقل، هما بالوقت نفسه طبيبان وجرائحيان، وإلى جانب ذلك هناك معذبون أشرار، هم مثل الذين يفسحون الطريق أمام الحكام، يلقون على الشاطىء ويعذبون كل من يأمرهم القبطان بتعذيبه، وهناك

موظف آخر صاحب سلطات عظيمة في الغليون، يطلقون عليه اسم «الكاتب» أو «المحاسب»، وهو الذي لديه أسماء جميع الأشخاص الذين على ظهر الغليون، قد دونت في كتبه، ويأخذ أسماء الذين يصعدون إلى ظهر الغليون وأسماء الذين يغادرونه في كل ميناء من الموانىء، وهو الذي يتولى فض جميع الخلافات التي تثور حول أماكن النوم، ويجعل الناس يدفعون أجور عبورهم، وعليه واجبات كثيرة، وهو —كقاعدة — مكروه من كل انسان سواء، وأكثر بكثير من جميع موظفي الغليون.

حول العدالة والقضاء ورعايتهما بكل دقة على ظهر الغليون

ومن أجل الحفاظ على السلام بين مثل هذا الحشد من الناس، جرى إفراد مكان خاص من أجل العدالة، ويجري تطبيق عدالة دقيقة فوق الغليون، حيث يوجد على ظهر الغليون قضاة يجلسون في كل يوم — إذا قضت الحاجة — لممارسة أعمال القضاء، حيث يستمعون إلى الطرفين المتخاصمين، ويقررون الأسباب، والإجراءات القضائية دقيقة جداً على ظهر المركب، فضلاً عن هذا إذا ما اختلف بعض الأشخاص حول أي شيء وقع في الغليون، إنهم إذا لم يقوموا بفضه بوساطة قضاء المحكمة البحرية، غير مسموح لهم بالشكوى ضد بعضهم بعضاً في أية محكمة لاتعقد في البحر، كما أنه مامن انسان مجبر على الالتزام بأي عقد أبرم مع آخر، بعد مغادرته السفينة، كما لايجوز لأي قاض يعمل على اليابسة التدخل بعقود أبرمت في البحر، وإذا ما أقرض انسان رجلاً آخر عشر دوقيات في البحر، وقال الرجل الآخر بعد الذهاب إلى اليابسة بأنه لم يستلمهم مامن قاض يمكنه أن يرغمه على إعادة الدفع، كما لايمكن الاستماع إلى أي شاهد ضده، وهكذا يقول الملاحون: سواء أكانت الحقيقة هكذا، أو بالفعل كان الأمر كذلك، كل واحد يمكن أن يقرر ذلك حسب هواه، ولهذا السبب روعيت الإجراءات القضائية بدقة، وكانت تتم عقوبة اللصوص، لكن بشكل خفيف، ولايدان أحد

بالإعدام، بل كانت أقسى العقوبات التي تصدر على ظهر السفينة ضد أي واحد اقترف جريمة كبيرة، هي أن يجلد حتى يفقد وعيه، ويضرب على قدميه، وبعد إنزال هذه العقوبة به كان يلقى به على اليابسة في أقرب مكان، ويترك يذهب في سبيله، حيث تبحر السفينة مخلفة إياه، ولقد رأيتهم يتعاملون على هذه الصورة مع لوطي، ويكفى ماقلناه حول هذا الموضوع، ونتابع الآن الحديث عن:

الخدمات الدينية وعن كيفية اقامة القداسات على ظهر الغليون

علينا عدم حذف معرفة كيف يتصرف الذين يذهبون بالبحر نحو الرب، في تأديتهم للقداسات، لأن عليهم في الحقيقة أن لايكونوا ناسين للرب، في وسط مثل هذه المخاطر والمخاوف، وتجري عباده الرب على ظهر السفينة ثلاث مرات في اليوم، أولاً في الصباح الباكر، عند اشراق الشمس، عندما يقوم واحد من خدم القبطان، يكون واقفاً عالياً فوق رأس القلعة، فيأمر بالصمت بوساطة صافرته، ويرفع بعد ذلك لوحاً من الخشب، مرسوم عليه صورة العذراء المباركة، وهي تحمل طفلاً بذراعيها، ولدى رؤيتها يقوم الجميع بالركوع وقول الـ AVE MA-RIA وقول صلوات أخرى حسب الاختيار، وما أن يقوم بنقل الصورة وإبعادها حتى يبدأ البواقون بالنفخ بأبواقهم، وعندها يمضي كل انسان إلى عمله.

والمرة الثانية هي في حوالي الساعة الثامنة قبل منتصف النهار، حيث تعطى شارة الصلاة ثانية، ويجري تغطية صندوق قائم على ظهر المركب قرب السارية، بغطاء قماشي جيد، ويتم هناك وضع شمعدانيين، وبين الشمعدانيين تمثال للصليب، وكتاب للقداس، وكأن القداس على وشك القيام به، ويأتي جميع الحجاج إلى ظهر السفينة ويتحلقون حول السارية، ثم يقدم راهب واضعاً بطرشيل حول عنقه، ويبدأ بالـ Confiteor، ومنه يقرأ القداس التالي، ويدع القانون دون أن يقرأه، لأنه لايكمل،

وبذلك يؤدي القداس من دون تضحية، منهياً إياه بما جاء في الانجيل:«في البدء كانت الكلمة»، ويطلق على هذه القداسات اسم «الجافة» أو «الحارة»، وأنا لا أتذكر أنني قرأت في أي مكان، فيما إذا كانت هذه الطريقة بقراءة القداس قد تأسست على الشريعة القانونية، والذي أعرفه أن بعض العلماء غير راضيين عن ذلك، ويقولون بأن قراءة ذلك الجزء من القداس، الذي يجري الغناء به بشكل مكشوف من قبل فريق الأداء هو عمل غير معترض عليه، لكن أن تقرأ ذلك الجزء وأنت لابس البطرشيل مع كل توابعه، وبمهابة كهنوتية، فهذا خداع، وهم ينشدون مثل هذه القداسات، مثل قداسات أيام الأعياد، لكن تقدمة القربان لم تكمل قط على ظهر السفينة.

وقبل أن أقوم بتفحص هذه القضية بشكل دقيق، غالباً ماكنت أصاب بالدهشة تجاه ذلك، وعزوتها إلى إهمال أساقفتنا، الذين كما يبدو لي، أبدوا قليلاً من الاهتمام تجاه خلاص أبناء الكنيسة، وكان ذلك أقل ماينبغي ومماهو صحيح، خاصة عندما نقرأ أنهم أقاموا قداسات في أيام القديس غريغوري على ظهر السفن، حسبما يمكن رؤية ذلك في حواره الثالث، حيث نقرأ أن بعض الناس الذين كانوا في خطر بالبحر الأدرياتيكي شاركوا جزئياً بجسد الرب ودمه، وانظر أيضاً حكاية القديس لويس، ملك فرنسا، ويبدو في الحقيقة الأمر بالنسبة لي أنه يحتوي على شطر كبير من الاهمال من جانب الكنيسة، حيث لم تتخذ إجراءات منذ زمن طويل مضى بالعهدة بإدارة القداسات إلى رجال يكونون في وسط مثل هذه المخاوف، وبشكل خاص للحجاج، الذين يتحملون هذه المخاوف من أجل محبة الرب وتشريفه، وبعدما قدرت هذه المسألة بكل عناية، وفكرت بشكل منطقي حولها، وجدت أن كنيستنا الأم المقدسة والحكيمة لم ترغب بكمال قداس القربان الأعظم قداسة، وبعدم مراعاته تماماً على ظهر السفينة، وكان هذا لعدة أسباب،

أولها: أن هذا القداس ليس قداساً ضرورياً، بل فيه كفاية الخلاص لانسان امتلك النية بالمشاركة بذلك في وقت مناسب ومكان موائم، هذا ولايوجد على ظهر السفينة مكان مناسب، كما سنرى ذلك فيما بعد، لابل حتى وإن توفر وقت (٤٩ب) الوقت أيضاً في كل حين غير موائم، وثانيا: لأنه لايوجد على ظهر السفينة كاهن مناسب تكون وظيفته الخاصة وواجبه الاحتفال بقداس العشاء الرباني المقدس، وذلك حسب توجيهات القانون، لأن مامن أحد يعرف إلى أي الأبرشيات تنتمي السفينة، لذلك جرى حذف ذلك، وثالثا: من غير الممكن الحفاظ بشكل جيد على خبز القربان هناك، لأنه الأرغفة المخبوزة بشكل جيد لاتعيش طويلاً على ظهر السفينة، بل تصبح بعد مضي عدة أيام مليئة بالماء ومتفتتة مثل التراب، وبناء عليه كم أقل وقتئذ سيبقى هناك الخبز من النوع الأرقى والذي غير مخبوز بشكل جيد؟ ولايمكن لخبز القربان أن يبقى في الأنواء الرطبة أكثر من ثلاث ساعات، يذوب بعدها ويصبح عجينا مائعاً، ويحدث الشيء نفسه للرقائق التي هي غير مناسبة للاستخدام في الأنواء الرطبة، ورابعاً، من المفترض الاحتفاظ بخبز القربان في الكنيسة وفي مكان مقدس، ومعلوم أن السفينة ليست كنيسة، وليست مكانا مكرساً، كما أنها ليست مكانا للاقامة الدائمة، وخامساً، ينبغي أن نبقي إلى جانب قداس القربان مصباحاً مشتعلاً بشكل دائم، وهذا أمر غير ممكن على ظهر الغليون، لأنه بقوة الرياح، واندفاع الأمواج، غالباً مايكون الغليون مغطى بالماء، ولايمكن الحفاظ على ضوء مشتعل سواء في مشعل أو مصباح، وسادساً ينبغي عدم إقامة القداس على ظهر الغلايين مع عدم الاحتفاظ بخبز القربان هناك، بسبب عدم التأكد من المخاطر التي من الممكن أن تحل بهم، لأنه فجأة وبغمضة عين يمكن للعاصفة أن تثور، حيث تسبب تأرجح السفينة بعنف لدى قدومها، حتى أن الكاهن إذا ماكان واقفاً قرب المذبح، لايمكنه المحافظة بالوقوف على قدميه، ولا الكأس أو الصليب، كما أن

المنضـده لايمكن أن تظل في مكانها، بل في لحظة ينقلب كل شيء عاليـه سافله، وسـابعاً إنه بسبب عنف الرياح، نجـد أنها عندما تهب، لايمكن للضوء أن يبقى مشتعلاً، ولالغطاء المذبح والأغطيـة الأخرى البقاء، بل سيتم رميهـا من على المذبح، وثامنا بسبب عـدم التيقن من حـركـة الماء التي تجري الآن إلى هنا ثم بعد ذلك إلى هنـاك، حتى عندما يكون هناك قليل من الريح، وعندما لايكون أحداً متوقعاً حركة المياه أو خائفاً منها، نجـدها تغطي فجأة الغليـون بكميات كبيرة، فتفسـد كل شيء تلمسـه، وتاسعـاً، بسبب الحاجـة إلى وقـار حقيقي، ذلك أنه لايوجـد على ظهـر السفينة مكان لايعرف الإثارة والاندفاع في بعض الأوقات، فالبحارة في أثنـاء سعيهم وراء أعمالهم المطلـوبة، مـن غير الممكن ابـداء الاحترام إلى الراهب وهو يقـوم بأداء القداس، أو إلى القداس نفسـه، بل إنه سيقلب كل شيء، ويزيح الكاهن والمذبح، والقـربان كلهم سواء، لأن العمل في البحر ينبغي القيام به فجأة، وبسرعة مثل البرق، وهو ضاغط ولايمكن تأجيله، فضـلاً عـن هذا، الناس نيـام في كل جـزء مـن الغليـون، وهم تجدهم يأكلون ويشربون، ويتسـامرون ويكـذبون ويحلفون ايمانا كـاذبة، وكل هذا مـدمـر للوقار الجديـر بالقداس، وعـاشراً، لاينبغي الاحتفـال بالقـداس على ظهـر السفينة، بسبـب وجـود أناس غير أهل بالاحترام، لأنه غـالبـاً مـايكون هناك على ظهـر السفينة: يهود، وأتراك، ومسلمين، ومنشقين، وهراطقة، وخارجين على القانون والقضاء، ومحرومين كنسياً، وإذا لم يجتمع هـؤلاء الناس غير الجديـرين بـالاحترام مع بعضهـم، ولم يكونوا مـــوجــوديـن جميعــاً لابد مـن وجــود بعضهم هنـاك، حيث بحضـورهم لايجوز الاحتفــال بالقـداس، وأحــد عشر بسبب الذنوب الكبيرة الهائلة التي تقترف على ظهـر السفينة، لأن الرجال يلعبـون هناك يوميا بالورق والنرد، ويشتمون الرب بشكل مـرعب وكذلك القديسين، ويحنثـــون بأيمانهم، ويكذبون، وينشلـون، ويسرقـــون، ويأكلـون بنهم، ويحشون أنفسهم، ويسكرون، هذا ولقد سمعت مراراً — وأصلي للرب

أن لايكون ذلك صحيحا — أن رقيق الغليون الشرقيين، يقترفون الاثم العظيم الذي لايمكن الحديث عنه، وهو اللواطة، على ظهور الغلايين، وبناء عليه ان المكان الذي تقترف فيه مثل هذه الآثام وتمارس غير جدير بأن يؤدى عليه مثل هذه التقدمات والقداسات، وثاني عشر، إن رائحة النتن وقذارة كل من الغليون والرجال الذين على ظهره تجعل المكان غير مناسب، وثالث عشر، ينبغي عدم الاحتفال بالقداس بسبب سخرية الكفار، وعار حضورهم، لأنهم إذا ماسمعوا بأن ربنا كان حاضراً على ظهر السفينة في القربان، حسبما نعتقد في ديانتنا، ومع هذا رأونا ونحن نعيش مذنبين، أو متخاصمين، فهذا لاشك سيجلب عاراً فظيعاً، ولسوف يسخرون من القربان الأعظم قداسة، ورابع عشر، بسبب الحمقى من المسيحيين والسيئين منهم، لأنه إذا ماكان القداس قائماً على ظهر الغليون، وهبت عاصفة في البحر، وأصبحت السفينة في حالة خطر، ولم يأت الفرج أو العون على الفور، سيتحول هؤلاء الحمقى من المسيحيين فوراً إلى أعمال النقد ضد القربان المقدس، ولسوف يقولون بقلوبهم، إن لم يكن بشفاههم:«إذا كنت أنت المسيح أنقذ نفسك وأنقذنا»، ولقد رأيت حالة من هذا النوع بعيني، ففي إحدى المرات عندما استمرت العاصفة طويلاً وكانت تزداد عنفاً، قمت أنا وأشخاص من الطوائف المقدسة، وكهنة بالتوجه بأنفسنا نحو الرب، وغنينا ابتهالات، والتمسنا العون من قديسي الرب، لأن العاصفة كانت خطيرة، وبينما هي في ذروتها، قال بعض النبلاء الذين تلقوا الفروسية في القدس، لكنهم كانوا بلا إيمان، بوجوب توقفنا عن الدعاء، لأنهم اعتقدوا أن العاصفة كانت تزداد شدة وحدة بسبب أدعيتنا، وقالوا لدى إيقافهم لغنائنا للمزامير والابتهالات:«لو أن أدعيتكم لاقت أي قبول من الرب، لتم انقاذنا منذ زمن طويل من هذا الخطر»، وبناء عليه، إنه بدون شك لو أن القداس جرى الاحتفال به على ظهر السفينة، لحدث الشيء نفسه، لأن الجهلة وغير المؤمنين من الناس العلمانيين، يخيل إليهم

أنه عندما يكون القربان موجوداً بينهم، مامن شر يمكن أن يلحق بهم، وإذا مالحق بهم أي شيء من هذا القبيل سوف يعزونه لحضوره.

فهكذا فعل بنو اسرائيل، عندما أخذوا تابوه الرب وحملوه إلى المعركة معهم، معتقدين أنهم بذلك لن يلحقهم أي شر أو أذى على أيدي أعدائهم، لكن على الرغم من ذلك، تعرضوا للهزيمة، وسلب تابوه الرب وذلك حسبما ورد الخبر في الاصحاح الرابع من سفر الملوك الأول، لأن التعامل بدون احترام أو وقار وحمل الأشياء المقدسة يثير غضب الرب، أكثر من التعامل معهم بتواضع وأدب، ومثل هذا نجد بعض الفلاحين يجعلون مساعدي الخوارنة لديهم يحملون القربان إلى حقولهم وخلالها، من أجل أن لايجري تدمير محاصيلهم بهطولات البرد، وإذا ماجاءت المحاصيل جيدة تراهم غير شاكرين، لكن إذا جاءت سيئة تراهم ناكرين، ويتمتمون ضد الرب.

والسبب الخامس عشر الذي يدعو إلى عدم القيام بالقداس على ظهر السفينة، هو بسبب سهولة تقيؤ الناس هناك وحدوث ذلك بشكل مفاجيء، لأنه لو ثارت عاصفة مباشرة بعد انتهاء الكاهن من الاحتفال بالقداس، سيكون مرغماً بفعل قوة الطبيعة على التقيؤ بالقربان، حيث لايمكنه الاحتفاظ به، وهذا أمر من المرعب الحديث عنه، وبناء عليه، ينبغي التوقف عن أداء هذا القداس في البحر، لأنه يتعارض مع التقوى.

والمرة الثالثة التي يحمد الناس فيها الرب على ظهر الغليون، هي عند غياب الشمس، فوقتها يجتمعون كلهم حول السارية الرئيسية، حيث مكان الاجتماع على ظهر الغليون، فهناك يجثون على ركبهم ويغنون Salve, Regina، ويقدمون لذلك بابتهالات، عندما يكونون في أوضاع صعبة جداً، وبعد الـ Salve يطلق حاجب القبطان دعوة بصافرته، ويقف على الفور على القيدوم، ويتمنى لكل واحد ليلة سعيدة

باسم سيده، ويقوم ثانية كما في الصباح بعرض صورة العذراء المباركة، التي لدى رؤيتها يغني الجميع Ave maria ويرددون ذلك ثلاث مرات، كما جرت العادة بفعل ذلك على الشاطىء بناء على صوت الناقوس، وبعد الفراغ من هذا ينزل الحجاج إلى القمرة إلى أماكن نومهم.

وبعد نزول الحجاج إلى الأسفل، يقف محاسب الغليون على القلعة، ويبدأ ترنيمة طويلة باللغة الايطالية الجارية، ثم يصلها بابتهال، يرددها معه جميع رقيق الغليون وموظفيه، وهم جاثين على ركبهم، وهم يستخدمون كلمات كثيرة، وتأخذ صلاتهم هذه حوالي الربع ساعة، وغالباً ماكنت حاضراً أثناء هذه الصلاة، وكان في النهاية يرجو كل واحد ليقول pater, Noster وكذلك Ave maria من أجل روحي والدي القديس يوليان، وهم يفعلون ذلك كل ليلة، ولم يتخلوا عنه قط، فضلاً عن هذا تقصيت لماذا توجب القيام بالصلاة من أجل روحي والدي القديس يوليان، لأن هذه الصلاة تقدم كل مساء على ظهر السفينة، وتلقيت لهذا السؤال جواباً مزدوجاً، فأخبرني بعضهم بأن هذه الصلاة كانت تقدم مديحاً لسمعان المجذوم وشكراً له، فهو قد كان اسمه أولاً يوليان، وهو قد تلقى بأريحية ربنا، ولقد قيل إنه من أجل وساطته حتى يصل الملاحون إلى ميناء جيد، وأن يستقبلوا بأريحية، يفعلون ذلك، وأجبت على هذا بأن الصلاة لم تصنع لشكر هذا القديس، بل من أجل روحي والدي القديس يوليان وتساءلت: ولو أنهم توجهوا بالصلاة من أجل الاستقبال بأريحية، لماذا بالحري لم يتوجهوا بالصلاة إلى مرثا المباركة التي استقبلت ربنا بأريحية خاصة؟ ولم يمكنهم الاجابة على هذا، وقال آخرون بأنهم عملوا هذه الصلاة من أجل والدي القديس يوليان، الذي عنه نقرأ في «Speculum Nat-crae of vincentius» الجزء الثاني — الكتاب العاشر، الفصل

١٥— الذي عندما كـان شـاباً، وفي حـالة الجهـالـة قتل أباه وأمـه في فراشهما، حيث تصـور بأن أمه كانت زوجتـه، وأن أباه كان يمارس الزنا معهـا، فهذا مـانقرأه هناك، لكن كيف تأسست هذه العـادة مامن أحـد يعرف، وعلى هذا كـان ماتقدم هو المتعلق باستخـدام القداس الديني في البحر، إنما بالإضافة إلى ذلك، هناك كثيراً من الأدعية يتلوها الحجاج في الليل والنهار.

ومـاأن يصلوا إلى أي ميناء حتى تراهم يركضـون جميعـاً إلى الكنيسـة بتقوى متناهية لسماع القداس، أما مايتعلق بالاحتفال بأيام الآحاد، وأيام القديسين في البحر، فإنهم يراعون ذلك بشكل مخجل جداً، وأنا لاأشك بأن الشيطان يبـذل جهوداً مضنية بـالقاء المعيقات في سبيـل الحفاظ على أيام الأعيـاد المقـدسـة، ولقد لاحظت مـراراً، أنه في أيام العيـد المهيبـة، يكون هناك دوماً فوضى واضطراب على ظهر السفينة، أكثر من أي يوم معتاد، وفي بعض الأحيـان، عندما نكون قـد توقفنا في أحد الموانىء لمدة أربعـة أيام أو خمسة، مـاأن يحل مساء يوم السبت حتى نصبح جـاهزين للاقـلاع، ولإبحـارنا ليـلاً، يبات من غير الممكـن إقامـة قـداس في يوم الأحد، ولقد حدث هذا على ظهر السفينة التي أبحرت بها مراراً، وكأنه صنع عن قصد، وفي الحقيقـة، كلما كان اليوم أكثر قـداسة، يكون العمل في البحر أشـد قسوة، وهذا مايمكن رؤيته في سيـاق حكايتي، وكان من عادتي على ظهـر السفينة الوعظ بقداس في الأيام المقدسـة، لكنني سوف أتحدث باختصار عما وقع لي في هذا العمل التقوي.

ففي أثناء حجي الأول، وعندمـا كنت أقـوم بالوعظ، قام واحـد من أبناء الشيطان بمقاطعة كلمة الرب عدة مرات يضحكه، ولم يمكن ابقائه هادئاً لا بالكلام الحسن ولا بالضرب، لابل ازداد ضحكاً، ومـاكان مني إلا أن حافظت على هدوئي، ولم أقم بعـد هذا بالوعظ بكلمة الرب، مع أن كثيرين رجـوني فعل ذلك، لأن الرجل العاقل قـد قال في الإلهيـات:

٣٢/ ٦:«لاتتفوه بالكلام حيث ليس هناك من يسمع»، وقال ربنا في متى: ٧/ ٦:«لاتعطوا القدس للكلاب، ولاتطرحوا درركم قدام الخنازير»، وكان —على كل حال— في حجي الثاني على ظهر السفينة رجال أكثر نبالة واحتراما، وكانوا رفقة جيدين، وقد اعتادوا على الطلب مني الوعظ بكلمة الرب لهم، الأمر الذي قمت به في جميع الأيام المقدسة، ومع هذا نلت بوعظي عدم رضا كثير من النبلاء، الذين اعتقدوا بأنني قد وصمتهم واتخذتهم أثناء وعظي أمثلة لاقتراف بعض الآثام، ذلك أنه مثلما يفعل الخنوع فيعطي بعض الأصدقاء، كذلك تفعل الحقيقة فتجني الكراهية.

ودفن الموتى هو أيضاً جزء من الخدمات الدينية، وكان يمارس على ظهر الغليون وفق الطريقة التالية: عندما كان أي انسان يقع مريضاً، كان يعترف لأي كاهن يختاره، لأنه في مثل هذه الحالة، تسود حالة الضرورة، التي فيها أي كاهن هو قادر على اعطاء الغفران، وعندما كان يقترب من الموت كان رفاقه يتولون خدمته والسهر عليه، لأنه — كما سلف وقلت — لايوجد قربان هناك، كما لايوجد مسح بالزيت، لأن الاستعدادات لم تتخذ لمثل هذا أيضاً، مع أن هذا الطقس من الممكن مراعاته، بما أن الزيت ليس هو المقصود، بل الاستخدام الذي صنع من أجله، والذي يتضمنه القداس، وعلى هذا يموت الرجل المريض بعد الاعتراف فقط، وعندما يصبح ميتاً، يلف بكفنه، ثم يضعونه في قارب، وينقلونه إلى أقرب شاطىء، إذا كانوا على مقربة من اليابسة، وهناك يقومون بدفنه بالمقبرة، إذا وجدت كنيسة هناك، وإذا لم يوجد يودعونه في الأرض في أي مكان كان، وإذا ماكانوا على مقربة من اليابسة، لكن البلاد هي من بلاد الكفار،لايأخذونه إلى الشاطىء، بل يلقون بجسده في البحر، وإذا ماكانوا بعيدين عن اليابسة، يأخذون الكفن، ويجلبون رملاً من قعر السفينة، ويصبون الرمل فوق الكفن، فيمددون الجسد

على الرمل، ويلفونه، ويربطون حقيبة مليئة بالحجارة إلى قدميه، ثم يقوم الكاهن بحضـور كل الذين في السفينة ويغني libram me Domine، ثم يأخـذ عبيـد الغليـون الجسـد، ويدعـونـه يسقط في البحـر باسم الرب، ومباشرة يغرق الجسد، وقـد أثقلته الحجارة، في الأعماق، وتصعد الروح إلى السماء، وغـالبـاً مـارأيت طريقـه الـدفن هذه، غير أنني لم أر طريقـة الدفن الأخـرى، التي يقول بعضهم بأنهم رأوها، حيث فيهـا يجري لف الجسـد بكفنه، ثم يربط إلى لوح، ومـن ثم يلقى به في البحـر مع اللوح، وهنا صحيح أنه عنـدمـا يكون الميت بـدون رفـاق، يفعلون مـايريدون بجسده، ويلقـونه بالبحر إما بدون حجـارة أو مع حجارة، أو مع لوح، وعندما يجري تمديد الجسد، يقوم محاسـب الغليون فيعمل لائحة مكتوبة بكل الممتلكات التي خلفها الميـت، ويقدمها إلى القبطان، ويقـوم بسداد ديون الميت، إذا لم يكن له رفـاق، أمـا إذا كـان له أصـدقـاء، فهم الذين يتدبرون هذا له، ويتولون دفنه في المرسى التالي الذي يصلون إليه، ومالم يكن الحجاج قـد عقدوا سلفاً إتفـاقاً مع القبطان، كما فعلنا نحن أنفسنا، يتسلم القبطان الفراش وجهاز النوم، والملابس العـائدة للميت، ويعتقد كثيرون أن هذه أفضل طريقـة للدفن، وهي مفضله على أن يهرس بوزن الأرض، وبناء على هذا يقـوم الأثيوبيون في الوقت الحالي بـرمي أمواتهم في نهر النيل — وذلك حسبما أخبرنا ديودور — لأنهم يـرون بأن النهـر أفضل من كـل ضريح آخـر، فســواء أجـرى أكل الجســد من قبل الحيوانات، أو أنه اهترأ هنـاك، فهو لن يلوث لاالهواء ولا الأرض، وإذا مـامـات واحـد من أعيـان البنادقـة في البحـر، يدفنون جسـده بالرمـال الموجـودة في داخل السفينة، ويحضرونه إلى البندقية، فهـذا قد رأيتـه، كما سأتحدث عنه في الصفحة ١٦٥ من القسم الثاني.

كيف يمضي الناس وقتهم على ظهر الغليون

يختلف أسلوب الحياة بين الحجاج على ظهـر الغليون تبعاً لأوضاعهم

المتنوعة، فهم يشغلـون أنفسهم بمشاغل متنوعة في سبيـل تمضية الوقت أثناء ابحارهم، ومالم يعرف الانسان كيف يتخلص من الوقت على ظهر الغليـون فلسـوف يجد الساعـات طويلة جـداً، ومتعبـة كثيراً، ولهذا فإن بعضهم مـاأن يغـادر المائـدة، حتى يبدأ بالتجـوال حـول الغليـون وهو يبحث عن مكان لبيع أفضل الخمـرة، فيجلس هناك ويمضي النهـار كله وهو يشرب الخمرة، وهذا يعمل بالعادة من قبل السكسون، والفلمنك، وأناس آخرون من الطبقة الدنيا، ويلعب بعضهم من أجل المال، ويلعب بعضهم بـاللوح والنـرد، وآخـــرون بـالنرد فقـط، وبعضهم بـالورق، وآخـرون بالشطرنج، ويمكن للانسان أن يقـول بأن معظمهم ينشغل في هذا النوع من تمضية الوقت، ويغني بعضهم بعض الأغـاني، أو يمضون وقتهم مع العـود، والمزمـار، ومزمـار القـربة، وآلات وترية، والقـانون، وآلات موسيقية أخرى.

ويتولى بعضهم مناقشـة قضايا دنيـوية، ويقرأ بعضهم الكتب، ويصلي بعضهم مع الخبــز، ويجلس بعضهـم يتأملون بدون حــركــة، ويصرخ بعضهم بصـوت مرتفع وبسرور صـادر عن القلب، ويضحك بعضهم، وبعضهم يصفــر، ويعمل بعضهم بأيديهم، وينام بعضهم صـــدوراً عن الكسل، ويمضي بعضهم الـوقت كله تقــريبــاً وهم نيـــام في مخادعهم، ويركض بعضهم فوق حبال الأشرعة، ويقفز بعضهم، ويعرض بعضهم قـوته برفع بعض الأوزان الثقيلة، أو تنفيـذ بعض البراعـات الأخـرى، ويرافق بعضهم هؤلاء جميعـاً، ينظر إلى الأول قليـلاً، ثم يقف فينظر إلى الآخـر، ويجلس بعضهم فينظر إلى البحـــر وإلى اليـابسـة التي يعبرونها، ويكتب عن ذلك، ويعمل كتب رحـلات، وهذا مـاكنت أفعله واشتغل به يومياً، وذلـك خارج الساعـات الدينية المتقـدمة الذكـر، لأن الرجال المنشغلين لايملون من الحياة حتى على ظهـر السفينة، ولقد كتب جيروم رسائل جميلة جداً إلى آسيلا Asella حول الأصدقاء المزيفين عندما كان

على ظهر السفينة، وذلك لدى عودته من روما إلى القدس.

وأخيراً هناك شغل آخر بين جميع ركـاب البحر، شغل مع أنه مقيت، هو عام جـداً يومياً، وضروري، وأعنى بذلك اصطيـاد وامساك القمل، والهوام، وإذا لم يمض الانسان عدة سـاعات في هذا العمل عندما يكون حـاجـاً، فإنه لن ينام نومـاً هـادئـاً، ونقـرأ في «حيـاة الفـلاسفـة» عن الفيلســوف هوميروس، بأنه كــان في أحـد الأيام يمشي على شــاطىء البحر، وإذا بسفينة تتوقف هناك، على ظهـرها جلس رجال يبحثون عن القمل ويضحكون، وعندمـا سألهم الفيلسـوف، لماذا يضحكون، أجـابه أحـدهم قائـلاً:«نحن نضحك لأن كل الذي أمسكناه، لم نحصل عليـه، والذين لم نمسكهم نحتفـظ بهم»، ووقتهـا صرف هوميروس تفكيره إلى اصطيـاد السمك، ولم يستطع فهم هذا اللغز، ولهذا أصبح متألماً جـداً في قرارة نفسه، وصار مجنونا، وقتل نفسه بالشنق.

ويتم الانشغـال بهذه الأعمال والاهتمام بها تبعاً لأحـوال الأنواء، لأن أوضاع الناس تتباين بشكل مدهش في البحر، أكثر مما يكون عليه الحال فـوق اليـابسة، وذلـك تبعاً لتأثير الأجسـام السماوية، ولفعـاليـة الهواء، وحـركـة البحـر، وغـالبـاً مــارأيت أيامـاً، كنا فيهــا جميعـاً مبتهجين، ومسرورين، ورفقة جيدين، فما من أحد نائـم، بل كل واحد فرحان من قلبـه، وبالمقابـل رأيت أياما، كـان فيهـا صمت عميق، وسكون رهيب، حيث من غير الممكن سماع صــوت انســان، والجميع إمـا قــد غلبهم النعاس، أو جلسـوا وهم يشعرون بالحزن، وغـالباً مارأيت الحجـاج قد اتحدوا مع بعضهم في حـالة سـلام عظيم ووئام، وكـأنهم جميعاً أخـوان، وأبناء أم واحـدة، كما أننـي بالمقـابل رأيت في بعـض الأحيـان كثيراً من المشاحنـات، وتفجر للخـلافات من أسبـاب لاقيمة لها مطلقـاً، إلى حد يغدو الغليون فيـه مثل الجحيم بشتائمهم ولعناتهم، ولقد كتبت هذا من أجل تبيان حقيقـة أن حركة الانفعالات الانسـانية، هي أكثر عنفـاً فوق

الماء منها في أي مكان آخر، وهكذا رأينا كيف يمضون الساعات على ظهر السفينة، وبالنسبة لي كان اليوم دوما ينقضي قبل أن أنهي عملي.

كيف يأكل الحجاج على ظهر الغليون

عندما تقترب ساعة الغداء أو العشاء من الحلول، ينهض أربعة ممن ينفخ بالأبواق، ويصوتون بأبواقهم دعوة إلى المائدة، ولدى سماع هذه الدعوة يركض جميع الذين كانوا جالسين إلى مائدة القبطان، بأقصى سرعة نحو القيدوم، ويفعلون ذلك كي يحصلوا على مكان مناسب يجلسون فيه بشكل مريح، ويوجد هناك ثلاث موائد نصبت بشكل نظامي فوق القيدوم، والذي يمكنه الجلوس إليهم سوف يكون بحالة مرضية، لكن الذي يأتي متأخراً يتوجب عليه الجلوس خارج القيدوم، على مقاعد عبيد الغليون، وذلك بشكل غير مريح في الشمس، أو المطر، أو الريح، وفي الجلوس إلى المائدة لايوجد ترتيب، بل الذي يأتي أولاً يجلس حيث يريد، ولايقوم الرجل الفقير بافساح الطريق إلى الغني، ولا الفلاح إلى الغني، ولا العامل للكاهن، ولا الرجل العادي للحكيم المتعلم، أو الخادم للراهب، وذلك مالم يظهر أحدهم تقديرا واحتراماً لآخر من باب الصداقة الخاصة، وسبب الحاجة إلى النظام والتقدير فيما أتصور، هو أنهم جميعاً يدفعون المال نفسه إلى القبطان، العظيم والصغير في ذلك سواء.

وأعتقد تماماً لو أن الشخصيات من المراتب العليا دفع أحدهم ستين دوقية ودفع الانسان العادي البسيط عشرين، أوقام القبطان فأخذ مالاً من كل انسان حسب مكانته، وقتها من الممكن اظهار التقدير والاحترام من الصغير إلى الكبير، ولهذا السبب يأكل النبلاء الذين لديهم خدمهم معهم، دوماً على مقربة من السارية (على ظهر السفينة)، أوفي مخادعهم (تحت) مع استخدام الاضاءة، حتى في منتصف النهار، لأن الجو هناك مظلم، وقبل بداية الوجبة يقدم دوماً لكل واحد خمرة حلوة، أما الطعام

الذي يلي ذلك، والذي يقدم إلى جميع الضيوف، فقد أعدّ وفق الطريقة الايطالية، حيث هناك سلطة خس أولاً مع الزيت، وإذا توفرت توابل خضراء تقدم أيضاً، وفي وجبة الغداء هناك قطعة من اللحم مع معجنات، أو صحن من الخبيص، أو طحين قمح أوشعير مطبوخ، أو ثريد مع جبنة رقيقة، وفي أيام الصوم، عندما لايؤكل اللحم، يجري تقديم نوع من السمك الصغير الذي اسمه Zebilini، وهو مملح، ويكون معه زيت وخل، أو معجنة مصنوعة من البيض، وكذلك حلوى، ويجري تقديم خبز طازج عندما تكون السفينة على مقربة من أحد الموانىء، لأنه من غير الممكن الحفاظ على الخبز طازجاً على ظهر الغليون، بعد اليوم الخامس، ولدى عدم توفر الخبز الطازج، يقدمون كعكاً خبز مرتين، وهم يدعون هذا النوع باسم البقسماط، والذي يبلغ من القسوة حداً أنه مثل الحجارة، لكنه يصبح على الفور ليناً، إذا جرى صب الماء و النبيذ عليه، ويعطى لكل واحد من الخمرة بقدر مايستطيع أن يشرب، وأحياناً تكون الخمرة سميكة، وأحياناً رقيقة لكنها دوماً جيدة المزج والخلط بالماء، ويجري تقديم وجبة الغداء بسرعة، ويتم جلب كل شيء إلى الحجاج بسرعة، ولدى الفراغ من تناول طعام الغداء، ينفخ حملة الأبواق بأبواقهم، وبعد إزالة أغطية الموائد، يجري ثانية وضع الأطعمة عليها بشكل مهيب للقبطان ولأركانه، ومائدته اقتصادية أكثر من مائدة الحجاج، لكن طعامه يجلب إليه في صحون فضية، ويجري تذوق مشروبه قبل ان يقدم إليه، مثلما يفعل للأمراء في بلادنا.

ولا تأتي النساء من الحجاج إلى المائدة العامة، بل يبقين في مخادعهن، ويأكلن هناك وينمن، هذا وامتلك موالي طباخهم الخاص، ومكان خاص بهم للأكل، ويأكل عبيد الغليون بشكل جماعي كل ثلاثة منهم مع بعضهم، على مقاعد تجذيفهم وهم يقومون بتحضير طعامهم، وغالباً

مـارأيتهم يأكلون لحماً مـايزال لـونه أحمر بدمـه، وإذا مـارغب الحجـاج بالحصول على شيء خـاص من المطبخ، يتوجب اظهـار المال للطباخين، لأن هناك ثلاثـة أو أربعـة من الطبـاخين سريعي الغضـب، وليس من الممكن تهدئتهم إلا باعطاء المال لهم، ولايهتمـون مطلقاً بالوعـود بالمال، هذا وليس عجباً أن يكون الطباخين سريعي الغضب إلى هذا الحد، حين نرى أن المطبخ ضيقـاً، وهناك أوعيـة وآنيـة كثيرة، وكثيراً مـن الأشيـاء المتنوعـة التي ينبغي طهيهـا، والنـار صغيرة، وكثير من الصراخ يدوي خارج المطبخ، وعدد كبير من الناس يطلبون صنع أشياء لهم، يضاف إلى هذا إن عمل الطبـاخين يثير دومـاً شفقـة الانسـان، ويرفـض النبـلاء والفرسـان دوماً الطعام الذي يقدمـه القبطان، وتراهم يعطون الطباخين مبالغ كبيرة من المال، للحصـول على وجبات خاصة من الطعـام أعدت لهم، ويقومـون بالوقت نفسه بإعطاء طعام القبطان إلى الفقـراء من عبيد الغليـون، واللحم الذي يقـدمـه القبطان مقـرف بشكل خـاص، لأنهم يذبحـون الحيـوانات التي يرون أنها لـن تبقى حيـة، وكـذلك الأغنام المريضـة، وهم في الحقيقة يذبحـون الحيـوانات التي يرون أنها مريضـة، وسوف تموت ذاتياً، وباستثناء ساعـة الغداء مامن خمرة تقدم إلى الحجاج من مخزن القبطان، لكن عبيـد الغليـون أنفسهم كـانوا قـد اشتروا خمرة ممتـازة، يقومـون ببيعها إلى الحجـاج، وفي الأنواء العاصفـة يجري الأكل والتقيؤ في الوقت نفسه.

كيف أن نوم الحجاج على ظهر السفينة غير هادىء

يجلس الحجـاج بعـد العشاء، ويتحـدث أحـدهم مع الآخـر، ويكون ذلك على الطابق العلوي من السفينة وعلى مقربة من السـارية الرئيسية، ولايذهبـون إلى الفـراش إلاّ ومعهم مصـابيـح، وعندمـا يذهبـون نحـو الأسفل مـن أجل الاستراحـة، سيكون هنـاك اضطراب هائـل، أثناء اعدادهم لفـرشهم، فالغبـار يثور، وتتفجـر خلافات عظيمـة بين الذين

يتمـددون بجـوار بعضهـم، خصـوصـاً في البـداية، قبل أن يعتـادوا على ذلك، ذلك أن كل واحـد يلوم جاره لتجـاوزه على مخدعـه مع فراشـه، وينكر الآخـر ذلك، ويصر الأول على أنه فعل ذلك، ثم يستـدعي كل واحد رفاقه للمساعدة، ويحدث أحيـاناً أن جماعات الحجاج كلها تتقاتل مع بعضهـا بعضـاً، ولقـد رأيت أثناء هذه الخصـومـات بعض الحجـاج ينقض أحـدهم على الآخـر بسيوف مجردة، وخناجـر، وهم يصرخـون، محدثين فـوضى مـرعبـة، ووقتهـا لو تدخل محاسـب الغليـون —الذي وظيفته هي توزيع المخادع بشكل متساوي — لجرى تمزيقه إلى قطع من قبل الحجاج، ولدى انتهاء هذا الخصام، أوالافتراض أنه لن ينفجر ثانية، يأتي بعضهم إلى فـراشـه متأخـراً، ويجعلون أنفسهـم غير متـوافقين مع الآخرين بمصابيحهم المضاءة، وأحاديثهم العالية الصوت والطويلة.

ولقد رأيت بعض الحجـاج الحادي الطباع يلقـون بمبولة الغـرفة على المصـابيح المشتعلة، وعندها يتفجر للمـرة الثانيـة خصام عظيم، ويقـوم بعضهم بعد اطفاء الأنوار بتسويـة مشاكل العالم مع جيرانهم ويستمرون أحيـانا بالحديث حتى منتصف الليل، وإذا ماقـام أي واحد بتـوبيخهم، وطلب منهم السكوت سوف يصرخون أكثر، ويبـدأون خصاماً جديداً، وعلى هذا إن لم يكـن هناك بعض ذوي الفضـائل ورجـال مـن أهل الاحترام، يتولون تسـوية هذه الخصومات، لن تمر الليلة بسلام، خـاصة عندما يكون هناك فلمنكيين سكارى.

هذا وهناك معيقات كثيرة للنـوم إلى جانب ماتقـدم ذكره، فـالرهبان الذين اعتادوا على النوم لوحدهم في قلاياتهم، يجدون من الصعب النوم على ظهـر السفينة، بسبب عـدم استقـرارهم، أو بسبب شخير جيرانهم، فخـلال عدد كبير من الليـالي لم أغمض عينيي أبداً، وعـلاوة على ذلك، ان ضيق المكان من أجل فراش الانسان الواحد، وقسوة الوسائد، تجعل الانسان غير مستقر، حيث من الصعب أن يتحرك أحد الحجاج دون أن

يلمس جـــاره، فضـــلاً عن هذا،المكان مغلـق، وعظيم الحرارة، وملىء بالروائح القذرة المتنوعة، حيث لابد للانسان من أن يتعرق طوال الليل، ممايفسد راحـة الانسان بشكل عظيم، والقمـل والبعوض والهوام تسرح هناك بأعـداد لاتحصى، وهناك أيضـاً فئران وجـرذان، ويمكنني القـول أنني غالباً ماقمت بهدوء كل ليلة، وصعدت نحو الهواء الطلق، فشعرت وكأنني تخلصت من سم قذر.

وتعاق الراحة أيضاً من قبل أنـاس لايعرفون الاستقرار أثناء نومهم، ثم إنهم يشخـرون ويتكلمون وهم نيـام، ويئنون وهم مرضى، وكـذلك بسبب سعالهم ولعناتهم،وكنت في إحدى المرات لبعض الوقت على ظهر غليـون، حيث وقفت الخيـول والبغـال على الظهـر فـوقنا، وقـد تابعـوا أحداث الضجـة المستمرة بحـوافرهم على الألواح طوال الليـل والنهار، ونضيف إلى هذا ركض البحـارة هنا وهناك فـوق رؤوسنا، وصـوت البحر، وأشيـاء أخرى كثيرة، تذهب براحـة الحجاج، هذا وهناك الكثير للقول حول هذا الموضوع.

*** ***

وبالإضـافة إلى هـذا كله، هناك الحر الصادر عن الشمـس فوق ظهـر المركب، والظـلام في القمـــرة، والاكتظاظ، والحرارة القـــذرة، والهواء الملوث الثقيل، ومع أن هبوب الريح أسـاس للذين يبحرون في السفينة، هو مع ذلك غير مـريح كثيراً، لأنه عندما تبـدأ السفينة بالتأرجح بسبب الريح، يصير الحجـاج سكارى ومـرضى، وكل واحـد منهم يرتجف إلى حـد أنه يتقيـأ كل مـافي معـدتـه، وتصبح أحشـاؤهم كلهـا تعـاني من الجيشـان، كما أنه لن يكون من الممكن البقـاء على ظهـر المركـب، بسبب قـوة الريـح، وبسبب الميـاه التي تنقـذف فـوق السفينة، وعمل، وسعي الملاحين إلى هنا وهنـاك، كما أنه من غير الممكن للحجـــاج البقـــاء في مخادعهم، إذا مارفع الشراع فوق المكان الذي فيه مخادعهم، حيث عليهم

وقتها العبور إلى الجانب الآخر، وعلى الانسـان إدارة فراشه، بأن يضع القـدمين في المحل الذي كان الرأس فيـه، والرأس أيضاً محل القـدمين، وذلك بسبب ميلان السفينة إلى جانب واحـد، من خلال قوة الأشرعة، عـلاوة على ذلك يملأ الدخـان الصادر عن المطبخ السفينة أثناء هبـوب الرياح، وفي بعض الأحيان يضايق الحجاج كثيراً.

وفي أثناء العـاصفـة يصير الأصحـاء من الرجـال مـرضى، ويزداد المرضى ضعفـاً، يضـاف إلى هذا أن استمـرار نضح الميـاه القـذرة مثير للحجاج بسبب الرائحة النتنة الصـادرة عنها، ولأنهم وقتها يمنعون من الصعـود إلى ظهـر السفينة، أو النزول من الظهـر، طالما النضح مستمـر، والذباب أيضاً الذي يملأ السفينة، هو مصدر اضطراب عظيم، وكذلك القمل والبعـوض، وكـذلك التعـاسـة الصـادرة عن التعـرق تجلب من الضيق إلى الانسان أكثر من الهوام الحية.

ومع مـرور الأيام تتـوالد الفئران والجرذان في السفينة بأعـداد هائلة، وتراهـم يسعـون طوال الليل، ينقبون أوعيـة الانسان الخاصـة، ويشقون طريقهم إلى داخلهم، فيلوثون الطعـام، ويتلفـون الوسـائـد والأحـذية، ويفعلون هذا كله أو بعضه في أوقات مختلفة، لأنهم لايظهرون دوماً على ظهـر السفينة، بل فقط في مـوسمهم الخاص، فعندمـا تهب رياح محددة تختفي جميع المخلوقات الحية الموجودة على ظهر السفينة أو تهلك، وذلك من أمثال الـذبان والقمل والفئران، وماشـابه ذلك، ولاتعود مـوجودة، لكن عندما تختفي هذه الريح أو تتغير، تتوالد ثانية، ويزعج البعوض في موسمـه الحجاج كثيراً بأصواته ولسعـه، فضلاً عن هذا يلد من الرطوبة على ظهـر السفينـة علق أبيض سمين يدب في كل مكان، ويـأتي خلسـة فوق أرجل الرجال ووجوههم، وعنـدما يعي الانسان وجودهم، ويضع اصبعه عليهم، ظاناً أنهم ذباب، يتفجرون ويلوثون المكان الذي يكونون متعلقين به، بالـدم، ومع هذا كله هنـاك هوام قـذرة كثيرة تتـولد من

العفـونة على ظهـر الغليون، لكن مـامن شيء سـام يمكنه أن يتـوالد أو يعيش هناك، حيث لاوجـود هناك للعقارب أو للأفـاعي، أو للعلجوم، أو الثعابين السامـة، أوالعناكب، لأن مياه البحر تطرد السم، وتشفي من لسع العقارب، ومن عضـات الأفاعي والثعـابين، وهي عدو للزواحف من كل نوع، ولولا أن الحكمة الالهية قد أمرت بذلك، مامن انسان كان بامكانه أن يعيش على ظهر سفينة قديمة واسعة.

وهناك أمر مـزعج آخر للحجاج هو مدّ فـرشهم في المساء، ولفّهم في الصبـاح حيث يتوجب في الصبـاح على كل انسـان، لف فراشـه وربطه بحبل، وذلك مع الأغطيـة، والوسـائد، والبيـاضـات، وتعليقهم على مسامير جرى تثبيتها على جانب السفينة، فوق رأسه، ويكون ذلك حتى نهاية النهار، والغرض من ذلك توفير ممرات بلا عوائق (خلال القمرة)، ويأخـذ الحاج في المسـاء فـراشـه وينزله، ويحله، ويـرتبـه، ويسبب هذا متاعب كثيرة.

وأخيراً إن انعـدام الثقـة بعبيـد الغليـون وسرقـاتهم، يزعج الحجـاج كثيراً، لأنه لايمكن تأمينهم على أي شيء، لأن عبـد الغليـون يسرق كل مـاتطاله يـده أو يضعهـا عليـه، ولهذا محظور على الملاحين النزول إلى الأسفل حيث مخادع نوم الحجـاج، هذا ولايتجرأ أي منهم على الإقـدام على ذلك، وهـم لايتجرأون حتى عندما يدعوهم الحجاج، ولاينزلون إلى الأسفل.

تحذيرات من الأشياء التي ينبغي على الحاج أن يكون محترزاً منها عندما يكون في رحلة بحرية

على الحاج إلى الأرض المقـدسـة أن لايكون محترزاً فقط من أن يذنب في عقله، وأن يجلب الخوف إلى نفسه، بل أن يحترز ضـد الاهمال، خشية أن يتلقى جـرحـاً لجسـده ولحيـاته، ولهذا أريد في هذا الموضع أن أدون

التحـذيرات التي يحتـاجهـا الحاج عندمـا يعبر البحـر، ولا أريد تقـديم النصيحـة التي هـي من اختصــاص الطبيب، حيث هـو الذي يتــولى تقـديمهـا، بل تحذيرات صـديـق مع الذي تعلمتـه بالخبرة، لأن الطبيب يحذر بشكل عـام الحجاج بأن يكونـوا منتبهين من الفواكـه، ومن شرب الماء، ومن هواء البحـر، ومن السمـك، ويقـدم الطبيب النصيحـة ضـد الحر، وينصح طبيب آخــر ضـد البرد، أمـا ضــد العطش، والامسـاك، والاسهال المفرط، فيقدمون كثيراً من العلاجات، وطرق الخلاص، وأما بالنسبة لفقدان الوعي، ولتشجيع شهية الطعام، وللتخلص من السموم، فإنهم يقـدمـون كثيراً آخـر من طرائق الخلاص، كما يقـدمـون كثيراً من النصائح الأخرى إلى الذين يسافرون بالبحر، وهي أشياء من المؤكد أنها مفيـدة وجيـدة، وبالنسبـة لهذه القضـايـا، من المنطقي اتبـاع توجيهـات الأطبـاء دون ســواها، ومع ذلك أعترف بأن مــايلي هو مـاقــد رأيتـه شخصياً: فلقـد عرفت حجـاجاً كـانوا حريصين ومنضبطين تمامـا باتباع نصائـح أطبائهم، إلى حد أنهم كـانوا لايتجرأون على ابتـلاع أو فعل أي شيء مـالم يكونوا قـد أوصـوهم به، ومع ذلك يصبح بعضهم مـرضى، وضعفاء أثناء حجهم، وبعضهم يموت.

وبالمقابل، رأيت أناساً يأكلـون ويشربون، ويفعلون كل مايرغبون به، وفي البحـر وعلى اليـابسـة، ولايحافظون على نظام، أو قـواعـد للطعـام، وتراهم في الغالب يتطرفـون ويبالغون ومع ذلك لم يذهبـوا إلى فراشهم، وهم دومــا مبتهجين، وسعـداء، وأنا حين أكتب هذا ليس لـدي رغبـة للإيحاء إلى أن المتقــدمي الذكــر يمـوتون بسبب شــدة عنايتهم بأخــذ الأدوية، وأن الأواخـر يبقون أحيـاء بسبب إهمالهم، بل إظهار أن مـامن شيء هو مــؤكـد حــول الحظ، ولندع الحاج يدع نفســه أولاً إلى عناية الرب، وبعـد ذلـك إلى عناية أطبـائـه إنما بدرجـة معتـدلـة، وعليـه في المجـالات الأخرى أن يـراعي التحذيرات التـاليـة: على الحاج أن يكون

حذراً تجاه السباحة في البحر العميق من أجل الاغتسال، لتوفر مخاطر مضاعفة حتى بالنسبة للذين يعرفون السباحة بشكل جيد، وليكن متيقظاً تجاه كل شيء، عندما يكون على ظهر السفينة، عندما يعبر من مقعد متصالب إلى مقعد آخر، خشية أن يسقط، لأن السقوط في أي مكان على ظهر السفينة خطر، وعليه دوماً أن يصعد من، أوأن ينزل إلى المكان الذي فيه المخادع أو أماكن النوم بالتيقظ الموجب، فأنا شخصياً قد وقعت مرتين على هذه السلالم نفسها، وإنه لعجب أنني لم أتمزق إلى قطع، وبعد هاتين الوقعتين صرت أصعد وأنزل وأنا حذر ومتيقظ، ولقد رأيت بعض الناس يسقطون ويكادون يقتلون أنفسهم، وليكن حذراً جداً لدى الذهاب إلى موضع الخلاء، لأن طريق النزول إلى هناك خطر، وعليه عندما يكون سائراً على جانب السفينة، أن لايثق بأي من الحبال، مالم يقم بشده بيده، والتأكدمن أنه ممدود بشكل ثابت وقوي، لأن الحبل إذا انفلت لدى محاولته الامساك به، سوف يجعله يسقط في البحر، وليحذر الحاج من إهانة أو اغضاب عبيد الغليون التعساء، لأنه قد يحدث أن يكونوا ذوي فائدة عظيمة له، أو أنهم قد يؤذونه ايذاء كبيراً ويجرحونه، وعليه أن يحسن التعامل مع بقية رجال السفينة، وأن لايثير الكراهية ضد نفسه، ذلك أنه أمر مدمر بالنسبة إلى أي انسان أن يكون له أعداء على ظهر السفينة، فلقد رأيت حاجاً متكبراً أهان فأغضب عدداً كبيراً من الناس، ثم آل الحال بهذا الرجل نفسه إلى وضع تعيس على ظهر السفينة، فقد أرغم على التماس العون من الذين أهانهم، حتى أن بعض الناس الأكثر تقوى عندما قدموا بعض المساعدات له، تشكك بأنهم يحتقرونه، لأنه عرف بأنه يستحق الاحتقار.

وعلى الحاج الحذر من احتلال مكان سواء على الظهر أوفي الأسفل عائد لانسان آخر، إلاّ إذا حدث ذلك بموافقة ذلك الانسان التامة، وله في النهار الحق بالوقوف على مقربة من السارية، فذلك المكان عائد إلى

الجميع، لكن في الليل لاحق له بأي مكان، إلاّ بمخدعـه، لأنه إذا ماقام انسان بالتردد ليـلاً على مكان إلى جانب مخدعـه، يعدّه الذين لايعـرفونه لصـاً، وعلى كل حـال، إنه إذا لم يستطع —لسبب مـا— الجلوس بهدوء في مخدعه، يمكنه الصعود إلى الظهـر، وأن يجلس على بعض المصنوعات الخشبيـة على جوانب السفينة، وأن يدع قـدميه تتأرجحـان نحو البحـر، وأن يمسك بالحبل الذي يدعم السارية، ولسـوف تعلم التجربة الانسان كثيراً حول هذه القضايا، التي قد يجد مـن الصعب تصديقها عندما يخبر بها للمرة الأولى.

وعلى الحاج أن يكون متيقظاً عندمـا يجلس على سطح المركب، حتى لايجلس على أي من الحبال، خشية أن تتغير الريح فجأة، فيقذف به فوق السطح، أويجرح بوسـاطة الحبال، وعليـه أن لايلمس الحبال، بأي حـال من الأحـوال، لدى شـدهم لها، حتى لاتتمـزق يده، أو تنفصم اصبعـه بسبب العنف، لأنهم يشـدونها بعنف عظيم، ويحركـون بـذلك أوزاناً هائلة.

وعلى الحاج عـدم الجلوس في أي مكـان تعلق فيـه البكرات فـوقـه، حيث يمكن في وقت طيران السهم أن يصاب بجـراحة بليغة أوأن يقتل فـوراً، كما حـدث لموجـه الغليـون الذي أتيت على ذكـره في ص١١٨، وعليه أن يكون حذراً من الحصول في طريق الملاحين عندما يكونوا على وشك الانطلاق نحـو أعمالهم، لأنه مهما كـان عـالي المقـام، لابل حتى لوكان أسقفاً، هم سيدفعـونه، ويلقونه أرضاً، ويدوسونه، لأن العمل في البحر ينبغي أن ينجز بسرعة مثل البرق، ولايقبل أي تأخير، كما أن عليه عدم المشاركة في أعمالهم، لأن هذا يزعجهـم، وفوق كل شيء عليه عدم البقـاء معهم على السطـح أثناء الليل أثناء العـاصفـة، وعليـه أن يكون متيقظاً ومتنبهـاً إلى المكان الذي سيجلـس عليـه، خشيـة أن يلتصق بمقعـده، لأن كل مكان مغطى بالزفت، الذي يصبح ليناً بسبب حـرارة

الشمس، وكل من يجلس فوقه يرجع بثيابه وقد اتسخت.

وعليه أيضاً أن يكون متيقظاً، عندما يجلس مريحاً نفسه على جانب الغليون، وأن لايمسك بيده أي شيء ثمين، حتى لايسقط في البحر، فأحد النبلاء كان جالساً مرة إلى جانبي سقطت من يده سبحة ذات أحجار ثمينة، وكانت لديه غالية جداً، وكان على غير استعداد للتخلي عنها مقابل عدد كبير من الدوقيات،وقد ضاعت منه دون أمل باستردادها، وحدث أنني عندما كنت جالساً هناك أقرأ قداسا مسائياً من أجل الميت، سقط الكتاب من يدي في البحر وتلف، وسقطت أشياء كثيرة وفق هذه الطريقة من أيدي الناس بسبب قلة الانتباه، ولاسيما القبعات، حيث كانت تطير من فوق الرؤوس عندما تكون هناك ريح قوية.

وعلى الحاج عدم حمل مصباح على السطح أثناء الليل، لأن البحارة لايحبون هذه الأعمال الغريبة، وليس بإمكانهم تحمل الضوء أثناء عملهم، ولهذا السبب يطفئون المصابيح كلها أثناء العواصف أو يغطونها بالمكاييل، حتى في داخل القمرة، وعلى الحاج أن يحرس بعناية مقتنياته، وأن لايتركهم بدون حراسة، حتى بين أصدقائه، لأنه ماأن يدير وجهه حتى تكون قد ذهبت، وعليه أن لايترك ماله في صندوق في مخدعه، بل عليه حمل هذا المال معه دوماً، موضوعاً حول جسده، وأن لايعهد به لا إلى خدمه أو رفاقه، لأن الناس ميالين بشكل غريب إلى ممارسة دور اللص على ظهر السفينة، مع أنهم قد يمقتون اللصوصية عندما لايكونون في البحر، وأكثر مايكون عرضة للسرقة الأشياء الشخصية مثل المناديل، والأحزمة، والقمصان، وماشابه ذلك، لأنه حتى بين الرفاق يسرق أحدهم مثل هذه الأشياء من الآخر، لأن الانسان غالباً مايحتاج إلى أشياء على ظهر السفينة ولايمكنه العيش بدونها، فيحصل عليها بأية طريقة، سواء أكانت صحيحة، أم خاطئة، ويزود نفسه بها.

وعلى سبيل المثـال، في أثناء قيـامك بـالكتـابـة، إذا وضعت قلمك، والتفت بوجهك، فـإن قلمك سـوف يضيـع، حتى وان كنت بين أناس أنت تعرفهم، وإذا مافقدت قلمك سوف تواجه متاعب عظيمة في سبيل الحصول على قلم آخـر، وهذه هي الحال مع أشياء أخـرى كثيرة، ويبدو أن القانون البحري مايزال يحتفظ بالشريعة المصرية القديمة جداً، التي لم تحرم اللصـوصيـة، بل أمرت كل الذيـن رغبوا في أن يكونوا لصـوصـاً، بتـدوين أسمائهم في بيت الكاهن الرئيسي، وأن يحملوا إلى هناك مبـاشرة كل شيء سرقوه، وبالطريقة نفسها طلب من الذين سُرق منهم أي شيء أن يكتبـوا رواية عن ذلك يذكرون فيهـا الوقت، واليـوم والساعـة التي فقـدوا بها مقتنيـاتهم، وبهذه الـوسيلة كـان ممكنا بسهـولـة البحث عن اللص، وترد الحاجـة المسروقـة، باستثناء ربعهـا، الـذي كـان يعطى إلى اللص، فبما أنه كان من غير الممكن منع اللصـوصية، رأى المشرع أنه من الأفضل أن يعـاني الانسـان من خسـارة شطر من حـاجيـاته بدلاً من فقـدانها كلهـا، ومن الممكن قـراءة هـذا في الكتـاب الثـاني من التـاريخ القديم لـديودور — الفصل الثالث، ومثل هذا جـاء في الأمثال: ٦/ ٣٠ قـوله:«ليس هناك ذنب عظيم في السرقـة»، وفي الحقيقـة، في الشريعـة القـديمـة لم يكن اللصـوص يعـاقبـون بالموت، كما هو واضح من سفـر الخروج:٢٢/ ١، بل كانوا يغرمـون بالتعويض عن ذلك، وعلى كل حال إنه إذا كانت الشريعة كاملة، ينبغي اعدام اللصوص في المجتمع الانساني العـادي، لكن على ظهر السفينة يبـدو أن الأمـر مختلف، لوجود الرغبـة بالسرقة، خاصة السرقات الصغيرة، وهذا يزداد بين الرجال أثناء السفر.

وفي الموانىء على الحاج أن يكون حـذراً فـلا يغـادر غليـونه، فيضل سبيله هنا وهناك، لاسيما في الأماكن المنعـزلة قرب الشـاطىء، خشية أن يقع فجأة بأيدي القرصـان، فيجعلون منه عبداً في منتهى التعـاسة طوال حياته كلها، وهذا أمر غالباً مـاوقع لكثير من الرجال، فأنا أعرف فارساً

أمسك وحيداً على مقربة من البحر، تحت أسوار المدينة، وسلبت منه أمواله والأشياء الثمينة التي كانت معه من قبل السكان هناك.

وعليه أن يكون حذراً فلايدخل أي بيت لدى إغرائه من قبل النساء، لأن في ذلك خطر عظيم إذا فعل ذلك، وليس ذلك متعلقاً بشرفه وحاجياته، لابل حتى بحياته، وعلى كل من يسعى وراء الاستقامة والشرف، ويريد الحفاظ على حجه المقدس دون تلويث، عندما يكون في الموانىء، السير في الخارج في النهار، لكن عند اقتراب المساء، عليه العودة إلى غليونه، والنوم هناك سليماً في مخدعه، لأن النزل على جزر البحر، هي بيوت سيئة السمعة، كما وضح مماجاء في ص١٢٧، ومامن أحد يستقبل حجاجاً ألمان في بيته، إلاّ أصحاب البيوت السيئة السمعة، ومعظم هؤلاء من الألمان، الذين يسكنون هناك مع عاهرات، مع أنهم يبعدوهن عندما يدخل الحجاج إلى بيوتهم، وبناء عليه يمكن للحاج الجيد والتقي الإقامة في بيت من البيوت خلال النهار مع رفاقه، لكن لايجوز له النوم هناك مطلقاً، والتجربة سوف تعلم الانسان أشياء أخرى عليه تجنبها والابتعاد عنها. ويتوجب عليّ الآن العودة إلى سياق خبر أدائي لجولاتي ورحلاتي.

هنا نهاية الفصل الثاني.

الفصل الثالث

ويحتوي على وصف لأعمال الحجاج إلى الأرض المقدسة
خلال شهر حزيران،
الذي وصلوا فيه إلى حدود الأرض المقدسة

في اليوم الأول من شهر حزيران بدأنا رحلتنا البحرية، وكان هذا اليوم هو يوم الأحد الأول بعد عيد الثالوث المبارك، فقد نهضنا في ذلك الصباح باكراً قبل شروق الشمس، وحملنا جميع حاجياتنا في قارب كبير اكتريناه وقد وقف على باب نزلنا، وبعدما قلنا وداعاً لكل واحد في النزل، أقلعنا وعبرنا من خلال القناة الكبيرة إلى خلف المدينة، وتابعنا سيرنا إلى القديس نيقولا في الليدو، وتركنا هنا واحداً يتولى حراسة أغراضنا في القارب، ودخلنا إلى الكنيسة، وكانت كنيسة كبيرة، مع دير للبندكتيين ملاصق لها، وبحثت عن المسؤول عن القداسات، وطلبت منه رقائق الخبز التي كان قد وعدنا بها، وطلبت منه تزويدنا بزجاجة من الخمرة الجيدة، وذلك بالإضافة إلى نبيذ القداسات، وأن يضعها على المذبح، وعندها وضعت عليّ ألبستي المقدسة، وذهبت إلى المذبح، حيث عملت قداساً أعددته ليوم الأحد، وكان ذلك بحضور الحجاج، وبعد القداس توليت مباركة الخمرة التي جلبت إلينا في الزجاجة بمباركة القديس يوحنا الانجيلي، وأعطيتها إلى موالي الحجاج ليشربوها محبة للقديس يوحنا، حتى تكون رحلتنا سعيدة وناجحة، وبعد إنجاز هذا بكل تقوى صعدنا ثانية إلى قاربنا، وأبحرنا حتى ميناء البندقية، القائم بين قلعتين، كانتا تتوليان حراسة مدخل ذلك الميناء، ذلك أن غليوننا كان راسياً في البحر على بعد حوالي الميل خلف الميناء، وفيما نحن في طريقنا هبت ريح قذرة، فأعاقتنا، حتى أننا احتجنا إلى ساعتين للوصول إلى الغليون، وكان ذلك مع صعوبة كبيرة، وعندما وصلنا

أخيراً إلى هناك، وجدنا الغليون مليئاً بالناس، ورفاقنا الذين بعثنا بهم مقدماً إلى هناك قبل أربعة أيام، ضعفاء كثيراً، بسبب السفينة، التي كانت تتأرجح وهي راسية، إلى مختلف الاتجاهات، وكان ذلك بسبب قوة الرياح، وقد جعلهم ذلك مرضى، وعلى كل حال، عندما رأونا ابتهجوا، وبدأوا يتحسنون، وقد حدثوا سادتهم عن المصاعب المريرة للبحر، التي تذوقوا قليلاً منها فقط، وفي ذلك اليوم نفسه التمس مني أحد الفرسان أن أعود معه في القارب إلى المدينة لاحضار صندوق كان قد أمر بصنعه لنفسه، ليكون مخدعاً له، ولكي ينام عليه في الليل، لأنه كان متكبراً جداً، وأبت نفسه النوم على الأرض، وقد كان موضع نومه واسعاً إلى حد يمكنه أن يضع فيه الصندوق، وبناء عليه دخلنا معاً إلى المركب ورجعنا إلى البندقية، وبعدما تسلمنا الصندوق عدنا به إلى الغليون، إنما بعد صعوبات، لأن الرياح كانت ضدنا، وكان الوقت متأخراً مساء عندما أنزلنا الصندوق إلى القمرة، ووضعه الفارس في مكان نومه وهو مبتهج، وهو يأمل أن ينام عليه بشكل جيد، لكنه لو أنه عرف المستقبل، لما كان مسروراً بأي حال من الأحوال، ولقام برميه، ولرفض عدّه مريحاً، لأنه على ذلك الصندوق بالذات مات ذلك الفارس ميتة وحشية وبشعة، وعلى كل حال، هو لم يكن منتمياً إلى جماعتي، بل إلى جماعة أخرى، وقمنا الآن بترتيب أماكن نومنا وفرشنا لننام فيها، وكان ذلك مع كثير من الفوضى والجهد، والخلاف، لأننا لم نكن قد اعتدنا على ذلك بعد، وعندما باتت الدنيا مظلمة، وبعدما أطفئت جميع المصابيح، وصار كل شيء هادئاً، فجأة هبت ريح عنيفة جداً، جعلت السفينة تتأرجح، فصرنا خائفين، وبوضع غير مريح، وقد بقينا متمددين بهدوء وسكون، ونائمين في الظلام والرعب، وحدث فجأة أن واحداً من النبلاء، وكان مرعوباً من منام مخيف، بدأ يصرخ بصوت مرتفع بشكل مزعج جداً، وكأنه يركض هناك بسيف، وأفاق كل انسان على ظهر السفينة بسبب صراخه، ولأنهم كانوا نياماً في

الظلام، أصيبوا بفوضى، وافترضوا ان هذا الفارس قد طعن من قبل واحد من اللصوص، وأفاق النبلاء وحاولوا العثور على سيوفهم في الظلام، وحاول آخرون تدبر أمر نجاتهم، خشية منهم أن شراً ماقد أعد للحجاج، وحدث اضطراب خطير في داخل القمرة الرئيسية للغليون، لكن الرجل الذي كان متمدداً إلى جوار الذي صرخ، قد أدرك الذي حصل وفهمه، فصرخ بصوت مرتفع وطلب من كل انسان العودة إلى مكانه والتمدد فيه، وهكذا مضت تلك الليلة مع فوضاها، ولم يكن القبطان قد جاء بعد، ولم يصعد إلى ظهر الغليون.

وفي اليوم الثاني من حزيران، جاء القبطان قبل اشراق الشمس، مع خدمه وآل بيته جميعاً، وجلب معه أيضاً بعض الحجاج الذين تلقاهم مؤخراً، ليكونوا ركاباً على ظهر السفينة، وكان بين هؤلاء رجلاً فلمنكيا مع زوجته، وعندما وصلت هذه المرأة إلى ظهر السفينة، غضب عدد كبير من الناس لذلك، لأنها كانت المرأة الوحيدة على ظهر السفينة، لأنه قبل وصولها لم يكن بيننا ولا امرأة، ذلك أن المعلم أوغسطين، قبطان الغليون الآخر، كان قد جمع كل النساء على ظهر مركبه، ولم يكن هناك واحد على ظهر غليوننا لم يكن مزعوجاً من قدوم هذه المرأة العجوز، ومن التفكير بوجود امرأة واحدة سوف تعيش بين مثل هذا العدد من النبلاء، لاسيا عندما بدت —لدى إلقاء النظرة الأولى عليها— أنها لاتعرف الاستقرار، وفضولية، كما تبرهن أن ذلك كان حقيقة، لأنه صدقاً، كانت النسوة السبعة اللائي رافقننا في الرحلة الأولى التي قمنا بها، حسبما رأيت في ص١١٧، المتقدمة، كن أقل ضجيجاً من هذه العجوز الشمطاء، فقد سعت مابين هنا وهناك حول السفينة بشكل غير ضروري، وكانت مليئة بالفضول، راغبة في سماع كل شيء ورؤيته، فجعلت بذلك نفسها مكروهة إلى أبعد الحدود، وقد بدا زوجها أنه كان رجلاً عاقلاً، ومن أجله أمسك كثيرون عن الكلام، ولولا وجوده هناك

لسارت الأمور معها بشكل صعب، فلقد كانت هذه المرأة شوكة في أعيننا جميعاً.

وعندما أصبحنا جميعاً على ظهر الغليون، وأضحى النهار، صدرت الأوامر إلى بعض الملاحين بتزيين الغليون، فقاموا بتعليق سبعة من الأعلام الحريرية الواسعة، وذلك امتداداً من القلعة إلى القيدوم، ومن القمة أيضاً، وزينوا القمة نفسها بقطعة من السجاد بأن لفوها من حولها، وكان أكبر الأعلام وأولها هو علم السادة الحجاج إلى الضريح المقدس، وكان أبيض اللون، عليه صليب أحمر ممتداً من أول طرف حتى الطرف الآخر، وكان العلم الثاني هو علم سادة البندقية، أي علم القديس مرقص، وكان أبيض اللون أيضاً، عليه أسد أحمر، كان تحت قدميه الأوليين البحر، وتحت قدميه الخلفيين اليابسة، وكان العلم الثالث هو علم مولانا البابا سكتوس الرابع، وكان لونه لون الهواء، عليه شجرة بلوط خضراء تحمل جوزات بلوط ذهبية، ومفتاحي الرسولين، وكان العلم الرابع هو علم القبطان، وكان مكوناً من أنواع مختلفة جميلة، وعرض الخامس أذرع البندقية مع ذراعي القبطان مع بعضهم، وكان هناك علمين آخرين، كلاهما متشابهين، على كل واحد منهما أسد أسود وأبيض.

وبعد الفراغ من تزيين الغليون، بدأوا بالاستعداد للانطلاق، لأنه كان لدينا رياح لطيفة، كانت تحرك الأعلام في الأعالي، وبدأ الملاحون بصوت مرتفع يرفعون المرساتين ووضعهما على السطح، وبرفع عارضة الشراع نحو الأعلى مع الشراع الرئيسي accaton يخفق فوقها، وجرى أيضا رفع قاربي الغليون واخراجهما من البحر، وجرى انجاز هذا كله بعد جهد كبير وصرخات عالية، واستمر ذلك حتى أطلق الغليون من رباطاته، فأقلع بسرعة وهو ممتلىء بالريح، وأبحرنا وسط بهجة عظيمة وابتعدنا عن اليابسة، لأن البواقين زعقوا بأبواقهم وكأننا كنا على وشك

الالتحــام بالقتـال، وصرخ عبيــد الغليــون، وغنى جميع الحجــاج مع بعضهـم:« In Gottes Nahmen Fahren Wir » حسبما يمكـن القراءة عن ذلك في ص٣٤٣.

وفي الوقت نفسه مخر الغليون بقوة خلال البحر، وابتعدنا بسرعة عن مـدينة البندقيـة، وخلفنا مـرسـاها الذي انطلقنا منه بعيـداً وراءنا، وكنا مسرورين كثيراً لمغادرتها، وكأننا قد أطلق سراحنا من السجن، ذلك أننا رغبنا باصرار بالـوصـول إلى القــدس، وسيقت السفينة بسرعــة كبيرة بفضل قـوة الريح الطيبـة، إلى حـد أننا لم نعـد قـادرين على رؤية أياً من الجبال، أو أي جزء من الأرض، أو أي ساحـل أو أي جزء من اليابسة، بل كـان أمـام أعيننا السماء فقط والماء، ذلك أننا قطعنا مسـافـة كبيرة في ذلك الوقـت القصير وصرنا في أعــالي البحـار، وصرنـا أعلى فأعلى من أعالي جبال الألب، ولم نعـد قادرين على رؤيتهم، لأنهم صاروا الآن — كما هو الحال — منخفضين مع الانحناء الاعتراضي للبحر بينهم وبيننا.

وأمـا وقـد غدونا الآن بعيـدين عن رؤية العـالم، أنزل البحـارة جميع التزيينات التي زينت بها سفينتنا، وكانوا يلقون نظرة عليها في كل يوم، جـاعلين إيـاها جـاهزة للعمل، وبعــد منتصف النهـار، عندمــا تناولنا الطعام، رأينا على يسـارنا، باتجاه الشمال جبال ايستريا، وهــي منطقة من مناطق مقـاطعـة دلماشيـا، ورغبنا بالـوقـوف هناك في ميناء بارينزو -Pa renzo ، لأن ريحنا الطيبــة توقفـت عن الهبــوب، وعلى كل حـــال لم نتمكن من الوصول إلى بارينزو، بل تجاوزناها، ومع ذلك لم نقطع مسافة جيدة، لأنه مع انتهـاء النهار، انتهت الريح أيضـاً، ومكثنا الليل كله من دون التقدم نحو الأمام بل كنا نراقب بدون راحة، ونتأرجح هناك.

وهبت في اليوم الثـالث من حزيران، عند الصباح، ريح كـانت قذرة تماماً، وأُرغمنا على العودة نحو جبال ايستريا، وبعد جهود عظيمة نجونا من الريح المعـاكسة، واقتربنا من الجبـال، وجلبنا سفينتنا إلى ميناء روبينا

Rubina (Rovigno) وذلك على مسافـة ميلين خلف بارينزو، حيث كـان القبطان الآخر مـع حجاجـه، وميناء مـدينة روبينا هذا، ليس ميناء مطروقاً، لكنه آمن وغني، وفي هذا الميناء تفضل علينا القبطان، بتنشيطنا وانعاشنا بغداء لأننا دخلنا إليه في وقت الغـداء، وهو أمر متوجب عليه فعله، لرؤيته أننـا كنا في ميناء جيد، حيث يمكننا التـزود لأنفسنا، وبعد الغداء نزلنا من الغليون إلى القـارب، وذهبنا به إلى المدينة، حيث صعدنا إلى الكنيسـة الكاتدرائيـة وصلينا هناك للرب وللقـديسـة يوفيميـا -Eu phemia العذراء، التي جسـدها كله ممدد هناك وملفوف في ضريح من الرخـام كبير، وهذا الضريح المتفـوق التابع للكاتدرائيـة، فتح لنا، وقـد أرونا الجسد المقـدس، ولسوف أتحدث لكم وأنا عائد، عن كيفيـة انتقال جسـد القـديسة يوفيميـا الخلقيـدونيـة إلى هاهنا، وسأصف لكم مـدينة روبينا، كما سأتحدث عن مـرساها، وقـد مكثنا في هذه المدينة حتى وقت العشـاء، وتعشينا على حسـابنا في إحـدى الحانات، وكان عشـاء جيـداً، عدنا بعـده إلى غليوننا، آملين أن نتمكن خـلال الليل من الابحار، لكن تلك الريح القـذرة —ولا أجـرؤ على تسميتهـا شريرة — هبت طوال الليل، جـاعلة تلـك الليلة ليلة غير مستقـرة تمامـاً بالنسبـة لنا، ومع أن سفينتنا كـانت مـربوطة بالمرسـاتين والأربطة الأخرى العـائـدة للميناء، أرجحتهـا الريح وهزتها بكل عنف، وجعلتنا نصـاب بدوار البحـر بكل شدة.

وفي اليوم الرابع لم تكن الريح لطيفة، ولهذا نزلنا من الغليون وغادرنا حيث ذهبنا إلى كنيسـة القـديسة يوفيميـا حيث قـرأنا واستمعنا إلى قداسـات، وتغدينا بعـد القداس مع مضيفنا، وكـانت حانتنـا مجرد كوخ صغير، استأجـرناه من رجل فقير، حيـث قـام طبـاخ مـولاي فأعـد لنا الطعام الذي جلبناه له، وكانت هناك أشياء كثيرة يمكن الحصول عليها، لكن لم يكن في تلك البلاد حـانات كما هو موجـود في بلادنا، وأية حانة

هناك كانت تعيسة جداً، ليس فيها لاقدور، ولا أوعية قلي أوغلي، ولاأيضاً مايكفي من صحون أو ملاعق، وعلى هذا وجد الحجاج النبلاء أنفسهم مع أنهم في بلدة جليلة واسعة، مرغمين على الدخول إلى البيوت العامة السيئة السمعة، حيث كان من الممكن الحصول على الضروريات، وذلك حسبما قلت من قبل في ص٢٥٨، وقد عانى الحجاج من مصاعب كثيرة، بسبب الحاجة إلى نزل، وعانى بشكل خاص الذين ليس لديهم تجهيزات خاصة بهم للطبخ بها، وبعد الغداء ذهبنا بالقارب إلى جزيرة صغيرة، وإلى كنيسة القديس أندرو القائمة هناك، وكان على مقربة من الكنيسة دير صغير، كان فيه فيما مضى رهبان من طائفة القديس بندكت، وعندما تخلى هؤلاء عن هذا المكان أخذه الرهبان الفرنسيسكان، وتملكوه، وبنوا ديراً جميلاً هناك وفق طرائق طائفتهم، فضلاً عن هذا قاموا بزراعة الجزيرة الصغيرة نفسها، وجعلوها وكأنها جنة من الجنات، ومن هناك يمكن للانسان أن يحصل على الأخشاب وأشياء أخرى لها حاجة، ذلك أن تربة الجزيرة هذه غنية وخصبة، كما أن الأراضي في الجزر القريبة كلها متشابهة، وخصبة.

*** ***

وبعد ماتمشينا لساعات حول الجزيرة المتقدمة الذكر بقيادة الرهبان، عدنا إلى الدير، حيث احتفي بنا بلطف بتقديم وجبة لنا، الأمر الذي عوضهم عليه اللورد جون التروخسيس بكرم، عندما غادرنا، وفي أثناء تناول الطعام انتبهت لوجود واحد من الرهبان، كنت قد رأيته أثناء حجي الأول فوق جبل صهيون، حيث كان نائب الوصي في الدير هناك، وهو أيضاً قد تذكرني، وقد حياني بلطف، وقد تلقيت منه بعض النصائح، وعندما انتهينا من الطعام، صعدنا إلى قاربنا، ووصلنا إلى روبينا مع صعوبات كبيرة، لأن الريح كانت معاكسة، وتناولنا العشاء في البلدة، وعزمنا على البقاء بعيداً عن الغليون طوال الليل، وآثرنا النوم

على المقاعد على أن نكون على ظهر السفينة، لأننا أمضينا ليالي تعيسة على ظهر الغليون عندما كان راسياً، يتأرجح بقوة الريح، لكن الذي حدث، هو أننا ماأن فرغنا من تناول العشاء، حتى كان القبطان قد أمر بالنفخ ببوقه (Buccina)، وكان ذلك شارة للجميع حتى يعودوا إلى ظهر الغليون.

وفي ذلك المساء، وقبل غياب الشمس، قام الملاحون برفع المرساتين، وبحل أربطة الغليون واطلاقه، وأبحرنا خارجين من الميناء، مع أنه لم تتوفر ريح لطيفة في البحر، ذلك أنهم رأوا عن بعد أوغسطين مع غليونه، وخشيوا من أن يحصل على الأولوية علينا، ولهذا قمنا بهذه المحاولة المخفقة، لأننا ماأن صرنا خارج الميناء، حتى دفعنا مسافة بعيدة في البحر بريح معاكسة، وهكذا أمضينا تلك الليلة نتأرجح فوق الأمواج، وكنا غير مرتاحين بمافيه الكفاية.

وفي اليوم الخامس، استمرت الريح نفسها، فكان أن حملنا خلال الأمواج إلى أسوأ جزء من ذلك البحر، الذي كان اسمه كورنيروس Cornerus (Quarnero) فهناك الذين يبحرون يكونون دوماً في خطر، لأن البحر يتدفق من هناك بتيار سريع جداً نحو أنكونا An-cona، ويتوجب على البحارة المحافظة على السفينة بعناية كبيرة، وجهد عظيم لمنعها من مسايرة تيار البحر، الذي كان في بعض الأحيان يدفع السفن بعنف ويلقي بهم إلى داخل ميناء أنكونا، وذلك وسط رعب عظيم ومخاطر للسفن وللذين على ظهرهم، وعندما كنا في ذلك الخليج رأينا الجبال التي تفصل دلماشيا وكرواتيا عن مملكة هنغاريا والهنغاريين، الذين يحجون إلى سيدتنا صاحبة لوريتو Loretto، يأخذون سفينة من هناك ويبحرون إلى مكان العذراء المقدسة.

وقطعنا في ذلك اليوم مسافة قصيرة، ومع ذلك استمرت السفينة طوال الوقت وسط حركة عنيفة، وإنه لأمر مدهش للانسان الذي هو

غير معتـاد على البحـر، أن يرى السفينة وهي تجري بسرعـة كبيرة، لكن دون أن تتمكن من قطع أي مسافة على مسارها، الأمر الذي هو في غاية السوء، وعند حلول المسـاء، أصبحت الريح القذرة أشـد، ولقد أمضينا ليلة غير هادئـة تماما، حيث أصبـح معظم الحجاج مـرضى كثيراً، لأنهم باتوا يعـانون من دوار في رؤوسهم ومن معـدة مضطربة، وكان الغثيـان العنيف والشـديد نصيب الجميع، علماً بـأن بعضهم صـاروا أضعف من آخـرين لتلك الأسباب، وعندمـا صـارت العاصفـة أشد، أراد البحـارة تحويل اتجاه الشراع الرئيسي، وكـانت عـارضـة الشراع قـد رفعت نحـو الأعلى إلى مافـوق رأس السارية، مع الشراع الرئيسي accaton منشور من حولها، لكن عندما تركوا عـارضة الشراع تطير حول الطرف الآخر، انفلت الشراع ونزل على المجـاذيف على ذلـك الجانب، وعندمـا مـلأت الريح الآن الشراع بشكل مفـاجيء، وأخـذت برفعـه بقـوة كبيرة، تعلق بين المجاذيف، ومـالت السفينة كثيراً نحو ذلك الاتجاه حتى أن عـارضة الشراع نفسهـا لامست الماء، وباتت السـارية، لابل في الحقيقـة الغليـون نفسه مهدداً بالانقـلاب إلى ذلك الجانب، ولهذا كان هناك ركض إلى هنا وهناك، وصراخ على السطح الأعلى، أما نحن تحت في مخادعنا فقد قذفنا نحو الجانب الآخـر، واستعد القبطان في القيدوم لانقاذ نفسـه، فقد أمر بقطع الحبال التي تمسك القـارب الصغير، حتى يسقط في الماء، حتى إذا ماغرقت السفينة، يمكنه أن يقفز إليه، ولم يعرف الحجاج الذين كانوا في الأسفل بهذا، ولو عـرفوا به لحدث اضطراب عظيم، وفـوضى مرعبـة، من التسارع الذي كـانوا سيقومون به في ركضهم نحـو السطح، وبعون الرب، انتهى هذا الأمـر على كل حـال، ووصل إلى نهاية سليمـة، حيث رفعت الريح الشراع خـالصاً مـن بين المجاذيف، وبدأت السفينة تبحـر متقـدمـة كما كـانت من قبل، ولـو أن السفينة جنحت وانقلبت إلى ذلك الجانب، كما كانت على حافة وقـوع ذلك، مامن أحد من الحجاج الذين كانوا في القمرة الرئيسية، كان سينجو من الموت.

واستمرت الريح في اليوم السادس قذرة، وقد أسفنا لمغادرتنا ميناء روبينا، ووجهنا السفينة مجدداً نحو الجبال، علنا نستطيع دخول أحد الموانئ التي هناك،والانتظار هناك هبوب ريح لطيفة، وتقوم فوق الجبال القريبة من البحر شارات من خلالها يعرف البحارة مكان وجود ميناء آمن، وأين يمكنهم الاقتراب من اليابسة، ومالم يروا هذه الشارات، لايتجرأون على جلب هذه السفن الكبيرة وتقريبها من اليابسة، وبعد رؤية واحدة من هذه العلامات، ومن ثم التأكد من وجود ميناء، مع امكانية القدرة على الوصول إلى اليابسة، وجهنا رأس غليوننا نحو الجبال، فوصلنا إلى مابين جدارين من الصخر، وجلبنا المركب إلى وادي حيث وجدنا ميناء آمناً، وبناء عليه القينا المرساة، وربطنا السفينة بالصخور، وثبتنا وقفتها، ولم يكن الميناء أكثر من مكان بين تلال وجبال، فيه يمكن للسفينة الوقوف دون التعرض لتهديد الرياح، ومع هذا لايكفي أن يكون موقع الميناء آمنا، بل هناك مطلب آخر، هو أن يكون البحر هناك عميقاً، وأن تقيم ميناء هناك، لم تكن هناك حاجة لوجود سكان قاطنين على مقربة منه، بل كان يكفي أن تكون السفينة قادرة على الوقوف هناك، وهي آمنة من الرياح العنيفة، سواء أكان المكان مسكونا أم لا.

وكان هذا الميناء في بقعة مهجورة، على إحدى الجزر التي اسمها أسارو Assaro ، وكان محاطاً من كل الجوانب بشعاب وجبال وعرة، وبعدما تناولنا طعام الغداء على سطح الغليون طلبنا إنزال القارب إلى البحر، وذهبنا به نحو الشاطئ، وقد تمشينا فوق الجزيرة لتمضية الوقت، وكان نامياً هناك أعشاب ذات رائحة جميلة، وكثيراً من نبات القصعين الصغير بلاحدود، وكف مريم agnus costus وبعدما اجتزنا بعض التلال، وصلنا إلى حقول شعير، وكنا بذلك مسرورين، على أمل أننا كنا على مقربة من احدى المزارع، حيث يمكننا الحصول

على خبـز طازج وبيض للبيع، وبعـدمـا مشينا بعض الشيء على الطريق وصلنا إلى كـوخ تعيـس، كـان يسكن فيـه بعض الفقــراء المعـدمين من السكلافــونيين، الذين لم يكن لـديهم أي شيء على الاطلاق في بيتهم، سـوى بعض الجذور، كانوا يجففـونها في الشمس، وعندما تصبح يابسـة كانوا يطحنونها، ويتخذون منها طحينا، يتخـذون منه خبزاً، وقد أعطونا بعضـاً من هذا الخبـز، لكنه كـان أسـود جـداً وبلا طعم، ولم يكن هناك بيت آخــر غير هـذا على الجزيرة، وبعــدمــا رأينا هذا كلـه، عــدنا إلى الشـاطىء، إلى مقابل المكان الذي رست فيـه سفينتنا، ورأى كثيرون أن الشـاطىء أكثـر كـآبة من السفينة، فعـاد هؤلاء إلى ظهـر السفينة مجدداً، وبقيت أنا مع عـدد من النبـلاء على الشـاطىء، سـاعيـاً لإعطاء رفـاقي الراحة، وقمت بتسلق أحـد الجبال وحيـداً لأنظر من حولي، وهنا رأيت ليس بعيـداً، انســانا يلبس مـلابس الرهبـان المبشريـن،يركض نحـوي، ولذلك ركضت نحوه، للقـائه، وحييته، وسألتـه من أين جاء، وإلى أين هو ذاهب، لكن هذا الراهب المسكين، لم يعرف لغـة يحادثني بها، فهو لم يعـرف لا اللاتينية، ولا الايطاليـة، ولا الألمانيـة، لأنه كان إمـا دالماشي، أوسكلافوني، فقد كان على طريقه نحو الغليون للتسول.

*** ***

وذهبت بعــد هذا إلى شـاطىء البحــر، حيث وجـدت واحــداً من الملاحين، يقتلع عشباً كـان ناميا بين صدوع الصخور، قـال بأن له نكهة عظيمة في السلطة، وقال بأن اسـم هذه العشبة كان Porcella، وكانت طيبة الطعمة، ومالحة، ونكهتها حادة (occtosa) وهي مثل الكبوسين، لكن أثخن وحجمها أكبر، وتسـاءلت كيف أمكن لعشبة جيـدة أن تنمو بين الصخور وان يكون طعمها مالحاً، ولعل ذلك بسبب أن الملح منتشر على الشــاطىء، أو بسبب أنه في أثناء العــواصف تضرب الميــاه المالحة الصخـور وتغطيهـا، حيث تشرق الشمس بعـد ذلك وتضرب بأشعتهـا

ذلك الماء فتجففه وتجعل منه ملحاً، وطبيعة الملح تجعل الأرض جرداء، ومع ذلك نمت هذه العشبة في الملح، على الرغم من طبيعة جميع النباتات، ووجدت أيضاً أغصاناً من أفضل أنواع نبات كف مريم فأخذتها، علني أطرد بها روائح نتن السفينة من مخدعي، وحول هذا النبات، انظر عرضاً مطولاً في القسم الثاني ص١٨٩.

وحدثنا النباتيون، ولاسيما ألبرتوس ماغنوس Albertus Mgnus في De veget tractatus,i,c,5 بأن هذه العشبة قد عرفت باسم كف مريم agnues castus، بسبب عصارتها، وزهورها، وأوراقها، التي هي مفيدة من أجل التحريض على فعل الخير، فبوساطة حرارتها يجف الأساس المنوي البشري، والريح التي تمدد الأجهزة المولدة، ولهذا السبب قام الحكماء الاغريق برسم هذا النبات على أرضيات منازلهم، حتى تزدهر الفضيلة بين عقيلاتهم، وقد قيل أيضاً بأن هذا كان عقيدة الفيثاغورسيين، لأن هذا النبات كان يحوّل الانسان إلى مخلوق هادىء ولطيف مثل الحمل، ولهذا السبب أقدم كهنة الشمس والعذراءات المكرسات لخدمة الربة فيستا Vesta، والذين تحتضن ديانتهم القسم بالطهارة، على نشر أوراق كف مريم على أسرة نومهم وفي بيوتهم، وأنا أعرف هذا النبات منذ أيام طفولتي، ذلك أنني عرفته في بازل Basle، حيث كان ينمو في حديقة ديرنا، وكان قد زرع من قبل رجل جاء من البحر في أيام مجمع بازل.

وقد قيل بأن هذا النبات لايمكن نقله وزرعه في مكان آخر، بل ينمو فقط حيث زرعه الرجل، لكن هذا غير صحيح، لأنه في الوقت الذي كنت فيه هناك باقامة عابرة، اقتلعت غصناً مع الجذور وزرعته في حديقة مأوى العجزة، فهناك نما وصار شجرة كبيرة، ولهذا النبات أوراق فيها بعض الشبه بأوراق الجوز، إنما أنعم وأقل قسوة، وزهورها مثل زهور الأقحوان، ولهذا يطلق عليها اسم جوز البحر، ولها رائحة

جميلة وحـادة ومفيـدة، وبعضهم على كل حـال يمقتـون رائحتهـا، ولا يستطيعون تحمل شمها.

وهكذا عدت إلى ظهـر الغليون، آخذاً معي حـزمة من الـ Porcella من أجـل السلطة، وكف مـريم من أجل الـرائحـة ومن أجـل تزيين مخدعي، وبعـد عـودتي لم أشـارك أصحـابي بالعشـاء، بل صنعت سلطة تعشيتهـا، وكنت راضيـاً بها، ومع حلول المسـاء ازدادت قـوة الريح المعـاكسـة، وهبـت بشـدة جعلتنا نخـاف مع أننا كنـا مـانزال في الميناء، وأرغـم البحارون على الحصول على مـزيد من الحبال لربط المركب، لأن التيارات انجـرفت وتحركت عبر البحر المفتوح، واندفعت ضـد الشعاب الصخرية ومن حولنا، ووصلت حتى إلى المكان الذي وقفنا فيه، وثارت في حوالي منتصف الليل عاصفـة مرعبة جداً رافقتهـا رياح عنيفة، ورعد وبرق، وأمطار ثقيلة، إلى حد أن مياه المطر جرت إلى داخل حجر نومنا، لذلك لم نعرف الـراحة في تلك الليلة،وكان هناك خـوف عظيم، مع أننا كنا في ميناء، لأن الماء ضرب بعنف شـديد جـوانب الغليون، حتى كـان عجباً كيف أمكن لأي خشب تحمل مثل هذه الضربات.

وفي اليوم السابع لم تكن الأنواء مناسبة لرحلة جيدة، ولهذا قمت بعد الغداء ثانية بالذهاب إلى الشـاطيء، وكان ذلك في القارب، كما فعلنا في اليـوم المتقـدم، ولم نذهب جميعـاً، بل ذهـب بعضنا فقط، وكنت أنا بين الذاهبين، وبصعوبة وخطر أمكننا الخروج من الغليـون إلى القارب، لأن البحـر كان هائجـاً، وهز كلا من القـارب والغليون وأرجحهما صعـوداً وهبـوطاً، ولهذا لم يتجرأ قـائد القـارب على تقديمـه إلى جوار الغليـون، خشيـة منه أن تحمله الريح فيضرب جـانب الغليـون، فيتحطم إلى قطع، لأنه ارتفع عـاليـاً بوسـاطة الأمـواج، فكان أعلى من الغليـون، ثم هبط عميقـاً إلى حـد أننا الذين كنـا على سطح الغليـون لم نعـد قـادرين على رؤيتـه، بسبب الأمـواج التي كـانت فيما بيننا، وفي مثل هذه الأنواء على

كل من يرغب بالخروج من الغليون والحصول في القارب، الوقوف على سلم الغليون، والانتظار بحذر اقتراب القارب من الغليون، حتى يمكنه الوصول إليه قفزاً، لأن الناس لـن يسمحوا للقارب بالاقتراب أكثر من هذا، ويتوجب عليك القفز في اللحظـة التي يقترب فيها القارب، لأنك مـالم تقفز، سـوف يبتعد عن الغليـون بقوة الأمـواج، ولدى قفزه نحـو القـارب، لايمكنه أن يصون نفسـه من الوقوع في الأمـام أو في الخلف، على وجهه أو على قفاه، ويقوم الذين على ظهر القارب بايقافه.

وكـانت هذه أعظم اللحظات ذات الخطر العام، التي كـان يخضع لها الحجاج، إنما وإن بدت صعبة في البداية، كان ماأن يعتاد الانسان عليها، حتى تصبح مسألة روتينية عـادية، بعدما كـانت من قبل لايجرؤ الانسان على التفكير بها، أو تجربتهـا بسبب الرعب، ولقـد رأيت نســاء كن في البداية مليئات بالرعب، لم يتجـرأن على النظر إلى البحر، لكن بعد ذلك أصبحن جريئات — بسبب الممارسة — إلى حد أنهن كن يغامرن بالقفز من الغليـون إلى القارب، وقـد يعتقـد الانسان في البـداية أن الأفضل له البقـاء على سطح الغليـون، وتحمل شقـاء البقـاء هناك، على أن يغـامـر بالقفـز، ومن ثـم الحصـول في ميناء جيـد ومنعش، ولكن بعــدمـا يجد الانسان نفسه قد تعرض للقـذف بالعواصف وبالمصاعب، وجاع بسبب العـوز إلى الطعام على ظهـر السفينة، تراه يقـدم لدى الوصـول إلى ميناء جيد، ويتجـرأ على القفز خمس قفـزات خطيرة، مفضلاً ذلـك على البقاء على ظهر السفينة، وهناك أيضاً المصاعب نفسها عندما يصل القارب إلى الشاطىء، لأنه إذا كـان الشاطىء صخريا ومنحدراً، لايتجـرأ الملاحون على الاقتراب منه، إذا كان البحـر هائجاً، ولذلك يتـوجب على الانسان أن يقفـز ثانية، إمـا على الصخـور أو في البحر، وفي جميع الأحـوال على الانسان أن يكون متنبها وحذراً تماماً تجاه عمق البحر، لأنه عندما يكون البحـر هائجاً قـد يغطي الصخـور العـالية، ولهذا يوجـد بشكل عـام في

الموانىء رجال للخدمة، الذين عندما تتراجع مياه البحر، يسرعون إلى القارب، ويحملون كل واحد من الذين سوف يعطيهم بنساً، وكل من يعبر البحر، يرى هذه الأشياء، وأشياء أخرى كثيرة من هذا النوع.

ودعوني الآن أعود إلى سياق حكايتي، فقد وصلت إلى الشاطىءمع بعض الحجاج والبحارة، وعملنا ناراً على الشاطىء، ومشينا حول التلال، وبذلك أمضينا الوقت حتى المساء، وكان الوقت متأخراً عندما عدنا لتناول عشائنا على ظهر الغليون، وقد تغلبنا على مخاوف القفز من القارب إلى الغليون.

وفي اليوم الثامن، الذي كان الأحد الثاني بعد الثليث، استمر الجو مظلما، والهواء معاكساً، وفي حوالي مابعد الغداء ذهبنا جميعاً تقريباً إلى الشاطىء بالقارب، وهناك ركض بعضهم حول الهضاب التي بلاممرات، بينما جلس بعضهم الآخر بلا حراك يتحدثون، وقد تمتعنا بيوم بهيج، من ثم كانت الأوضاع على ظهر ذلك الغليون رائعة إلى أبعد الحدود، وكان هناك سلام ووئام، وصداقة، ووحدة بين جميع الحجاج، وكان الوضع هو المعاكس على ظهر غليون حجي الأول، حيث كان هناك، غضب، ونزاع، وخلاف، وكثيراً من الشتائم بقدر مايمكن رؤيته في ص١١٠—١١١، وعليه عندما كانت الشمس على وشك الغياب، عدنا إلى ظهر الغليون، من أجل تناول طعام العشاء، ولم نتحرك في تلك الليلة، ذلك أن قوة الريح بدأت تتلاشى.

وفي اليوم التاسع جلب الرب كنوز خيراته وقدمها لنا، فقد توفرت رياح طيبة، كنا مسرورين لها كثيراً، فرفعنا المرساتين، وحللنا حبال الربط، ونشرنا الأشرعة، فامتلأوا بالهواء، ولم يمض سوى وقت قصير حتى غادرنا الميناء، ومن ثم صرنا في أعالي البحار، وقبل الظهر وصلنا إلى ميناء في دالماشيا اسمه يادرا (زارا)، وهنا طوى القبطان الأشرعة، وأنزل مرساة واحدة، وأنزل القارب، وأرسل بعض البحارة إلى المدينة

مع أوعيـة لجلب الماء، لأن الماء الذي جلبنـاه معنا من روبينا، كـان قـد نفد، ولم يكن على جـزر أسارو، ولاقطرة مـاء للشرب، ولم يدع القبطان ولاواحـداً من الحجـاج يغـادر السفينة، لأنه عـزم على الاقــلاع ثانيـة مباشرة، ويـا للعجب عندمـا كنـا راسين هناك، وصل المعلم أوغسطين أيضـاً مع غليـونه وتجاوزنا، ولمدة طويلة كـان بـامكاننا رؤية غليـونه في البحـر، مبحـراً أمـام ريح طيبـة، وأمام هذا المشهـد كـان قـادة غليـوننا غاضبين جداً، لأنهم عزموا، واستخدموا كل جهد في سبيل ابقاء غليوننا أمـام غليونـه حتى الأرض المقدسـة، ولكن مشروعهم حقق الإخفـاق، وعندمـا أحضرت المياه إلى الغليـون، لحقنا مباشرة بأوغسطين، وأبحـرنا على طول مسار جيد جداً، حيث كـان على جانبينا قرى، وقلاع، وأرض مزروعة، ووصلنا إلى يادرا القديمـة، ورأينا خرائبها العظيمة، واستطعنا بعون الريح انجاز رحلة جيدة طويلة في ذلك اليوم.

وعلى كل حال توقفت ريحنا الطيبـة عند غياب الشمس، وهبت ريح قذرة، تراجعنـا أمامها ووجهنا سفينتنـا نحو الجبال، خشيـة أن تدفع بنا بعيـداً عن مسـارنا، وعندمـا أصبحنا بين الجبـال، ربطنا سفينتنا في ميناء مهجـور، وأمضينا ليلة مليئـة بالعـاصفـة والرعب بسبـب سـوء الأنواء والبرق والرعـد، وعليـه كـان الجو مليئاً بأشيـاء غير مـوافقـة للناس في البحـر، أكثـر من الذين سكنـوا فـوق اليـابسـة، وكـان اسم ذلك الميناء أونيوم Oneum، وهو في كراواشيا Crawacia، التي هي مقاطعة في دالماشيا.

ولم تكن هناك ريح في اليـوم العاشر، سوى الريـح القذرة، وذلك في الصباح البـاكر عند شروق الشمس، ويئسنا من مغـادرة أونيوم في ذلك اليوم، لكن على كـل حال، تغير الهواء بعد مضي سـاعتين، فحلوا أربطة الغليون، وساقوه خارج الميناء بوساطة المجاذيف، ووجدنا في الخارج في البحــر ريحاً جــانبيـة، لم تكـن نافعــة كثيرة لنا، وقــد حملتنا على طول

الأطراف حتى وقت الغداء، وبعد انتهاء وقت الغداء هبت ريح مواتية وقوية وسعيدة، دفعت السفينة بشكل مفاجىء وبقوة على امتداد طريقها الحقيقي فوق البحر، ولكي تمضي أسرع رفع البحارة الشراع الأمامي (Trin Ketum) فوق القمة الأساسية، وعلقوه حتى عنق القمة الأساسية، وذلك فوق العارضة الرئيسية للشراع، فضلاً عن هذا لقد أخرجوا الظلة، أو غطاء السفينة، الذي يغطى به أحيانا الغليون كله من البداية حتى النهاية، ليحمي الغليون من الشمس والمطر، وجرى مدّه بشكل منحرف عبر الغليون حيث تقوم السارية، وذلك تحت قلع الشراع الأساسي، وقد وصل من طرف إلى طرف، وأمسك الريح كلها من الخلف حتى يساعدنا ذلك على طريقنا، ولذلك مضينا في طريقنا مسرعين جداً، وتجاوزنا مدينة ليسينا، ثم مدينة كورزولا، وكذلك مدناً أخرى كثيرة، سوف أتحدث لكم عنهن — بعون الرب — أثناء عودتي، واستمرت هذه الريح السعيدة والمبهجة ذلك النهار كله، والليلة التالية، التي نمنا خلالها بعمق، ونحن نسير بسرعة وعذوبة، لأن طريق الغليون لم يكن على الجانب، بل كان مستقيما نحو الأمام، جعلنا مائلين إلى الهدوء، لأنه عندما تكون الريح هادئة ولطيفة، وليست قوية جداً، لن تكون هناك أية حركات يشعر بها الذين في القمرة نظراً لسير السفينة بهدوء، وبدون ضجيج، وينام كل من الحجاج تحت، وعبيد الغليون على السطح بهدوء، ويكون كل شيء ساكناً، باستثناء الذين يراقبون البوصلات، والذي يمسك عصا الدفة، لأن هؤلاء يقومون عن طريق التناوب والترداد بتقديم الشكر من أجل رحلتنا السعيدة، والحظ الجيد، ودوما يحمدون النسيم، ويشكرون الرب، والعذراء المباركة، والقديسين، ويرد أحدهم على الآخر، ولايلتزمون الصمت مادامت الريح طيبة، وكل واحد على ظهر المركب يسمع هذا الغناء الصادر عنهم، سوف ينام حتى وإن كان بالعادة لاينام، مثله في ذلك مثل الطفل الذي لايعرف الاستقرار والدائم الصراخ، فتقوم أمه فتهدئه عن طريق أغانيها الشجية،

لكن عندما يكون كل شيء هادئاً تراه يصرخ، لأنه مع الأغنية يغطّ في نوم عميق لأن الأغنية تؤكد له حضور أمه، ذلك أن تأثير الحضور أعظم من حلاوة الغناء، ومثل هذا كان الحجاج أكثر هدوءاً، لأنهم بهذا الغناء كانوا يدركون ويتأكدون أن السفينة مبحرة نحو الأمام باستقامة، وأن كل شيء على مايرام، وهذا أكثر أهمية من الأغنية نفسها، وكانوا يتناوبون النداء، مثلما فعل حراس مدينة أولم، عندما كانوا ينادون بساعات الليل، ولايعيق هذا النداء أي انسان ويمنعه من النوم، بل يرسل القلقين من الناس إلى النوم.

وفي أثناء العواصف، عندما تكون الريح معتدلة وقوية، تركض السفينة بعنف مع تأرجح واهتزاز صعب، ويكون ذلك وهي على مسارها بسرعة فائقة العظمة، سرعة لايمكن أن يجاريها سهم أطلق من قوس زيار أوقوس عادي، وغالباً مابرهن الملاحون على صحة ذلك، بالوقوف في المؤخرة مع قوس وارسال سهم باتجاه القيدوم، وهنا لايلحق السهم السفينة، حيث تتغلب عليه بسرعتها، وتدفع الريح السفينة، تدفعها نحو الأمام بوساطة أشرعتها، بقوة تبدو معها مياه البحر وكأنها تسعى لمواجهة القيدوم، ويبدو منقار القيدوم أيضاً وكأنه يشق مياه جدول أو نهر بكل عنف، ولذلك تعلو المياه أحيانا فوق قرني القيدوم، ولأن الماء يندفع بعنف كبير ضد المؤخرة، غالباً مايقفز حتى إلى حجرة القبطان الخاصة، وطالما أن الريح مالىء للأشرعة ويدفعهم بقوة متناهية، يبدو الماء وكأنه يجري بالاتجاه المعاكس والمضاد للمؤخرة، بسرعة عظيمة، هذا ومن الصعب لنظر الانسان أن يتابع فيه سرعة البحر.

ويبدو — على الأقل بالنسبة لي — أن السهم عندما يطلق من القوس لايمكن أن يسير بسرعة تساوي جريان الغليون، ذلك أن للغليون سرعة أعظم بعشر مرات من سرعة البحر، حيث أن السفن

تسير بسرعة من الصعب تصـديقها، عندمـا يكون الريح والبحر في هذه الوضعية، وأنا أعتقـد أن الابحار خلال يـوم وليلة مع ريح طيبة، تقطع السفينة خلالها مسافة تساوي مـابين كولون والبندقية، لأنه عندما تكون السفينة، تتقدم نحـو الأمام ببطء، ويعـدّ تقدمهـا كأنه لاشيء، تراها مع ذلك لايستطيع حصـان أن يعدو بسرعـة تعـادل حركتهـا البطيئة تلك، وعندما نقـول بأن سرعتها متلاشية، مـامن سباق يمكنه أن يجاريها حتى وإن كـانت تزحف زحفاً، وعلى كل حـال يصدف أن لاتتحـرك السفينة مطلقاً، أو تقف كليـة، وسوف يكون ذلك مـزعجاً جـدا للذين هم على ظهرها، وبناء عليـه تقدمنا تقـدماً عظيماً على طريقنا، في تلك الليلة ذات السرعـة الكبيرة، والأنواء اللطيفـة، ومـات في تلك الأثناء فـارس نبيل هولندي، حيث جرت عمليـة دفنه حسبما أوضحنا فيما تقدم في الصفحة ٢٥٤، وقد دفناه في أعماق البحر.

وفي اليوم الحادي عشر، الذي كـان يوم عيد القديـس برنابا الرسول، تابعنا الابحـار والتقـدم بنجـاح، واجتـزنا مـدينة راغـوثا، وهي المدينة الرئيسية في دالماشيا كلها مع سكلافونيـا، التي سوف أحدثكم عنها أثناء عـودتي، ورأينا في ذلك اليوم حـدود الممالك، وهو المكان الذي تتصل به إمـارات دالماشيـا، وإليريا، ودوقيـة ألبـانيـا، والمورة أو آخيـا، ومملكة هنغـاريا، ومملكة البوسنة، ومقـدونيا، تتصل به مع بلاد الاغـريق، ذلك أن هذه الممالك تمتد حتى شـاطىء البحر، وتشكل حدود المسيحيـة نحو الشمال، لأن آخيا، وألبـانيا، والبوسنة، ومقدونيـة تابعة للأتراك، وهكذا أمضينا يومـاً ممتعاً، مـع ريح طيبة، ومناظر جميلة مـن كل جانب، وقـام البحـارة في هذا اليـوم باصطيـاد السمك، لأنهم رأوا حشـوداً لاتعـد ولاتحصى من السمك الكبير، ولم يكن لديهم وسيلة للصيـد سوى رمح حـاد جـداً برأس له ثلاث شعب، وقـد وقفـوا على أطراف الغليـون، وعندما كانوا يرون سمكة كانوا بسرعة يصيبونها ويجلبونها، وفي الحقيقة

لقد جرحوا كثيراً، لكن الذي أمسكوه كان قليلاً، ونحو حلول المساء ضعفت ريحنا الطيبة، إنما بعد غياب الشمس عادت قوية كما كانت من قبل، واستمرت طوال الليل جيدة، ولهذا قطعنا مسافة طويلة.

وفي اليوم الثاني عشر تابعنا الابحار بريح طيبة، وكنا في أعالي البحر، بعيدين عن اليابسة، ورأينا مدينة سكودروم Scodrum التي يسمونها سكوتاروم Scutarum، وهي التي أعطاها البنادقة في السنة الماضية إلى الأتراك حتى يتخلصوا من متاعبهم، ثم اجتزنا دوراسيوم Duracium (دورازو)، التي هي الآن مدينة كبيرة عائدة للأتراك، وهي التي كان قسطنطين قد قرر فيما مضى إقامة القسطنطينية في موقعها، وهذا ماسوف أخبركم به أثناء عودتي، واجتزنا أيضاً مدينة لافيلون Lav-ilone، التي إلى جانبها يوجد نهر يجري في أراضي الأتراك، ويعبرها إلى البحر، ويبحر الأتراك من وسط بلادهم على هذا النهر، من أجل اصطياد المسيحيين، وأطلقنا طوال ذلك اليوم جميع الشراع على أمل أن يتمكن من إمساك الريح، وذلك حسبما قلناه من قبل وفعلناه في اليوم السابع، ومع غياب الشمس ازدادت ريحنا الجيدة قوة، وأنزلنا بعضاً من شراعنا خشية أن نسير مسرعين كثيراً في الظلام، وفي ذلك المساء كنا جميعاً مسرورين، ومبتهجين، وظل المزمار يلعب حتى غدت الدنيا مظلمة، وامتلكنا طوال الليل ريحاً طيبة.

وفي اليوم الثالث عشر، ازدادت الريح في المساء المبكر قوة، ثم انتقلت إلى مكان آخر، ولهذا قام القادة بنقل الأشرعة، وعندما أديرت عارضة الشراع، انعطفت السفينة بشكل مفاجيء ومالت على طرف واحد، وجرى من ثم قذف جميع الحجاج الذين كانوا مايزالون نائمين من فرشهم، وكان هناك ذعر عظيم في القمرة، لكن على السطح لم يكن هناك سبب للخوف، وعندما أشرقت الشمس رأينا على يسارنا جزيرة كورزيري Gorziri، التي يسمونها كورفو Corphu والتي هي أول بلاد

الاغـريق، واجتزنا هذه الجزيرة بسرعـة، لأن الطاعون كـان منتشراً بها، ولدى متـابعــة إبحـارنا على طريقنـا دخلنا إلى بحـر ايبروس Epirus، وبذلك غـدت أبوليا وصقليـة على يميننا، وبتوفيق عبرنا في ذلك اليـوم عـدداً كبيراً من الجزر التركيـة، وخلفناهن وراءنـا، لكن عندمـا غـابت الشمس ضعفت ريحنا الطيبـة، ولم نقطع في تلك الليلة أية مسـافـة أبداً، الأمـر الذي أغضبنـا كثيراً، لأن يوم الأحـد بات قـريبـاً، وكنا نأمل أن نكون في ذلك اليـوم في ميتونا Metona (Modon) وأن نسمع قـداساً هناك، لكن الشيطان لم يكن راضياً بأن نفعل ذلك.

وتابعنا في اليـوم الرابع عشر سيرنـا على طريقنا، ورأينا جبـال آخيـا، قريبة من مـدينة باتراس، حيث جرى صلب القديس اندرو، وهنا وقفنا عند اشراق الشمس بلاحراك، لأننا لم نمتلك ريحا تساعدنا، وبعد تناول طعام الغداء هبت ريح ضعيفة، جعلت الغليون يحبو ببطىء باتجاه مدينة ميتـونا، التي يسمـونا مـودون، فإلى هناك رغبنـا بالذهاب، ومع اقتراب المسـاء انبعثت ريح قـوية طيبـة، حملتنا بعيـداً عن جـزر سامـافــرا Sa-mafra، وأخذتنـا نحو جبال المورة، وإلى مقـاطعة كـارنزا Carenza، ووصلنا بعدها إلى بلفنتور Belventor.

وعندمـا تأخــر الوقت رأينا على يسـارنا بلاد آخيــا، التي هي ملك للأتراك، ورأينا على يسـارنا جـزيرة من دون جبـال، يسمـونها ستيرفيل Stirvale (Stamphane)، ويسكن فــوق هذه الجزيرة رهبـــان اغريق تابعين لطـريقة القديس باسيل، وهـؤلاء لم يستطع الأتراك مطلقاً طردهم من هناك، مع أنهم خاضوا ضدهم عدداً كبيراً من المعارك، لأنه ماأن يأتي الأتراك، حتى يندفع الرهبان بأسلحتهم، ويرغمون على الفرار كل من يقـابلهم، وقد فعلوا هذا مـراراً، لذلك لم يعد الأتراك يتجـرأون على الذهاب إلى هناك لمحاربتهم، وقد أبحرنا نحو هذه الجزيرة، وعندما عبرناها تركناها على يسـارنا، وعندمـا جاء الليل تراجعت ريحنا الطيبـة،

وقطعنا مسافة قصيرة جداً في تلك الليلة.

وفي الخامس عشر، الذي كان الأحد الثالث بعد التثليث، وهو يوم عيد القديس فيتوس Vitus والقديس موديستوس Modestus، وعند اشراق الشمس، بدأ عبيد الغليون بتحريك الغليون بوساطة مجاذيفهم، لأن الريح لم تكن طيبة، وكنا قاصدين ميناء ميتونا، الذي لم نكن بعيدين عنه أكثر من مسافة ميل ألماني، وبعد بذل جهد كبير دخلنا إليه، وكان ذلك في حوالي الساعة الثامنة قبل الظهر، ونزلنا مباشرة إلى القارب، وجذفنا إلى المدينة، حيث وجدنا الحجاج الذين أبحروا مع المعلم أوغسطين، وقد أخذت موالي وبعض الحجاج الآخرين إلى كنيسة الرهبان المبشرين، واستمعنا هناك إلى قداس رفيع.

وكان رئيس الدير في هذا المكان والرهبان الآخرين يعرفونني معرفة جيدة من رحلة حجي الأولى، وبعد انتهاء القداس ذهبنا إلى بيت الخباز، حيث يجري خبز البقسماط من أجل السفر البحري، وكان يسكن هناك عجوز ألماني، وقد تولى طبخ غداءنا، وتغدينا، ومضى بقية الحجاج إلى بيت السادة التيوتون، وأعدوا هناك طعاماً لأنفسهم، وذهبنا بعد تناول الغداء وصعدنا إلى أسوار البلدة، ومشينا من حولهم ونحن فوقهم، وأعجبنا بالدفاعات التي لاترام، ولم يكن الموضع جزيرة، بل جزئاً من اليابسة، وكان الجميع من ممتلكات الترك، وفي طريق عودتي سوف أحدثكم أكثر حول هذا، وفي هذا المرفأ كان غليون المعلم أوغسطين راسياً أيضاً، وكان جميع الحجاج بالمدينة، ولذلك كونّا صداقة سعيدة وبهيجة معهم، مع أن ذلك لم يفرح القبطانيين، اللذان رأيا أنه بسبب خصامهما، ولأنهما كانا متعاديين أحدهما ضد الآخر، علينا نحن أن نصاب بالداء نفسه، وبناء عليه يتوجب علينا تجنب صداقة ورفقة بعضنا بعضاً، المهم أننا جلبنا الحجاج الآخرين إلى ظهر غليوننا وأريناهم إياه، وهم بدورهم أخذونا إلى غليونهم لرؤيته، وهكذا أمضينا

النهار معا حتى حلول وقت العشاء، ونحن مسرورين مع بعضنا بعضاً، كونا التقينا في وسط البحر، لأنه قد قيل بأن مدينة مودون قائمة في وسط الطريق فيما بين البندقية وبين القدس، وفي حوالي وقت العشاء زعقت أبواق القبطانيين تدعو الحجاج إلى السفينتين، وعندما سمعنا هذه الشارة صعدنا إلى ظهري الغليونيين، وفي ذلك المساء نفسه غادر أوغسطين وحجاجه الميناء، لكننا بقينا نحن هناك حتى الصباح. ولسوف أصف هذه المدينة أثناء عودتي.

وفي اليوم السادس عشر، وقبل أن يضيء الصباح، قام العبيد بالتجذيف بالغليون وأخرجوه من الميناء، فأوصلوه حتى زاوية الجبل، حيث أودعناه بيد الريح، ودخلنا بحر ماليان، واجتزنا مدينة كورونا، القائمة فوق صخرة عالية، وهبت هناك بعد منتصف النهار، ريح قوية، وقد أبحرنا مسرعين نحو جذور (كذا) ماليا Malea، من دون توقف أو عائق، وضاعفنا الرأس هناك من دون متاعب، الأمر الذي يحدث دوما: لأن الانسان يواجه في ذلك المكان المخاطر دوماً والمصاعب، وأبحرنا الليل كله بتلك الريح، واجتزنا عدداً كبيراً من الشعاب والصخور بحظ جيد، لأن ذلك البحر، من الصعب جداً الملاحة فيه من دون حظ جيد صادر عن ريح طيبة.

رأينا في اليوم السابع عشر جزيرة كريت، والخندق أو «سنتابولس Centapolis»، وفي بعد ظهر هذا اليوم تراجعت قوة الريح وصارت ضعيفة، ودفعتنا الأمواج إلى هنا وهناك دون أن نتقدم إلى الأمام، ولم نستطع الوصول إلى كريت في ذلك اليوم، وتجنب القبطان الآخر، أعني أوغسطين جزيرة كريت وأبحر من ماليا إلى جزر سيكلادس Cy-clades ، لكن قبطاننا لم ير تجاوز كريت، ذلك أنه رغب بزيارة السيد بطريرك القسطنطينية، الذي شغل منصب رئيس أساقفة كريت، وكان هذا البطريرك نفسه من أهل البندقية، وكان والد قبطاننا، ولهذا

السبب قرر التوقف في تلك الجزيرة، لكن خشية منه أن يتخذ الحجاج هذه المسألة أساساً للشكوى ضده، جلب في ذلك اليوم إليهم قطعة من القماش الحريري، اسمه أطلس atles ، تساوي قيمتها عشر دوقيات، ليلعبوا عليها الورق متراهنين، وقد ربح هذه القطعة اللورد بيرفون هوهن ريخبيرغ، وكان واحداً من موالي، وكان هناك كميات ضخمة من الأرباح المالية تمت على ظهر الغليون في مختلف الألعاب، لأن كل يوم من المقامرة العميقة والآثمة، تبدد بين النبلاء وذلك بالورق والنرد، وكان أحدهم الرابح، وآخر الخاسر، وكان في كل يوم هناك إنغماس في الملذات الحسية، إنما بدون خلافات، وإنني أعرف بعض الفرسان الشبان، والرجال النبلاء قد جلبوا معهم مبالغ كبيرة من المال، لأنه كان بنيتهم الذهاب إلى القديسة كاترين، وكان لديهم مايكفي لذلك، لكن بوسائط هذه المقامرة الملعونة أصبحوا في حالة عوز وفقر، إلى حد أنهم باتوا غير قادرين على تحمل الانفاق بالارتحال حتى القدس، ولولا أن رفاقهم ساعدوهم، لعادوا إلى الوطن دون تسلم فروسيتهم، وفي أيام الأعياد، عندما كنت أعظ بكلمة الرب، على ظهر الغليون، وجهت اللائمة إلى هؤلاء المقامرين طويلاً وبحدة، لكن الذين انتقدتهم تصلبوا أكثر في مواقفهم، وكانوا يجلسون في كل يوم من الصباح حتى المساء يقامرون بخمسين أو ستين، أو مائة أومائتي دوقية، منحنين على المنضدة مثل وتد وذلك من أجل لعبة واحدة، وعلى ذلك توفر في ذلك اليوم سرور عظيم، مثل سرور الحمقى، لأن جماعتنا ربحت قطعة من قماش الحرير.

وكان لدينا في اليوم الثامن عشر، بعد شروق الشمس، ريحاً ضعيفة، حركت سفينتنا ببطيء نحو كريت، وفي حوالي الظهر رأينا غليونا مسلحاً يتحرك تحركاً قرصانياً ليس بعيداً عنها، وقد استدعاه المسؤول العسكري لدينا بالطريقة التالية: فقد أطلق طلقة مدفع نحوه، ولدى

سماعهم الصوت، قام الذين يوجهون الغليون بعطف قيدومه نحونا، وجلبوه بالتجذيف إلى جوارنا، ثم انهم أنزلوا قاربا وجاء به القبطان والمسؤول الحربي، وصعدا إلى ظهر مركبنا، وتكلما لبعض الوقت مع قبطاننا ورجال التوجيه لدينا، لأن ذلك الغليون كان ملكاً للبندقية مثلما كان غليوننا أيضاً، وكانت هذه هي العادة في البحر، عندما يرى غليونان أو أكثر أحدهما الآخر، يقوم الذي يعدّ نفسه أعلى من الآخر، باستدعائه وفق الطريقة المتقدمة الوصف، وإذا كان الغليون بندقيا، يستدعى الأكبر الأدنى، وينبغي على الأدنى أن يقدم إلى حضرته، لكن إذا لم يكن الغليون بندقيا، مع ذلك إنه إذا قدم عندما دعي فذلك خير، لكن إذا لم يقدم،، عندها يقوم على الفور الذي استدعى بالإسراع نحوه بقدر ما يستطيع ويشتبك بالقتال معه، حيث يكون قد جهز مدافعه، وقسيه، ونشابه، ومجانيقه، وعندما يرى المركب الآخر هذا، يقوم، إذا كان خائفاً، بانزال شراعه، كشارة على الخضوع والصداقة، وإذا لم ينزل شراعه، فذلك يعني المقاومة والقتال، ويستعد المركبان للحرب.

ومع حلول المساء وصلنا إلى كريت، وبحثنا عن حانة يمكننا أن نتعشى فيها، غير أننا لم نجد حانة سوى واحدة أستحي أن أتكلم عنها، فقد كانت بيتاً سيء السمعة، تتولى إدارته امرأة ألمانية، وقامت السيدة، التي اقتدنا إليها، عندما رأت أننا مكونين من نبلاء وكهنة، أو رهبان، بتنظيف بيتها، ووضعت هذا البيت بجميع غرفه تحت خدمتنا، وكانت سيدة أديبة، ومحترمة، وامرأة عاقلة، وحصلت على كل ماالحتجناه بكميات كبيرة، وحصلنا على عشاء فاخر، مع خمرة كريتية، وهي التي نسميها مالفوسيه Malvoisie، ووجدنا في ذلك اليوم عنباً ناضجاً، من النوعين الأسود والأبيض بكميات كبيرة، لكن بما أن الريح كانت طيبة، أخبرونا بوجوب الاقلاع في تلك الليلة، وبناء عليه عندما انتهى عشاءنا عدنا إلى غليوننا وأمضينا الليل هناك.

وفي اليوم التاسع عشر، الذي كان يوم عيد القديس جيرفياس Ger-vais والقديس بروتياس Protais، عندما استيقظنا في الصباح، ونحن آملين بالاقلاع، رأينا عبيد الغليون يحملون سلعهم إلى خارج الغليون، لأخذها إلى السوق لعرضها للبيع، وعندما رأينا هذا عرفنا بأن الغليون لن يقلع، ولذلك نزلنا مباشرة إلى القارب، ودخلنا إلى المدينة، حيث سمعنا قداساً في كنيسة من كنائس الرهبان المبشرين، وذهبنا بعد القداس إلى حانتنا، وحصلنا على غداء جيد، وبعد ما تغدينا قمنا بزيارة جميع الكنائس والديرة في المدينة، ولسوف أتحدث عن هؤلاء بشكل كامل أثناء عودتي، ومع حلول المساء، استدعينا جميعاً إلى الغليون بوساطة أصوات الأبواق، وما أن أصبحنا على ظهر الغليون حتى همدت الريح الطيبة التي هبت طوال النهار، ولهذا بقينا في الميناء طوال الليل حيث كنا، مع كثير من الارهاق، والشكوى، وقلة الصبر.

وفي اليوم العشرين، وقبل اشراق الصباح، أخرجوا الغليون من ميناء كريت بالتجذيف وذلك بعد بذل جهد كبير، وأبحرنا مع ريح ضعيفة نحو جزيرة ستانديا Standia، وجزيرة ستانديا تواجه جزيرة كريت، وقد وقفنا فيما بينهما دون أن نتقدم، وعلى كل حال، قدمت في حوالي الظهر رياح طيبة وجديدة، أخرجتنا من بحر كريت إلى البحر الإيجي، وإلى جزر السيكلاد Cyclades ، حيث أبحرنا من خلالهن طوال هذا اليوم، وطوال الليلة التالية.

وفي اليوم الحادي والعشرين كنا في وسط السيكلاد، نبذل جهدنا للوصول إلى جزيرة رودس التي هي أول جزر السيكلاد والرئيسية بينهن، وواقعة على الجهة الشرقية منهن، وخرجنا في حوالي الظهيرة من دائرة السيكلاد، إلى منطقة اسمها نابوليا، وهذه المنطقة هي الأولى التي هاجمها الأتراك فبعدما جالوا حول العالم لمدة طويلة، قدموا إلى هذه المنطقة، فقتلوا واستعبدوا الذين سكنوا فيها، وبدأوا حكمهم هناك،

وعندما انطلقوا من هذه المنطقة، استولوا على آسيا الصغرى كلها، وانتزعوها من المسيحيين، وجعلوها خاضعة لهم.

وتراجعت قوة الرياح بعد منتصف النهار لمدة تقارب الساعة، غير أنها هبت بعد ذلك بقوة أعظم ودفعت بنا فخرجنا من نابوليا نحو رودس، وبسرعة وصلنا إلى جبال رودس، ونحو مدينة كولوسوس Colossus ، التي هي المدينة الرئيسية في تلك الجزيرة، وفي الوقت ذاته، غابت الشمس، وحل الليل علينا قبل أن نتمكن من الدخول إلى ميناء كولوسوس، وتمكنا —على كل حال— بعون ضوء القمر من الابحار إلى داخل الميناء، حيث ربطنا السفينة، ونمنا تلك الليلة، ووجدنا في الميناء غليون المعلم أوغسطين، الذي كان مع حجاجه قد نزلوا إلى شاطىء المدينة.

وكان اليوم الثاني والعشرين هو الأحد الرابع بعد التثليث، وكان يوم عيد العشرة آلاف شهيد، وبعدما حصلنا على إذن من المقدم الأعلى لفرسان القدس— الذي من دون إبداء موافقته مامن أحد يسمح له بالدخول إلى المدينة — غادرنا غليوننا، ودخلنا إلى مدينة كولوسوس، التي يسمونها رودس، وهنا ذهبنا إلى قلعة الفرسان وصعدنا إلى كنيسة القديس يوحنا، حيث سمعنا قداساً عالياً، وبعد القداس جاء بعض فرسان القديس يوحنا— وكانوا من النبلاء الألمان — إلى موالي، حيث قدموا التحية لهم باحترام كبير وسرور، وأروهم آثارهم المقدسة، وحضروا بعد ذلك لهم غداء فاخراً في بيت محترم، وهناك تناولنا غداءنا، وبعد الغداء، غادر المعلم أوغسطين وحجاجه، وعندما رأى قبطاننا بيرو.لاندو هذا، نفخ في بوقه، واستدعانا إلى ظهر السفينة، ولذلك أسرعنا نحو ظهر غليوننا، وعلى كل حال، خلفنا وراءنا في تلك المدينة عدداً من الفرسان الجيدين والشرفاء، كانوا مريضين جداً، غير قادرين على متابعة السفر، وكان بينهم جيروثيوس فون راتزنهوزن -Je

rotheus Von Ratzenhusen، وعدداً من فرسان القديس يوحنا، الذين جاءوا من البندقية معنا، وقد حزنا جميعاً لفقدانهم، لأننا عقدنا على ظهر السفينة صداقة على درجة عالية من الجودة والتعايش، ومثلما يحدث في أماكن الدراسة، والأماكن المائية، يكون الفراق الذي يحل محزناً، وبقي هناك خلفنا المرأة الوحيدة التي كانت معنا، بسبب أنها ضاعت بذهابها إلى احدى الكنائس خارج البلدة، غير مفترضة بأن الغليون سوف يبحر في ذلك اليوم، وباستثناء زوجها، مامن أحد كان آسفا لغياب هذه المرأة، لأنها جعلت من نفسها ثقيلة الظل بدون حدود، بسبب كلامها السخيف، وفضولها حيث كانت تصطاد في القضايا الخاسرة.

وكان هناك أيضاً رجلاً فقيراً، أخذه القبطان معنا محبة للرب، لكنه ماكان يرغب بأخذه مسافة أبعد، ووقف هذا الرجل على الشاطىء وهو يبكي وينوح، لأنه سيكون غير قادر على الذهاب إلى القدس، وعطف عليه موالي، وأحضروه إلى ظهر السفينة، وقدموا النفقات من أجل رحلته ووضعوا تحت حمايتهم رجلاً آخر من بلادنا، كان غير قادر على متابعة السفر، وسددوا عنه النفقات كذلك، وبناء عليه أقلعنا في ذلك المساء.

وفي اليوم الثالث والعشرين، وفي عشية عيد القديس يوحنا المعمدان، أبحرنا أمام ريح قوية جداً، وكنا قد أبحرنا في الليلة المتقدمة وسرنا بسرعة كبيرة جداً، إلى حد أننا لم نر في الصباح يابسة، بل فقط البحر الأدرياتيكي (الايجي؟) والكاربائي، وعند غياب الشمس ولدى ازدياد الظلام، استعد بحارتنا لعمل نار القديس يوحنا على ظهر الغليون، وقد عملوها كمايلي: لقد أخذوا أكثر من أربعين مصباحاً مصنوعين من الخشب ومن قرن شفاف، وعلقوهم واحداً فوق الآخر فوق حبل طويل، ثم عندما أشعلت المصابيح، رفعوهم إلى الأعلى إلى مافوق القمة

الرئيسية، وذلك بشكل أن المصابيح المشتعلة تعلقت نزولاً من القمة الرئيسية حتى مقاعد التجذيف، وبذلك أضاءت الغليون كله، ومن أجل هذا المشهد جاء جميع الناس إلى السطح، من القمرة، والقيدوم، ومن الغرف الداخلية للغليون، ووقفوا حولها، وهناك بدأ البوقية ينفخون بأبواقهم، وغنى عبيد الغليون مع البحارة الآخرين، وطربوا، وابتهجوا، ورقصوا، وصفقوا بأيديهم، وتفاعل الذين وقفوا هناك مع صيحات السرور، والتصفيق بالأيدي، وابتهجوا للاحترام الذي أعطي للرائد المبارك جداً لربنا.

وقبل هذا لم أر ممارسة التصفيق بالأيدي للفرح، الذي تمت الاشارة إليه في المزمور السادس والأربعين، الذي جاء فيه قوله:«ياجميع الأمم صفقوا بالأيادي، اهتفوا للرب بصوت النصر»، كما أنني لم أكن أعتقد أن التصفيق العام لعدد كبير من الرجال بأيديهم في وقت واحد، عندما يكون صادراً عن السرور، سيكون له تأثير عظيم بأن يحرك عقل الانسان نحو السرور، وهكذا ابتهجنا كثيراً على ظهر الغليون حتى حوالي منتصف الليل، بينما كنا مبحرين أثناء ذلك كله بسرعة وهدوء ونحن على طريقنا، وتمددنا بعد هذا وأسلمنا أنفسنا للنوم، نحن الحجاج والبحارة معا، وتركنا السفينة مندفعة أمام الريح، لكن الريح ينبغي عدم الوثوق بها لوحدها، من دون عمل الانسان، والمراقبة أيضاً، لأنها قد تتغير في لحظة واحدة، كما سيتضح في حكايتي.

وفي اليوم الرابع والعشرين، الذي كان يوم عيد القديس يوحنا المعمدان، رأينا قبرص في الصباح الباكر، ولدى رؤية الملاحين في غليوننا لها، غضبوا غضباً عظيماً، لأنهم رأوا أنفسهم أنهم قد تاهوا، وابتعدوا عن الطريق الصحيح فوق البحر، وضيعوا طريقهم عندما كانوا نائمين، لأن الغليون انحرف بعيداً جداً نحو اليسار، ولولا أن موجه الغليون قد نام تلك الليلة، لكان الغليون في هذا الصباح في

واحد من مراسي قبرص المرغوب بها، ولهذا تفجر خلاف ونزاع فيما بين القبطان، ورجال القيادة، وتنازع المرشدون فيما بينهم أنفسهم، ووجهوا اللوم إلى الملاحين، ولذلك عطفوا الغليون نحو اليمين، بعيداً عن المنحى الذي كان يسير عليه، وعدنا في حوالي ساعة العشاء إلى مسارنا الصحيح، لكن ماأن أصبحنا على مسارنا الصحيح، حتى نامت الريح، وهكذا لم نتقدم في تلك الليلة مطلقاً.

وفي اليوم الخامس والعشرين وصلنا إلى مقابل أقدم موانيء قبرص، الذي اسمه بافوس، وهو الذي ورد ذكره في أعمال الرسل الاصحاح ٦/١٣ و ١٣، ورأينا على مقربة من هناك جبل فينوس الذي سوف أحدثكم عنه في طريق عودتي، وسرنا ببطىء شديد حتى الظهيرة، وعند الظهيرة هبت ريح طيبة، حملتنا بسرعة من هناك، وبسرعة أبحرنا على طول ساحل مملكة قبرص واجتزنا مينائي بيسكوبي Piscopi، وليماسول، وفي حوالي ساعة العشاء أبحرنا إلى داخل ميناء سالينا sal-inae وجعلنا سفينتنا تتوقف بثبات بالمرساتين وبحبال الأربطة، وعلى الفور غادر القبطان وخدمه إلى الشاطىء، حيث استأجر خيولاً، وذهب إلى مدينة نيقوسيا، وهي المدينة الرئيسية في قبرص، فقد ذهب إلى بلاط المملكة، لرؤية زوجته، التي كانت السيدة المسؤولة عن غرفة نوم الملكة التي أتيت على ذكرها في ص١١٦، ولسوف أقدم وصفاً لذلك في ص١٤٣من القسم الثاني.

وعندما تركنا القبطان، وقفنا نحن الحجاج على سطح الغليون، ننظر نحو الشاطىء، وقد وقفت معهم، أحدث الذين كانوا على مقربة مني عن جفاف هذا الميناء، وعن طبيعة البلاد، لأنني أمضيت هناك أياماً كثيرة خلال حجي الأول، وبينت لموالي الحجاج الأماكن التي أعرفها على الشاطىء، وبين أشياء أريتهم جبل الصليب المقدس، وهو أعلى جبل في مملكة قبرص، الذي توجد على قمته كنيسة معلق فيها صليب

اللص الذي صلب على الجانب الأيمن للمسيح، وحدثت هؤلاء السادة بقصة ذلك الصليب كلها، كما سترون فيها بعد، وفيها وقف موالي والحجاج الآخرون هناك، يتساءلون حول ذلك الصليب، وينظرون نحو الجبل، الذي كان يبعد عنا مسافة خمسة أميال ألمانية، قلت لهم: «انتبهوا يا إخوتي الأعزاء إلى أن قبطاننا قد ذهب إلى نيقوسيا، ومن الصعب أن يعود في الغد، وسيكون لدينا في الغد يوماً طويلاً ومتعباً، والآن، وبناء عليه، على الذي يرغب باتباعي إلى الجبل المقدس، أن يأتي إلى مؤخرة الغليون، ولسوف نزور الصليب المبارك، ولسوف نعود في الغد في وقت مناسب.

وماإن قلت هذا، حتى ذهبت إلى المؤخرة، وتبعني إلى هناك عدد كبير من النبلاء، ظانين أنني قلت ذلك وفعلته مزاحاً، وقمت وأنا واقف عند القيدوم فاكتريت خادماً يعرف الطريق إلى الصليب المقدس ووعدته بأنه سوف يتسلم قطعة نقود marcella من كل واحد من رفاقي، واكتريت أيضاً قارباً وقائداً له ليأخذنا إلى الشاطىء، وعندما رأى النبلاء أنني كنت جاداً، تبددوا وتركوني، وبقي معي على كل حال، هؤلاء الحجاج:

— اللورد هنري أوف سكومبيرغ Schomberg وكان فارساً نبيلاً، ورجلاً شجاعاً.

— المعلم جون، وكان كاهنا، وشماسا رئيسا من ترانسلفانيا Ttan-sylvania، وكان رجلاً تقيا وعالماً.

— المعلم كاسبارسيكولي Caspar siculi، وكان فارساً، وشاباً قوياً وشجاعاً.

— المعلم بوركارد نوسدورفير Burchard Nusdorfer، وكان فارساً، ورجلاً جيداً ومرحاً.

— رجل اسمه رودلف Rudolph ، وكان سويسريا من ثورغو

thurgau، وكان رجلاً طويلاً وأميناً.

— رجل اسمه جون، وكان تاجراً من فلاندرز، وكان رجلاً متشوقاً كثيراً.

— وأنا الراهب فيلكس، المحرك الروحي لهؤلاء جميعاً، والخادم الذي أكتريته، وكان اسمه اندرو.

وذهبنا نحن الثمانية، ونزلنا من الغليون إلى القارب، وعندما صرنا على الشاطىء، بدأنا نبحث كيف يمكننا تدبر حجنا، لأن الساعة كانت متأخرة، وكانت الشمس قد غابت، وبدأت الدنيا تصبح مظلمة، وأخذنا دليلنا وخادمنا في الظلام إلى قرية اسمها أورنيكا Ornyca، على بعد ميل واحد عن البحر، حيث أيقظ رجلاً من الريف كان يعرفه، وقدم هذا الريفي لنا الخمرة، والخبز، والجبن، وقد أكلنا وشربنا، واستأجرنا أيضاً ثمانية بغال من القرية، التي ركبناها، وانطلقنا مسرورين، وكان القمر في الوقت نفسه قد أشرق، والسرور ملأ قلوبنا، مثلما طرد النور الظلام، ذلك أننا كنا نحن الثمانية، رفقة مختارين، وكان المناخ حسناً، والمنطقة جميلة، والطريق جيداً، وبالإضافة إلى هذا كله كانت نباتات تلك الأرض تصدر روائح طيبة جداً، لأن أعشاب تلك الجزيرة كلها تقريباً كانت توابل من مختلف الأنواع، تعطي أطيب الروائح في أوقات الليل، وذلك عندما يكونوا مبللين بالندى، وتابعنا رحلتنا حتى إشراق نجمة الصبح — الزهرة — التي تتقدم على إشراق الشمس، وكان ذلك عندما وصلنا إلى قرية اسمها القديس الصليب، حيث ربطنا حيواناتنا، وأشعلنا ناراً، وكان رفاقي قد سكروا، غير أنني تماسكت، لأنني كنت أنوي الاحتفال بقداس فوق الجبل المقدس، وقد تمددنا واسترحنا لبعض الوقت، وقد نمت حتى عم الضياء، وكنا مضطجعين على الأرض إلى جانب حيواناتنا.

وفي اليوم السادس والعشرين، الذي كان عيد الشهيدين المقدسين: يوحنا وبولص، عندما استيقظنا طلبنا من الاغريق الذين استرحنا أمام بيتهم إعداد وجبة غداء جيدة لنا، لأننا عزمنا على العودة إليه من الجبل، من دون أن نكون قد تناولنا طعام الافطار، وهكذا امتطينا ظهور دوابنا وانطلقنا، حيث كان الجبل المقدس أمامنا، يرتعد في أعاليه، ووصلنا عند سفح الجبل إلى واد شهي، كان يجري في وسطه جدول ماء عذب ونقي، كان شاطئيه مليئين بأكثر الزهور جمالاً، وهي زهور لم أعرف أسماءها، وكانت هناك نباتات ذوات روائح حلوة، كما كانت هناك أشجار محملة بقرون الخروب، التي يسميها العلمانيون «خبز القديس يوحنا»،، واتخذنا من هذا الوادي طريقنا صعوداً إلى الجبل وتحت ظل بارد جداً، بسبب أن الشمس، مع أنها كانت تبعث الدفء في الجبل كله بوساطة أشعتها، لم تصل هذه الأشعة إلى الوادي، ووصلنا على الفور إلى المكان الأكثر انحداراً من الجبل، الذي لم نستطع صعوده ونحن على ظهور بغالنا، ولذلك ربطنا دوابنا إلى أشجار هناك، وتسلقنا على أقدامنا مع جهد كبير وتعرق عظيم، لأن الجبل كان مرتفعاً، وشديد الانحدار، ويقال إنه يشبه في كل شيء جبل الطور في الأرض المقدسة، الذي عليه تغيرت هيئة ربنا، وقد سمعت هذا من رجل تسلق الجبلين معا.

وعندما وصلنا إلى القمة، جثونا على ركبنا مصلين أمام الكنيسة، وجلسنا في الهواء الطلق قبل أن ندخل إلى الكنيسة، وذلك بقصد أن نسترد أنفاسنا، وأن نمسح العرق الذي كنا متجللين به، وأن نتخلص من الحر الذي كنا فيه ونبرد قليلاً، وبعدما فعلنا هذا، أعددت نفسي أولاً، كما هو لائق، ودخلت إلى الكنيسة، وقرعت الناقوس حتى يسمع الحافظ لغرفة المقدسات ويأتي، وقدم على الفور كاهن، جاهل باللغة اللاتينية، وقد أحضر كتبا لاتينية قديمة جداً من أجل القداسات، كما أحضر أشياء أخرى لها حاجة في القداس، وبعد قرع الناقوس قرأت

قداساً من أجل الصليب المقدس، مع مجموعات من أجل الشهيدين المقدسين، يوحنا وبولص ومن أجل الرحالة، وبعد القداس، أدرت نفسي نحو إخواني ورفاقي، وألقيت فيهم خطاباً، أخبرتهم فيه كيف ينبغي عليهم تقديم الاحترام الجدير للصليب لدى رؤيتهم له، وأوضحت لهم في أي المجالات يختلف هذا الصليب الذي سنراه عن صليب مخلصنا، وفي أي المجالات هو مشابه له، فضلاً عن هذا حذرتهم أن لايكونوا فضولين أكثر من اللازم عندما يروه، وأن لايرغبوا برؤية معجزة هناك، لأننا عندما سوف نأتي للضريح الأكثر قداسة لربنا في القدس سوف لن نرى معجزة، فكم سيكون الأمر أقل، الذي نتوقعه من هذا الصليب هنا؟ وقد قلت هذا بسبب أننا سمعنا حكايات غريبة وشاذة حول الصليب الذي كنا سنراه هناك، وأخذت بعد هذا شمعة مشتعلة بيدي، وذهبت إلى المكان الذي كان فيه الصليب، وتبعني حجاجي إلى هناك، وجاء الحافظ لغرفة المقدسات معهم، وعندما وصلنا إلى المكان فتحه الحافظ لغرفة المقدسات، وعلى هذا وجدنا الصليب المقدس واضحاً من الممكن لنا رؤيته بأعيننا، ثم إنني صعدت أولاً إلى الصليب، وقبلته، ونظرت إليه بدقة وحرص من الأمام ومن الخلف، وجاء بعدي رفاقي الذين قدموا له الاحترام، ونظروا إليه بحرص، واحداً بعد الآخر، وكان صليباً كبيراً إلى حدما، مغطى من الأمام بألواح من الفضة، وكان مذهبا، ولكن من الجهة التي تطل على الجدار كان غير مغطى، وكان مصنوعاً من خشب سليم، من نوع خشب الصنوبر، وقد قالوا بأن هذا الصليب هو صليب دسمه Dysma ، اللص الذي كان على الجانب الأيمن من ربنا، وهو الذي وعده بالجنة عندما كان على الصليب، ذلك أن حنة المباركة، وجدت الصلبان الثلاثة تحت جبل الجمجمة، حيث أطاحت بالصليب الذي عاد إلى جسمه Gesma، اللص الذي كان على يساره، واحتفظت بالصليب الثاني، أي صليب دسمه، أما الصليب الثالث، الذي كان صليب المسيح، فقد عرضته ليراه

العالم كله، حتـى يمكن أن يبجل بها جدير به، وقـد جلبت صليبها، أي الصليب الذي كـان صليب دسمـه، جلبتـه كامـلاً من القـدس إلى هذا الجبل، وبنـت هنا ديراً كبيراً للرهبـــان، وكنيســـة وضعت فيهـــا هذا الصليب، الذي هو أثر فائق القداسة، وقـد أمرت ببناء حجرة، أو غرفة مغلقـة في الجدار المواجـه للمـذبـح، ووضعت الصليب، وبقي الصليب هناك دونما تحريك حتى هذا اليـوم، وعلى كل حال بالنسبة للـدير نفسه جـرى اجتثـاثه حتى الأرض مـن قبل الأتراك، والمسلمين، وقـد تشتت الرهبان البندكتيون الذين سكنوا فيـه، ووضع الصليب وترتيبه في مكانه مدهش، فالصليب واقف في نافذة مظلمة، ويديه موضوعتين في فتحات معمولة في الجدار، أما قدمه فموضوع في فتحه معمولة في الأرضية، غير أن الحفر التي تحتوي على الذراعين وعلى القدم واسعة جداً، وأوسع من أي معيـــار، ولايلامس الصليـب الجدار في أي مكان، بـل هو محرراً، وبعيداً عـن ملامسة الجدار في أي مكـان وجانب، والمعجـزة المحكية في الخارج حـول الصليب، هي أنه معلـق بالهواء دون أي رباط، ومع ذلك هو واقف بشكل ثـابت، وكأنه مثبت بأقـوى المسـامير، أو أنه مبني في داخل الجدار، وهو طبعـاً غير مبني بالجدار أبداً، لأن الفتحات الثـلاث واسعة جداً، إلى حـد أن انساناً يمكنه أن يضع يده فيهن، ومن ثم يدرك بالملامسة أنه لايوجـد هناك أية عملية ربط، وكـذلك لايوجد في الخلف أوعند رأس الصليب.

ولقـد كان بامكاني بالحقيقـة البحث في هذا الأمـر عن قرب أكثـر مما فعلت، غير أننـي خفت الرب، وليـس لي الحق في أن أفعل مـــامنعت الآخرين أن يفعلوه، فلقد تسلقت هذا الجبل لإظهار الاحترام نحو هذا الصليب، وليس للبحـث عما إذا كـــانت هناك معجـــزة أم لم تكن، أو لامتحان الرب، ولربما كان هذا الصليب جديراً أكثر بالاحترام، لو أنهم ضمـوا إليه قطعـة من الصليب الحقيقي للمسيح، ومعلق في هذه البيعـة

ناقوس، قرعناه قبل القداس وبعده، وقلت لرفاقي بأننا لن نسمع صوت ناقوس ثانية حتى نعود إلى العالم المسيحي، وكان هذا أمراً صحيحاً، ذلك أنني لم أسمع هنا صوت ناقوس خلال مدة أربعة أشهر، وذلك باستثناء هذا الناقوس، الذي نعتقد أنه قد وضع هنا من قبل القديسة حنة، التي وضعت الصليب هنا.

وعندما انتهينا من الكنيسة، خرجنا منها، ودخلنا إلى بيت الحافظ للآثار المقدسة، على أمل أن نجد شيئاً ننعش أنفسنا به، لكن البيت كان فارغاً وخاوياً، ولم يكن فيه شيئاً مثل البقسماط والماء البارد، كما أن الرجل لم يكن قادراً أن يتحدث إلينا، لأنه كان اغريقياً صرفاً، وكانت اللاتينية بالنسبة له لغة بربرية، وكانت الايطالية عربية، والألمانية تترية، وبناء عليه غادرنا دون أن ننعش أنفسنا، وطفنا حول قلة الجبل، حيث وجدنا بعض الأسوار القديمة، وهي من بقايا معبد فينوس، الذي من حيثما نظرت منه، سواء من عبر الجزيرة أو طوليا، كنت ترى البحر، لكن بسبب الحر الشديد، كان الهواء رطباً وغائماً، فلم نستطع رؤية الأرض المقدسة، كما لم نستطع رؤية جبال أرمينيا، أو كبدوكيه، أو سورية المجوفة، أو الجليل، وكل هؤلاء كان ينبغي أن نكون قادرين على رؤيتهم، لو أن الهواء كان صافياً، ودخلنا بعد هذا إلى الكنيسة وسلمنا على الصليب المقدس وقبلناه، وأسرعنا نازلين من الجبل إلى حيث وقفت دوابنا، وتوجهنا على ظهورهم إلى قرية الصليب المقدس، حيث وجدنا غداءنا —الذي تشوقنا إليه طويلاً —جاهزاً، وهو الذي أكلناه مع تقديم الشكر، ولم يكن بامكاننا مغادرة المكان على الفور، لأن الحرارة كانت عالية جداً، وكانت الشمس محرقة مثل النار، ولذلك دخلنا إلى الكنيسة الاغريقية التي قامت على مقربة من حانتنا، حتى نتمكن من الصلاة فيها، ولكي نستريح في الظل قليلاً، وبينما نحن جلوس جاء رجل دين وقال لنا باللاتينية:«ماالذي تفعلونه في كنيسة

اغـريقية؟ يوجـد هنا على مقربة منكـم كنيسة لاتينيـة تابعة لطقـوسكم، فهناك ينبغي أن تصلوا وأن تريحوا أنفسكـم»، وبناء عليـه نهضنا، وذهبنا معه إلى الكنيسة اللاتينية، وهنا جلب من المحفوظات ذراع القديسة حنة أم العذراء المباركة، الذي صدوراً عن الاحترام له، كان محفوظاً بالفضة، كما أنه قدم إلينا مسماراً، كان أيضاً مغطى بالطريقة نفسها بالفضة، وقال بأن هذا كـان واحـداً من مســامير المسيح، وهي المسـامير التي علق بها عندما كـان على الصليب، وقد قبلنا هذه الآثار، ولمسناهـم بمجوهراتنا، حسب الوصف الذي سلف وقدمناه.

وقـد وجـدت أن رجل الدين هذا، كـان راهبـاً، الأمـر الذي لم أكن قادراً على اكتشـافه من ملابسـه لأنه كان مرتـديا لعباءة من وبر الجمل، وكان رجـلاً مسؤولاً عن الكنيستين، أي الاغريقيـة واللاتينية، وفي هذا المجـال كـان يقوم بالطقـوس للكنيستين، ففي أيام الأحـد، كـان يؤدي القداس في الكنيسـة اللاتينية، وينهيه وفـق الطريقة الغربيـة بخبز فطير، وعندمـا كـان ينتهي من هذا العمل، كـان يعبر إلى الكنيسة الاغـريقيـة، ويكمل القداس وفق الطريقة الشرقيـة بخبز مخمر، ولم يحظ هذا برضاي وأزعجني كثيراً، واعتقـدت أن هذا الكاهـن هرطيـا من أسـوأ الأنواع، ذلك أنه يقـــود الناس مضللاً لهم هنا وهناك، ذلـك أن هذين الطقسين لايمكن ممارستهما من قبل انسان واحـد، هو الشخص نفسه، كما لايجوز فعل ذلك في المدينة نفسهـا، لعــدم توافقهما في عـدد كبير من العقـائـد الهامة، وصحيح أنه في العصـور القديمـة أن الكنيسة الرومانيـة اعتادت أن تتسـاهل تجاه الطقوس الاغـريقية، إنما حتى آنذاك لم يسمح لانسـان واحد أن يكون في الوقت ذاته اغريقيـاً ولاتينيا، وتعاظم هذا الأمر الآن عندما تدين كنيستنا الاغريق وتعدهم منشقين وهراطقة، ويقوم الاغريق في قـداسـاتهم بالنيل منا والحط ن شـأننا، ويعلنون في كل يوم أحـد إلى شعبهم بأن الكنيسة الرومـانية محرومة كنسيـا، وهم يكرهوننا ويكرهون

طقـوسنا وعلى هذا الأسـاس تبلغ بهم الكراهيـة إلى حد الرغبـة بمـوتنا جميعـا، فكيف يمكن لأي رجل مستقيم، وكاثوليكي جيـد أن يكون في وقت واحد لاتينيا واغريقيا؟.

ومامن واحد يتصرف هكذا، إلا لإرضاء شرهه أوحبه للسرور، ذلك أن مثل هؤلاء الناس يتقبلون كـل مـاهو فيـه الرضـا لأي من الطقسين والعقيدتين، وأن يرفض الأشياء التي هي صعبة ومـزعجة لحملها سواء أكـانت تابعة لهذا الجانب أو الطرف الآخـر، وقام عـدد كبير من الكهنة اللاتين بتحويل أنفسهم إلى العقيدة الاغـريقية، حتى يمكنهم المغامرة في ميدان الزواج، ومع هـذا تراهم في الوقت نفسه يرغبون بـالتمتع بحرية الكهنة الموجودة في العقيدة اللاتينية، التي هي ليست عقيدتهم.

وهكذا قمنا بعـد الظهيرة، عندمـا بدأ الحر يضعف، بـامتطاء ظهـور دوابنا، ومضينا نازلين نحـو البحـر حتى كنيسة القـديس اللعـازر، التي قامت على الشـاطىء، في مواجهة غليـوننا، وعلى بعد مسـافة طويلة عن البحر، وهنا قمنا بإعادة دوابنا إلى أصحـابهم، وكان هناك على الشاطىء سـوق كبير، وقـد اجتمع فيـه حشـد كبير من الناس من أجل غليـوننا، الذي جلب منه مـلاحونا سلعهم، وكـانوا يتولون بيعهم إلى القبـارصة، وكان ذلك موجوداً في كل مكان نزلوا به، وبعدما شاهدنا السوق، عدنا إلى غليـوننا، إلى سـادتنا ورفـاقنا، الـذين وجـدناهم آسفين، وغـاضبين بسبب أن القبطان لم يكن قـد عاد بعـد، وكـانوا قد أمضـوا نهاراً منهكاً جداً، وتحلق جميع الحجـاج من حولنا ليسمعـوا حول مـارأيناه، وعندما سمعـوا قصتنا، قـالوا بأننـا كنا محظوظين، وأنهم آسفين لأنهم لم يذهبـوا معنا.

وفي اليوم السابع والعشرين، عندما وجدنا بأن القبطان تأخر بالعودة، قام بعض الحجـاج، وكنت واحداً منهم، بالنزول بأنفسهـم إلى الشاطىء لامضـــاء النهـــار هناك، وبقي الشطر الأعظم من الحجـاج على ظهـــر

الغليون، خوفاً من هواء قبرص، الذي هو مضر بشكل عام للألمان، مالم يكونوا أقوياء، وأصحاء في أجسادهم، وبناء عليه فإن النبلاء الذين خافوا على أنفسهم ولم يغامروا بها لم ينزلوا إلى قبرص، وعندما كنا على الشاطىء ذهبنا إلى المكان الذي يعمل فيه الملح، حيث أمكننا أن نرى من خلال الخرائب، أنه قد كانت هناك مدينة ذات حجم لم يكن صغيراً، وكان خلف المدينة مكان محاط بتلال، حيث يتكون هناك عندما يفيض البحر، بحيرة صغيرة، وعندما تتراجع مياه البحر بسبب الجزر، تتعرض المياه التي تبقى هناك إلى الجفاف بسبب حرارة الشمس، والذي يبقى عبارة عن أفضل أنواع الملح، وأعظمها بياضاً وثمناً، ويحمل هذا الملح إلى كثير من البلاد للبيع، وتتلقى ملكة قبرص كثيراً من المال من الذين يتجارون بالملح.

ورأيت في أثناء حجي الأول عدداً كبيراً من الرجال يعملون في فصل الملح عن الماء، وهو الملح الذي لم يكن قد جف بعد، وقد كان هناك كثيراً من الأكوام الطويلة من الملح قائمة هناك وكأنها تلال صغيرة، لكن الآن لم يكن هناك ولا انسان واحد، وكان حيث قامت من قبل أكوام الملح، مياه عميقة إلى حدما، وعند حلول وقت العشاء عدنا إلى ظهر غليوننا، وكنا غاضبين جداً من القبطان، ووصلت في ذلك المساء، في قارب، المرأة التي خلفناها في رودس، وقد أشفقت على هذه المخلوقة المسكينة، بسبب المصاعب التي تعرضت لها، بسبب إبحار الغليون.

وفي اليوم الثامن والعشرين، جاء القبطان من نيقوسيا، قبل طلوع الشمس، مع بعض القبارصة الذين رغبوا برؤية الأماكن المقدسة في القدس، وكان بينهم امرأة تقية، من بلاط الملكة، أرادت أن تنهي حياتها في القدس في جوار الأماكن المقدسة، ورفعنا المرساتين، وأبحرنا ببطىء شديد ونحن خارجين من الميناء، لأن الريح كانت ضعيفة، وازدادت عند الظهيرة قوة، لابل صارت قذرة، ودفعنا بسرعة وبقوة إلى الخلف

إلى الساحل الصخري لجزيرة قبرص، وعندما صرنا هناك ألقينا بالدليل، فوجدنا أن المجس كان قريباً من القعر، ولهذا خشية منا من أن نواجه أية صخرة أو Bitholassum أنزلنا الأشرعة، وأبعدنا السفينة من بين أيدي الريح، وألقينا بمرساتينا وانتظرنا ريحاً طيبة، وكان هذا التأخير مزعجاً جداً لنا، لأننا كنا نتحرق شوقاً لرؤية الأرض المقدسة، عارفين أن علينا عدم رؤية بلاد أخرى قبل أن نصل إلى تلك البلاد التي تشوقنا لها.

وكان تأخرنا مزعجاً جداً، فوق كل شيء إلى القبطان مع أعوانه، الذين خشيوا من أن يكون أوغسطين الذي ذهب قبلنا مع حجاجه، قد حصل على الاذن بدخول الأرض المقدسة قبل وصولنا إلى هناك، بسبب لوأن ذلك حدث، لكنا مرغمين على المكوث في الميناء حتى ينهي أولئك حجهم، ويعودوا إلى ظهر البحر ثانية، فذلك سوف يعني الموت بالنسبة لنا، وفوق تحملنا، لأننا لو وجدناهم في ميناء الأرض المقدسة، لكنا مرغمين على العودة إلى قبرص مباشرة، وأن ننتظر هناك عودتهم، وهبت بعد غياب الشمس ريح خفيفة، عهد إليها بالسفينة، وزحفنا قاطعين مسافة قصيرة في تلك الليلة.

وفي اليوم التاسع والعشرين، الذي كان يوم عيد الرسولين المقدسين: القديس بطرس، والقديس بولص، والذي كان أيضاً الأحد الخامس بعد التثليث، دفعت بنا ريح قذرة نحو الخلف من جديد، حتى وصلنا إلى ميناء ليماسول، الذي كنا قد اجتزناه يوم الأربعاء الماضي، ورسونا هناك، وهنا حمل البحارة الفؤوس، وذهبوا بالقارب إلى الشاطىء، حيث دغلة من الأشجار، منها قطعوا بعض الأخشاب من أجل نار المطبخ، من دون أن يتذكروا، أن ذلك اليوم كان يوم عيد الرسولين، ويوم أحد أيضاً، وعندما أصبح الوقت متأخراً، رفعنا المرساة، وأبحرنا مسرعين حيث ابتعدنا عن قبرص ودخلنا إلى البحر المفتوح، حيث لم يكن

بامكاننا رؤية يابسة، لامن الأرض ولامن الجزيرة، لأننا كنا بعيدين كثيراً.

وفي يوم الثلاثين، الذين هو يوم ذكرى القديس بولص، واليوم الأخير من حزيران، أبحرنا مسرعين، وتطلعنا بشوق عظيم لنرى المشهد البهيج للبلاد المجيدة التي كنا متشوقين كثيراً لها، حتى موسى، بعدما اجتاز خلال قفار الصحراء، واقترب من أرض الميعاد، قام لشدة تشوقه بالصعود إلى قمة جبل فسجه، حيث رأى من هناك الأرض المقدسة، وذلك حسبما جاء الخبر في سفر التثنية: ٣٤/ ١، وهكذا كنا نحن الذين قدمنا من بلادنا عبر البحر الكبير، حيث تسلقنا باستمرار إلى أعلى أجزاء السفينة، لنتمكن بأعيننا من ألقاء نظرة على البلاد التي كنا قاصدين إليها، وكل من يرى هذه البلاد من البحر، يعد نفسه رجلاً سعيداً، ولهذا رجونا ورشونا صغار البحارة الذين كانوا يتولون المراقبة من القمة الأساسية، أن يديموا النظر بكل عناية من حولهم، من جميع جهات البحر، وأن ينذروننا بالصراخ، في اللحظة التي يرون فيها الأرض المقدسة، وقد نوينا أن نعطي هدية جيدة للذي سوف نسمع صوته أولاً يحمل إلينا البشائر السارة، وماكان مصدر هذا أي نوع من التفاخر، بل مجرد وصف صحيح لما حدث، وأعترف أنا شخصيا، أنني من جهتي في رحلتي حجي، كنت خلال الأيام، التي كنت متوقعاً فيها اقتراب رؤية الأرض المقدسة، لم أهتم لابالأكل ولا بالشرب، أو النوم، وكانت ساعات الظلام المعدة لاستراحة الناس مزعجة جداً بالنسبة إليّ، وكان فراشي شوكة بالنسبة إليّ، وكان مخدعي جهنما، ولم أعد قادراً لاعلى القراءة ولا على الكتابة، ولا على الحديث مع الناس مثلما كنت من قبل، بل اقتصر سروري على الجلوس فوق قيدوم الغليون، على القرنين هناك، وأن أنظر من هناك بدون توقف عبر البحر الواسع، علني أتمكن بتعب عيني من اطفاء الحمى في عقلي، وكنت حتى ألعن الليل،

لانتزاعه مني وسائط الرؤية، أعني الضوء، وكنت خلال هذه الأيام كلها أجلس فوق القيدوم قبل الفجر، الذي كنت أرحب بأشعته ببهجة، ومن ثم كنت أنتظر أشعة الشمس، حيث كنت ألقي بتيقظ بناظري عبر وجه البحر، وأثبتهما نحو الشرق، الذي لم أفترض أنه تحت الماء، بسبب ارتفاع البحر، ولذلك أكن أنظر نحو الأعلى، بل أثبت نظري دونما تحريك على ذلك الجزء من السماء الذي بدا لي أنه متصل بالبحر، أوهو جزء من الأفق، وعندما كانت تشرق الشمس، اعتدت على أن أنظر بتشوق فيها إذا كنت أستطيع أن أرى أي عائق أو جسم غير شفاف بين الجسد المضيء للشمس وبين الجسد الصافي والواضح للماء.

وعلى هذا فإن أي قداس يعترض، لايمكن أن يكون سوى الأرض المقدسة، التي أعرف أنها واقعة إلى الشرق منا، لأنه عندما كان الغليون يسبح فوق أعالي البحار، وكانت الشمس تشرق، لقد بدت لي وكأنها أشرقت من خلال الماء، وأن مامن شيء يمكن رؤيته بين الشمس وبين الماء، وكان الشيء نفسه يحدث عند غياب الشمس أيضاً، حيث كان يبدو لي أن الشمس قد غطست في الماء، ولكن عندما بات الغليون على بعد حوالي عشرين أو ثلاثين ميلاً ألمانيا من البلاد، بدت الشمس لي وكأنها قادمة من جبال تلك البلاد، ولذلك كان من الممكن رؤية الجبال في ضوء الفجر قبل الشمس، لأنهم قاموا فيها بين الشمس والبحر، ولكن ماأن ترتفع الشمس فوق الجبال، ويمضي على ذلك ساعتين أوثلاث ساعات، حتى تصبح هذه الجبال غير مرئية، ولهذا اعتدت على الوقوف قرب القيدوم في أوقات الغسق المبكر، آملاً برؤية الأرض المقدسة قبل اشراق الشمس، واعتدت أيضاً على تحية الشمس المشرقة بسرور، لأنه من دون مساعدة الشمس لايمكنني رؤية تلك البلاد، لكن عندما كنت أرى أن الشمس قد ارتفعت عالية فوق البحر، دون رؤية للبلاد أثناء ارتفاعها، كنت أنصرف حزينا، ومن ثم كنت أشغل نفسي

لبعض الوقت بمسائل أخرى، وكان هذا هو الحال أيضاً مع الحجاج الآخرين، لكن ليس الجميع، بل فقط الذين أحبوا الأرض المقدسة وتشوقوا إليها، Ach, mein Gott، كم هو عذب يمكن أن يكون حب الأرض السماوية للتقي، وباعث على الاستغراق بالتأمل، عندما يقوم بعض الحجاج المتجولين، من غير الأتقياء، والتعساء والمذنبين، بالشعور بالسرور العميق، وبالتشوق الحار إلى الأرض الدنيوية، ومثلما فعلت مريم المجدلية، وقامت وهي تتحرق بنار الحب، فانحنت بنفسها مراراً، ونظرت في الضريح، حيث كان محبوبها قد تمدد، مثل هذا يفعل الحاج المحب. حيث غالبا ماكان يقوم وهو في سفينة، ويحدق بثبات نحو الشرق، عله يرى البلاد التي فيها ضريح محبوبه، وهكذا اعتدنا أن نجلس اليوم بطوله، ننظر عبر البحر، محاولين فيما إذا كنا قادرين على رؤية شيء غير الماء، وكان بعضهم أحياناً، يتصور من خلال قوة التخيل، أنهم قد رأوا البلاد، وكانوا على ذلك يدعون الآخرين إليهم، ويطلبون منهم التطلع، وكانوا ينشغلون معهم بنقاش تقوي، حيث يعلن طرف بأنه قد رأى البلاد، وينكر الطرف الآخر ذلك، وكانوا في بعض الأحيان أثناء النقاش يقوم أحدهم بالتراهن مع آخر بأنه كان مصيباً، وكانا يحيلان القضية إلى نظر انسان آخر، كان جالساً على القمة الأساسية، وعندما كان يعطي قراره، كان أحدهما يعطي الآخر زجاجة من الخمرة المالفوسية، أوشيئاً ما آخر تراهنا عليه، وكنا بالوقت نفسه نبحر بتقدم، وكانت هناك ريح طيبة جداً، ولطيفة، ولقد بدا لنا بأن البحر المالح نفسه قد بدأ يتحول إلى عذب، وقد منحنا إبحار طيب، وأن هذا كان بسبب قربه من عذوبة تلك البلاد التي كانت تفيض بالعسل والحليب، وهكذا عبر ذلك اليوم مع الليل، ونتيجة لذلك وصل شهر حزيران إلى نهايته.

هنا انتهى الفصل الثالث

طريقة تقديم وصف الحج في الأرض المقدسة والقدس

أمـا والآن وقد جلبتني جـولاتي، بفضل نعمة الرب، عبر البحـر، إلى الأرض المقـدسـة، سـوف أشرع في المستقبل بالحديث عن مسيرة حجنا يوما فيوماً، وأن أبدأ —كما هو معتـاد— كل يوم بالمساء المتقدم، وهكذا بعـدما يزور الانسـان بعض الأماكـن المقدسـة، يأتي وصفها بعـد ذلك، ومنذ الآن سـوف أقـوم بوصف جميع الأمـاكن التي امتـد إليهـا حجنا، والتي زرناها، ولن أمـزج أوصافي وأدخـل فيها وصف الأمـاكن التي لم يذهب إليهـا حجاجنا، ولن أصف جميع الأرض المقـدسة، أو الأوضـاع القديمة لمدينة القدس، وذلك باستثنـاء ماأجبر على ذكره من أماكن أنا لم أرها شخصيا، وعلى كل من أراد الاطلاع على أجمل الأوصـاف القديمة للبلاد المقـدسة، ليقم بقـراءة كتاب الراهب بوتشـارد — الذي كان من طائفـة الرهبـان المبشرين، والذي توجـد نسخـة منه في مكتبـة الرهبـان الدومنيكان — أو الرهبـان المبشرين، في أولم، ومن هذا الكتـاب، قـام رفيقـي الحاج، اللـورد ذي المولـد النبيـل، بـرنـارد فـون بريتنباخBraitenbach ، الذي كـان عميـد الكنيسـة الكاتدرائيـة في مينز، بنسخ وصف الأرض المقدسة، حيث أقحم ذلك في كتاب يوميات رحلة حجه.



الفصل الرابع

ويحتوي على أعمال الحجاج في الأرض المقدسة خلال شهر تموز مع وصف للأماكن المقدسة في القدس وفيما حولها

كان شهر تموز شهر بهجة الحج، فهو الشهر الذي ظهرت في يومه الأول الأرض الأكثر تبجيلاً، ظهرت إلى الحجاج المذكورة أعمالهم في هذا الكتاب، فقد أبحرنا بسرعة وتقدم من بحر بامفيليا Pamphylia، إلى بحر سورية وفينيقيا، وبعدما دفعنا من هناك نحو الجنوب، وصلنا في تلك الليلة نفسها إلى بحر فلسطين المرغوب به، وما أن بدأ الفجر بالاضاءة، حتى أضاءت هناك أيضاً البلاد، التي هي أكثر نوراً من الشمس، وأعني بذلك الأرض المقدسة، التي هي بلاد كنعان، البلاد التي اسمها أعلى من كل اسم، فما أن رآها رجل المراقبة الذي كان جالساً فوق القمة الأساسية، حتى انفجر يبكي ويصرخ قائلاً:«سادتي الحجاج، انهضوا، وتعالوا إلى السطح، وانظروا إلى البلاد التي تشوقتم إلى رؤيتها بأعينكم، ولدى سماع هذا الصراخ، اندفع الجميع من كل زاوية من زوايا الغليون، رجالاً ونساء، وشيوخاً وأطفالاً، ومرضى وأصحاء، وتسلقوا نحو الأعلى، علهم يرون البلاد، التي من أجلها تركوا بلادهم، وعرضوا أنفسهم إلى كثير من المصاعب وإلى خطر الموت، وعلى كل حال بما أننا كنا مانزال على مسافة بعيدة، لم نكن قادرين على رؤية أي شيء باستثناء البحر، غير أن البحارة قد أعلنوا أنهم يستطيعون رؤية البلاد، لأنهم كانوا معتادين على البحر، ويمكنهم التمييز بين السفن واليابسة، حتى وإن كانوا مايزالون على مسافة بعيدة، وبدأنا نحن أنفسنا نرى القمم ورؤوس الجبال، منبعثة وكأنها خارجة من البحر.

وكـان ملاحـونا مايـزالون يتشككون حول أي البـلاد من الممكن أن تكون هي، فقد قـال بعضهم بأنها كانت كبدوكية، وقـال بعضهم الآخر بأنها كانت كليكيـة، وبعضهم قال بأنها سـورية الفينيقية، وصرح الشطر الأكبر منهم بأن كبـدوكيـة كانت على جهـة اليسـار منا، وأننا قـد صرنا بعيدين عنها بعدمـا اجتزناها، وعلى هذا كنا في اتجاه أنطاكية، وأن البلاد التي ظهرت على جهـة يسارنا كانت سورية الفينيقيـة، وأن الذي أمامنا، على بعـد مسـافـة كبيرة، كـانت فلسطيـا، أو فلسطين، المتصلة بالأرض المقدسـة، وقد كـانت بالفعل كذلك، وعندما لم يعـد هناك من شك بأن الذي رأيناه كـان الأرض المقـدسـة، وأن جبـالها هي التي كـانت أمـام أعيننا، عندها أمر القبطان بأن على الناس جميعاً الهدوء، وأكد عن طريق صـوت المنادي بأن هذه كـانت هي الأرض المبـاركة، التي فيهـا جـرى الحمل بيسوع المسيـح ابن الرب، وفيها ولد، وعـاش، وصلـب، ومات، ودفن، وقـام ثانية من ضريحه في اليـوم الثـالث، وذلك مانعلنه ونعتقـده بثبات، وبناء عليـه أخبرنا أنها تواجهنا، وأنه ينبغي علينا أن نقدم الشكر مباشرة لمخلصنا، وأن نغني ترنيمة نعبر بها عن سعادتنا بصوت مرتفع.

وبناء عليـه قـام الحاجـان، اللـذان كـانا كـاهنيين، وراهبين، واللذان امتلكا صـوتاً جيدا، فسـارا على مجاراة مقـاعد التجـذيف حتى مـوضع السارية، أي إلى المكان الذي جرت العادة على قراءة القداس فيه، وهناك شرعـا معـا يغنيـان بصـوت مـرتفع تـرنيمـة أمبروز وأوغسطين (Te Deum laudamus) التي شـارك فيهـا جميع رجـال الدين الآخـرين الذين كانوا بين الحضـور، وغنوها كما تغنى في الكنائس، حيث غنى كل انسـان وفقاً للحن الـذي يغنى في جوقـة مـوطنه، وأنا لم أسمع قط مثل هذه الأغنية من حيث العذوبة والمتعـة، لأنه كانت هناك أصوات كثيرة، وقـد جعلهـا تعـدد الأصـوات المتنافـرة كما لـو كـانت مـوسيقى عـذبة ومتناسقـة، لأن الجميع مثل بعضهـم غنوا الكلمات نفسهـا، لكن الألحان

كانت مختلفة، ومع ذلك تآلفت مع بعضها بشكل عذب، وكان شيئاً ممتعاً سماع مثل هذا العدد الكبير من الكهنة يغنون الأغنية نفسها مع بعضهم صدوراً عن السعادة في قلوبهم، وقد كان هناك عدد كبير من الرهبان اللاتين، والسكلافونيين، والايطاليين، واللومبارديين، والغاليين، والفرنجة، والألمان، والانكليز، والايرلنديين، والهنغار، والسكوت، والداشيين، والبوهيميين، والاسبان، وكانت هناك أعداد كبيرة ممن تكلم اللغة نفسها، لكنهم جاءوا من أسقفيات مختلفة، وانتموا إلى طوائف دينية مختلفة.

ولقد غنى هؤلاء جميعاً أغنية Te Deum، التي شارك فيها حتى العلمانيون من الحجاج وطاقم الغليون مع بعضهم، وصرخوا عالياً لسرورهم بحظنا السعيد، ونفخ البواقون بصوت مرتفع، وصوتوا بآلات الـ Shawms وواحد منهم بآلات الـ Bogadellus والـ Jon-gleur، وقرعوا على الطبل وعلى الـ Sack but، في حين نفخ آخرون بالمزامير وموسيقى القرب، وفي الوقت نفسه طأطأ بعضهم وجوههم نحو سطح السفينة وصلوا وهم متوجهون نحو الأرض المقدسة، وبكى آخرون سروراً وهم يغنون، وهكذا غنى الجميع أغنية جديدة أمام عرش الرب، وغنت الأرض والبحر مع أصواتهم، وبدا لنا ونحن نغني أن غليوننا قد انحنى تحت أقدامنا وأبحر بسرعة أكبر، شاقاً الأمواج بحرية أعظم، وقد ملأت الريح الشراع تماماً، وتحركت المياه بوساطة الريح، فأرسلتنا بسرعة أعظم، وعندما فرغنا من أغاني شكرنا، صوت البواقون بالدعوة للغداء، وجعل كل انسان، وهو مسرور، نفسه مستعداً ليجلس إلى المائدة.

وحدث أن واحداً من الكهنة، وكان رجلاً ثقيلاً ومحترماً، ومتقدما بالسنين، وكان ينام في مخدعه على يميني، كان مسرعاً نحو مخدعه، بعد الغناء، وعندما لمست قدمه الدرجة الأولى من السلم، التي كانت ناعمة

جداً بوساطة العمل الدائم عليها، انزلق، وسقط بشكل عنيف نحو الأسفل في داخل القمرة، وتمدد هناك وكأنه ميت، وبناء عليه أسرعنا جميعا لمساعدة أخينا، وكان مهشم الرأس، مرتجف الأطراف، فحملناه إلى فراشه على أنه كان ميتاً، لكن بعد مضي عدة ساعات عاد إلى وعيه، وقد ربطت جراحه وعولج طبياً، وبعد مضي عدة أيام فيما بعد صار أحسن .

وبعد الغداء وقفنا على جوانب السفينة، وكان بامكاننا رؤية الجبال فقط، التي بدت لنا جرداء وبيضاء، ورأينا بعد الظهيرة جبالا عالية نحو الشمال، كان بينها وبين أنفسنا، وعلى مقربة من البحر جبل الكرمل، في مقاطعة فينيقيا، وعندما حدقت به، تذكرت كيف أن النبي المقدس اليشع قد صلى على ذلك الجبل من أجل المطر، وذلك عندما لم تمطر لمدة ثلاث سنوات وستة أشهر، وكيف أنه وهو يصلي، ارتفعت غيمة صغيرة من هذا البحر، تشبه طبعة قدم انسان، هطل منها مطر عظيم، وذلك حسبما نقرأ في سفر الملوك الثالث — الاصحاح ١٨.

وفكرت أيضاً، كيف أن الملك شاؤول بنى فوق بناء مقبب على ذلك الجبل قوس نصر وفق طرائق الشعوب نقش عليه أخبار انتصاراته، ورفعه عالياً إلى حد يمكن رؤيته من قبل الذين يرتحلون بكل من البحر والبر، وبذلك أغضب الرب كثيراً، وذلك حسبما يمكن قراءة ذلك في الاصحاح الخامس عشر من سفر الملوك الأول، وتساءلت أيضاً لماذا شبه العريس في الاصحاح السابع من أغنية سليمان رأس عروسه بهذا الجبل قائلاً:« رأسك عليك مثل الكرمل» (نشيد الانشاد٧/ ٥)، ومن هذا الجبل وبسبب كثرة خيراته، أطلق على البلاد المقدسة كلها اسم الكرمل، كما جاء عند إرميا الاصحاح الثاني:٧، قوله:«وأتيت بكم إلى أرض الكرمل» (في النص العربي: إلى أرض بساتين لتأكلوا ثمرها).

ومن هذا الجبل حصل الرهبان الكرمليون على أصلهم، وفي العصور

القديمة امتلكوا ديراً كبيراً هناك، وتأسست هذه الطائفة من قبل واحد اسمه ألبرت، كان بطريرك القدس، في العصر الذي استولى فيه المسيحيون اللاتين على القدس، وأمرهم ألبرت المتقدم الذكر بارتداء رداء كهنوتي ليكون ثوباً خارجياً، وأن يكون من الحرير مع عدة خطوط أفقية عريضة لونها رمادي، وقالوا بأنهم فعلوا هذا لأن النبي الياس قد لبس ذلك، وهذا أمر، لايمكن —على كل حال— البرهنة عليه لا من النصوص الشرعية المقدسة، ولامن أي مصدر موثوق، وقام بعد أمد قصير البابا هو نيروس الثالث، فغير هذا الرداء الكهنوتي المخطط إلى رداء أبيض وأكد وجود الطائفة ووافق عليها تحت اسم «طائفة العذراء المباركة مريم الكرملية»، وهم يقولون بأن سلطان مصر قد اعتنى بهذه الطائفة وأولاها اهتمامه بمنحها احتراماً زائداً، ورعاية، مع مساعدات مالية، ومنافع أخرى، من أجل ذكرى النبي إلياس، الذي يقدره المسلمون كثيراً، غير أنه فعل ذلك طالما كانوا يرتدون ثوبهم المتقدم ذكره، لكن عندما غيروه طردهم من بلاده، ومن جميع ممالكه، وبناء عليه أرغموا على مغادرة جبل الكرمل، وعندما حدث ذلك انتشروا الآن في الخارج في جميع الأراضي المسيحية، ولولا أن الكرمليين لم يتخذوا الرداء الأبيض لكان بإمكانهم الإقامة في جبلهم حتى هذا اليوم بدون معيقات من قبل المسلمين، لأن الأردية البيضاء لها مكانة سامية بين المسلمين، حيث لايجوز لأي مسيحي استخدامهم، ولهذا السبب عندما كان الرهبان المبشرين يرتدون الأزياء البيضاء، جرى طردهم من حقل الدم، الذي شروه من السلطان مقابل كثير من الذهب، وفي هذه الأيام، إذا ماأقدم الرهبان الفرنسيسكان على لبس الأردية البيضاء، لن يدعهم المسلمون يبقون في القدس.

ويوجد عند سفح جبل الكرمل، جدول قيشون، فهناك قتل النبي إلياس أنبياء بعل، وذلك حسبما ورد في الاصحاح الثامن عشر من سفر

الملوك الثالث (الأول)، وعند سفحه أيضاً هناك مدن صور، وصيدا، وعكا أو بطولميس، وهي مدن عظيمة نقرأ عنها كثيراً في الكتابات المقدسة، وأخيراً تحولنا بأعيننا عن الشمال، ووجهناهن نحو الشرق، فكان أن رأينا اليهودية مع جبالها، وفوق كل شيء جبل مودين، الذين دفن المكابيون عليه، وقد بنى سمعان فوق قبورهم بناء كان عالياً لكي يشاهد عن بعد، وكان من حجارة مصقولة من الأمام ومن الخلف، وأقام هناك سبعة أهرامات، ووضع من حولهم أعمدة كبيرة، وكان منقوشاً على الأعمدة صور أسلحة لتكون ذكرى دائمة، وإلى جانب الأسلحة جرى نقش صور سفن حتى يمكن مشاهدتها من قبل الذين يبحرون في البحر، وذلك حسبما جاء مكتوباً في سفر المكابيين الأول — الاصحاح الثالث.

وأشرت لهذا الجبل وإلى الأماكن الأخرى التي أعرفها إلى موالي، عندما كنا مانزال في البحر، وكنا في الوقت نفسه نقترب من الأرض المقدسة، والدخول إلى ميناء يافا، والرسوفيه، حيث وجدنا أن غليون المعلم أوغسطين مع حجاجه لم يصل بعد، وقد سررنا لذلك سروراً عظيماً، حيث لو أن حجاجه نزلوا إلى اليابسة لجرى اهمالنا، وعندما كنا غير بعيدين كثيراً عن غليون المعلم أوغسطين، تحرينا ووجدنا القعر، وتركنا مرساتينا وأنزلناهما، ووضعنا سفينتنا بعيداً عن صخور أندروميدا، التي تحرس ذلك الميناء، ولم نتجرأ على الاقتراب كثيراً من الشاطىء، خشية أن نثير غضب المسلمين، لأننا لم نكن قد تسلمنا جواز عبور وأمان منهم، ولكي يعرف المسملون الذين كانوا يحرسون ميناء يافا وهم من فوق الأبراج، أننا قدمنا مسالمين، أنزلنا عارضة الشراع الرئيسية، وطوينا شراعنا الرئيسي، ولم نظهر أية زينة، كما اعتدنا أن نفعل عندما كنا نحل في موانىء أخرى، ولم نرفع أية أعلام، كما لم نطلق أي مدفع، ولم ننزل أي قارب، ولم نزين غليوننا بأي شكل من الأشكال،

كما لم ننفخ بأبواقنا، أو نفرنـا، أو بمزاميرنا القرنيـه، بل تصرفنا مثل قوم أدباء متواضعين ودافعين للجـزية إلى السيد السلطان، حيث كنا بحـاجة إلى جـواز وأمان منه، وكنا مثـل أسرى وعبيد لدى المغـاربة والمسلمين، ورسونا على بعد من أبراج يافا ننتظر تكرمهم علينا.

وكـان المعلم أوغسطين، قبطان الغليون الآخـر، قد بعث رسـولاً إلى رجال الأبراج في يافـا، حتى يتفقوا معهم من أجل الحصـول على جواز وأمان لغليونه فقط، لكن عندما فهم المسملون وأدركوا أن هناك غليون آخر كـان قادماً إلى هناكِ مع حجـاج، كانوا على غير استعـداد للاصغاء للمعلم أوغسطين وطردوه من عندهم، وأرغمـوه على العـودة إلى ظهـر غليونه حتى يدخل الغليون الآخر، الأمر الذي كان معاكساً تماما لما كان في تفكير القبطانين، لأن كل واحـد منهما نوى أن يقـود حجاجـه حـول الأمـاكن المقدسـة لوحـدهم، بسبب الشكاوى والمشـاعـر العدائيـة التي حملهـا كل واحـد منهما تجاه الآخـــر، وعلى كل حـال رغب المسلمـون، وأعدوا أنفسهم للاصغاء إلى رغبات حجاجنا، أكثر من اهتمامهم بهذين الرجلين المتخـاصمين، ذلك أن الحجـاج في الغليـونين كـانوا أصحـاب موقف واحد، ورغبوا في أن يؤخذوا جميعـاً معاً لرؤية الأماكن المقدسة، وهكذا انتهـى اليـــوم الأول من تموز، ونمنـا في تلك الليلة على ظهـــر الغليون لأننا أرغمنا على فعل ذلك.

وفي اليوم الثاني من تموز الذي كان عيد زيـاره مريم العذراء المباركة، أنزل ربابنة غليوننا قارباً إلى البحر، قبل اشراق الشمس، وبعث القبطان بعضـاً مـن خـدمـه، ممن كـــان قـادراً على القيـــام ببعض الأعمال، مثل التجذيف بالقـارب إلى الشاطىء، والحصول على جـواز المرور والأمان، وجرى فعل الشيء نفســه من قبل المعلم أوغسطين، أي القبطان الآخر، وكـان لدى أوغسطين هذا عبـد غليون من أهـالي القدس، وكـان مسلماً معمداً، وقد بعث به حتى يتـدبر أعماله له، وهكذا ذهب خدم القبطانين

إلى الرملة، وأبلغوا عن وصول الحجاج إلى حاكم الرملة، وذهبوا بعد ذلك إلى القدس، وأوصلوا الأخبار إلى الأب المتولي لدير جبل صهيون، ورجوه أن يقوم من دون تأخير بالحصول مباشرة على جواز السفر والأمان من حكام القدس، والرملة وغزة، وأن يجلب الترجمان كالينوس Calenus مع بعض المماليك المسلمين، وأن يرسل حميراً، وسائقي حمير، وكل شيء محتاج لجلب الحجاج إلى هناك، بأقصى مايستطيع من سرعة، وأن يقدم هو شخصيا ويجلبهم إلى الشاطىء، وفي الوقت نفسه، وفيما هذه الأشياء تصنع، بقي الحجاج على ظهري سفينتيهما ينتظرون الوقت الذي سيتمكنون فيه من مغادرتهما.

وفي ذلك اليوم نفسه، وفي الساعة التي كان من المعتاد إقامة القداس فيها، دعوت الحجاج الألمان للاجتماع معا، وألقيت فيهم موعظة حول حج مريم العذراء المباركة، الذي قامت به بعد زيارتها وذلك عندما ذهبت إلى المنطقة التلية من اليهودية (لوقا:١٪٣٩) واستخرجت من حجها التقوي جداً، أحكاماً لحجنا، ولقد أوصيتهم بها، وأطريت الحج إلى القدس، لكنني مدحت فوق كل شيء الزيارة إلى جبل سيناء،، وقد رغبت باثارة بعضهم للقيام بذلك، خشية أن يكونوا خائفين، لأنني قد عزمت على الذهاب حاجاً إلى سيناء، لكنني لم أكن قد أخبرت أحداً بذلك، وكنت أخشى كثيراً أن لايكون بين هذه المجموعة الكبيرة من الحجاج أحداً، يرغب بالذهاب إلى سيناء، مثلما حدث لي في حجي المتقدم، وهكذا انتهى هذا اليوم، ومجدداً أمضينا الليل على ظهر الغليون.

وفكرت في اليوم الثالث، بأن الوقت قد حان وبات مناسبا لي، حتى أخبر موالي عن نيتي بالقيام بالحج إلى جبل سيناء، وبناء عليه، دعوت موالي الأربعة على انفراد، بعيداً عن جميع العاملين، وقلت والدموع تنهمر من عيني، وبقلب حزين، وبهدوء:«انتبهوا واصغوا إليّ سادتي الكرماء، وأبنائي الأكثر محبة، وإخواني، ورفاقي، بأنني أعترف أنه

بلطفكم قـد جلبت إلى هاهنا، وأنه بفضلكـم قـد حصلت على الإذن بالقدوم، ولقد جرى من قبلكم دفع جميع نفقاتي طوال هذا الوقت كله، وأنا شاكر جـداً وبلا حدود مساعداتكم لي، ومع ذلـك هناك أمر واحد أقلقني كثيراً، وجعلني منشغـلاً وغير مستقـر، ذلـك أنني أملت عندمـا غـادرنا بـلادنا، أن يقـوم واحـد منكم على الأقل، إن لم تكـونوا جميعـاً، بالارتحال أبعـد، حتى جبل سيناء إلى القـديسـة كـاترين، وذلك بعـدمـا تكونوا قـد فـرغتم من زيـارة الأرض المقـدسـة، وأن أستطيع مع الذي سيرافقني بامتـلاك الفـرصة بالذهـاب إلى زيارة هذه الأماكـن المقدسـة كثيراً، لكن ويا للأسف لقـد خاب ظني فيما يتعلق بهذه القضيـة، علاوة على ماتقـدم، أنا لم أتجرأ على سؤالكم منحي الإذن بترك جماعتكم، ذلك أنه ليـس من واجبي فعل ذلـك، لأنكم سـوف تواجهـون في طـريق عودتكم مخاطر أعظم مما واجهتموه في قدومكم إلى هنا، وإذا ما تفضلتم عن طواعية منكم منحي الإذن، سوف أتلقى هذا الاحسان منكم وعدّه أعظم هدية مقبـولة، وإذا رفضتم منحي ذلك، سـوف أعـود معكم عن طواعية حتى البندقية، وفي البندقية سوف أسقط على أقداكم يا أصحاب السعـادة، وأرجوكم منحـي الوسائل للعـودة إلى هنا، هذا ولسـوف لن أعبر جبـال الألب ثانيـة قبل أن أتسلق جبل الرب، وحـورب، وسيناء، وأن أزور قبر العـذراء القـديسة كـاترين، لأننـي منذ زمن طويل مضى ربطت نفسي بعهد في أن أفعل هذا.

وعندمـا سمع موالي مـا أنويه، ورأوا أنني كنت جاداً، أخـذوا بعض الوقت لتقـدير ذلك، وبعد مضي مـدة ساعـة استدعوني للعـودة إليهم، ومنحـوني إذناً، وقـالوا: «وخشيـة أن تظن أنـك لم تكن محبـوباً من قبلنا كشماس لنا، سوف نقدم لك برهانـا عن حبنا لك عندما نفترق ولسوف نقـدم لك، ونغطي نفقاتك، وعلى كـل حال، إذا مـاأخفق هذا الحج، أو تراجعت عما عـزمت عليـه، سـوف تبقى في جماعتنا، كما كنت من قبل،

ولسوف نعيدك إلى الوطن ثانية»، وعندما سمعت هذا شكرت موالي بكل الاحترام الصحيح والذي يستحقونه، وأعلنت أنني اعترافاً بجميلهم سوف أبقى إلى الأبد خادمهم، ووعدتهم أيضاً أنني سوف أقوم بهذا الحج، وكأنني حرضت من قبلهم لأن أفعل ذلك، وأنني أرسلت من قبلهم، وفي الواقع كنت مسروراً لدى تسلمي الإذن منهم في أن أقوم بها أنويه، مثلما سررت لدى وجودي في أولم، وتسلمي الإذن بالذهاب إلى القدس.

وهكذا بعدما حصلت بالنسبة لهذه القضية على الذي طلبته، أخذت أتجول في الغليون على جميع الفرسان الذين أعرفهم، لأرى فيما إذا كان أياً منهم كان ذاهباً للحج إلى القديسة كاترين، وقد وجدت خمسة فرسان نبلاء منتخبين، كانوا مخفين لهذه النية داخل صدورهم، وبعد تناول طعام الغداء غادرت الغليون، وذهبت في القارب الصغير إلى غليون المعلم أوغسطين، وكأنني راغب بزيارة بعض معارفي هناك، وعندما صرت بينهم، عملت استقصاء سرياً، من خلال الرجل الذي كنت أعرفه بشكل جيد، حول الحج إلى جبل سيناء، ولقد أخبرني بوجود إثني عشر حاجاً على ظهر ذلك الغليون قد تعهدوا وأقسموا على انجاز ذلك الحج، وكان واحداً منهم، الذي هو الرئيس هو اللورد جون أوف سولمس Solms، لكنهم كانوا لايودون أن ينتشر هذا في الخارج، بل أن يبقى ذلك سراً، لأن الحجاج الذين ينوون زيارة جبل سيناء، يحافظون دوما على سرية نيتهم، وذلك بقدرما يستطيعون، حتى لايضحك أحد عليهم، إذا لم يتمكنوا من إنجاز رحلتهم إلى هناك.

وبذلت الآن جهداً عظيماً لأعرف مباشرة، فيما إذا كان هناك أي انسان ذاهب إلى زيارة جبل سيناء، لأنني أعرف بالتجربة، أنني مالم أفعل ذلك، طالما نحن مانزال على ظهر السفينة، سوف يكون من الصعب كثيراً أن أتوصل إلى معرفة الصدق حول ذلك، عندما نكون في

الأرض المقدسة، أوفي القدس، لأن الحجاج يكونون في الأرض المقدسة مشغولين كثيراً، ونادراً —إن لم يكن مطلقاً — مايلتقون مع بعضهم في الوقت نفسه، كما يكونوا منشغلين بعقولهم، ولهذا لولا أنني تدبرت هذه القضية مع موالي عندما كنا مانزال على ظهر السفينة، لكنت أنا كلياً بحاجة إلى نفسي، وعندما عرفت كيف هي الأوضاع على ظهر غليون المعلم أوغسطين، عدت مسروراً إلى غليوننا، وكنت مبتهجاً لأنني وجدت مرافقين، لكن سروري سرعان ماتحول إلى أسف، لأنني ماأن غادرت القارب، وصرت على ظهر غليوننا، وفيما أنا واقف أتحدث إلى بعض الناس أمام القيدوم، سألني القبطان الدخول إلى قمرته الخاصة، حيث وجدت جالساً فيها معه مملوكاً مسلحاً، جاء في قارب من يافا، جالباً معه أخباراً، أخبر بها القبطان، وقد رغب القبطان في أن أسمعها، وقد قال المملوك بأن البدو العرب قد دمروا دير القديسة كاترين القائم عند سفح جبل سيناء، وأنهم قتلوا جميع الرهبان هناك، وبناء عليه، من غير الممكن القيام بالحج إلى جبل سيناء في هذا العام.

فضلاً عن هذا، جاء في ذلك اليوم بعض المسلمين من المنطقة، جالبين لنا أرغفة من الخبز الجديد، وماء جديداً، وعنباً، باعوه لنا، وهم أيضاً أخبرونا بالاشاعات نفسها عن العربية، وعندما سمعت هذه الأخبار الشريرة، انزعجت كثيراً لهذه الانتكاسة، لكن بعدما فكرت بالقضية واستعرضتها تشجعت، لأنني شككت مباشرة، من خلال خبرتي، بأنها كانت مصنوعة من قبل القبطانين وأنها كانت كذباً نشراه وعمماه بين الناس، من أجل أن يخاف الحجاج، ومن ثم يتخلون عن نياتهم بالقيام بالحج إلى جبل سيناء، لأن القبطانين يفقدان اثنتي عشرة دوقية مقابل كل حاج يذهب إلى جبل سيناء، وهذا بالطبع عظيم الأذى لشرههما، ولهذا اخترعا هذه الكذبة البارعة، واستعانا بالمسلمين الكذبة، وبالمرتدين المماليك لدعمهما في زيفهما.

ولذلك أوليت كلامها قليلاً من الاهتمام، وطمأنت رفاقي، لأنني عرفت زيف ماتحدث به القبطانين حول هذه القضية، ولهذا قررت بشكل حاسم، أنه حتى ولوكان ماقالاه صدقاً، أنا ذاهب على كل حال إلى جبل سيناء، لأنه حتى لوكان البدو العرب قادرين على هدم دير القديسة كاترين ونهب ضريحها وتشعيثه، إنهم لن يتمكنوا مطلقاً من هدم جبل الرب أو إزاحته من مكانه، وكذلك جبلي حورب وسيناء، الذين كنت شخصياً متشوقاً إلى رؤيتهم، أكثر من رؤية ضريح القديسة كاترين، ولهذا شغلت طوال ذلك اليوم نفسي في محاولة لإنهاء هذه القضية، وكنت خلال هذا الوقت هادئاً، لأنني عرفت أننا ماأن ننزل من الغليون، لن نجد الوقت للبحث فيها.

وبدأت في ذلك اليوم للمرة الأولى في تذوق فواكه الأرض المقدسة، وشرب مائها، وكان ذلك المملوك الكذاب المتقدم الذكر، أي الذي تولى نشر الأخبار في غليوننا، قد جلس في القلعة مع القبطان وآخرين، يشربون الخمر، على الرغم من تحريم شريعة محمد (صلى الله عليه وسلم) لذلك، وغدا سكرانا إلى حد أنه لم يعد قادراً على الخروج من الغليون والنزول إلى القارب الصغير، لفقدانه لوعيه، وهكذا بقي هذا الوحش اللعين على ظهر الغليون، وأمضى الليل معنا.

وفي اليوم الرابع، حدث عندما أشرقت الشمس، أن قامت الأسماك بالسباحة على وجه البحر، وأظهروا أنفسهم على الوجه أكثر من عادتهم، ولست أدري ماهي الأحوال التي دفعتهم إلى هذا من خلال الهواء أو الماء، أو من خلال عناصر أخرى، ولقد رأينا هناك أسماكاً رائعة، حيث كان بعضها كبيراً، ومستديراً مثل مروحة الغربلة، وكان لبعضها رؤوس مثل رؤوس الكلاب مع أذنين طويلتين نحو الأسفل، ورأينا دلافين كثيرة في ذلك الصباح، وقد رأيناهم بوضوح أعظم من أي وقت مضى.

ورأينا بعد الغداء حشداً من المسلمين المسلحين جاءوا يمتطون الخيول والبغال، ونصبوا خياما وأكواخاً أمامنا على الشاطىء، وحول أبراج يافا، وفوق الجبل، وعندما رأى القبطانان هذا، ذهبا نحوهم، مفترضين بأن سادة المدن وحكامها قد جاءوا، لكن هؤلاء كانوا الخدم فقط، قد أرسلوا سلفاً لإعداد المكان، ذلك أن السادة المغاربة كانوا سيصلون في الغد، وركض هؤلاء الرجال نحو الأمام ونحو الخلف طوال النهار، على الشاطىء، مقابل المكان الذي رسونا فيه، واشتبك أحدهم مع الآخر عن طريق التدريب، وركبوا بغالهم، وساقوها وكأنهم كانوا يتحاربون، ورأينا أيضاً الكهوف التي هي فوق شاطىء البحر على طرف الجبال، والتي كنا سنساق إليها، ورأينا المسلحين طوال اليوم يذهبون إليها باستمرار ويخرجون منها، وتساءلنا عما كانوا يفعلون في مساكننا المظلمة، ولم نستطع أن نخمّن الذي كانوا يعملونه في هذه الكهوف، حتى اكتشفنا، مراغمة لأنوفنا، أنهم قد لوثوا تلك الأماكن بالغائط، كما سيتضح فيمابعد.

واجتمع هناك في اليوم الخامس حشد عظيم من الرجال المسلحين، حتى أن وجه الأرض تغطى بهم، وتساءل قبطانانا وجميع البحارة وعبيد الغليون، عن معنى جمع هذا الحشد الكبير من الناس، وقد انزعجوا لأنهم لم يروهم من قبل يأتون بمثل هذه القوة، وخشيوا من أن يكون هناك شرّ ما قيد الإعداد لنا، لوجود الحكام الثلاثة الأقوياء هناك بأشخاصهم مع أتباعهم المسلحين، وهؤلاء هم: حاكم القدس، وحاكم غزة، وحاكم الرملة، وإليهم توجه القبطانان آخذين معهما هدايا أملوا بوساطتها أن يكسبوا احسانهم، وقد حيوهم، وعرضا هداياهما، وتوسلا من أجل نزولنا، حيث طلب ذلك كل قبطان إلى حجاجه، وقد تسلموا هدايا القبطانين، ووعدوهما بالتعامل معنا باخلاص.

وسأل القبطانان سادة المغاربة، عن السبب الذي دفعهم للقدوم مع

مثل هذه القـوة، وعن الحاجة التي توفرت هناك لجلب حجاج غير مسلحين إلى البلاد مع هذا العدد الكبير من الرجال المسلحين، وعلى هذا أجابوا بأن البدو العرب قد جاءوا إلى البلاد، خارجين من الصحراء بأعداد كبيرة، وقد نهبوا كل من واجهوه، ولم يوفروا أحداً إلاّ الذين كانوا أقوى منهم أنفسهم، وأنهم قادوا في هذا الوقت بالذات حشداً كبيراً إلى الجبال، ويعتقد كثيرون بأنهم قد حشدوا هذه الجموع مع بعضها بسبب الحجاج المسيحيين الذين كانوا قادمين، ولهذا السبب قدموا بالقوات التي استطاعوا جلبها، لكي يأخذوننا إلى القدس بسلام.

وقال بعضهم الآخر بأن هناك سبب آخر إلى جانب هذا السبب، يعلل اجتماعهم مع بعضهم، وقد أخبرونا بأنه في ربيع هذا العام، كانت هناك عاصفة عنيفة في منطقة مدينة مكة، حيث يقوم معبد ضريح محمد (صلى الله عليه وسلم)، وفي أثناء تلك العاصفة، سقطت صاعقة من السماء أحرقت وطحنت ضريح محمد (صلى الله عليه وسلم) وحولته إلى طحين مع جسده (صلى الله عليه وسلم) (كذا)، وقد رأى أتباعه بما حدث شارة بأن شريعته غير المقدسة كثيراً قد انتهت، وخافوا من أن يتمكن المسيحيون من السيطرة عليهم والتحكم بهم، ولهذا قدموا مع قوات قوية خوفاً من أية محاولة يقوم بها الحجاج، وكلا السببين كان صحيحاً، لكن السبب الثاني حول تدمير جسد محمد (صلى الله عليه وسلم) لم يحدثونا به بشكل مكشوف، بل أخبرنا به بشكل سري واحداً من المماليك.

وعلى كل حال خشية من أن يفقد الذين يتبعون شريعة محمد (صلى الله عليه وسلم) إيمانهم، وييأسون ويتخلون عن الحج الذي يقومون به كل سنة إلى مكة، اخترع رجال الدين لديهم الزيف التالي: فقد قالوا بأن الله كان شديد الغضب عليهم هذا العام، وكان على وشك تدميرهم تدميراً كاملاً، لكن محمداً (صلى الله عليه وسلم) تدخل من أجلهم،

والتمس من الله تحويل غضبه عنهم، وأن تنزل الشرور به شخصياً، وأصغى الله إلى دعائه واستجاب وبعث صاعقة من السماء أحرقت جسد محمد (صلى الله عليه وسلم)، ونشروا هذا الزيف بين الناس، والحج الآن إلى مكة أكثر عدداً، والاقبال عليه أعظم مما كان من قبل.(*)

وفي الوقت نفسه، عندما كان قبطانينا يتحدثان مع السادة، رأينا حشداً جديداً قادماً إلى شاطىء البحر، ولم يكن في هذا الحشد خيول، بل حمير فقط، جمعت من قرى مختلفة من أجل استخداماتنا، وجاء مع هذا الحشد من الحمير عدة رجال معروفين من القدس، مثل الاثنين الكاليني Calini اللذان هما مترجمانا الأكبر والأصغر، والأب المحترم المسؤول عن دير جبل صهيون مع اثنين من رهبانه، وكان معهم بعض التجار المسيحيين De cinctura (الشرقيين الذين يرتدون مايميزهم عن اليعاقبة وعن الطوائف الأخرى).

نزول الحجاج من الغليون ودخولهم إلى الأرض المقدسة

كانت رحلتنا التي تشوق إليها عقلنا وتطلع إليها، الآن على وشك الابتداء، فبعدما تحدث القبطانان مع الحكام، ونالا موافقتهم على وجوب احضارنا إلى الشاطىء من غليوننا، ومضى إلينا في القارب، الأب المبجل بولص، رئيس الكنيسة اللاتينية في الشرق، والمسؤول عن دير جبل صهيون مع راهبيه، وكذلك مع كالينوس الأكبر، ومسلم كان رئيس مشفى للحجاج في القدس، وقد جلسوا مع قبطاننا على القيدوم، وبعدما اجتمعنا كلنا، قام الأب المسؤول عن الدير، الذي كان رجلاً محترماً ومتعلماً، وله لحية طويلة، قام بتوجيه التحية إلينا بلطف وبشكل

*— استخدم الرحالة أثناء حكيه لهذه الأقصوصة بعض العبارات النابية، فحذفتها، وتبرهن هذه الأقصوصة أن عقلية رجال الدين الكاثوليك بقيت كماهي مغرقة بالتعصب والجهل، حيث انعدم التمييز بين مكة والمدنية، وتغيب الحد الأدنى من الفهم للاسلام.

منمق باللغة اللاتينية، ورحب بنا، وحثنا على أن نكون أتقياء، وأن نتحلى بالصبر، وأن نكون نموذجيين في سلوكنا، ووعدنا أنه سوف يعطينا بالرملة الأحكام التي ينبغي أن نقيد أنفسنا بها، أثناء إقامتنا بين المسلمين في الأرض المقدسة.

وحيانا بالطريقة نفسها كالينوس، ترجماننا، وكان ذلك باحترام، وحرم علينا حمل أي نوع من الأسلحة — سواء أكان سيفاً أم قوساً — خارج السفينة، بل أن نذهب غير مسلحين كما قدمنا حجاجاً، وبعدما قال هذا، ذهب الأب المسؤول عن الدير مع راهبيه وكالينوس إلى القارب، وطلبوا منا الاسراع والاستعداد للحاق بهم، وكان الوقت ساعة الغداء، ولدى دعوة الحجاج إلى الغداء، أكلنا جميعاً وشربنا بسرعة، حتى نتمكن من النزول بشكل أسرع إلى الأرض المقدسة، وفي أثناء الغداء، قدم جميع موظفي الغليون واحداً بعد الآخر، وانتقلوا من حاج إلى آخر، بكؤوس من الفضة، وطلبوا عطية العرفان بالجميل، وهو ماندعوه مال الشراب، وطالبوا بذلك بوقاحة، وإذا مارفض انسان منحهم، قالوا بأنهم لن يدعوه ينزل بالقارب إلى الشاطىء،

وثار اضطراب كبير على ظهر الغليون بسبب تسولهم الوقح والذي لم يعرف الحياء، وعندما انتهى هذا الاضطراب، ودفعنا عطيتنا بالعرفان بالجميل، أعددنا أنفسنا لمغادرة المركب، وأخذنا معنا قارورتين صغيرتين من الخمرة، وأخفيناهما في حقيبة، خشية أن يراهما المسلمون، لأنهم لايسمحون بحمل الخمرة بشكل مكشوف، وإذا مارأوا خمرة يقومون بكسر القوارير إذا كانوا قادرين، وأخذنا بحقائبنا جبناً ولحماً مدخناً، وجرارنا وملابس حجنا وأدواته، وخرجنا من القمرة إلى القيدوم، ومن هناك نزلنا في القارب، ومضينا فيه نحو الأرض المقدسة، ونحن نغني ببهجة عظيمة، وبصوت مرتفع In Gottes Nahmen fah ren wir الخ، حسبما ورد في ص٩٧.

ولم يكـن مـن الممكـن سماع أغنيتنـا هـذه مـن قبـل المسلمين على الشاطىء، لأنه قام بيننا وبين الشـاطىء صخور أندروميدا، التي يضربها البحـر بصـوت مـرتفع وحـاد، كما أن أغنيتنـا لم يكن بالامكان سماعهـا بسبب الضجيج والصخب الصادر عنها.

وعندما وصلنا إلى قرب هذه الصخور، وبينما نحن نمر من بينهم من خلال الأمـواج التي تضربهم، أصبنا برذاذ الماء وتبللنا، ونجونا على كل حـال من الاصطدام بالنتوءات الحادة، الأمـر الذي كنا نخافـه، ووصلنا إلى الشـاطىء ونزلنا، وعندمـا وطئت أقـدامنا الأرض المقـدسـة، ألقينا بأنفسنا أرضاً على وجوهنا وقبلنا الأرض المقـدسة مع كثير من التقوى، وبمجـرد مـلامستنا للأرض المقـدسة تلقينا غفـرانا مطلقـاً وتحليـلاً من الذنوب، الأمر الذي قررت وضع علامة له في المحصلة مثل هذه (++) حيث جـاء وضع الصليب الأول ليعني غفـراناً لمدة سبع سنوات، لكن بوجـود صليبين فهـذا يعني غفـراناً مطلقـاً، يزيل كـلا من الاستغفـار والذنب، ويقال أيضاً الصليب الأول قائم من أجل الغفران من الذنب، والثاني للغفران بعد التوبة.

وعندما فرغنا من صـلاة شكرنا، صعدنا من قلب البحر، إلى الأرض المرتفعـة، وذلك فـوق صخـور منزلقـة، البحـر مطوق بها هناك، وهي تشكل شـاطئه، ووقف فوقنا الأب المسـؤول عن دير جبل صهيـون مع راهبيـه ومع حكـام البـلاد، وشيـوخ المسلمين والمغـاربة، وكـذلك مع كاتب، وقـد اصطفوا على الجانبين، بحيث يحتـاج الحجاج إلى المرور من وسطهم، ولم يكن بامكان حـاجين المرور معاً من بينهم، بل واحـداً تلو الآخـر، كما أنهم لم يسمحوا لنا بالمرور بشكل متـواصل، بل ألقـوا نظرة على كل انسـان، ونظروا إليه عن قـرب، وطلبوا اسمـه وأم أبيه، وكـان الكاتب يدون الاسمين معـاً في وثائقـه، وكنت أعلـم كم يسبب اسمي «فيلكس» من مصاعب بالنسبة إلى لغتهم، فقد أرغمت في حجي الأول

وفي حجي هـذا على تكرار اسمي عـــدة مـــرات، حتى آنـذاك لم يكن بامكانهم لفظه أو كتابته من دون وضع بعض علامات الادغام الأجنبية أمامه، وترداد مقـاطعه وحروفه، بحيث أن لاأقـول «فيلكس»، بل كلمة أخـرى في مكانها أنا لا أستطيع لفظهـا، وقمت فيها بعـد بالبحث بدقـة أكبر حـول الصعـوبة هذه المتعلقـة بـاسمي، ذلك أنني صرت صـديقـاً لواحد من المسلمين هـو كالينوس الأصغر، الذي كـان يسألني في بعض الأحيان باللغة الايطاليـة أن أخبره باسمي، لكن عندما أخبرته لم يستطع بأي حـال من الأحـــوال لفظه، بل قـال كلمـة قبيحـــة بدلاً عنه، وقـد اندهشت تجاه ذلك، لأنني رأيت مدى براعته باللغة الايطالية.

والآن بعـد ماجـرى تدوين اسم كل حـاج مع اسم أبيه، كـان هناك بعض المسلحين مـــرتبين للامســـاك به وجـرّه إلى مـــدخل مقـــر مظلم ومنخفض تحت قـوس متهدم، وقد رمـوه مثلما اعتاد الرجـال على رمي الشـاة في داخل اصطبل من أجل الحليب، ويوجـد في هذا الكهف سبع سنوات مغفـرة (+)، يحصل عليهـا الحاج إذا مـادخل إلى الكهف بروح تقوية، وتعرف هذه الكهوف باسم زنزانات القديس بطرس، ومن أجل الحصول على هـذا الغفران، وغفرانـــات أخرى كثيرة، قام عـدد كبير من الحجـاج بالاعتراف أمـامي، على ظهـر الغليـون، واعترف بعضهم هنا، ونحن وقـوف على شـاطىء البحـر، وعندمـا دخلنا إلى هذه الكهـوف، وجـــدنا كل مــــوضع سنقيم فيـــه ملوث بشكل قبيـح، وقـــذر بسبب القـــاذورات، ولم يكن هناك مكان يمكـن الجلوس عليـــه، إلاّ فـــوق القاذورات، ولهذا وجـدُ كل واحد منا نفســه مرغماً على تنظيف مـوضع يتمـدد عليه بجسـده، وأن يزيح القـاذورات إلى وسط الغـرفـة بقدمـه، ونتيجـة لهذا قـام في وسـط مكان إقـامتنا كـومـــة كبيرة من القـاذورات والنجاسات.

ورتبنا أنفسنا على محاذاة الجدران حـول الغـرفـة كلهـا، مثلما فعلنا في

الغليون، ولقد تمددنا فوق أرض عارية ورطبة، ويا للهول، كم هو نزل تعيس، وكم هي ضيافة ضئيلة، وكم هو مقر قذر! ولولا أن الحاج كان تقياً، اعتاد على عقد حديث مع الرب، وكان يشكو بصبر تقوي، أو بالحري كان مندهشاً مستغرباً وهو يقول:«أيها الرب يسوع، بأي ضيافة غريبة استقبلت حجاجك، وضيوفك في أرضك المقدسة، الذين قدموا من وراء البحار، ومن خلف جبال الألب، ومن الأجزاء النائية من الأرض، حتى يمثلوا بأشخاصهم في بلاطك، لكي يبدو احترامهم لك، وليقدموا الولاء لك مثلما يفعل الفرسان مع ملكهم، يايسوع البالغ القداسة، أولم يكن من المتوجب عليك أن تمنح الذين تعبوا كثيراً من جراء الرحلة الطويلة جداً، وأدميت أقدامهم بعد الجولات البعيدة، فراشاً أفضل من الذي وجدوه بين القاذورات المقيتة للكفار؟ أوليس لديك فراش لنا سوى كومة النجاسات؟».

وعلى هذا كان الرب سيجيب :«من المؤكد أن العبد ليس أعظم من مولاه، ولا التلميذ أسمى من معلمه، ولا الرسول أعظم من الذي أرسله، وأنتم دعوتموني معلماً ورباً، وماقلتموه صحيحاً، لأنني بالفعل كذلك، وإذا كنت أنا قد عانيت بصبر من هذه الأشياء، ومن أشياء أسوأ من هذه، أولا تسلحون أنفسكم أيضاً بصبر مماثل، فلقد كنت غريباً وحاجاً في هذه البلاد، وفي اليوم الذي نزلت فيه أولاً على الأرض من بحر المجالس العميقة للرب، ومن سفينة رحم العذراء، لم أنزل في غرفة، بل في معلف قذر، وفي نزل صاخب، وفي حانة تعيسة، فهناك استقبلت، ولم تمددني أمي العذبة على فراش ناعم، بل مددتني في معلف قاس بين الدواب، لأنه لم تتوفر لي غرفة في أي مكان من النزل، وخلال حياتي كلها لم يكن لدي بيت خاص بي في هذه البلاد، لأنني قدمت إلى الذين هم ملكي، والذين هم ملكي لم يستقبلوني، ذلك أن الذين سكنوا في بيتي وخادماتي عدّوني غريباً، ولقد كنت غريباً بأعينهم (أيوب:١٩)،

وفي هذه البلاد للثعالب حفرهم، ولطيور الجو أعشاشهم، لكن ابن الانسان ليس لديه مكان يسند رأسه عليه، وغالباً ماأمضيت الليل في الصلاة، لكن ليس تحت مكان مسقوف بالحجارة، بل فوق الجبال وتحت السماء، لابل حتى في مدينة القدس الغنية والملكية لم يكن لدي فراش إلاّ مشنقة الصليب المخزية، وكذلك بعد الموت لم أمتلك ضريحاً خاصاً بي، بل ضريح انسان آخر، ولهذا السبب أرغم ابن الانسان على المعاناة، حتى يدخل في مجد ملكوته، وبناء عليه، حبيبي الحاج لاتحزن إذا لم يكن لديك في هذه البلاد فراشاً ناعماً، وإذا ماتمددت فوق كومة قاذورات، وإذا كان نزلك بالوعة عامة، تذكر ياهذا أن ربك أقام الفقير من بين الرغام، ونهض بالمعدم من بين القاذورات، ليجلس مع الأمراء، وليشغل عرش المجد، فعلى هذا الاساس تقبل داوود وجعله ملك اسرائيل، ولقد جلس أيوب النبيل على القاذورات مريضاً ومصاباً بقروح مخيفة، وبصبره امتلك ضعف ماكان يمتلكه من قبل، لأن غريغوري أخبرنا في تعليقاته على سفر أيوب، أنه كان مدفونا في القاذورات، لؤلؤة الرب، أي المعرفة بتفاهته، والرفض للفقر، وعلى هذا، ألاتبحث أيها الحاج عن هذه اللؤلؤة، في أثناء جلوسك فوق القاذورات»، ولدى سماع هذه الكلمات، قدم الحاج التقي الشكر، لأنه عدّ جديراً بالمعاناة مثلما فعل ربه.

وعندما كنا في هذا المكان القذر، قدم إلينا بعض المسلمين، وكانوا أناساً فقراء، قد جمعوا بعض الأعشاب وبعض أغصان الأشجار، باعوهم لنا، وقد غطينا الأرض المبللة بهم وجعلناهم فرشاً لنا، فضلاً عن هذا قدم تجار من الرملة ومن القدس، ودخلوا إلى أماكن إقامتنا، ومعهم سلع طيبة الرائحة، وعملوا سوقاً هناك، وقد جلبوا ماء ورد من دمشق في أوعية زجاجية، وكان ثميناً جداً، حيث باعوه إلى البنادقة كل قطعة ببنس، وكان مع بعضهم بلسماً، ومع بعضهم الآخر مسكاً،

وجلب بعضهم صابونا، وبعضهم أحجاراً كريمة، وبعضهم شققاً من الموصلين الناصع البياض، وقلانس، وأشياء أخرى ثمينة، وأشياء رائحتها طيبة، فلقد جلبوا هذا كله إلينا، وفي الوقت نفسه كان كل من التجار ومن المسلمين قد دهنوا أنفسهم بالمراهم العطرية، وبالعطور الخالصة، ولذلك انتشرت الروائح الطيبة من حولهم، فضلاً عن هذا قام التجار الذين لم يكن بامكانهم تحمل روائح النتن والقذارة في مسكننا، باحراق البخور والاصماغ العربية، وكانت نتيجة ذلك أن هذا المكان ذي الرائحة المقرفة، أصبح مخزناً للروائح الطيبة، كما قام الذين لوثوه، طواعية من قبل أنفسهم بتنظيف المكان، ونقلوا قاذوراته ورموها بأقدامهم أثناء مشيهم، وفي وقت قصير من الزمن وبوساطة سيرهم المستمر تحول المكان الذي كان قبل قليل قذراً إلى مكان مريح تماماً ومبهجاً ومناسباً لبني البشر، وللانسان الضعيف والمريض، فلو أنهم دخلوه لاستردوا قوتهم ثانية بشمهم للروائح الطيبة للمكان، الذي حتى الدواب سوف ترتعد لدى دخولها له.

وقد دخلنا إلى هذا المكان بضيق شديد وألم، لكن في غضون ساعة واحدة وجدنا الراحة والسرور فيه، وجاء في الوقت نفسه بعض المسلمين، كانوا قد طبخوا بيضاً في المقلاة بالزيت، وجلب بعضهم أرغفة من الخبز، وبعضهم ماء بارداً، وبعضهم فواكه، وبعضهم سلطة، وبعضهم معجنات ساخنة صنعت من البيض، وباعوا ذلك لنا، وقد اشترينا من هذه الأشياء وأكلنا، وأعددنا أنفسنا للراحة، لأن النهار انقضى تقريباً، ومأأن تمدد كل انسان منا، واضطجع في المكان الذي نوى أن ينام فيه تلك الليلة، حتى جاء إلينا مسلم شرس حامل للسلاح، وبيديه عكاز، واستخرج من كل واحد من الحجاج بنساً بندقياً، وقمنا على كل حال من أجل أن نوفر على أنفسنا المشاكل، بدفع بنس واحد من أجل إقامتنا، وعندما حل الظلام استأجرنا اثنين من

المسلمين، ليتوليا حراستنا أثناء الليل عند فم كهفنا، لكي لايدخل أحد إليه ويزعجنا، لأنه كان هناك حشد عظيم من الناس من كل نوع هناك، وهكذا أمضينا تلك الليلة، لكن ليس بدون خوف، وأعتقد أن الرجل المتقدم الذكر الذي استخرج المال منا، قد صار الآن مالك ذلك الكهف وصاحبه، وأن هذا قد شجعه لفرض ضريبة علينا بموجب حقه القانوني.

وفي اليوم السادس، الذي كان الأحد السادس بعد التثليث، وقبل أن تصبح الدنيا مضيئة تماما جاء ذلك المبتز الشرس، الذي أغضبنا في المساء الماضي، وعاد وجلس بنفسه ومعه عكازه، عند باب الكهف، وماكان ليسمح لأي انسان بالمغادرة والخروج من الكهف للأغراض الضرورية من دون أن يدفع له بنساً، وقد دفعنا له جميعاً من دون رضى كبير، لكننا لم نكن غاضبين من الرجل المبتز وحده، بل من القبطانين، ومن الأب المسؤول عن دير جبل صهيون ومن الترجمان، الذين كانوا نائمين جميعاً في سرادق منصوب فوق الرابية، وتركونا نعاني من ابتزاز لم يسمع به من قبل في سجننا هنا، ذلك أنه كان من واجبهم مساعدتنا والدفاع عنا ضد أي شيء من هذا النوع.

وبعد مادفعنا البنس الذي فرض علينا، سمح لنا بمغادرة الكهف، ومع ذلك لم نجرؤ على الابتعاد عنه، لأننا كنا محاطين بمسلمين مسلحين من كل جانب، وقدم في الوقت نفسه التجار مع سلعهم، وطبخوا بأدواتهم، وعرضوا مصنوعاتهم للبيع، دون أن يعرفوا بأن ذلك اليوم كان يوم الرب، وكنت عازماً على قراءة الانجيل من أجل ذلك اليوم للحجاج في الكهف، وأن أضيف إليه قداساً، لكن كان هناك صراخاً عظيماً وصخباً صدر عن الطباخين وعن التجار، وعن حشد كبير اجتمع من المسلمين، ومن الشباب الذين كانوا يركضون إلى هنا وإلى هناك، ولذلك لم أستطع قراءة الكثير في ساعاتي من دون الكثير من العوائق،

ذلك أنهم عندما رأوني أقرأ من الكتاب، وقفوا من حولي يضحكون ويصرخون، وينظرون نحو الأحرف ويعجبون منهم، وبعد الغداء جاء إلينا في الكهف كالينوس الأصغر، أي الرجل الذي كان نائب مدير المشفى (الفندق)، وكان رجلاً مسلماً اسمه الفحل Elphahallo، وكان رجلاً أميناً، كما ستعلم مما سيلي، وقد عرفني بشكل جيد من حجي الأول، وكان بامكانه التحدث بالايطالية، وبألمانية مشوهة، تعلمها من الحجاج الذين غالبا ماارتحل معهم إلى دير القديسة كاترين، وقد سألت هذا الرجل عن حقيقة الأمر بالنسبة لجبل سيناء، وأخبرته بالذي سمعته على ظهر الغليون، فأجابني بأن كل شيء قاله ذلك المملوك كان كذباً، وأن الحج إلى القديسة كاترين سليم الآن بقدر ماهو ممكن، وصحيح أن البدو العرب قد أزعجوا في العام الفائت رهبان القديسةكاترين، لكن السلطان قد تمكن من تسوية القضية كلها.

ولدى سماعي لهذا سررت كثيراً، واقتدت الرجل إلى موالي، وقدمتهم له، وعلى الفور طلب الرجل منا القدوم معه، واقتادنا خارجين من الكهف، ومررنا جميعاً بوسط المخيم ومن خلال خيم المسلمين، وأرانا جميع أدواتهم، والخرائب العظيمة لمدينة يافا، ومررنا ببرجين قائمين في البحر ومهدمين، وبعدما رأينا كل شيء أعادنا إلى سجننا ثانية، فوجدنا الكهف في صخب عظيم بسبب الشباب من المسلمين، الذي كانوا يقومون بازعاج الحجاج بمختلف الطرق، وكانوا يسببون لهم إهانات كثيرة، تأخذ وقتا طويلاً للحديث عنها، وكانوا ينشدون بكل دقة الفرصة المواتية لاغضاب الحاج، إذا كان ذلك ممكنا، دون اعطائه مسوغاً عظيماً لأن يكون غاضباً، وعندما يصبح غاضباً، يقومون هم أنفسهم باتخاذ غضبه سبباً للشكوى وطلب المال، وكانوا يتجولون حول الحجاج، وكل ماوجدوه سرقوه، أو نشلوه بشكل مكشوف وهربوا به.

وكان هناك رجلاً نبيلا من كريت قد جلب معه قارورة كبيرة مليئة (بالخمرة) المالفوسية الثمينة، وعلق القارورة على الجدار إلى جانبه، ولدى رؤية ذلك، ركض رجل مسلح مسلم بين وسط الحجاج، وانتشل القارورة، ومضى يركض بها، وبعد بعض الوقت عاد وأطاح بالقارورة الفارغة في مقر إقامتنا، وتعرض شاب حاج حليق الذقن من بيكاردي لمضايقاتهم العظيمة، ومن حركاتهم القذرة، ولم يتمكن من إخفاء نفسه عنهم، مع أنه حاول كثيراً التخفي بين الحجاج الآخرين، ومع ذلك لم يحصل على السلامة، فقدم شكوى حول المسألة إلى الترجمان، الذي استخف بالأمر، وقال له بأنه إذا ما آذاه أي انسان، أو ضربه، أو جرحه، هو سيقوم بحمايته والانتقام له، لكن تجاه ذلك لايمكنه فعل شيء لأن الشاب عمل مزحة، ولايمكنه منعه من المزاح، ولدى سماع ذلك الحاج هذا، وخشية منه أن يوصم بالعار ويدنس شرفه، وبما أنه كان غير قادر على تحمل أن يكون أضحوكة يومياً من قبل المسلمين، ألغى حجه، وعاد إلى ظهر الغليون، وعاش مع البحارة حتى عاد الحجاج من الأماكن المقدسة، ولأن ذلك الشاب كان جميلاً جداً ان تنظر إليه، لهذا السبب ركز المسلمون عليه، ربما من أجل اغضابه، ذلك أنهم لم يقصدوا إلحاق أي أذى به.

واخترع هؤلاء الشباب من المسلمين آلاف الطرق، أثاروا بوساطتها بكل براعة الحجاج وأغضبوهم، من أجل ان أحدهم إذا ما نسي نفسه، ووجه ضربة، يمكنهم ابتزاز غرامة مالية منه، واستشهد أنا هنا بما ورد في الاصحاح الخامس من انجيل القديس متى قوله:« أنا فأقول لكم لاتقاوموا الشر» (متى:٥/ ٣٨)، وبناء عليه كل من لايمكنه اتباع هذه النصيحة، لايمكنه الجواز بالأرض المقدسة بسلام، وهناك نص آخر مماثل في الاصحاح السادس في انجيل القديس لوقا قوله:« ومن أخذ الذي لك فلا تطالبه» (لوقا:٦/ ٣٠)، وعلاوة على هذا على الانسان أن

يداوم تكرار قـــوله في الاصحـــاح الخامس من انجيل القـــديس متى والتمسك به حـرفيـا:«من لطمـك على خـدك الأيمن فحـول له الآخـر أيضا» (متى:٥/ ٣٩).

وعندما صار الوقت متأخراً، وأخذت الدنيـا تشتد ظلاما، جاء واحد ووقف عند فم الكهـف واستـدعـاني بصـــوت مـرتفع، قـائـلاً:«المعلم فيلكس، تعـال»، ولقـد خفت من هذا الاستـدعـاء وأجبت بأنني كنت أقوم براحتي، ولن أقدم، وبناء عليه شرع في التوسل إليّ، قائلاً بأن هناك حاجة كبيرة إليّ، وبناء عليه توجهت نحـو الرجل، الذي كان واحداً من رجال القارب العائد لغليوننا، بعـث به إليّ واحد كان متمدداً فوق ظهر الغليون، وهو في آلام الموت، وقد استـدعاني لسماع اعترافه، وكنت على كل حال أكره العودة إلى ظهـر الغليون، ومع ذلك ماكان لي اهمال روح واحـد من الإخـوان، وسرت نازلاً نحـــو البحـر في الظلام، وركبت في القـارب، وقمت برحلة عظيمـة المخـاطر، بين الصخـور، إلى الغليـون، الذي كان يبعـد عن الشاطىء مثل المسافة التي تبعـد فيها سفلنجن se-flingen عن أولم، وأخـــذت على الفـــور اعتراف الرجـل المريض، ثم حملت فراشي من القمرة إلى السطح، ومددته فـوق مقعد متصالب، كان منه بإمكاني رؤية الشـاطىء، من أجل أنه إذا مـا جـرى اخراج الحجـاج من الكهف، للشروع برحلتهـم، يمكنني رؤية حـركـة الحشـــد، وكـان بامكاني رؤية أن الحجاج أخـذوا يتحركون، ويغـادرون المكان، بوساطة نقل المصابيح التي كـانت مضاءة قرب خيام السادة المغـاربة، لأنه جرى تعليق ستـة مصابيـح مشتعلة على عمود طويل أمـام كل خيمـة، وذلك تشريفـاً لمحمـد (صلى الله عليـه وسلم) وصـدوراً عن الاحترام للســادة الذين نامـوا فيهـا، ومن أجل راحة الناس، وقـد رأيت هذا من البحـر، وشعرت بشفقـة على موالي، وأتبـاعي الحجاج الذين كـانوا متمددين في الكهف القذر والمظلم، من دون أية تسهيلات بالضوء من أي نوع، بينما

كان هؤلاء المسلمون الكلاب يتمتعون بكثير غير محدود من الضياء.

وقمت في اليوم السابع، قبل اشراق الشمس بالدخول إلى القارب، وأسرعت التجذيف نحو الشاطىء، ومررت خلال المياه الهائجة، واجتزت الصخور، لأنني افترضت أننا سوف ننطلق على الفور، غير أننا تأخرنا لأن القبطانين كانا مختلفين، وكان هذا الخلاف قد بدأ في البندقية، كما رأينا في ص١٧٨، واستمر حتى وصولنا إلى هنا، ولهذا حاول كل واحد منهما إدخال حجاجه إلى الأرض المقدسة من دون الحجاج الذين كانوا مع القبطان الآخر، وقد أرادا تشكيل جماعتين، وفريقين منفصلين، ينبغي عدم التقائهما في وقت واحد، وفي المكان نفسه، غير أننا نحن الحجاج جميعاً رجونا في أن نؤخذ كلنا جميعاً، وأن يجري علينا العقد نفسه، وكانت هذه الخطة مقبولة كثيراً من قبل المسلمين، فقد كانوا لايرغبون في اختيار افتراقنا عن بعضنا بعضاً، مع أن القبطانين حثا باستمرار على وجوب القيام بعملية الفصل، وعندما رأى الأب المسؤول عن دير جبل صهيون أن هذا النزاع بين القبطانين معيقاً لانجاز الحج، وأنه جعلنا موضع ريبة لدى المسلمين، وجعلهم عديمي الصبر، دعا إلى اجتماع أعيان الناس بين الحجاج مع بعض الرجال المحترمين والمحبين للسلام بين المسلمين، وبذل جهده لوضع حد للنزاع، والذي حدث هو أنه بعد عدد كبير من الخطابات والتشجيع لم يتوصلا إلى اتفاق، وبدا القبطانين بعد كثير من النقاش أنهما معا أشد تصلباً في غضبهما وكراهية احدهما للآخر، وطوال ذلك اليوم جرى البحث في إقامة سلام بين القبطانين.

وفي الوقت نفسه، قام الحجاج الآخرون الذين لم يشاركوا في هذا النقاش، بالشد من عزائمهم، وكانوا جريئين بمافيه الكفاية للخروج من كهفهم والنزول نحوشاطىء البحر، وإلى المكان الذي وقفت فيه الحمير مع سائقيهم، وتجولوا بين حشد المسلمين بدون خوف، واشتروا ماكانوا

يحتاجـون إليـه من المسلمين، وصنعـوا صـداقـات معهم، وقمت أنا شخصيـاً مع بعض الرفـاق بالسير على طول ساحـل البحر إلى نبع مـاء عذب، كان يتـدفق من بين شعاب الهضاب، وشربنا هناك من ذلك الماء من دون أن ندفع، مـع أننا لكثير من الأيام لم نشرب مـاء إلاّ مـاشريناه ودفعنا ثمنه.

وقـامت تحت هذا النبع صخرة في البحـر، كانت مـرتفعة فـوق الماء، وهي التي قيل بـأن القـديس بطرس الـرسـول قـد اصطاد السمك من عليها، وأضـاف البسطاء من الناس الذين لايعرفـون الكتابات المقـدسة ولا الانجيل، بأن هذا كـان هو المكان الذي دعا منه ربنا يسـوع بطرس نفسه مع أخيه من البحر قـائلاً:« هلـم ورائي فأجعلكما صيادي الناس»، فهذا مانقـرأه في الفقرة التاسعة عشرة من الاصحـاح الرابع، ولقد كتب فرسـان علمانيون في كتبهم حول حجهم، بـأن هذا حدث هنا، لكن هذا ليس صحيحاً، لأن هـذه الدعوة إلى الرسولين وقعت عنـد بحر الجليل، علماً بأننا لم نقـرأ أبداً بأن ربنا يسوع قـد جاء قط إلى يافا بـالجسد، هذا ونقرأ في الاصحـاح التاسع من أعمال الرسل، بأن القـديس بطرس كان مرة هنا، ولذلك لاأنكر إمكانية قيامه بالصيد هنا، ووجدنا على شاطىء البحر أعـداداً لاتحصى من أكوام أصـداف المحار، من مختلف الأشكال، وقد التقطنا بعض الذي اعتقدنا أنه الأكثر جمالاً وغرابة.

وحـدث في ذلك اليـوم نفسـه أن قـام أحـد الفـرسـان بشراء بعض الحجارة من واحد من المسلمين باعه إياهم في الكهف بخمسة دوقيات، ولقـد اعتقـد أنهم أحجـار كريمـة، لكن في أثناء عـرضهم على رفـاقـه، اكتشف بأنهم لم يكونوا حجـارة كـريمـة صحيحـة، بل تقليـد صنع من زجاج ملون، وبناء عليـه حمل قطع الزجاج إلى التـاجر لإعـادتهم، راغباً باسترداد ذهبـه، لكن ذلك التاجـر الوضيع رفض ردّ الذهب، وكـذلك استرداد قطع الزجـاج، ولذلك أخبر الفارس القبطان عن عمليـة الغش

U‡ bM Ë ¨WK d « ‡‡U 6 rK *« + ÊUD I « vJ ‡U ¨Ác Ÿ«b)«Ë

سمع الحاكم هذه الشكوى، أرسل على الفـور مساعداً لـه مع عصا، إلى سجننا، حيث كـان ذلك التـاجـر جالسـاً مع سلعـه، فأخـذ منه بالقـوة الخمس دوقيات، اللائي ردهن إلى الحاج، ووجه إليه كثيراً من الضربات بعصاه، ورد إليه قطع زجاجه ثانية.

وهكذا مضى هذا اليـوم مع ملل أقل من الأيام التي تقدمت عليـه، وحدث أنه عندمـا كان الوقت ليـلاً، قدم بعض السـودان الشباب، من حملة الترسة للسـادة المغاربة، وكـانوا من ذوي السلوك السيء، وأشراراً، وقـد أرادوا الدخـول إلى الكهف لاختـلاسنا وابتـزاز ـا، لكن الحارسين اللذين استأجـرناهما لم يسمحا لهم بالدخـول، وقد تنازعـوا وتشاجـروا معهما لبعض الوقت أمـام باب الكهف، وعندما رأوا أنهم لن يستطيعـوا الدخـول إلى الكهف، جلسوا أمـام الباب، وأخـذوا يغنون طوال الليل، وينهقـون وينبحون، ويصرخـون مثل الحيـوانات، والكلاب، والخنازير، لأن جميع المشارقة امتلكوا أصواتاً خشنة جداً، ولايمكنهم صنع أي لحن شجي، بل إن غناءهم مثـل أصـوات التيسـة والعجـول، وهكذا أمضينا تلك الليلة مع هذه المنغصات.

وفي اليوم الثـامن سعى الأب المسؤول عن دير جبل صهيـون جاهداً ومعه الحجاج والمسلمين من خيرةالأنواع لإقـامة وئام بين قبطانينا، لكن من دون نجـاح، وعندما رأى السـادة المغـاربة والحكام هذا، أعلنوا أنهما مالم يصبحا على الفور صديقين، سـوف يضعانهما في الأغلال، ويرسلان بهما إلى غزة للسجن هناك حتى يتخذ سيدهم السلطان قراراً حول الذي ينبغي عمله معهما، وقـالوا بأن الحجـاج سـوف يسـاقـون عـائـدين إلى غليـونيهما، من دون السماح لهم بزيارة الأمـاكن المقدسـة، وسيـزودوهم بقبطانيين آخـرين، ويرسلون بهم عائـدين إلى بلادهم، وأرغم القبطانين بهذا التهديد على إنهاء خصـامهما، وتصافحـا وعملا سلامـاً بينهما،وبعد

هذا الاتفـاق الذي عقـداه مع السـادة والحكام، من أجلنا جميعـاً، جـاء الفحل، أي كـالينوس الأصغـر، إلينا، وأخبرنا بوجـوب جعل أنفسنا جـاهزين للانطلاق، وهكذا تجهـزنا بسرعـة ووقفنا مثقلين بحقـائبنا وقـواريرنا ننتظر الاشـارة، واصطف السادة المسلمـون أمـام كهفنا حتى يمكنهم تعدادنا للمرة الثانية، مثلما فعلوا عندما نزلنا من البحر، وبعدما جرى إرسال عدد كبير من الحجـاج إلى الحمير، فجأة أصبحوا غاضبين، حـول مالم أعـرفـه، ودفعوا بنـاعائـدين إلى كهفنا، مهـددين لنا بالعصي، وفصلونا عنهم وقـذفوا بنا إلى الكهـف وكأننا حيوانات، وانقضـوا على الحجـاج الـذين جـرى تعـدادهم، ونزلوا من التل وكـانوا على وشك ركوب حميرهم، وضربوهم بالعصي، وأرغمـوهم على الركض والدخول إلى الكهف، وهكذا أمضينا ذلك النهـار، ولم نكتشف السبب الذي دفع إلى اعادتنا هكذا.

وصف ميناء يافا وقدم هذه المدينة وقداستها

وقبل أن نغادر الميناء، من المناسب أن نـرى متى أقيم، وفي أية أماكن من الكتابات المقدسة ورد ذكره، خـاصة وأننا نحن الحجاج لن نعود إلى هنا ثانية، لأننا في طريق عـودتنا أخذنا سفينة من ميناء الاسكندرية، ولم نر هذا الميناء ثانية.

ويافـا هي أقدم ميناء، والمدينة الأقـدم في مقـاطعة فلسطين، وكـانت المدينة الثامنة في العـالم، التي بنيت قبل طوفان نـوح، الأمر الذي تبرهن على صحته بالعثـور هناك بعد الطوفـان على مذابح للأرباب التـي كانوا يعبدونها قبل الطوفـان، ولهذه المدينة اسمين، حيث يقال لها يافا اشتقـاقاً من اسم يافث بن نوح، الذي يقال بـأنه سكن فيها لبعض الوقت، وأنه أعاد عمارتها بعد الطوفان، وسميت يوبا Joppa اشتقاقاً من اسم أيوب Jop الذي كان رجـلاً بسيطاً ومقدسـاً، والذي من المفترض أنه سكن هناك، وعندمـا جرى تقسيم البلاد بين الأسبـاط الاثني عشر لاسرائيل،

وقع هذا المكان في حصـة سبط دان، وورد ذكـر هذا المكان في سفـر القديس إرميا، لدى ذكر «مسافات الأماكن»، حيث قال بأن يافا مدينة للفلسطينيين في ديار سبط دان، ذلك انه حتى هذا اليـوم يمكن رؤية الصخور على الشاطىء، التي ربطت إليها العذراء الجنية أندروميدا، ابنة سيفيوس Cepheus ، بسبب جريمة أمهـا، فقد حكم عليها من قبل آمون، وبعـد ربطها إلى الصخـرة، قدمت إلى وحش البحـر، وذلك بينما وقف والديها يبكيـان على الشـاطىء، لكـن فيرسـوس Perseus، أبو النبلاء الاغريق، وابن يوف Jov، ودانس Danis (Danae) كان لديه حصانا مجنحـاً وترس بالاس Pallas ، ونعل وسيف ميركري Mer-cury، وقـد طار محلقـاً من فـوق جبل يدوليـوم Ydolium، وبينما هو طائر محلقـاً في الهواء فوق فرسـه المجنح رأى الفتاة مـربوطة إلى صخرة، في ميناء يافـا، ووحش البحر العظيم على وشك التهـامها، وعندمـا رأى هذا طار على الفور إلى هناك، وعقد ميثاقـاً مع والديها، أنه إذا ما أنقذها من الوحش، سوف تكون زوجته، وعندما وافق الوالدان على هذا، قتل الوحش الشنيع، وأطلق سراح الفتـاة، واتخذها زوجـة له، والآن عندمـا رأى فينوس Phyneus أخو سيفيوس ملك يافـا هذا، ولأن أندروميدا كـانت من قبل مخطوبة له، خطط ليأخـذها منه بالقـوة، لكن فيرسـوس غلبـه، وذهب إلى فـارس، حيث تغلب على تلك البـلاد، وأطلق عليهـا اسمه.

وقد تبرهن على أن سيفيـوس كان ملك يافـا من خلال بعض المذابح الغاية بالقـدم، التي عثر عليها القدمـاء، ووجدوا اسمه منقوشـاً عليها، وكـانت عظام ذلك الوحـش البحـري الذي قتله فيرسـوس ذات حجم كبير، وكانت معروضة على الشـاطىء أمام المدينة، وقد رآها جميع الذين زاروا يافا، غير أنهم نقلوا من هناك إلى روما من قبل تيتوس وفسبسيان، وجـرى تعليقهم في مكان عـام للتعجب منهـم، لأنهم كـانـوا بالفعل

جديرين بالتعجب، لأن طول كل ضلع من أضلاعه كان احدى وأربعين قدماً، ثم قام القديس سلفستر والقديسين الآخرين الذين كرسوا روما للمسيح فدمروا هذه العظام وجميع العجائب الأخرى، وذلك خشية أن يأتي الحجاج إلى هناك لرؤيتهم، وأيضاً خشية أن ينفق الحجاج الذين قدموا إلى روما من أجل تمجيد الرب ورسله، وقتهم ويضيعوه، ويبددوا الساعات التي يمكنهم تمضيتها في الصلاة، على رؤية مثل هذه الأشياء الغريبة.

وأعلن بعضهم أن تلك العظام كانت عظام الجنية العذراء أندروميدا، الأمر الذي يبدو مستحيلاً، لأن فيرسوس أخذ أندروميدا معه إلى فارس، وأمضى أيامه هناك، ولم نقرأ في أي مكان عن عودته إلى يافا، وقال يوسفيوس بأنه قد رأى السلاسل، والأطواق البرونزية التي ربطت بهم أندروميدا، وأنهم كانوا مايزالون معلقين فوق الصخور، وغالبا ما أشار جيروم إلى أندروميدا هذه، وخاصة في المكان المتقدم الذكر، وفي حج باولا المقدسة، وذكرها بوكاتيوس **Boccatius** أيضاً في الكتاب الثاني عشر من مصنفه «أنساب الآلهة»، وذكرها بالفصل الخامس والعشرين، مثلما فعل يوسفيوس أيضاً، علاوة على ذلك مراراً جرى الحديث عن هذا الميناء في الكتابات المقدسة الشرعية، ذلك أنه إلى هناك بعث حيرام ملك صور، خشب الأرز من لبنان عبر البحر، ومن هناك أخذ سليمان هذه الأخشاب وجلبها إلى القدس، من أجل بناء الهيكل، حسبما يمكن رؤية ذلك في سفر أخبار الأيام الثاني — الاصحاح الثاني ١٦، وفي عزرا: ٣/ ٧، فضلاً عن هذا بنى شعفاط أسطولاً في هذا الميناء، قاصداً الإبحار إلى جزيرة أوفير **ophir**، لإحضار الذهب من هناك، لكن السفن غرقت بقضاء من الرب، وذلك حسبما قرأنا في سفر الملوك الثالث، وإلى هذا الميناء هرب النبي يونان، وذلك حسبما قرأنا في الاصحاح الأول من سفر يونان، فهنا ذهب على ظهر

سفينة علّه يهرب إلى ترشيش، أي إلى أفـريقيـا إلى مـدينة قـرطاج، التي أخبرنا جيروم بأن اسمهـا كان ترشيش، وعندمـا صار خـارج الصخور تحرك البحر وصار هائجاً، وبناء عليـه صار الملاحون راغبين بالعودة إلى الميناء، لكنهم لم يستطيعوا فعل شيء حتى ألقوا بيونان في البحر، فابتعلته سمكة، وبعد مضي ثلاثة أيام تقيأت بيونان ولفظته على الشاطىء.

وأحرق يهوذا المكابي هذا الميناء مع جميع سفنه، بسبب إغراق اليهود، الذي فعله أهل يافـا وتدبروه خيـانة، وذلك حسبما قـرأنا في الإصحـاح الثاني عشر من سفـر المكابيين الثاني، وجاء القـديس بطرس الرسول إلى يافا عندمـا جرى طرده من اليهـودية، وبشر هناك، وفيها أقـام تابيثا من الموت، وذلك حسبما قـرأنا في الاصحـاحين التـاسع والعـاشر من أعمال الرسل، عــلاوة على هذا لقـد أمضى أيـامـاً كثيرة في يافـا مـع سمعـان الصباغ الذي كـان بيته على شاطىء البحـر، ويرى بعضهـم — ومايرونه يبدو معقـولاً— بأن هذه القناطر والكهوف المقنطرة، التـي حبسنا فيها، كانت فيما مضى مكان إقـامة سمعان الذي كان القـديس بطرس ضيفه، وكـان هذا الميناء قد جـرى تحصينه من قبل يوناثان وسمعـان المكابيين، وذلك حسبما قـرأنا في الاصحاح الرابع عشر من سفـر المكابيين الأول، لكن الرومان دمروه مرتين، وقتلوا هناك كثيراً من اليهود حتى أن دمهم جرى إلى البحر، وغطى جميع أجزاء البحـر القائمة بين الصخور، وأعاد الصليبيون فيما بعـد بناء الميناء، وخاضـوا معارك كثيرة عنده هناك، لكن أخيراً قـام المسلمـون بهدم كل من الميناء ومن المدينة، ولم يتركـوا شيئاً دونما هدم إلاّ برجين لحراســة الجانب المتجـه نحـو البحــر، وكل شيء ماعدا ذلك هدموه بحفر الأساسات تحت الأسوار والجدران.

ولم أر في أي مكان مثل هذه الخرائب العظيمة هناك، وتساءلت عجباً كيف أمكنهم هدم مثل هذه الأسوار السميكة، وتركوا فقط عند المدخل الذي يجده الانسان عندما يأتي من البحر بناءين مقنطرين، واقفين هناك،

وقد قطعا من الرابية نفسها، وهما مغطيان بالتراب والخرائب، ولذلك هناك دوماً رطوبة في هذه الأقنية وهي تدلف بالمياه من الأعلى، والجدران مبللة، والأساسات موحلة، ويستخدم هذا المكان طوال العام من قبل المسلمين مكاناً للتغوط العام، وفي محل التغوط هذا يلقون بالحجاج المسيحيين، كما تقدم بنا القول، والذي يقلق الحجاج بشكل خاص، أي الذين يحبسون هناك، هو أنك عندما تدخل إلى الكهف تجد القوس محطماً، وهناك أحجار كبيرة معلقة تهدد بالسقوط على رؤوسهم، ذلك أنه بدفعة من اصبع سوف تتساقط كومة كبيرة من الحجارة، وانه تحت هذه الخرائب الخطرة أجبر الحجاج على الدخول والخروج بشكل متواصل، وبالاضافة إلى هذا، من الصعب جداً، ومن الخطورة بمكان أن يتخذ الانسان طريقاً في هذا الميناء من البحر، ولاأعتقد بوجود ميناء آخر بهذا السوء في جميع اطار البحر، لأنه مامن سفينة كبيرة قدمت من أية جهة كانت، يمكنها دخول الميناء، بل عليها التوقف في الخارج، وأن تجد مكانا ترسو به بعد قياس الأعماق، لأنه على بعد رمية سهم من البحر العميق هناك صخور ناتئة ومنزلقة، وأماكن ضحلة وصخور منبعثة من الماء ومرتفعة فوقه، يهدر البحر بينها بشكل دائم، حتى عندما يكون هادئاً في الأماكن الأخرى، وتندفع المياه وتضرب الصخور بشدة عظيمة، يتطاير الرذاذ أثرها عالياً في الهواء، ويصنع ضجة عظيمة يمكن سماعها من مسافة بعيدة سواء أكان ذلك في البر أو في البحر.

والميناء محاط بهذه الصخور، وكأنه جرى صفهم بفن انساني من أجل حمايته، بحيث لاتستطيع حتى القوارب من المرور بينهم، إلاّ من خلال مكان واحد، وذلك بين صخرتين عاليتين، تجذف القوارب بينهما بعناية عظيمة، لأن المياه تتحرك هناك جيئة وذهاباً بسرعة مدهشة، وهي تندفع وتضرب نفسها ضد جانبي الصخور، ومالم يكن الربان أو قائد القارب حذراً، من الممكن أن تتغلب المياه على القارب وتدفعه على الصخور،

وتحطمـــــه إلى آلاف القطع، ولهذا على الـذين يـدخلون إلى هـذا الميناء التجـذيف خـلال الأمواج المرتفعـة بأقصى سرعـة ممكنة لمجـاذيفهم أن تعمل بها، وذلك خشيـة أن ينجرف القـارب ويخرج من وسط القناة إلى هذا الجانب أو ذاك ويصطدم بالصخور، وعلى كل حال من غير الممكن لأي قائـد قارب مهما كـان بارعاً، أن ينجـو من التبلل بالمياه المتسـاقطة، والتي تضرب الصخور بكل عنف مـن على الجانبين، وهذه هي صخور أندروميدا، كما رأيناهم.

وفي اليـوم التـاسع، جاء قبل الفجـر، إلى كهفنا مسلم معـه مصبـاح، وأيقظنا لننطلق برحلتنا، ولذلك نهضنا مسرورين، وخـرجنا من سجننا، مثلما يفعل الأسرى لدى خـروجهم مـن مكان أسرهم، ووجـد فيما بين الكهـوف والبحـر، باتجاه الشمال، طريـق يمـر نزولاً عبر الصخـور، إلى المكان الذي وقفت فيـه الحمير مع سـائقيهـا، وكـان هذا الطريق ضيقـاً جداً، بحيث لايستطيع الانسان الذهاب نحو اليمين أو نحو اليسار، بل عليه السير في وسط هذا الممـر فقط، ووقف قبطانانا مع بعض المسلمين عند هذا الطريق الضيق، يحملون مصابيح، من المشاعل والفوانيس، وقد سألوا كل حـاج، واحداً بعـد الآخر عن اسمـه وعن اسم أبيه، وبحثـوا عنه في الجدول الذي كتبـوه عنـدمـا نزلوا من السفينة، وعندمـــا كـانوا يعثـرون على اسم الحاج، كـانوا يسمحـون له بالنزول إلى الحمير، الذين وقفوا في حشد تحت، هناك قرب البحر، ولـو أن عدد الحجاج كان أكثر أو أقل مماهو بالجدول، ولم يستطع القبطـانان تقـديم تفسير لذلك، كـان لابد من رمينا ثانية في سجننا.

وهكذا ذهبنا ونزلنا إلى المكان الذي وقفت فيـه الحمير، وهناك وقف السـائقون بانتظارنا، ومـاأن كان الحاج ينزل إلى الأرض المستـوية، حتى كان أقـرب السائقين يمسكه، ويقـوده إلى حميره، ولذلك كثيراً مـاحدث أن كان هناك سائقين أوثلاثة يتجاذبون حـاجاً واحداً، يجره أحدهم بهذا

الاتجاه، وذاك بالاتجاه الآخـر، لأنه عندمـا سمـع أهل الريف في القـرى المجاورة بأن حجـاجاً قد جاءوا، جلبوا كثيراً من الحمير، وكـان عددهم أكبر من عـدد الحجاج الذين كـانوا هناك، ولذلك حاول كل انسـان أن يجلب حاجاً إلى حميره، لأن كل واحـد من المسلمين جلب سبعة حمير أو ثمانية من نوع واحد، وكان لهذا يحدث أن لايوجد أكثر من مائتي حاج، ويكون هناك مايزيد على أربعمائة حمار، ولذلك تقاتل السائقون من أجل الحجـاج، وتجاذبوهم إلى هنا وهناك، لأن الذي لم يـأته حـاج، جـاءت رحلتـه مقـابل لاشيء، ولم أفهم هذا عندمـا قمت بحجي الأول، ففي اللحظة التي كنت قـد نزلـت بها، ركض نحـوي وقتهـا مغـربي أسـود، وجذبني بعنف محاولاً جري نحو حشد من الحمير، كان من حوله هناك صخب مـدهش، ولقد خشيت من أن يكـون قد نوى سرقتي، فـوقفت ثابتـاً في مكاني، وبقـوة كبيرة خلصت نفسي منه، وعـاودت بكل سرعـة الصعـود إلى المكـان الذي وقف الحكام فيـه مع مصـابيحهم، وأخبرت الأب المسـؤول عن دير جبل صهيـون بما وقع لي، وعندمـا سمع هذا الأب ذلك مني قـال:«انزل بسرعة، بسرعـة، واذهب بارادتك مع الذي يقودك ويذهب بك، وعندما نزلت، قابلني مسلم، وصدف أنه أمسكني بيمينه من يميني، وبدأ يسعى مسرعـاً، لأنه في ذلك الوقت كـان الجميع قد ركبـوا حميرهم، وعندما ركض أرغمت على الركض جـانبيا وبشكل مربك، لأنه —كما قلت— كان ممسكـاً ليميني بيمينه بشدة، ولقد ركض وهو ممسك بي فـوق الصخـور حيـث ارتطمت بها عـدة مـرات، وأنا أركض جـانبيـاً، ووقعت، وأخيراً وصـل بي إلى حميره، وأعطاني حماراً صغيراً جيـداً، كـان كله أسـود اللـون، وأبدى نحـوي كثيراً من اللطف والصداقـة، خلال حجي الأول كله، ومـع أن منظر وجهه كـان قبيحا، لقد كان كله لطف، واستجاب لجميع مطالبي مثل أحسن الخدم، وفعل ذلك قبل أن يعرف مكـانتي، وكان عبداً لسيـد مسلم أنا لم أعرفـه، كان اسمه جلاله Galela ، وكان اسم عبـده قصه Cassa ، وكان كل

من أراد أن يدعو هذا العبد، قـد اعتاد على دعوته بهذين الاسمين معا:« جـلاله قصـــه»، وكـان سـائق الحمار قصـــه قـد أخبرني أنني كلما أردت دعـوته، عليّ أن أنـادي جـلاله قصـه، لأن الحاج يحتفظ بالســائق الذي يحصل عليه في يافـا، خلال الرحلة كلها في الأرض المقـدسة، ولايحصل على حمار من أي واحـد آخر، وكلما أراد الحاج أن يترك أي مكان، عليـه أن يسعى بين حشـد الحمير بحثاً عن سائقـه، داعياً إياه بالاســم بصوت مرتفع.

وبناء عليـه، عندما نزلت في حجي الثـاني هذا من المكان الذي وقف فيـه الحكام، رغبت بالحصـول على سـائق حماري الأول، وقبل أن أصل إلى قطيع الحمير، صرخت إلى جلاله قصـه سائق حماري الأول، وعندما سمع السـائقون الآخـرون هذا، مـامن واحـد منهم حـاول جذبي نحـو حميره، لرؤيتهم أن لدي سـائق أنا أعـرفه، وفيما أنـا أصرخ جلاله، قـام سيد سائقي، الذي لم أكن أعـرفه، والذي كان مسلما مثل الملك بالمكانة، وكان جـالساً على ظهر فـرس، فقدم نحـوي ولمسني بلطف بعصاه التي أمسكهـا بيـــده، مشيراً إليّ أن أحتفظ بهدوئي، وأن أقـف على الجانب بلاحـراك، وكان الجميع الآن يركضـون إلى هنا وهناك، وكان كل حـاج وسـائق حمار في وضع فـوضـوي جـداً، وكـان كل واحـد يسرع ليعمل صفقة جيـدة لنفسه، ولهذا عندما وقفت بلا حراك، والحجـاج الآخرون كل واحـد منهم يسعى أو يجري جره نحـو الحمير، صرت قلقاً، خشيـة أن يكون المسلم قـد نسيني، وحاولت أن أبتعد عنه، وعنـدما رأى هذا، قال لي شيئاً باللغة الكلدانية (كذا) لم أفهمه، لكنني قدرت وقتها أنه قال لي:«قف حيث أنت إلى جـانبي، أنـا جـلاله، وعبـدي قصـه سـوف يأتي بالحال إليّ، وسـوف يزودك بدابة»، وبعـد انتظار قـدم قصـه إلى سيـده، ومارأن رآني حتى تذكـرني وعرفني، وتذكرته أنا وعـرفته وركض ليقبلني حسب طرائق المسلمين، وحيـاني بسرور عارم وببهجـة، واندهش كثيراً

لعودتي، وضحك وقال أشياء كثيرة لي، أنا لم أفهمها، وكنت قد جلبت معي من أولم ركابين معدنيين، قدمتهما له، وقد تقبلهما بشكر عظيم، واقتادني إلى حيث وقفت حميره بين القطيع، وأعطاني أحسن دابة لديه، ودهش موالي مع الحجاج الآخرين لرؤيتهم المسلم وهو يعاملني بكثير من الصداقة، لأنهم كانوا يعانون من كثير من الازعاج من سائقي حميرهم، وذلك بالضرب من قبلهم، والإلقاء عن ظهور حميرهم والاستيلاء على مقتنياتهم، وقد تحررت من جميع هذه الاضطرابات، لأنه كما حدث في حجي الأول، خدمني هذا الرجل بأمانة، وأطاع أوامري، وكأنني كنت أميراً، وغالباً مابدل لي حميري حتى أحصل على حمار أفضل يرضيني، وعندما كان الحمار يصعد إحدى التلال، كان يدعمني، وكان يمسكني عندما كنا ننزل طريقاً منحدراً، أو طريقاً وعراً، حتى لاأسقط، وكان يعطيني شراباً من قربته، ويشاركني في الكعك الذي كان معه، وكان يتسلق فوق الجدران الحجرية للحدائق، ويجلب لي التين والعنب وفواكه أخرى منهم، وقد أعطاني المهماز الذي استخدمه لحماره، هذا ولم يعط أي من سائقي الحمير الآخرين إلى أي من الحجاج مهاميز لحميرهم، وبسبب هذه الخدمات التي قدمها لي اعتاد النبلاء ورفاقي على الظن أنني أعطيته كثيراً من المال بالسر، لكن هذا لم يحدث، لأنني لم أعطه شيئاً مطلقاً زيادة على ماكان مفروضاً عليّ، وغالباً ماتصورت أنه افترض أنني كنت لورداً كبيراً، وكان هذا المعلل لخدمته لي بمثل هذه العناية، وفي الحقيقة كنت في خلال حجيّ محظوظاً إلى حد كبير، حيث لم أعامل بسوء من قبل أحد من المسلمين، أو البدو العرب، أو المدينيين، أو المماليك، والذين كانت لي علاقة بهم، ولايمكنني إخباركم أنني تلقيت أية ضربات أو اهانات، مع أنني غالبا مارأيت الحجاج الآخرين يتعرضون للضرب وللإهانة، وكان لديّ دوماً في حجيّ دواب جيدة، وبقيت على الدوام قوياً وصحيحاً، وللرب الحمد.

انطلاق الحجاج من شاطىء البحر وهم على ظهور حميرهم

أما وقد فرغت من حكاية جولاتي عبر البحر، ينبغي أن أنتقل إلى مايتعلق بجولاتي على اليابسة، وهكذا —كما قلت من قبل— عندما جئنا إلى قطيع الحمير، وأخذ كل انسان، بعد طول انتظار دابة وتجهز بها، امتطينا هذه الحمير عند شاطىء البحر، ووقفنا ننتظر لبعض الوقت، حتى أصبح السادة المغاربة جاهزين، وكان هناك بعض الحجاج، الذين رفضوا صدوراً عن تقواهم، أن تكون لديهم حمير، وأرادوا السعي وراء جماعتنا، وسمح لهم المسلمون بفعل ذلك، وكانوا راضين شريطة أن يركضوا بقدر ما تستطيع حميرنا أن تقطع في يوم واحد، وأن يسيروا مع الجماعة، وأن لايتأخروا خلفها، لكن عندما سرنا أسرع لم يستطيعوا مسايرتنا، بسبب المسافة التي قطعناها، ولأن الطريق الذي سرنا عليه كان طريقاً رمليا، وهكذا كانوا مرغمين بالقوة على ركب الحمير.

هذا وليست صحيحة الحكاية التي غالباً ماسمعناها في بلادنا، من أن المسلمين أرغمونا على ركب الحمير إلى القدس، وأن نمر من خلال الأرض المقدسة، لأنهم كانوا يرون أننا غير جديرين بلمس الأرض بأقدامنا، فهم لم يعبأوا أمشى الحاج على قدميه، أو ركب حماراً، مادام العقد المبرم مع القباطنة محافظ عليه وعلى الذي يمشي على قدميه عدم التأخر، ومن ثم إرغامهم على انتظاره، والسبب الذي جعلونا نأخذ به حميراً، هو أن نبقى دوماً مع بعضنا، وأن نصل إلى القدس دون أن نصاب بالمرض، لأن الحجاج لو توجب عليهم السير على أقدامهم طوال الطريق من البحر إلى القدس، وأن يعبروا خلال الأرض المقدسة في مثل هذه الأنواء الحارة، وأن يمشوا فوق الطرقات التي هي رملية في السهول، ووعرة في الجبال، لو توجب عليهم هذا، فقلة منهم هي التي سوف تبقى حية، بسبب الحرارة، والعطش، والعمل في ظل مناخ غريب، وإذا ما أرغمنا على السير على أقدامنا، خلال الأرض المقدسة،

كيف لنا أن نهرب من البدو العرب، والفلاحين في القرى، أو الصمود في وجههم عندما يهاجموننا؟ وبناء عليه إنه لصالحنا جرى تزويدنا بالدواب، وليس لضررنا كما قيل من قبل الجهلة.

وعندما بات الجميع جاهزين، ومضى القبطانان والحكام على ظهور خيولهم، وابتعدوا عن شاطىء البحر، تبعناهم، ونحن على ظهور حميرنا، وسار خدم السادة المغاربة، وهم على ظهور مطاياهم خلف الحجاج، ورافقنا سائقوا حميرنا، وسرنا نحن جميعاً وفق هذا النظام مسرعين جداً بعيداً عن البحر، وكان هناك حشد عظيم اجتمع معا من المسيحيين ومن المسلمين، وأدرنا ظهورنا إلى شاطىء البحر، الممتد من الشمال إلى الجنوب، وكان ميناء يافا، بوضعه قائماً في وسطه، لأنه قام باتجاه الجنوب منه يبنى وغزة، وقام على الجانب الشمالي قيسارية فلسطين، وعكا، وصور، وبيروت، وطرابلس، وقد خلفنا هؤلاء جميعاً وراءنا على شاطىء البحر، وسرنا على طريقنا نحو الشرق، خلال أرض فلسطيا، التي لم تكن كلها منبسطة، بل تشكلت من هضاب منخفضة من مختلف الأشكال، وهذه أرض كانت من الممكن أن تكون خصبة وجيدة، لو توفر شعب يزرعها ويسكن بها، لأنه في الواقع الجزء الأكبر من الأرض المقدسة هو صحراء.

وعندما صرنا على مسافة نصف ميل عن البحر، وصلنا إلى مدينة غاث، التي كانت فيما مضى مدينة المقاتلين الأشداء جداً من العمالقة، وفيها ولد جالوت الغاثي، وتقول الأساطير أيضاً بأن القديس كريستوفر قد ولد هناك أيضاً، وإلى ملك غاث كان داوود قد هرب من وجه شاؤول، وحدثنا الإخباريون عن هذه المدينة، أنه بفضل طبيعة المكان، ولد فيها رجال قساة وشجعان، ولهذا حتى في العصور المتأخرة استولى الصليبيون عليها بعد سفك كثير من الدماء، وخاضوا معارك شديدة مع المسلمين المدافعين عنها، حتى أخيراً، بعد مذبحة عظيمة بين

المسلمين والصليبيين فقدوها للمرة الثانية، وعندما استولى عليها المسلمون هدموها وسووها بالأرض، ولهذا هي الآن قائمة حالها حال يافا.

وكانت الشمس في الوقت نفسه قد أخذت بالاشراق، وقد اجتزنا خلال أرض جميلة، مليئة بالأسوار والجدران المهدمة، ولقد دهشنا تجاه الخرائب التي رأيناها، عندما اجتزنا إلى جانب مدينة اسمها أرسوف، التي كانت قد بنيت من قبل سليمان، وذلك تبعاً لما قاله جيروم في كتابه «عن مسافات الأماكن»، وكان البدو العرب في ذلك الحين منتشرين فوق وخلال كثير من أجزاء الأرض المقدسة، ولقد قدموا ثلاث مرات لمواجهتنا، لكنهم عندما رأوا أننا كنا محميين بشكل جيد بمدافعين مسلحين، لم يتعرضوا لنا بأي عنف لا بالحجارة ولا بالفولاذ، بل التحقوا بشكل سري بحشدنا إلى طرف الحجاج، وحاولوا سرقة كتابات، وملابس وما شابه ذلك، لأنهم عرفوا أننا كنا غير مسلحين، ولهذا ركضوا من حولنا وانتشلوا كل ماسقط من الحجاج، أومالم يحرسوه بشكل دقيق، ولولا أننا سافرنا مع هذه القوة العظيمة، لكانوا انقضوا علينا، وضربونا بالحجارة، والعصي، والهراوات، كما حدث مراراً للحجاج بين يافا والرملة، وعندما لايكون بداة عرب في المنطقة، كان الفلاحون يحتشدون مع بعضهم، ويهاجمون الحجاج وهم على طريقهم، ويلحقون بهم أضراراً كثيرة، ولهذا كانت الرحلة من يافا إلى الرملة خطرة كثيراً، بسبب هذه الكمائن والإهانات الصادرة عن المسلمين.

وفيما نحن على طريقنا رأينا مدينة الرملة، فوق رابية منخفضة في منطقة فائقة الجمال، وعندما بتنا على مسافة فرلنغ (ثمن ميل) منها، أرغمنا على الترجل من على ظهور حميرنا والسير على الأقدام، وأن يحمل كل واحد منا حقائبه على كتفيه، وبناء على ذلك أعطينا حميرنا إلى السائقين، وأسرعنا نحو البلدة ونحن في ضيق عظيم، لأن الحرارة كانت

عالية جداً، وثار الغبار هناك، وكان هناك حشد كبير من الناس مع كثير من أعمال الازعاج، وكان المسلمون لايقبلون بدخول المسيحيين إلى مدنهم وبلداتهم، وهم راكبين للدواب، مالم يكن قدومهم في الظلام، لكن في وضح النهار كان هذا مرفوضاً، ولقد عدّوا مدينة الرملة ذات مكانة عالية فوق جميع المدن الأخرى، لأن القاضي Thadi ، أي أسقفهم، يسكن فيها، لذلك تراهم متمسكين في أن لايدخلها مسيحي إلاّ على قدميه، وعندما دخلنا إلى المدينة، وجدنا على مسافة قصيرة من بابها بيتاً له باب منخفض وضيق، وقف أمامه الحاكم، وتولى تعدادنا واحداً واحداً، وذلك مثلما فعلوا عندما غادرنا البحر، وطلب منا الدخول من خلال الباب الصغير، هذا ولقد كان في داخله ساحة واسعة وجميلة، مع كثير من القاعات، والغرف المقببة من مختلف الأنواع، وبركة مليئة بماء جيد وصحي.

وكان هذا البيت قد شري منذ وقت طويل مضى من قبل فيليب صاحب بيرغندي، ذي الذكرى المباركة من أجل الاستخدام من قبل الحجاج، وعهد به من قبله، إلى رهبان دير جبل صهيون، ولهذا أطلق عليه اسم مضافة الحجاج، وقد تركه رهبان دير جبل صهيون إلى واحد من المسيحيين الشرقيين سكن فيه، ولقد سمعت أنه قبل شراء هذا البيت من أجل إيواء الحجاج، كانوا قد اعتادوا على الإقامة مجبرين في نزل عام في المدينة قرب السوق، في وضع تعيس وكريه، حيث أسيئت معاملتهم كثيراً، لأن مسلمي الرملة ومغاربتها يحملون كراهية خاصة نحو المسيحيين ويسيئون معاملتهم كثيراً، كما سأخبركم، وقمنا هنا بتوزيع أنفسنا على مختلف القاعات، وجلست كل جماعة لحالها، وامتلك موالي وجميع أتباعهم مأوى واسعاً، اشترينا له حصراً لتغطية الأرض، حتى لانكون مرغمين، على الجلوس، أو الاستلقاء، أو النوم، أو الأكل، فوق أرض عارية، لأنه لم يكن هناك سوى قاعة مقببة مع جدران

وأرض مبلطة، من دون أي أثاث مهما كـان نـوعـه، باستثناء مـا جلبناه وأدخلناه إلى هناك بأنفسنا.

هذا وكـانت السـاعـة عندمـا دخلنا إلى المدينة هي حـوالي التـاسعـة صبـاحاً، وبناء عليـه أعدّ الأب المسـؤول عن دير جبل صهيون، وأقـام مذبحاً في الحديقة الداخلية للبيت، حيث كان بيتا القبطانين، وكان ذلك مقابل جذع نخلة عظيمة، كانت قـائمة هناك، محملة بالتمور، وبعد هذا دعا جميع الحجاج إلى الدخول إلى تلك الحديقة، وفعل ذلك بعدما أغلق الأبواب، حتى لايتمكن المسلمون من مقاطعتنا، وقام واحد من الرهبان بعمل قداس، وبعد القداس قدّم الأب المسـؤول موعظة طقوسية جميلة، باللاتينيـة، لأنه كـان ايطاليـا، ولايعـرف الألمانيـة، وبما أنه لم يكن لديه، أومعه أحد فصيح مجيد للغـة الألمانية، يمكنه أن يترجم موعظته لنا نحن الألمان، طلب مني أن أقف إلى جانبـه، وأن أترجم موعظتـه إلى الحجاج الألمان، وفعلت هذا راضياً، ووقفت إلى جـانبه، وعندما كـان يتفوه جملة باللاتينية كنت آخـذها من فمه وأعيـدها باللغة الألمانية الرائجـة، فضلاً عن هذا قـدم إلى الحجـاج بعض الـوصـايا في مـوعظتـه تتضمن أحكام وطرائق رؤية الأمـاكن المقدسـة التي عليهم مـراعاتها أثناء إقـامتهـم بين المسلمين والكفار في الأرض المقدسة، خشيـة أن يتعرضوا للمخاطر من خلال الجهل.

وكانت أول الأحكام والنصـائح: أنه إذا كان هناك حاج قـد قدم من دون الحصول على إذن واضح من البابا، وبذلك صار عرضة لقرار البابا بالحرمـان الكنسي وتحت طـائلتـه، على مثل هؤلاء الأشخـاص تقـديم أنفسهم له بعد القداس، وهو سيقوم بتحليلهم من ذنبهم بفضل السلطة الرسوليـة الممنوحة له، فـالبابا كـان يتخذ قراراً اجـرائياً ضـد كل واحد يذهب لأداء الحج في الأراضي المقدسـة من دون الحصول على إذن منه، كما مـرّ معنا في ص٩٥، المتقدمـة، وسبب هذا الحرمـان الكنسي، هو أنه

بعدما جرى طرد الصليبيين من الأرض المقدسة، بقي بعض المسيحيين، حتى من أتباع الكنيسة اللاتينية هناك، وتخلفوا فيها، وتعايشوا بأنفسهم مع المسلمين، وأدوا ايمان الولاء لهم، وحدث أيضاً أن بعض الذين تركوا تلك البلاد، عادوا إلى هنا ثانية إلى الذين بقيوا هناك وصاروا رعايا لهم، وأبحروا بعد ذلك إلى البلاد المسيحية، وجلبوا منها مصنوعات حديدية، وأسلحة، كان المسلمون بحاجة إليها، وعندما رأى البابا هذا، قام بإصدار قرار حرمان كنسي بحق جميع الذين بقيوا في الأرض المقدسة مع المسلمين، أو الذين تعاونوا معهم واتفقوا، كما قام أيضاً بحرمان الذين حملوا الأسلحة والأشياء الأخرى المحتاجة إليهم، علاوة على ذلك حرم الأرض نفسها، وبناء عليه صار كل من يدخل إليها من دون إذن آثماً مرتداً، على أساس أنه لايمكنه العيش هناك من دون التعاون مع المسلمين والمراطقة، هذا وجرى استثناء أعضاء من الطوائف الدينية من الذين زاروا الأرض المقدسة من الحرمان، وكذلك كل واحد له صديق واقع بالأسر بين المسلمين، فهذا يمكنه دخول البلاد من دون الحصول على إذن من البابا، وأن يعقد صفقة مع المسلمين من أجل الحصول على حرية صديقة، وقد قرأت هذه الشروط والقرارات في كتاب قديم كتب من قبل أحد الحجاج الذين زاروا الأرض المقدسة منذ مائة وخمسين سنة مضت، ولم يمنح الرئيس الأعلى للدومنيكان إذنا لأي راهب لم يحصل أولاً على إذن من البابا.

وكانت النصيحة الثانية: وجوب عدم تجول أي حاج لوحده حول الأماكن المقدسة من دون دليل مسلم، لأن ذلك يعدّ خطراً وغير آمن، ولم أقم أنا الراهب فيلكس فابري بالتقيد تقيدا مطلقاً بهذه النصيحة كما سيتضح فيما بعد.

وكانت النصيحة الثالثة: على الحاج أن يكون حذرا ولايخطو فوق قبور المسلمين، لأنهم يغضبون غضباً عظيماً عندما يرون هذا يفعل،

ويرجمون بالحجارة كل واحد يدوس فوقهم، لأنهم يعتقدون أن الخطو فوقهم يعذب الميت ويزعجه.

وكانت النصيحة الرابعة: أنه إذا ماتعرض حاج لضربة من مسلم، عليه عدم الرد بضربه، حتى وإن كان مظلوماً، بل عليه أن يشكو الذي ضربه إلى المسؤول عن الدير أو إلى الترجمان كالينوس اللذان سيقتصان له إذا استطاعا، وإذا لم يستطيعا، وكان الفاعل شاب وقح أحياناً، وعنيد، وقتها على الحاج أن يتحملها صابراً من أجل مجد الرب، ومن أجل الحصول على ثواب أعظم.

وكانت النصيحة الخامسة: على الحجاج أن يحذروا من قطع شظايا من الضريح المقدس، ومن الأبنية في الأماكن الأخرى، ومن تشويه الحجارة المنحوتة هناك، لأن هذا محرم تحت طائلة الحرمان الكنسي، ولسوف يقال المزيد حول هذه المسألة في الورقة ٢١٧ظ.

والنصيحة السادسة،:يتوجب على الحجاج من أصل نبيل عدم تشويه الجدران برسم رنوكهم وشعاراتهم عليها، أو بكتابة أسمائهم، أو بتثبيت أوراق على الجدران عليها مرسومة رنوكهم، أو بالخربشة على الأعمدة أو الألواح الرخامية، أو حفر حفرٍ فيهم بأدوات معدنية لعمل علامات تدل على زيارتهم لهم، لأن مثل هذا التصرف يغضب المسلمين كثيراً، ويعتقدون أن الذين يفعلون مثل هذه الأفعال حمقى.

والنصيحة السابعة: هي على الحجاج السير إلى زيارة الأماكن المقدسة بطريقة نظامية، من دون فوضى أو عدم اتفاق، وينبغي أن لايقوم انسان بإبعاد آخر وأخذ مكانه، لأن هذا يولّد كثيراً من الفوضى التي تقع عند تلك الأماكن، وبذلك تتعطل التقوى ويعاق التعبد المخلص.

أما الشرط الثامن والنصيحة: هي أنه يتوجب على الحجاج عدم الضحك وهم يسيرون مع بعضهم في أرجاء القدس لرؤية الأماكن

المقـدسـة، بل عليهم أن يكـونوا جـديّين وأتقيـاء، من أجل الأمـاكن المقـدسة، وليقـدموا مثـلاً للمسلمين، وأيضاً حتى لايعتقـدون ويشكّون أننا نضحك عليهم، الأمـر الذي يغضبهم إلى أبعـد الحدود، ذلك أنهم دوماً يتشككون حول الضحك والرهج بين الحجاج.

والوصية التاسعة: هي على الحجاج أن يكونوا متيقظين فوق كل شيء تجاه المزاح أو الضحك على الأطفـال المسلمين أو الرجـال الـذين يقابلونهم، لأنه مهما كان القصد من ذلك، فإن كثيراً من السوء ينشأ من ذلك، وعلى هذا مهما صـدر عـن الصبي وكـان مضحكاً، على الحاج أن يبعد نفسه وينأى بها، وأن يبقى جاداً، وبذلك يبقى بأمان.

وأمـا الوصية العـاشرة: فعلى الحجاج عـدم التحديق بأي من النسـاء اللائي يواجهن، لأن جميـع المسلمين غيـورين إلى أبعـد الحدود، وهكذا يمكن للحـاج أن يجلـب المخـاطر على نفسـه من خـلال الجهل، حيث يغضب عليه واحداً من الأزواج الغيورين.

والوصية الحادية عشرة: إنه إذا ماحاولت أية امرأة الإيماء إلى حاج أو دعـوته بالشارات لدخـول بيت ما، عليـه عدم فعل ذلك بأي حـال من الأحوال، لأن المرأة تفعل ذلك من باب التآمر، بإثارة من بعض الرجال وتحريض، من أجل أنه عندمـا يـدخل المسيحي تتم سرقتـه، وربما قتله، فالذين لايكونون حذرين جداً في هذه الأمور قد يجنون مخاطر عظيمة.

والوصية الثانيـة عشرة: على الحاج أن يكون متيقظا فلا يعطي إلى أي مسلم خمرة عندما يسأله ويطلب منه شراباً، سـواء أكان ذلك على طرف الطريق، أو في أي مكان آخـر، لأنه بعـد شربه لجرعـة واحـدة يصبح مجنوناً، وأول رجل يقاتله هو الحاج الذي أعطاه الشراب.

والوصيـة الثـالثة عشرة: على الحاج الحفـاظ على الحمار الذي تسلمـه أولاً من سائقـه، وعليه عـدم تغييره أو مبادلتـه بحمار آخر، إلا بمـوافقة

السائق، وإلا فسينجم عن ذلك اضطراب.

والوصية الرابعة عشرة: على الحجاج من أصل نبيل عدم الافصاح عن نبالتهم أمام المسلمين، لأن هذا عملاً غير حكيم، ولايجوز فعل ذلك لأسباب كثيرة.

والوصية الخامسة عشرة: ينبغي أن لايضع أي حاج على رأسه عمامة بيضاء، أو يلف قطعة قماش أبيض أو منديل حول رأسه في حضور المسلمين، لأنهم يعدون أنفسهم وحدهم يمتلكون امتياز فعل ذلك، وهي علامة يتميزون بها عن الأمم الأخرى، كما أنهم لايتحملون رؤية مسيحيين يرتدون أردية بيضاء، مع أن ذلك معاكسا لعقيدتهم الواردة في القرآن، حيث غالباً ماأطلق على المسيحيين اسم «ذوي الأردية البيضاء» (كذا) وكلما جاء ذكرهم فيه قيل هم «اللابسين للبياض»، وذلك حسبما قرأنا في ترجمة القرآن التي عملها نيقولاكوسا Cusa ، ذلك أن المسلمين يتصرفون على عكس تعاليم محمد (صلى الله عليه وسلم)، وقد تبنوا ثانية كثيراً من العادات التي اعتادوا على استخدامها في أيام الوثنية، مثل مايتعلق بقضية الألبسة، ذلك أن يرتدون ملابس خنثوية لايتميز الرجال فيها عن النساء، مثلما نقرأ أن الملكة سميراميس قد لبست في الماضي القديم، عندما زحفت ضد البكتريين Bactrians ، وهي في الوسط بين رجالها المسلحين، وقد لبست ذلك حتى لايعرفها أحد فيما إذا كانت امرأة أو رجل، وهذه العادة ماتزال متبناه في الشرق، ومثل هذا كان من طرائق الكفار أن يلفوا رؤوسهم بالأقمشة، مثلما نقرأ بأن ذلك قد فعله دايونيسوس Dionysus ابن سملي Semele ، الذي كان مدمنا على الشراب والرفاهية، حيث كان كلما أصيب بصداع بعد السكر، اعتاد على ربط رأسه ولفه بعمامة، ومن ذلك نال اسم Mitrophoros ، وقلد محمد (ﷺ) دوما شارب الخمرة ذاك، بأن لف رأسه بعمامة، لكن بعدما حرم

الخمرة ...(١) تبنى عمامة للرأس لها شكل الكرة، وترك ذلك عادة لأتباعه، ذلك أنهم يسيرون في هذه الأيام وهم يلبسون هذه الكرات من القماش على رؤوسهم، وكأنها تيجان، ولايسمحون لنا بأردية رأس بيضاء.

والوصية السادسة عشرة: لايجوز لأي حاج حمل خناجر أو أي شيء آخر معلقاً من حوله، خشية أن تسلب منه، كما لايجوز له حمل أي نوع من أنواع السلاح.

والوصية السابعة عشرة: إذا ما أقام حاج صداقة مع أي مسلم، عليه أن يكون حذراً في عدم الوثوق به كثيراً، لأن المسلمين خونة، وعليه أن يكون متنبها بشكل خاص فلايضع يده على لحيته مزاحاً، أولمس عمامته، لأن هذا الشيء يعدّ إهانة بينهم، ويتم تناسي جميع المزاح، ويعدّ ذلك تهديداً، ويتحول إلى غضب، وبشأن هذه الحقيقة، كان لي أنا الراهب فيلكس فابري تجربة.

والوصية الثامنة عشرة: يتوجب على كل حاج أن يحرس بعناية مقتنياته، وأن لايدعهم ملقى بهم من حوله في أي مكان فيه مسلمين، وإذا حدث هذا فإن هذه المقتنيات سوف تختفي، مهما كانت.

والوصية التاسعة عشرة: إذا كان لدى أي حاج قارورة من الخمرة، ورغب أن يشرب منها، عليه إخفاء القارورة والشرب منها بشكل سري إذا كان المسلمون حضوراً، وعليه أن يسأل رفيقه بالوقوف أمامه، أو أن يغطيه بردائه، وبذلك يمكنه أن يشرب دون أن يرى، ولأن شرب الخمرة محرم عليهم، فإنهم يحسدوننا عندما يروننا نشرب منها، ولهذا يقومون —إن استطاعوا — بإزعاج الذين يشربون.

(١) أورد الرحالة هنا بعض العبارات النابية فأسقطتها، وواضح عدم استناد روايته إلى أي توثيق.

والوصية العشرين: يتوجب على كل مسيحي عدم التعامل مالياً مع المسلمين، إلا في الشؤون التي يعرف أنه لن يخدع بها، لأنهم يبذلون جهدهم لغشنا، ويعتقدون أنهم يخدمون الرب بخداعنا وغشنا (كذا) وفوق كل شيء، على الحاج أن يكون حذراً من اليهود الألمان، وأن يحترس منهم، ذلك أن هدفهم الوحيد في الحياة هو خداعنا وسرقة أموالنا، وعليه أيضاً أن يكون حذراً من المسيحيين الشرقيين لدى تعامله معهم، لأنهم ليس لديهم ضمائر، وأدنى من اليهود ومن المسلمين، ويقومون بخداع الحجاج إذا استطاعوا.

والوصية الحادية والعشرين: عندما يعقد الحجاج مواثيق مع مسلمين، عليهم عدم الاختلاف معهم، ولا الإقسام لديهم، وأن لايكونوا غاضبين معهم، لأنهم يعرفون هذه الأشياء مضادة للديانة المسيحية، وعندما يرون أي شيء من هذا النوع يصرخون على الفور: «أنت مسيحي سيء»، ذلك أنهم جميعا يمكنهم قول هذا بسهولة بالايطالية أو بالألمانية، وكلما أظهر أي حاج أي سوء، يلقون باسم «مسيحي» بين أسنانهم، وكأنهم مقبلون على الاستشهاد بالنص الذي قاله القديس أوغسطين حول العقيدة المسيحية، حيث تساءل: «كيف لايمكنه أن يقول عنك مسيحي، الذي لايتصرف مثل مسيحي؟ فالمسيحية اسم يعني تطبيق العدالة، والجودة، والأمانة، وطول المعاناة، والفضيلة، والحكمة، والتفرد، واللطف، والبراءة، والتقوى»، ولذلك على الحاج أن ينتبه لنفسه حتى لايجلب العار على مثل هذا الاسم النبيل مضافاً إلى اسمه الشخصي.

والنصيحة الثانية والعشرين: على الحاج الانتباه إلى عدم الدخول إلى المساجد، أي أماكن العبادة لدى المسلمين والاعتكاف، ذلك أنه لو وجد هناك، لن ينجو مطلقاً من دون أن يتعرض للأذى، هذا إذا نجا بحياته، ولقد جرى بحث هذا الموضوع بشكل مطول في الورقة ٢٦١ وفي

الصفحات التالية.

والنصيحة الثالثة والعشرين: على الحاج أن يكون حذراً بشكل خاص من الضحك للاستهزاء من مسلم يصلي ويقوم بالسجود المطلوب في عقيدته، لأن المسلمين لايمكنهم تحمل هذا مطلقاً، لأنهم هم أنفسهم يتمنعون من الاستهزاء بنا والضحك علينا عندما نكون في صلاتنا.

والنصيحة الرابعة والعشرين: إذا ما أبقي حاج مدة أطول مما رغب في الرملة، أو في أي مكان آخر، عليه تحمل ذلك صابراً، وأن لايظن أن ذلك غلطة الأب المسؤول، بل غلطة المسلمين، الذين يفعلون مايرضيهم في هذه المسائل، وليس ماهو موائم لنا.

والنصيحة الخامسة والعشرين: ينبغي على الحجاج أن لايتذمروا من دفع المال لانقاذ أنفسهم من المنغصات الكثيرة التي تلحق بهم، إنما عندما يتوجب دفع المال، عليهم أن يدفعوا دون مناقشة وعلى الفور، هذا ولايحتاج أي واحد لدفع مال إلى سائق حماره، لأن هذا كله قد دفع من قبل القبطان، مالم يقدم أي واحد، صدوراً عن كرم منه بإعطاء سائقه بنساً لشراء علف لحماره، مع أن ذلك ليس متوجباً عليه فعله.

والنصيحة السادسة والعشرين: على الحاج دفع شيء ماإلى الحافظ لدار الضيافة التي نقف بها، من أجل ترميم البيت، والحيلولة دون خرابه.

والنصيحة السابعة والعشرين، وهي النصيحة الأخيرة: على الحجاج إظهار الاحترام نحو الدير الفقير العائد لرهبان جبل صهيون في القدس، فبمساعدة هذا الدير يجري توجيه الحجاج وإرشادهم في داخل الأرض المقدسة وخارجها، وينبغي بمساعداتهم رعاية هذا الدير ومساعدة الرهبان الذين فيه، والذين يسكنون بين المسلمين، لتقديم الراحة للحجاج، وهم على استعداد لخدمة الحجاج، وفقا لقدراتهم،

وســائلهم، إلى حــد الارتماء بأنفسهـم تحت أقــدامهم، إذا كــان ذلك ضروريا، وإذا لم تتم معاملة أي حاج وفقاً لرغبـاته وحاجاته، عليه عدم لوم الرهبان بسبب ذلك، لأنهم إذا ماأرغموا على اشباع كل حاج بالخبز والخمرة، سيكون الوضع أنه بعد مغـادرة الحجاج سوف يجدون أنفسهم بلا مايمكّنهم من العيش، وهم —على كل حال— على استعداد لرعاية مـرضى الحجاج بكل مـايمكن والسهـر عليهم وإنعاشهم، ومعـاملتهم بالاحسان أثناء مرضهم.

وتمت قـراءة هـذه النصـائح للحجـاج بصـوت مـرتفع، في كل من اللاتينية والألمانيـة، والآن بما أن القداس قد طال أكثـر من اللازم، صار المسلمون الذين أبقيـوا معزولين في الساحـة الخارجية بلا صبر، وضربوا على البـاب بالحجـارة، وكأنهم يريدون تحطيمـه، وصعـد آخـرون فـوق سطح البيـت وتطلعـوا على الســاحـــة، حيث كنا، وهـم يضحكون ويصرخــون، وقمنا نحن الذيـن أزعجنا هذا، بالنظر بـدورنا إلى هؤلاء الشباب بمـلامح جادة غاضبـة، وأشرنا إليهم بالنزول، وعندما رأوا أننا كنا جـاديـن، أوقفـوا صخبهم، وابتعـدوا واحـداً تلـو الآخـر، وأكملنا القداس كله بسـلام، وكان الوقت وقتهـا حوالي الظهيرة، ولذلك فتحنا البـاب، وخرجنا إلى سـاحتنا، التي وجدناها مليئة بالمسلمين، واليهـود، والهراطقـــة، والمسيحيين الشرقيين، مع أشيـــاء متنـوعـــة للبيع، وبشكل خاص الأطعمة، فهناك وجدنا فراريج مطبوخة وطيوراً، وحليباً مطهواً، ومعجنات مصنوعة من الدقيق، ورزاً مطبوخـاً بالحليب، وأرغفة رائعة من الخبز، وبيضاً، وعناقيد من أحلى العنب، ورمـاناً، وتفاحاً، وبرتقالاً، وبطيخـاً، وليموناً، وتينـا من كل مُن الحجم الصغير والكبير، وحلويات من اللـوز والعسل، وتين جــاف، وبعـض المربيـــات بالسكـر، واللوز، والتمـر، والماء البـارد، وجلب أحـد الناس قـوارير مصنوعـة من الجلد مليئة بشراب مصنوع يستخدمـه السادة العظام من المسلمين عـوضاً عن

النبيذ، وبناء عليه شربنا الأطعمة التي راقت لنا وأكلناها في المكان الذي نمنا فيه.

وبعد الغداء في ذلك اليوم، قام كالينوس الأصغر، الذي اسمه الفحل، بقيادتنا للقيام بجولة في أرجاء مدينة الرملة، وأخذنا إلى شوارع التجار، وهناك رأينا كثيراً من المصنوعات الثمينة، ومسجداً عظيماً، وذهبنا إلى حمام ساخن، استحم فيه كثير من الحجاج برفقة المسلمين، وهذا الحمام الساخن، مثله مثل جميع حمامات المسلمين، قد بني بشكل رائع، وبطريقة بارعة، وهو قائم بين أربعة أبراج، وتأتيه الحرارة من الأسفل، وتمر عابرة على طول البلاط المعمول من رخام مصقول جميل من ألوان متعددة، ولسوف نجد كثيراً حول الحمامات الساخنة العائدة للمسلمين، وفيما إذا كان أمراً قانونيا بالنسبة للمسيحيين الاستحمام برفقة المسلمين، ومسائل أخرى، متعلقة بهذا الموضوع في القسم الثاني، وهكذا بعدما رأينا المدينة رجعنا إلى موضعنا، وعندما صار الوقت متأخراً، أخرجنا جميع التجار، وأغلقنا باب البيت، وأعددنا أنفسنا للنوم.

وفي اليوم العاشر، الذي كان يوم عيد «الأخوة السبعة»، استيقظنا باكراً جداً في الصباح من أجل القداس، وكان ذلك قبل شروق الشمس، وقبل استيقاظ المسلمين والتجار، وأقمنا مذبحاً في ساحتنا، وأقام واحد من الرهبان القداس، وبعد القداس أخبرنا بأن علينا إعداد أنفسنا لزيارة كنيسة القديس جرجس في اللد، وهذه الكنيسة قائمة فوق المكان الذي استشهد فيه ذلك القديس.

ولم يستطيعوا في حجي المتقدم أخذنا إلى هناك، لأن البدو العرب كانوا قد نصبوا كميناً في الوادي، وكانوا ينتظروننا حتى نقدم، فيسلبوننا، وعندما بتنا جاهزين، غادرنا المدينة، مثلما دخلناها، ووجدنا خارج المدينة حميرنا مع سائقيهم، وهنا ركض كل انسان بين قطيع

الحمير يصرخ بصوت مرتفع لسائقه، وكنت أصيح «جلاله قصه، جلاله قصه»، وصاح آخرون بأسماء أخرى تبعاً لتعدد أسماء سائقيهم، وهكذا امتطينا حميرنا، وانطلقنا مسرعين نحو اللد، التي تبعد نحو ميلين ايطاليين عن الرملة، ووصلنا إلى ديوسبولس، التي تعرف أيضاً باسم اللد، أو الليدا، والتي كانت فيما مضى من أيام مدينة كبيرة، لكنها تعرضت للدمار على أيدي المسلمين، وهي الآن مجرد قرية صغيرة، وذهبنا إلى المكان الذي فيه استشهد القديس جرجس مع انفعالات مختلفة، وقبلنا المكان بتقوى عظيمة، ولمسناه بمجوهراتنا، وتلقينا هنا سبع سنوات غفران (+)، ورأينا هنا بحزن عميق خرائب كنيسة جميلة جداً، كانت عالية وواسعة، وهناك جانب من السدة مايزال باقياً، لكن الأقواس والسقف كانوا قد سقطوا هناك، وفي السدة موضع استشهاد القديس جرجس، وهناك مصباحان مشتعلان بشكل دائم، حيث يجري تزويدهما بالوقود من قبل المسيحيين الأرثوذكس الذين يقيمون في القرية، وكان الجزء المتبقي من الكنيسة قد فصل من عند السدة بجدار، وأقاموا في ذلك المكان مسجداً جميلاً تشريفاً لمحمد (صلى الله عليه وسلم)، وقد زينوه ببرج مرتفع، وقام الباب في مواجهتنا، ولذلك كان بامكاننا أن نرى مافي صحن المسجد، ومافي المسجد نفسه، وكان يشبه الجنة لنظافته ولجماله.

وكان القديس بطرس قد شفى في هذه المدينة عيناس، وقام بالوعظ والتبشير هنا أيضاً، حسبما نقرأ في الاصحاح التاسع من أعمال الرسل، وفي الأيام التي كانت فيها البلاد بأيدي الصليبيين، كانت هذه مقر كرسي أسقف، وهنا كانت تقام صلوات ربانية كثيرة، وإلى جانب هذه المدينة رأينا جبل مودين، الذي كانت عليه مدينة عائدة للرجال الشجعان من المكابيين، وهناك أيضاً جرى دفن متاتياس (كذا) وأولاده، وكنت قد أتيت على ذكر قبورهم في ص ٣٢٢، ويبدو أن هذه المدينة،

كانت هي اللد، التابعة لسبط نفتالي.

وعندما فـرغنا من اللد، رجعنا إلى الرملة من أجـل الغـداء، وأكلنا هناك، وبعـد الغـداء وقفنا مستعـدين من أجـل الانطلاق، لكن لا القبطانين، ولا الترجمان، ولا الحكام ظهروا بيننا، ذلـك أنهم كانوا طوال ذلك اليوم قـد جلسوا في قـاعة مغلقة عليهم، يتـداولون مع بعضهم في اجتماع سري، ويتجـادل أحدهـم مع الآخر، ذلك أنهم كـانوا خـائفين، فضـلاً عن هذا لقد سمعنا بأن البـدو العـرب، كانوا قـد نشروا أنفسهم حول الطـرقات التي تؤدي إلى القـدس، ومعنى هذا أنه لم يكن بامكاننا الوصـول إلى القـدس من دون ابعادهم، فـالرب قـد قضى بوقـوع هذا الوباء وبنزوله على هذه الأرض وعلى جميع البلدان التي من حولها، لأن الأعـراب قوم عـراة، وتعساء وأشقيـاء وأناس جوالون، وهم وحـدهم لديهم القـدرة على العيش في الصحـراء، التي هي غير قـابلة للسكن من قبل الآخـرين جميعاً، وهـم يهاجمون، ويستبيحون، ويغلبـون جميع الناس سواء، حتى الملك نفسـه، الذي هو السلطان الأعظم لمصر، وعن هؤلاء الأعراب سوف أتحدث بشكل مطول كثيراً، فيما يلي في مكان آخر.

وهكذا حـدث أنه في الوقت الذي كان فيـه قبطانينا والسادة المغـاربة يتشارون فيما بينهم، وقفنا هناك في السـاحة المكشوفـة في صخب شديد، لأن الساحة كانت مليئة بالتجار، وكانت هناك فوضى كبيرة واضطراب عظيم، لأن المسيئين من المسلمين من الشبـاب والشيـوخ، قـد اجتمعـوا هناك مع بعضهم، لمضـايقتنا، وقـد وقفـوا أمـامنا، وكـانوا ينظرون إلينا ويصغون إلى كلامنا.

وفعلوا هذا بشكل خاص إلى الذين لاحظوا أنهم كـانوا انفعاليين، أو إلى الذين ضحكوا استهـزاء نحو ألاعيبهم، ولسـوف يكون من الصعب بالنسبـة لي اخبـاركم عن جميع الألاعيب المزعجـة التي مـارسهـا هؤلاء الشبـاب من المسلمين، فمن بين أشيـاء وقعت قيام واحـد من الشبـاب

المزعجين باجلاس نفسه عند قدمي حاج نبيل، الذي كان رجلاً جاداً ومحترماً، ونظر من حوله ليرى فيما إذا كان يمكنه إيجاد أي انسان يساعده في لعبته، والتفت أخيراً نحو الرجل الذي جلس عند قدميه، وأمسك قدمه وشدها، وفكر الفارس أولاً أنها كانت نوعاً من المزاح المزعج، فسحب قدمه وأرجعها وكأنه لم يهتم به، لكن الفتى وقد وجد نفسه قد عومل بازدراء، أمسك بالقدم الأخرى وشدها، محاولاً قلبه على قفاه، إنما في أثناء شده لرجل الفارس بقوة، أصبح هذا الأخير غاضباً، وقام بالقدم التي كان قد شدها أولاً، فرفس المسلم بعنف كبير في معدته، جعل بها الفتى يترك قدمه التي كان يشدها، ويسقط على الأرض، رأسه على عقبيه، ويتدحرج مثل كرة في وسط الساحة المبلطة، ثم إنه نهض وهو عظيم الاضطراب، وغادر المكان، وكنا خائفين كثيراً تجاه ماحدث، وخشينا من أن يثير الناس لمهاجمتنا، لكن مامن أذى نتج عن ذلك.

وقدم إلى الساحة فتى آخر من العابثين، ووقف أمام وجه واحد من الحجاج، وكان يقوم ببعض حركات لوي أصابعه بمقاصد سيئه، الأمر الذي لم يستطع الحاج تحمله، فضرب يدي العابث بشدة بيديه، وكسر اصبع الداعر التي لعب أثناء لويه لأصابعه، وعندما رأى واحد من المسلمين المسلحين هذا، صار شديد الغضب، واندفع لمهاجمة الحاج، ولولا أنه أخفى نفسه لألقي به في السجن، لأن ذلك الرجل المسلح وقف مع أتباعه لوقت طويل هناك ينتظر، آملاً بإمساك ذلك الحاج في بقعة مناسبة، لكن ذلك الحاج لم يتحرك من مكان اختفائه.

وينبغي أن أحدثكم عن أمر آخر وقع لنا، فقد قام حاج نبيل بالتصرف كما كان يجري منذ زمن طويل، فرسم رنكه ورنوك أتباعه على جدار، كان بديعاً جداً وجميلاً، وماأن أنهى عمله هذا، الذي استغرق منه عدة ساعات طوال، حتى ركض واحد من المسلمين ويده مليئة

بالقــاذورات، فلـوث الصــورة بشكل مهين، ومضى في طـريقــه وهو يضحك، ولدى فعله هذا أصبح النبلاء على درجة عظيمة من الغضب، ولعنوا ذلك الشاب، لكن مامن واحد منهم تجرأ على أن يضع يده عليه، مع أنه لو فعـل مثل هذا في بلادنا لجرى تمزيقـه إلى قطـع، ولقـد تحملنا كثيراً من المنغصــات المماثلة بطبيعتهــا في تلك المدينـة، ومع ذلك لقــد عـوملنا بشكل أفضل ممـاحـدث وعـوملنا به في حجي الأول، لأنهم في ذلك الحين، اعتقلوا قبطاننا، بعـدما أحضروه مـن يافا، وألقـوه بالسجن أمـام أعيننا، وتركوه مغلولاً هناك، قـائلين بأنه لايمتلك السلطة لجلب حجاج إلى البلاد، وأننا قـدمنا إلى هناك من دون جواز، ولذلك يتوجب علينا دفع جزية مضاعفة، وإذا لم نفعل ذلك، فسوف لن نشاهد القدس، بل تتـوجب عــودتنا إلى غليـوننا، وعلينا أيضـاً لتسرعنـا بالدخـول إلى البلاد، دفع مال سيكون قدره وفقـاً لقرار السادة المغاربة، وبقينا بالرملة لمدة أربعـة أيام في هذا التأخير، الذي لم يكن بامكاننا تفسيره بسـوى أننا على وشك الإعادة إلى غليـوننا، وأننا لن نشاهد الضريح المقـدس لربنا، ولكم كان الأسف والاضطراب الذي شعرنا به في قلوبنا عظيماً، وأخيراً جرى اقتيادنا إلى البقاع المنشـودة، وهكذا انتهى الموضوع، ودعوني أعود الآن إلى سياق روايتي.

وعند حلول المســاء، جاء واحــد من خدم القبطانين، وقـال ينبغي أن نغـادر مبـاشرة، ولهذا حملنا حقـائبنا، وخـرجنا من غـرفنا، وجلسنا على مقربـة من باب دار ضيافتنا، ننتظر حلول الوقت لانطلاقنا، وبعـد مضي سـاعة من الوقت، جـاء إلى هناك واحـد أخبرنا بأن بعض المسلحين من المماليك قد وصلوا للتو إلى هنا من القـاهرة، ونظراً لقدومهم لن يتمكن قادتنا من مغادرة المكان هـذه الليلة، ولهذا علينا العودة بهدوء إلى غرفنا، وعندما سمعنا هذا عـدنا إلى غرفنا بمشاعـر سيئة، وهنا عندما أردنا أن نجلس كما فعلنا من قبل، وجدنـا أن جميع الحصر التي اعتدنا أن نجلس

عليها ونتمدد قد ذهبت ذلك أن المسلم الذي شريناهم منه مقابل مبلغ كبير من المال قد أخذهم، لذلك أرسلنا خلفه وطلبنا منه إعادة حصرنا، لكنه رفض ذلك رفضاً مطلقاً، مالم ندفع له من جديد، قائلاً بأنه باعنا إياهم فقط للاستخدام حتى نغادر دار الضيافة، وبما أننا غادرنا غرفتنا فارغة، انتهى شرط تأجيرنا لهم، لأنه لم يكن متوقعاً عودتنا إلى الدار، وجرى نقاش عنيف مع هذا المسلم، الذي كان غاضباً جداً، وغالباً مابصق علينا أثناء خصامنا معه، وبناء عليه أقمنا في غرفتنا من دون حصرنا، لأننا لم نرغب في تشجيع جشعه باعطائه بنساً واحداً، فهو كان على استعداد لإعطائنا إياهم مقابل بنسات قليلة، غير أننا طلبنا منه المغادرة، وعندما جاء الليل، بقي بعضنا في الغرفة، ونام هناك على الأرض العارية، وذهب بعضهم وصعد إلى السقف المقبب للبيت، حيث نام المقدم كالينوس وبعض المسلمين، وهناك أعددنا أنفسنا للنوم فوق البلاط في الهواء الطلق، وقد بنيت البيوت في الشرق مع شرفات على سطح البيوت، لذلك عندما تغيب الشمس يصعد الناس إلى هناك للتمتع بالبرودة، وهناك يعملون، ويأكلون، ويضعون فرشهم وينامون، لكن عندما تكون الشمس مشرقة يعيشون في الأسفل تحت القناطر، وفي الظل.

وهكذا تمددنا على سطح البيت، لكن من المؤكد أننا لم نحصل على الراحة التي طلبناها، بسبب صراخ المسلمين الذين اسمهم السقائين Soquis الذين صرخوا وغنوا وفق طرائقهم حتى حدود منتصف الليل، ومثل هذا الذين وقفوا على الأبراج (المآذن) وصرخوا هناك، وبأيديهم مصابيح مضاءة، وأبراجهم هذه طويلة ومستديرة، يقف عليها رجال الدين المسلمين، ويقومون بالعمل الذي يؤديه الناقوس، وعملهم عمل ديني تماماً، وسوف أتناول هذا الموضوع المتعلق بواجباتهم وشعائرهم بتوسع كبير في الورقة ٩٤ من القسم الثاني، وكانت هذه

الليلة احدى ليـالي أعيادهم، ولذلك صرخوا أكثـر مما هو معتاد، وهكذا أمضينا تلك الليلة.

وفي اليـوم الحادي عشر، الذي كـان يوم عيد بروكـوبيـوس المعترف، استيقظت قبل اشراق الشمـس، وأديت صلواتي فـوق قنطرة أعلى من التي نمت فـوقهـا، حيث جلست على السطح المحـدب لأعلى الغـرف، الذي منه كان يمكنني رؤية النائمين من حولي، وعندمـا أضاءت الدنيا، استيقظ المسلمـون وطووا فرشهم، وأعـدوا مـلابسهم، ثم حنوا ركبهم تعبـداً، وصلوا بشكل جـاد تمامـاً، وقـرأوا صلواتهم بنغمـة مثل الزئير، وأيديهم متشـابكة، ثم كانوا يقفـون، وقد سجـدوا مراراً حيث لامسـوا الأرض برؤوسهم وكـانوا يمكثون وقتـاً قليـلاً في سجودهم، ثم كـانوا يقـومـون ثانيـة، وينظرون نحـو الأعلى إلى السماء، وقـد صلوا جميعـاً في وقت واحـد، وبطريقة واحـدة، وكأنهم رهبـان طائفـة واحدة، وعندمـا كانوا يفرغون من صلواتهم، كانوا يذهبون —كما اعتادوا— إلى أعمالهم، وأقيمت هذه الصـلاة ذلك الصبـاح في الرملة، ومثـل ذلك أقيمت في أماكن أخرى، واستيقظ الآن حجـاجنا بعد اشراق الشمس، وبدأوا على الفور بـالحديث والضحك أحدهم مع الآخـر، دون أن يقدمـوا الصلاة على ذلك.

ولذلك جلست هناك وقارنت بين ماقـام به الفريق الأول وبين ماقام به الفـريق الثاني، وأصبحت حـزيناً، ومنزعجـاً في قلبي، برؤيتي أولئك الضالين والأناس الضائعين تماماً يقـومون بأداء صلواتهم بجدية ومهابة، مع أنهم يثيرون غضب الـرب ضـد أنفسهم، لـدى عـدم تقـديرهم القـديسين والملائكة وجميع الحشـد السماوي، وهذا مـايفعلونه بأدعيتهم التجـديفية، بينما نحن المسيحيين أكثـر الناس تعاسـة، وأعظمهم نكراناً، الذين أنقـذنا بدم المسيح الثمين جـداً، نقـدم صلواتنا ونؤديها بخفـة وبهجـة، وبفتـور لايمكـن وصفـه في جميع الأوقـات، وبتفكير تائـه،

وبإرهاق، ونفعل ذلك إلى الرب الحقيقي والحي، الذي منه نـأمل بإيمان ثابت بأننا سوف نتلقى النعمة والمجد، أيها السيد الرب، أية نعمة سوف تمنحنا إياها مقـابل صلواتنا القصيرة والخالية من التقـوى؟ وهل ياترى جرى تأدية صلواتنا الفاترة جداً مع أية درجة من الإيمان الصحيح، ثم مـاذا يمكنني أن أقـول؟ إنني أخشى أن عـدداً كبيراً من المسيحيين يمضون اليوم كله دون أدنى عبادة للرب، أو دون أية صلاة له، الأمر الذي لايمكن حدوثه بين المسلمين، أو الأتراك، أو البرابرة، أو اليهود، أو البداة العرب، لأن جميع هؤلاء الكفار لديهم توجه ثابت وطريقة معلومة للصلاة، لايفارقونها في أي حال من الأحوال مالم يرغموا بالقوة على فعل ذلك، ومن أجل رواية كاملة عن صلواتهم وصيامهم انظر الورقة ٩٤ من القسم الثاني، مع أن مقارنتي المتقدمة بينهم وبيننا أنفسنا، أعطتني الفرصة للحديث عنهم في هذا المكان.

وعندما أشرقت الشمس، ولم نر اعدادات لانطلاقنا، عدنا إلى غرفنا، واشترينا طعاماً وأكلنا هناك، وبينما نحن جلوس هناك جاء إلينا مسلم فقير وتعيس، يحمل برتقالاً وعنباً في سلة ليبيع لنا، وجلس على الأرض ومعه سلته إلى جانبي، وأخذنا بعضاً من فواكهه، وأعطيناه خبزاً مع الذي بقي من لحمنا، فأكل ذلك مثل انسان جائع، وقد وضع على رأسه قبعة حمراء مع اللفة العائدة للمسلمين، والآن وقد بدا لي انساناً بسيطاً جيداً، أخذت قبعته من على رأسه، وبينما أنا أنظر إليها تظاهرت بأنني مصاب بالاقياء، وأنني أعاني من الدوار، وقمت بصرف رأسي وإبعاده عن القبعة التي أمسكتها بيدي، وكأنني أريد أن أتقيأ لكراهيتي لديانة المسلمين، وبصقت على قطعة القماش التي كانت ملفوفة حول القبعة، راغباً في أن أرى ما الذي سيقوله أو يفعله تجاه ذلك، وقام هذا المسلم —على كل حال— بالنظر من حوله في جميع زوايا الغرفة، وعندما لم ير من يخاف منه، انتزع قبعته، وجمع بصاقه في فمه، وبصق على اللفة

الاسلامية الموجودة عليها، ولعن العمامة، وعمل شارة الصليب بوضع سبابته اليمنى فوق اليسرى، وقبل علامة الصليب هذه التي عملها فوق يده مع كثير من الدموع، وقال أشياء كثيرة لنا لم نستطع فهمها، والذي فهمناه تماماً بأنه كان مسيحياً، وأنه أرغم على التخلي عن عقيدته، وأنه لم يكن مسلماً عربياً، بل كان مملوكاً مسكيناً، وبعد ماتغدينا بقينا في غرفتنا بهدوء، وفي الظل، وسمعنا الآن بأن أحدهم كان يعمل على الجدار الأول من جدران غرفتنا بأداة معدنية، من الخارج، وكأنه يريد أن يخرق الجدار ويمر منه، ولم نهتم بذلك، ولم نتوجس منه أي خطر، وأخيراً فتحت ثغرة بالجدار بانتزاع حجرة واحدة منه، وكان على الطرف الآخر من الجدار نساء مسلمات فتحن الثغرة حتى يتمكن من رؤية الحجاج من خلالها.

وعندما نظرن إلينا، ابتسم لهن بعض الفرسان، وقالوا بالاشارات والايماءات مالم يستطيعوا قوله بالكلمات، لكن واحداً من رهبا ن الفرنسيسكان رأى هذه الثغرة، وكان الأب المسؤول قد بعث به ليقوم بجولة على غرف الحجج، فعندما رأى ذلك قام على الفور فجلب ملاطاً وقام ببناء الثغرة، وأقسم بالرب، بأن المسلمين لو شاهدوا ذلك لتولوا تعذيب الحجاج جميعاً تعذيباً مرعباً للغاية، لأنهم غيورين بشكل مخيف، ويجتمعون كلهم مع بعضهم من دون مناقشة للانتقام من أي اعتداء على شرفهم، وفي الحقيقة بدت النساء المسلمات أنهن شهوانيات كثيراً، لأنه عندما كان بعض الفرسان الشباب يمشون وينظرون من حولهم وهم على سطوح البيت، رأوا ثلاث نساء واقفات في بيت آخر، وقد عملن اشارات لهم للنزول إليهن، ولست أدري أفعلن ذلك صدوراً عن شهوة، أو — وهو ماأعتقده— صدوراً عن نية تآمرية وشريرة، وعلى كل حال كان الخطر هو نفسه، ذلك أن القانون هو: إذا ماعثر على مسيحي يتسامر مع امرأة مسلمة، كان يعطى الخيار، إما بالتخلي عن

إيمانه، أو مواجهة الموت، وليس هناك خيار وسط بين هذين الخيارين.

وفي الوقت نفسه مرت ساعة تلو ساعة، ونحن وقوف بدون حركة هناك ننتظر بتشوق إلى الانطلاق، لأن المزاح والاهانات الصادرة عن الشباب ازدادت سوءاً كل ساعة، ورأينا أن المزيد من التأخير سيكون خطيراً علينا، لأن حاجاً بعد حاج خرجوا عن طورهم وفقدوا صبرهم بسبب الاهانات التي تلقوها، وضرب أحدهم طفلاً سيئاً، ضربة خفيفة، لأنه كان يرمي حجارة عليه، ولذلك بكى هذا الصبي، ولدى سماع صوت بكائه ركض المسلمون مع بعضهم مثلما يركض الخنازير مع بعضهم للدفاع عن رفيق نخر إليهم، ولم يستطع الحاج الذي ضرب الصبي الحصول على السلام، حتى أسكت الصبي الباكي بالمال، وفي الحقيقة كان الأطفال الأشرار في الرملة أسوأ من أطفال أي مكان آخر أقام فيه الحجاج، فهناك لم يكن مسموحاً أن يرد الانسان الضربة بالضربة، ولهذا خشية منا أن نقع في المخاطر خفنا، فذهبنا إلى القبطانين، ورجوناهما بحرارة أن يقودانا إلى خارج ذلك الأتون المحرق، وقد وعدانا بالانطلاق في غضون ساعة من الزمان.

فيمايلي:
وصف موجز لمدينة الرملة

راما أو الرملة مدينة واقعة بين فلسطين واليهودية، على حدود منطقة فلسطين، ومنطقة اليهودية، وذلك في حصة سبط يهوذا، وهي قائمة فوق رابية، ولهذا السبب حملت اسم راما الذي معناه المرتفع، ولهذا ليس هذا الموقع فقط بل كثيراً من المدن الأخرى في الأرض المقدسة، ممن بني فوق أماكن مرتفعة، أطلق عليه اسم راما، وهناك ، على كل حال، في كثير منها فوارق في نهاية الكلمة، وهكذا لدينا من راما: راماثا، وراماثيم، وراماسي، وراموث،ورامولا، وأرماثا، والرملة هذه التي أنا

بصدد الحديث عنها، غالباً ماورد ذكرها في الكتابات المقدسة، وفيها هنا ولد صموئيل المقدس، وهي حتى الآن مدينة مكتظة السكان، وأكبر من القدس، وفيها سبل العيش ميسرة لكثير من التجـار، لكنها ليست جيدة الدفاعات بأسوار من حـولها، مثل مدن اسلامية كثيرة أخرى، ذلك أنها بلا أسـوار، وهناك كثير من المساجـد فيها ومن حـولها، وهي قائمـة في وسط مكان بديع جداً، وخصب، وكل شيء هناك رخيص تماما، وحلو، وفـائـق الجودة، إلا الناس، الذين هم أكثـر الناس شروراً في تفكيرهم، ويحملون كـراهية خـاصـة نحو المسيحيين، ويسكن هناك عـدد كبير من السودان الأشرار، والمغـاربة، مع أناس آخرين مـن دون فهم، ولقد ورد ذكر هذه المدينة في سفر الملـوك الثالث (الأول) — الاصحاح ١٥، وفي الاصحاح الثاني من انجيل القديس متى.

مغادرة الحجاج للرملة إلى المنطقة التلية لليهودية

عندمـا جاء المساء في يوم عيـد القديس بـروكوبيوس، أعـددنا أنفسنا لرحلتنا، وخـرجنا من دار الضيـافـة وفـق النظام نفســه الذي دخلنا به، ونحن نحمل أطواقـاً مكتـوبة حـول أعناقنا، ولدى مـرورنا من خـلال البلد، ركض الناس مـع بعضهم من جميع الأطراف، وكـانـت الشـوارع مليئة بالناس من الجنسين معا، الذين وقفـوا هناك راغبين برؤيتنا، وكان هناك حشـد كبير، وقـد ثار هناك غبـار كثيف من الأرض، إلى حـد أنه بات من الصعب على الانسـان أن يـرى رفيقـه الذي على جـانبـه، وإذا مارآه مـن المؤكد أنه كـان من الصعب التعرف عليـه وتمييزه، فلقـد كان الغبار كثيفـاً إلى أبعد الحدود، وتغطت قبعتي السـوداء بالغبار، حتى أنها لم تعـد بادية سوداء، بل رمـادية، ومامن انسـان كان بامكانه فتح عينيـه أوفمه إذا مااحتاج، ولقد تحملنا هـذا خلال المنطقة كلها، إلاّ في الأجزاء الصخرية، وعندما ارتحلنا في الليل.

وتوفر في الأزقة الضيقة خطر الاختناق بسبب كثافة الغبار، وفي أثناء

هذا الضيق الشديد حدث أن دفعت على جدار مسكن هناك، وكان ذلك قرب النوافذ، ولأن الحشد تحرك ببطيء شديد وتركني محصوراً هناك، نظرت من خلال النافذة إلى المسكن، ويا للعجب، وقفت في الداخل امرأة مع أطفال صغار، عملوا علامة الصليب بأصابعهم، وقبلوهم، وبذلك جعلوني أعرف أنهم أتباع الذي صلب، ولقد اعتقدت أنهم بكوا، وإنه بالحقيقة مزعج جداً، أن يكون شعب تلك البلاد، التي فيها صلب ربنا، إذا أرادوا أن يكونوا أتباع الصليب، لا يتجرأون على لبس شارة الصليب بشكل مكشوف، لأن الصليب المجيد مكروه في تلك البلاد، وملفوظ، والشيء نفسه الذي وقع للصليب المقدس، وقع للأنبياء: ذلك.أنهم بلا احترام، حتى في وطنهم (لوقا٤/ ٢٩)، ومثل هذا فإن الصليب المقدس لايتمتع بالاحترام، ولابالقبول حتى في وطنه، لكن الحجاج من الأجزاء النائية من العالم يحملون بشكل معلن، علامة الصليب، لأن نقد الصليب قد انتزع من بينهم وأبعد.

وعندما تحرك الحشد نحو الأمام، أرغمت على الابتعاد عن ذلك المكان، ووصلنا إلى خارج المدينة، وهناك وجدنا حميرنا مع سائقيهم في الحقل، وعلى مقربة منهم عساكر المسلمين، الذين كانوا سيتولون مرافقتنا وحمايتنا على طريقنا، وامتطينا دوابنا، وانطلقنا مسرعين جداً نحو الجبال، ووصلنا إلى حقل يوشع قرب مدينة بيت شمش، حيث جرى فيها قتل خمسين ألف انسان، لأنهم نظروا إلى تابوه الرب، عندما وقف هناك، وذلك حسبما نقرأ في سفر صموئيل الأول — الاصحاح الرابع، الخ.

ونصب الأعراب في هذا الحقل نفسه خيامهم، وكان هناك حوالي الثلاثمائة منهن، ولدى رؤيتنا للخيام ارتعبنا نحن ومرافقينا كثيراً، ولدى اقترابنا من الخيام، لم نشاهد أحداً فيهن إلاّ نساء على درجة عالية من التعاسة، وأطفال صغار سود عراة، وقلة من الشيوخ، لأن بقية الرجال

جميعاً كانوا يتجولون في المنطقة ينهبون ويسلبون، وهكذا مررنا من خلال معسكرهم، ولم يكن هناك من انسان رفع يده ضدنا، وحدث أننا عندما كنا على وشك دخول المنطقة التلية من خلال أحد الوديان، رأينا عند مدخل الوادي جمهوراً من الناس مع جمال وحمير وخيول، كانوا قد استعدوا للانقضاض علينا، وبالمقابل قام مرافقونا بالانتظام والاصطفاف لمقاومتهم، وكانوا مضطربين وقد امتلأوا رعباً، ذلك أنهم رأوا أن أولئك الناس كانوا لصوصاً من الأعراب، وأننا لايمكننا تجاوزهم من دون ضراب، ثم إنه لم يكن بإمكاننا الانحراف لا إلى اليمين ولا إلى اليسار، لأن طريقنا كان يمر مباشرة من وسطهم، من خلال واد ضيق.

وعندما اقتربنا منهم، وجدناهم قد وقفوا يحرسون المدخل إلى الوادي من الجانب الأول إلى الجانب الآخر، وكانوا ممسكين لهذا المدخل ضدنا، وكانوا مشهرين لخناجرهم، ورافعين لسيوفهم، وكانت رماحهم مركونة جاهزة وقسيهم مفوقة، ولا أذكر أنني رأيت أناساً قط مثلهم: لقد كانوا عراة، ولونهم أسود، أحرقتهم حرارة الشمس، وكانوا يرتدون قطع قماش لاتساوي شيئاً حول أوساطهم، وترستهم معلقة من رقابهم، وكانوا حادين، ومتوحشين، ومن المرعب النظر إليهم، وعندما نظرنا إليهم وقارناهم بمغاربتنا ومسلمينا، الذين عددناهم حتى الآن أنهم ليسوا بشراً، عددنا هؤلاء الأخيرين أناساً متحضرين وأتقياء، مثلهم مثلنا أنفسنا، وعندما رأى مرافقونا ما الذي أراد الأعراب أن يفعلوه انقضوا عليهم بعنف، وطردوهم بقوة السلاح، وفتحوا الطريق لنا، ودعونا للاندفاع بسرعة والمتابعة دون توقف، وهكذا أسرعنا مارين من خلال الفراغ الذي ترك لنا مفتوحاً، وكان أي حاج وقع بين هؤلاء الأعراب، كانوا إما يمسكونه إما من ردائه، أو من مخلاته، وكانوا يشدون ذلك حتى يتخلى عن أي منهما، ويدع الشيء يذهب، أو كان

يشد من فوق ظهر حماره، أو كـان ينقذ من قبل واحد من جماعتنا، ولهذا سقط كثير منهم مـن على ظهــور حميرهم، ولولا أنهم أنقـــذوا لتــولى الأعراب سلبهم، وكـان هناك صراخ وعويل من على الطرفين، واندفع الناس أحـدهـم ضـد الآخـر بشكل مــدهش، وكأنهم أرادوا أن ينقض أحدهم على الآخر، ويسدد الضربات له.

وفي أثناء هذا الاضطراب، وبينما هومستمر، مررنا من خلال الوادي، ووصلنا إلى التـلال، وعنـدمـا رأى أعـداؤنا هذا، تناولـوا الحجـارة من وسط الطريق، وشرعوا يرمون بها خلف مرافقينا، لكن عندما رأوا أنهم لن يستطيعـوا تحصيل شيء منا بـالقـوة، ركضـوا خلفنا، وبذل ومسكنه توسلوا إلينـا حتى نعطيهم شيئاً مــا، لكنهم لم يحصلوا على شيء كثير، وهكذا ابتعـدنا عنهم، وليس هناك مـن شك، أنهم لو كـانوا أقـوى منا، لسلبونا جميعاً، دون تنفيذ لأمـاننا الذي حصلنا عليه من السلطان، ولقد نجـونا دون أن يصـاب أي حـاج بأذى، باستثناء، بعض الذين أصيبـوا بالحجارة، وقد فقـد بعضهم جعبهم في أثناء الصراع، وبعضهم قبعاتهم، ولم يجرح أحـد، لأن الشرقيين فيهم الفضيلة التـالية وهي أنهم لايحبـون سفك الدماء.

وهكذا تـابعنا سيرنـا في هذا الـوادي الظليل، ومشينـا عبر طريـق في منتهى الوعـورة، مع جبـال صخـرية عاليـة على طرفينا، وبعـد صعـود وتسلق طويل، وصلنا إلى بـرج، كـانت هناك ميـاه قــربه قـد جمعت في بركـة، ونوينا الانتظار هنـاك حتى الفجـر لليـوم المقبل، لأن الليل كـان مظلماً، وذلك إلى جانب أن الوادي كان ملقياً بظلاله، وهكذا ترجلنا من على ظهــور حميرنا، لكن مــالبـث فجأة أن حل خــوف بين صفــوف مرافقينا، وباتوا يخشون أن يقـوم هؤلاء الأعراب بالانقضاض علينا، في أثناء نومنا، فـوقتها لن يكون بـإمكانهم الدفاع عنا في ذلك الممـر الضيق والوعـر، وبناء عليــه دعـونا لمعـاودة ركـوب حميرنـا، وأن نتـابع سيرنا

صعـوداً في الجبـال، وهكذا غـادرنا البرج الذي قـام عند سفح الجبـال، وتسلقنا فـوق ممـر منحـدر وخطير حتى وصلنا إلى حقل، فكـروا ثانيـة بالاستراحـة فيـه، لكن كنـا نحن ودوابنا عطاش، ولم يكن هناك مـاء، لذلـك تابعنا سيرنا في الغسـق، حيث لم يكن هنـاك لاشمس ولاقمـر لعوننـا، وسرنا ودليلنا فقط ضوء قبـة السماء، وأشعة النجـوم الضعيفة، ولم يكن بإمكاننا رؤية الممر، لكن كل انسان تبع سـائقه، وعندما وصلنا إلى القمـة، نـزلنا إلى الطرف الآخـر مـن الجبل، وسرنا إلى أن وصلنا إلى قرية صغيرة، حيث كان هناك نبـع ماء جيد وبارد، وهناك في حقل مليء بالحجارة تخلينا عن حميرنا وأعطيناهم إلى سائقيهم، وأجلسنا أنفسنا على الأرض، وتحلق حـراسنا مع خيولهم، وسـائقونا مع حميرهم، جميعـاً من حول الحجـاج، وبذلك أحاطوا بنا مـن كل جانب، وأشعلنا مصـابيحاً، وأحضرنا جعبنـا الخاصـة بـالطعـام الذي شريناه في الرملـة، وجلب السائقون ماء لنا، قمنا بشرائه منهم، وأحضر القرويون أرغفة من الخبز، وفواكه وماء، فاشترينا منهم مارغبنا به، وهكذا تعشينا.

وكـان هذا المكان الذي عسكرنا فيـه، وعـراً مليئاً بالحجـارة مثل الأماكن الموجـودة في الألب، والقائمـة فيما بين أولم وويزنستيغ Weis-sensteig، واختفى تحت الحجارة عقارب، الأمـر الذي لم نعرفه، حتى أرانا الضـوء إياهم، وعندما رآنا المسملون خـائفين، أخبرونا أن بإمكاننا النوم من دون خـوف، لأن العقـارب بـالحقل لاتلدغ مثل العقـارب في البيـوت، ولهذا شعرنا بـالراحة، ولم يتحـرك واحـد منا من مكانه، وفيما نحن جـالسين هكذا نريح أنفسنا، أشرق القمر أمـام وجوهنا، وشعـرنا لدى اشراقه بسرور عظيم، لأن الذين لايمكنهـم النوم يبتهجون أمام أي شيء يطرد الظلام، ويبعـد الظلال، ولم يزر النـوم أعيننا، كما لم يتمكن النعاس من اغلاق جفوننا، كما أن جباهنا لم ترغب بالراحة، مع أنه كان من الطبيعي لإرهاقنا بعد متاعبنا أن يجلب إلينا النوم، ولقد كنا مرهقين

ومتعبين، لكن النوم تخلى عنا، لأن كيـاننا كله قـد حلّ في قوى مـداركنا ومشـاعـــرنا، وابتغت نفـوسنـا شيئاً واحـداً فقط هو التحـــديق والنظر بإخـلاص من حـولنا، وعلى هذا بدت روحنا وقـد استقـرت في عينينا، واهتمت بشيء واحد فقـط هو الشعور بالمشهد، وتغلبـت انفعالاتنا على النوم، وكان ذلك لدى قراءتنا للاصحـاح الثاني والأربعين من الالهيات قـوله:«طرد التفكير النوم منهم»، لأننا كنا نتطلع إلى الغـد برغبـة حـارة جداً، عـارفين بأننا وقتها ينبغي أن نرى مدينة القـدس الجليلة، التي قال عنها طوبيـا المقدس وهو واقف على مسافـة عظيمة عنها:«سـوف أكون سعيـداً لوأن أيا من سلالتـي بقي لينظر إلى الضريح في القدس»، وقـال كـاتب آخر:«من أجل صهيـون لن أهدأ، ومن أجل القـدس لن أرتاح» (إشعيـا:٦٢/ ١)، فمن هو الذي لايرغب في رؤية المدينة المختـارة، التي نقرأ عنها في الاصحاح السادس من السفر الثاني لأخبار الأيام:«اخترت القـدس ليكون اسمي فيهـا» (أخبـار الأيام الثـاني:٦/ ٦)، لأن هذه هي المدينة التي يكون فيها الحمد وقطع العهـد للرب، حسبما جاء في المزمور الخامس والستين:«لـك ينبغي التسبيح يـارب في صهيـــون ولـك يوفى النذر»، وردد الحجاج المتشـوقين القول:«من سيمنحني أن تمر هذه الليلة وتنقضي وأن تأتي الشمس مسرعة حتى يمكننـي رؤية القدس، التي هي بهجة الأرض كلها، ومـدينة الملك العظيم، والرب الأكثر علواً»؟ آه، لو أن أحـــداً أصغى في تلك الليلة إلى صلواتنـا وحنيننا إلى اشراق الشمس ولقدوم النهار، لاحترق في داخله، كما تحرقنا شوقـاً لرؤية القدس، فلقد تمددنا على صخـور قـــاسيـة، مثلما فعل يعقـوب في الاصحـــاح الثـامن والعشرين من سفـر التكوين، وكـانت العقـارب رفـاقنا في تلك الليلة، مثلما كـانت فراخ النعـام رفاق أيوب (أيوب:٣/ ٢٩)، وفي الحقيقـة، إنه بسبب كثـرة حشود العقـارب، من اللائق أن يطلق على هذا المكان اسم تلة العقارب، مثلما ورد ذكـر ذلك في الاصحاح الخامس عشر مـن سفر يشـوع، لكن قسـاوة الصخور ولدغ العقـارب كـانت لطيفـة، وجعلت

حلوة، بالحلاوة الفائقة للقدس نفسها، المتربعة على قمم تلك الجبال، والناشرة لحلاوتها، جاعلة إياهم يقطرون حلاوة، ويفيضون بالعسل والحليب، علاوة على ذلك، طردت ذكريات ماجرى صنيعه فوق هذه الجبال المقدسة، جميع السموم منا، وجعلت قساوتهم نعومة بالنسبة لنا.

فعلى هذه الجبال سكن المكابيون بعد تدنيس الهيكل يأكلون الأعشاب بدلاً عن الطعام، بين الحيوانات المتوحشة (مكابيون:٢/ ٥/ ٢٧)، وابنة يافث، عندما كانت على وشك أن تموت بسبب نذر أبيها، طلبت منه ليس أكثر مما يلي، هو أن تترك لوحدها لمدة شهرين قبل موتها، لكي تصعد إلى جبال بني اسرائيل وتنزل منها مع رفقتها، وأن تندب عذريتها، ذلك أنها اعتقدت أنها سوف تتحمل آلام الموت بسهولة أعظم، لو أنه سمح لها بتسلق هذه الجبال المقدسة قبل أن تموت (القضاة:١١/ ٣٧)، وموسى أيضاً، الذي كان صديقاً للرب، طلب أن تكون جائزته، هو أن يسمح له برؤية هذه الجبال من حيث وقف في مناطق ماوراء الأردن (العدد:٣٤) والعذراء مريم المباركة، جعلت هذه الجبال بحجها، جبالاً مقدسة بشكل خاص، وقد تقدسوا بذلك، وعن ذلك نقرأ نحن الحجاج في الاصحاح الأول من انجيل القديس لوقا:«مريم...ذهبت بسرعة إلى الجبال» (لوقا:١/ ٣٩)، وعلى هذه الجبال اعتاد مولانا المسيح على إمضاء الليل في الصلاة، وبذلك منحهم القداسة، وخدمت هذه الجبال في القديم البطارقة. فكانت بالنسبة لهم بمثابة سور ضد الكفار، ولهذا جاء مكتوباً في الاصحاح السابع من سفر يودث:«لايعتمد بنو اسرائيل في الدفاع عن أنفسهم على قسيهم، ولاعلى الرماح، بل على الجبال التي تحميهم، وعلى التلال التي تقف أمامهم، فهذه تتولى الدفاع عنهم»، ولهذا لم يرغب الكفار بالقتال معهم على الجبال، بل قالوا:«دعونا ننهزم من اسرائيل، لأن أربابهم أرباب التلال»، وذلك حسبما نقرأ في سفر الملوك الأول:٢٠/ ٢٣، وكان

عذباً أن نقيم مؤقتا فوق هذه الجبال، وأعتقد أنه حولنا وحول حجاج المسيح الآخرين، صنعت نبوءة حزقيال منذ زمن طويل مضى حيث فيها وعد هذه الجبال بقوله:«ياجبال اسرائيل اسمعي كلمة السيد الرب... أنا جالب عليكم سيفاً وأبيد مرتفعاتكم» (حزقيال:٦/ ٢—٤)، وفي الاصحاح الخامس والستين من إشعيا قوله:«بل أخرج من يعقوب نسلاً، ومن يهوذا وارثا لجبالي» (اشعيا:٦٥/ ٩)، هذا وتتألف هذه الجبال مع بعضها من صخور عظيمة، وشعاب عالية، ذات صخور قاسية جداً، ومع ذلك بدوا ناعمين بالنسبة لنا، فقد جاء بالمزمور قوله:« صخورك مرضية لعبيدك»، ومثل ذلك صنع أيوب (أيوب:٥/ ٢٣) عهداً مع صخور ذلك المكان، وسكن في مكان الصخور (أيوب:٨)، وكان ذلك بسبب أن الرب عمل حدود الأرض المقدسة من حجارة مرضية.(اشعيا:٣٦/ ١٢).

ولقد احتضنا الصخرة نفسها، كما فعل أيوب (٢٤/ ٨)، لابل أكثر من هذا، لقد عرفت بعض الحجاج الذين أحبوا الأرض المقدسة، كانوا يداومون ليلاً ونهاراً على الانحناء بأنفسهم نحو الأرض، ويقبلونها أجمل القبل، وكانوا على استعداد لعبادة الحجارة نفسها، على أنها آثار مقدسة، وهذه الحجارة قد اختارها المسيح لمساعدته في عمل خلاصنا، ذلك أن الحمل به جرى في كهف حجري، وولد تحت الصخرة والحجر، ومدد فوق حجر عندما ولد، ووعظ وهو واقف على حجر، وصلى ثلاث مرات في كهف في صخرة حجرية، وكان قد جلد إلى جانب عمود من حجارة، ووقف على حجرة لتسلم تاجه، ووقف على حجرة أمام بيلا يطس قاضيه، وجرى صلبه فوق حجر، ومسح بالدهون فوق حجر، ودفن في حجر، وصعد إلى السماء من على حجر، وباختصار، لقد أكمل بوساطة حجارة جميع أسرار خلاصنا، ولهذا كان أن تصدعت الصخور الحجرية أثناء آلامه، فلماذا بعد هذا لايستريح المسيحيون بسرور فوق

هذه الصخور المقدسة، أكثر من استراحتهم فوق أنعم فراش؟ ومن الذي لن يجد الصخور والحجارة حلوة، التي لمست بقدمي الرب يسوع، والعذراء مريم، والبطارقة، والأنبياء، والرسل، والقديسين الذين يفوقون العدد؟.

وأوقظنا في اليوم الثاني عشر قبل شروق الشمس، وامتطينا حميرنا، ومضينا مسافرين عبر الجبال المقدسة، وبعدما تسلقنا عدة تلال، ونزلنا إلى عدد من الوديان، هاهو النهار المنتظر قد بدأ بالظهور، وصارت قبة السماء أكثر بياضاً في الشرق، ولمع القمر من هناك، وبدت الشمس تظهر فوق قمم الجبال، ونشرت أشعتها فوق الأرض، ومع ذلك كنا مانزال بعيدين عن القدس، وارتحلنا عبر ممرات وعرة، ورأينا فقط أرضاً قاسية وصخرية، ولهذا شرع بعض الفرسان الذين صدموا لدى رؤيتهم وعورة الأرض يقولون لي:«ماالذي أخبرنا به كهنتنا؟ وما الذي وعظ به وعاظنا؟ فلقد قالوا بأن هذه البلاد أفضل البلدان جميعاً، لكن انظروا كم هو وعر الطريق، وكم هي جرداء الجبال، فلماذا اختار الرب يسوع السكن في هذه البلاد، التي هي غير مفلوحة، ومحترقة بأشعة الشمس»؟.

وفي الوقت الذي كانوا يتكلمون هكذا، بدأ حاجان بالخصام بشكل حاد، حتى بات من الصعب فصلهما عن بعضهما، ولو طال هذا الخصام أكثر، لوصلا إلى الضرب، فقد تشاجرا بشكل حاد جداً، وكانا معا علمانيين خالصين، أولهما بليد جداً، والآخر بارع، فالبليد تشكى بمراراة ضد الأرض المقدسة، ووقف البارع ضده، وقال بأنها أفضل البلدان، وعلى كل حال، قلت لنفسي بشكل سري في قلبي:«هل ياترى هذه هي الأرض التي قيل بأنها تتدفق بالعسل والحليب، وأنا لاأرى أمامي حقلا ينتج خبزاً، ولاكرما لينتج خمراً، ولامروجاً خضراء، ولاحدائق، عجباً إنها كلها وعرة، أحرقتها الشمس، وجرداء»، وبينما كنت أردد في قرارة

نفسي هذا الكلام بشكل سري، لم يمض طويل وقت حتى جاء الجواب إليها، وهو: إن أسباب هذاالجدب، والجفاف، والوعورة، نتيجة للعنة التي أنزلها الله عليها، بسبب خرق وصاياه، وهكذا نقرأ في سفر التثنية:٢٨/ ٢٣ «وتكون سماؤك التي فوق رأسك نحاساً والأرض التي تحتك حديداً»، فضلاً عن هذا إن تذمرنا وخيبتنا مع الأرض المقدسة، قد جرى الحديث عنها منذ عدة آلاف سنين مضت وذلك حسبما نقرأ في سفر التثنية: الاصحاح ٢٩: «فيقول الجيل الأخير بنوكم الذين يقومون بعدكم، والأجنبي الذي يأتي من أرض بعيدة، حين يرون ضربات تلك الأرض وأمراضها الذي يمرضها بها الرب كبريت وملح، كل أرضها حريق لاتزرع ولاتنبت ولايطلع فيها عشب ما، كإنقلاب سدوم وعمورة وأدمة وصبوييم التي قلبها الرب بغضبه وسخطه، ويقول جميع الأمم لماذا فعل الرب هكذا بهذه الأرض. لماذا حمو هذا الغضب العظيم. فيقولون لأنهم تركوا عهد الرب إله آبائهم الذي قطعه معهم»(٢٢—٢٥).

وواضح من هذا أن الأرض في الوضع الذي هددت فيه في الكتابات المقدسة، لم تكن دوماً هكذا، كما يمكننا رؤية ذلك بأعيننا، لأننا رأينا خلال هذه الجبال المهجورة، أسواراً غاية بالقدم، بنيت من حجارة عظيمة، حيث من المعتقد أنها قد بنيت من قبل بني اسرائيل، وقد حصلوا على الزيت، والقمح، وكل حاجيات الحياة من أعلى هذه الجبال وأكثرها حجارة، حتى في هذه الأيام، وعلى الرغم من كفر وشرور السكان في هذه البلاد، جميع حاجيات الحياة تنمو هناك بكميات وافرة، لأننا رأينا على منحدرات الجبال بين الأسوار القديمة، كروماً، وزيتوناً، وقمحاً، وشعيراً، ونباتاتاً أخرى نامية هناك، علاوة على ذلك، حتى وان كانت البلاد محررة من اللعنة المتقدم ذكرها، لابد أنها ستبقى قاسية وجرداء، لأنه لايوجد من يفلحها، سوى عدد ضئيل، وهم رجال سوء،

وكفار، وكل من ينظر عن قرب ويدقق في الكتابات المقدسة، سوف يحاجج بأن هذه البلاد فائقة الخصوبة، وليست قاحلة، وقرر —على كل حال— القديس جيروم بأي منطق ينبغي أن نفهم بأن هذه البلاد تفيض بالحليب والعسل، فقد جاء ذلك في رسالته إلى داردانوس Dar-danus حيث بين أننا ينبغي أن نقدر أن هذه الأماديح الفائقة يتوجب فهمها على أنها تشير إلى مملكة السماء.

ودخلنا في الوقت نفسه إلى واد واسع نسبياً، فيه حقول مزروعة، وكان مطوقاً من كل جانب بهضاب مرتفعة، ومزينة بأشجار الزيتون، وكان على جانبنا الأيسر جبال أفرايم، التي يشكل جبل شيلوه الجزء الأمامي منها، ويبدو أن قمة هذا الجبل هي الأعلى بين قمم جبال تلك البلاد، وقام فيما مضى على جبل شيلوه هذا مدينة جليلة، حيث أقام تابوه الرب هناك لمدة طويلة، ذلك أنه جلب إلى هناك من قبل يشوع من الجلجال، وهنا حملت حنه بصموئيل، استجابة لصلاتها، وهنا أيضاً فرض الكاهنان الشريران حفني وفينحاس مكوساً ثقيلة على الشعب، وذلك حسبما ورد مكتوباً في الأصحاح الثاني من سفر صموئيل الأول، وهنا سمع النبي صموئيل للمرة الأولى الرب يتكلم إليه، وسقط عالي، الكاهن الأعلى من على كرسيه، وذلك كما ورد مدوناً في الاصحاحين الثالث والرابع من سفر صموئيل الأول، وهنا اعتاد بنو اسرائيل جميعاً على القدوم لعبادة الرب، وكان ذلك قبل بناء هيكل القدس، وحدث أنه بسبب ذنوب الكهنة، جرى الاستيلاء على تابوه الرب، وقتل الكهنة، وتهديم شيلوه، وإزالتها تماماً، ولذلك عندما تنبأ إرميا بخراب القدس قال:«سوف أجعل هذا البيت كشيلوه» (إرميا:٢٦/٦)، ومن أجل هذه الكلمات جرى اعتقال إرميا، وإلقائه بالسجن، بسبب أن شيلوه جرى تدميرها، وفي شيلوه دفن النبي صموئيل، ولذلك أطلق عليها اسم «مكان صموئيل المقدس»، حتى هذا اليوم، ولربما قد جلب جسده إلى

هنا من الرامة حيث كان دفن (صموئيل الأول: ٢٥/ ١) هذا وجاءنا خبر من عند جيروم في كتابه «Confutation of vigilantius» أنه في أيام الامبراطور أركاديوس Arcadius، جرى نقل عظام صموئيل المبارك من اليهودية إلى تراقيا، في وعاء ذهبي وهو ملفوف بالحرير، واجتمع حشد كبير من الناس لمشاهدة عملية النقل، فقد تقاطر الناس من فلسطين إلى العراق، وجرى استقبال هذه الآثار بسرور عظيم، وكأن الاستقبال لصموئيل نفسه حياً، وغنى الناس بصوت واحد الشكر للمسيح.

وكان فيما مضى عند سفح هذا الجبل مدينة جبعه، حيث جرى قتل زوجة اللاوي التي هي من بيت لحم، من خلال زنى أهل جبعه، وانتقاماً لذلك تمّ قتل آلافاً كثيرة بالسيف، ودُمّر سبط بنيامين كله تقريباً (القضاة:١٩)، وصعدنا فوق طريق وعر خارج الوادي، وكان ذلك فوق الرابية نحو شيلوه لأن الوادي كان ضيقاً جداً، لم يستوعبنا، ولم نكن بعيدين من شيلوه، بل فوق الأرض المرتفعة إلى جانبها، ومع هذا لم يرغب أدلاؤنا بأخذنا إلى هناك، لأنهم كانوا مسرعين يريدون الوصول إلى القدس، بأقصى مايمكن من سرعة، خشية أن يعانوا، فيما بعد، أثناء النهار من حرارة الشمس، وفيما مضى من أيام، كان الحجاج يقادون دوماً إلى شيلوه، وبعد صعودهم إلى هناك، كانوا من ذلك المكان يرون مدينة القدس ويبتهجون، ولذلك كان اسم هذا المكان «بهجة الحجاج» (جبل البهجة)، وعندما كنا أثناء سيرنا على جانب شيلوه، رأينا خرائب كثيرة لأسوار قديمة وكنائس، مابرحت قائمة على حافة الرابية حتى هذا اليوم، وتطلعنا بأعيننا نحو الشرق، فرأينا الجبل المقدس، والجبل المجيد، الذي هو جبل الزيتون، وكنيسة الصعود على قمته، ومع ذلك لم نستطع رؤية المدينة المقدسة، مع أنها كانت إلينا أقرب من جبل الزيتون، وعندما رأينا ذلك الجبل الأكثر قداسة قفزنا من على

ظهــور حميرنا، وصلينا نحـو الجبـل بتقـوى وسرور، لأن مشهــد هذه الأماكن المقدسة عن بعد يبهج النفوس بشكل رائع للناس الأتقياء.

وخلفنا بعـــد هذا شيلـوه وراءنا، وفيما نحن على طريقنـا وصلنا إلى قلعة، هـي قلعة عمواس المقـدسة، وهي التـي تبعد عن القـدس حوالي ستين غلوة، وذلك حسبما ذكـر القديـس لوقا في الاصحـاح الأخير من انجيله، وتساوي هذه المسـافة سبعة أميـال ايطالية، وميلاً ألمانيـا واحداً ونصف الميل، ذلـك أن ثلاث غلوات تســاوي سبعـة آلاف وخمسمائــة خطوة، وترجلنا قـرب هذه القلعــة من على ظهـور حميرنا، ومضينا من خـلال سور حجـري جاف إلى المكان الذي كـان يقوم فيـه النزل الذي استقبل الرب يســوع، وحوارييـه: لوقـا وكليوباس، وكـان ذلك في يوم قيـامة ربنا، عندمـا ذهب على شكل حـاج، فألزمـاه بالبقاء معهما، وقـد عرفاه عندما كسر الخبز.

وقبلنا هذا المكان بتقـوى عـارمـة، وتلقينا مغفـرة(+)، واعلمـوا أيها الحجاج، أنه هنـا توجد أول خطوات الرب يسوع، وأمـاكن سيره، التي ستجـدونها جديرة بالتقبيل، ومن أجـل التهدئـة والسكينة جرى إعـداد هذا المكان بشكـل مناسب من قبل القـــدرة الـربانيـــة، حيث أن الحاج التعيس، الذي هدّه التعب وهو مسرع نحـو القـدس سـوف يتقـابل مع ذلك الحاج الـرائع، أي ربنا، وهو قـــادم من هنـاك، وهو الذي إليـــه قيل:«أأنتت وحدك غريب وحاج في القدس»؟، ومن أجل انعاشه ينبغي أن يرى أولاً وقبل كل شيء الخطوات الأكثر قداسة وسعادة التي عملها جسـد الرب بعـد تمجيـده، فبعـد أن ينتعش برؤيتهم ويطمئن يمكن أن يكون قـادراً في القدس على اتبـاع خطواته المقـدسـة في آلامه البغيضـة، وذلك حسبما طلب بطرس منا أن نفعل، في الاصحاح الثاني من رسالته الأولى، حيث قـال:«المسيح أيضاً تألم لأجلنا تاركـاً لنا مثالاً لكي تتبعـوا خطواته»، وفي هذا المكان جعل قلبي حوارييه يتحرقان في داخلهما، وقام

بكسر الخبـز وأعطاه لهما، الأمـر الذي قـال عنه بعض الحكماء، بأن ذلك كـان القـــربان الذي احتفل به هناك للمـرة الأخيرة، وعـــاد سريعـاً إلى القدس، وفي الحقيقـة يقول بعضهم بأن هـذين الحواريين كانا قـد غادرا القـدس وافترقا عن الحواريين الآخـرين، ونويا على عـدم العودة ثانيـة، غير أنه جعلهما هناك يعـودان ثانية، وهكذا عـادا في السـاعة نفسهـا إلى القدس.

وكـانت عمـواس في أيام المسيح بلـدة جميلة وغنيـة، وقـد تعـرضت للدمار، عندما جرى تدمير القـدس نفسها، وقد أعيدت عمارتها فيما بعد من قبل ماركـوس كورنيليوس، وأطلق عليها اسم نيقوبـولس، وقد قام يوليوس أفريكانوس بسفـارة من أجل إعادة عمارتها، وذلك حسبما قرأنا في «كتاب الرجال المشهورين» لجيروم، وقـد دمرها المسلمون الآن دماراً كليـاً، ولاسيما كنيسة نزل المسيح، التي من الممكن التعـرف إلى خرائبهـا من خلال أساساتها، ومايزال قائماً فيها حتى الآن خرائب بيوت مقنطرة عالية، وقليل من الناس هم الذين يسكنون هناك.

وبعـدمـــا رأينا هذا المكان المقـدس، تابعنـا السير على طريقنا، ورأينا خرائب العديد من البيع والكنـائس على التلال، وذلك أثناء سيرنا فوق المنطقـة الجبليـة، ثم نزلنا مـن المنطقـة المرتفعـة إلى واد وقع عبر طريقنا، وهو ممتد من الشمال إلى الجنوب، وكان علينـا نحن القادمين من الغرب والمتجهين نحـــو الشرق، عبـوره، وكـــان هذا وادي Elah ،أو وادي البطـم، حيث غلب داوود هنـاك جـالوت وقتلـه بحجـرة اختـــارها من أرض الجدول، وقطع رأسـه وجلبه إلى القدس (صمـوئيل الأول: ١٧) ووقفنـا في وسـط هـذا الـــوادي، وتفحصنـا وضـع الأرض، وهـو واد خصب، ويوجد فيه في هذه الأيام كثيراً من أشجار البطم، وهذه أشجار جميلة، تنمو بشكل رئيسي في سورية، ومنها يخرج صمغ، وأشجار البطم على نوعين، أي ذكـر وانثى، وعلى هـذا يحملون نوعين من الثمار، حيث

تحمل الأشجــار المذكـرة ثماراً حمراء بحجم حبــات العـدس الصغيرة، وغـالبـاً مـارأيت كثيراً من هـذا النوع من الأشجـار، وتحمل الأشجـار المؤنثـة ثماراً ألوانها باهتـة بحجم الفول، ويستخـرج من هذه الثمار زيتـاً جيداً، وطيب الطعم.

كيف رأى الحجاج القدس المدينة المقدسة وكيف دخلوا إلى القدس تلك المدينة الأعظم حلاوة

كان السبب الرئيسي وراء رحـلاتنا هو مدينة القدس الأكثـر حلاوة، التي انتشر شذاها فعم آفاق العـالم، فجعل المؤمنين يسعون إلى هناك من كل جـانب، وهكذا تسلقنا وادي البطم، وقطعناه، وتوقفنا عن الذهاب نحو الشرق، وصعـدنا حواف رابية بـاتجاه الجنوب، ووصلنا إلى حدائق أشجار مثمـرة، وخضراوات، وتين، وكان ذلك أثناء سيرنـا بين جدران من الحجـارة الجافـة، وألقينا بأعيننا نحـو اليمين، وياللهـول، لمعت مثل ضـوء البرق، المدينة المذكـورة دومـا، والتي ستـذكـر دومـاً، إنها مـدينة القدس المقـدسة، قد أشرقت أنوارها، وكـان الجزء الذي رأيناه منها هو المتصل بجبل صهيـون، ورأينا جبـل صهيـون المقـدس نفسـه، مع جميع أبنيته وخـرائبه، وقبل كل شيء رأينا قلعة صهيـون، وهي محصنة بأسوار على درجـة عاليـة من القـوة، وبأبراج، وبدت الأسـوار العـالية القـوية والأبراج العائـدة للقلعة بوضـوح وكأنها تحيط بالمدينة كلهـا، والحجاج، أو الغـرباء، الذين لم يروا القـدس من قبل لم يكن بإمكانهم إلاّ أن يظنوا أن أسوار قلعـة صهيون تلك كـانت هي أسوار القـدس، الأمر الذي لم يكن كـذلك، وعندمـا رأينا بـأعيننا المدينة المقـدسـة التي تشـوقنا إليهـا طويلاً، ترجلنا على الفور من على ظهور حميرنـا، وتوجهنا بوجوهنا نحو الأرض، ووجهنا التحيـة أولاً إلى ملكهـا، الذي هو المولى الرب، وكـان ذلك برسم علامة الصليب، ثم خاطبناها بهذه الكلمات، أو بكلمات مثل هذه:

«مرحباً ياقدس، وحييت يا مدينة الملك العظيم، مجد الأرض كلها وتاجها، بهجة نفوس المؤمنين وسرورهم، ياقدس، ياقدس، انهضي، ارفعي عينيك، وانظري من حولك، وأبصري جميع هؤلاء الحجاج، أولادك الذين قدموا معا من أقصى أجزاء الدنيا، والذين مابرحوا يقدمون في حشود، علهم يرون سناء بريقك، ومجد الرب قائم فوقك»، وذلك كما قال النبي إشعيا—الاصحاح:٤٠، ومثلما مدحك طوبيا بهذه الكلمات:«سوف تشعين مجداً مع ضياء، وكل طرف من أطراف الدنيا سوف يتعبدك، وكل الأمم سوف تأتي من بعيد، جالبة الهدايا، وسوف تعبد ربك»(طوبيا:١٣).

ومثل هذا فعل القديس برنارد في الاصحاح الخامس من قداسه لفرسان الداوية حيث قدم التحية لمدينة القدس الأعظم مجداً بهذه الكلمات فقال:«حييت أيتها المدينة المقدسة، التي قدسك الأعظم علواً، وجعلك مثل خيمة عهد له، حتى يمكن فيك ومن خلالك انقاذ جيل عظيم، حييت يامدينة الملك العظيم، الذي منذ البداية المغرقة بالقدم، وهو يطلب أن يجعل العالم مسروراً، حييت ياسيدة الأمم، أيتها الأولى بين البلدان، ياموطن البطارقة، ويـاأم الأنبياء والرسل، ويايبنبوع الايمان، ويامجد شعب المسيح، الرب الذي عانى دوماً وتعرض لأن يهاجم منذ البداية، من أجل أن تكوني للرجال الشجعان وسيلة لاظهار شجاعتهم، ولربح خلاصهم كاملاً، حييت أيتها المدينة الرئيسية في أرض الميعاد، والتي فاضت في الزمن القديم بالحليب والعسل، فقط للذين سكنوا فيها، والتي تعطي الآن إلى العالم كله وسائل الخلاص، وخبز الحياة، أيتها الجيدة، أنت الأفضل في البلاد، فأنت التي تلقيت في صدرك الخصب جداً، الحبة المقدسة من التابوه، قلب الأب، وأنجبت وقدمت حصاداً لامثيل له من الشهداء من تلك البذرة السماوية، وثمرة صحيحة من تربتك الخصبة، في جميع أنواع الشعوب المؤمنة الأخرى، ستين ومائة

ضعف، في جميع أنحاء الأرض، ولهذا فإن جميع الذين شاهدوك، امتلأوا بوافر من حلاوتك، وشبعوا بثراء عظيم بذكرى فيضك العظيم، وتدفقوا ببهجتك، تراهم يتحدثون عن عظمة مجدك إلى الذين لم يروك، وينشرون ذلك حتى أقصى أجزاء الأرض، ويصفون الروائع التي فيك، وكثيراً من الأشياء الرائعة قد قيلت عنك يامدينة الرب، وعلى الفور سوف نتذوق نحن الذين قدمنا من الغرب، البهجة الموجودة فيك والتي تتدفق منك، وعندما رأيناك ذابت أرواحنا وتبددت في فيض بهجتك وإشراقك».

وعندما فرغنا من صلواتنا، امتطينا ظهور حميرنا، وعيوننا قد امتلأت بالدموع، ووجوهنا بالبشر والسرور، وشرع الكهنة والرهبان الذين كانوا بيننا يغنون te deum Laudamus لكن بصوت منخفض وخافت، حتى لانغضب حرسنا، الذين قد يثير غناء نشوتنا غضبهم إذا ما غنينا بصوت مرتفع وواضح، وعليه غنينا بصوت مرتفع فقط في قرارة نفوسنا، لأن النشوة التي شعرنا بها بداخلنا كانت عميقة وعظيمة، وقد تجاوزت كل الكلمات التي يمكن التعبير بها، ولم تنبع هذه النشوة من الآلام بل من العقل، وليس من حضور هدف مرغوب، بل من شيء يستحق الحب لأنه ثمين: ولم يكن السرور هو الذي يقود إلى الجواز بل إلى الجدّية، التي لاتحرك الانسان للضحك بل للتنهد، والتي لاتهز الجسد، بل تحني الأطراف، ولاتوسع فتحة الفم للضحك بل بالحري تجعل الوجه مربداً، يبكي كله، وكله دموع، ولاتقود إلى الكلام بل إلى الصمت، ولاتدفع الانسان نحو الأمام بين الناس، بل بالحري إلى الانزواء هادئاً، ولاتجعل الانسان يصرخ بصوت مرتفع، بل بالحري تجعله يصلي بداخله بأغاني المزامير.

وبهذا الوضع الصامت والسرور الداخلي وصلنا إلى آخر الحقول، حيث وقف ربشاقي وشتم الرب، وهو حامل ضد الذين وقفوا على

أسوار القـدس (الملوك الثاني:١٨/ ١٧.إشعيـا:٣٦) وفي هذا الحقل وإلى جـانـب القلعــة التي بناهـا السلطان، ترجلنا من على ظهــــور حميرنا، وأعطيناهـم إلى سـائقيهم، وأخذنا جعبنا، ومشينا إثنين، إثنين نحـو باب التجـار، أو باب السمك ونحن نصلي بصمت، وأيدينا موضـوعة فـوق صـدورنا، وقـام بعض الحجاج، صـدوراً عن التقـوى، بخلع أحـذيتهم ورميهـا جانبـاً، ومشى بعضهم بأقـدام عـارية، ذلك أننا كنا في الأرض المقـدسـة، وكنا بذلك نمجـد الخطوات الرائعـة لربنا، وللعـذراء مـريم المباركة ولقديسي العهد القديم والعهد الجديد.

وعندما وصلنـا إلى الباب الذي اسمه بـاب داوود، وباب التجار، أو باب السمك عبرنا خـلاله برؤوس مطأطأة، لأننا بهذا العبـور وعلى هذا الشكل حصلنا على غفران دائم (++)، ومضينا من البـاب وسرنا خلال الشـارع الطويل، ووصلنا إلى كنيسـة مغلقـة عظيمـة،وعندمـا كنا جميعـا واقفين في الساحة، اعتلى واحد من رهبان دير جبل صهيون مكاناً عالياً، وخاطبنا قـائلاً بأن هذه كـانت أكثر الكنائـس قداسة، وهي متعبـدة من قبل العـالم أجمع، ففيهـا راقــد أعظم الكنوز قيمــة بالنسبــة إلى جميع المسيحيين، وهو ضريح ربنـا، وعندمـا سمعنـا هذا ألقينا بأنفسنا نحــو الأسفل في السـاحـة، أمام باب الكنيسـة، وصلينا وقبلنا الأرض نفسهـا مــراراً كثيرة، ومن المؤكــد أنه بدا إلى الحجــاج، وهم متمـــددون على الأرض أن الفضيلة كـانت تصـدر من الأرض نفسهـا، وبذلك ازدادت مشاعرهم أكثر واندفعوا للمزيد من الصلوات.

أيها المولى الرب، كم هـو عــذب يمكن أن يكون تقبيـل فمك، ذلك أننا، ولم نستطع تقبيل قـدميك، وفقط قـدرنـا أن نقبل مكان خطواتك، فشعـرنا بعذوبة ألانت قلوبنا، آه يـاأخي لوكنت معي في تلك السـاحـة، أثناء تلك الساعة، لرأيت دموعـاً كثيرة منهمرة، ولسمعت تنهدات قلبية مريرة، ونحيبـاً شجياً، وانفعالات عميقة، وحزنا حقيقيـاً، وبكاء صادراً

من داخل الصدر، وصمتاً كله سلام وسرور، فلوملكت قلباً من حجر لذاب، ولانفجرت بفيض من الدموع مع الحجاج الذين كانوا ينتحبون، فلقد رأيت هناك بعض الحجاج وقد تمددوا على الأرض بلاحراك ولاقدرة، تخلت عنهم قواهم، وكأنهم قد نسوا أنفسهم بسبب انفعالاتهم التقوية الفائقة، ورأيت آخرين يتنقلون من زاوية إلى زاوية، ومن هنا إلى هناك، وهم يضربون صدورهم، وكأنهم قد دفعوا بروح شريرة، وجثا بعضهم على الأرض بركب عارية، وصلوا بدموع، ورفعوا أذرعتهم وشبكوها على شكل صليب، وكان بعضهم يرتجف ويهتز بتنهدات عنيفة إلى حد أنه لم يكن بإمكانهم تمالك أنفسهم والوقوف على أرجلهم، ولذلك أرغموا على الجلوس، وقد أمسكوا رؤوسهم بأيديهم، حتى يمكنهم تحمل تنهداتهم الكثيفة، وتمدد بعضهم على طولهم على الأرض لمدة طويلة بلاحراك، حتى بدوا كأنهم أموات، وكان أكثر من الجميع وفوقهم كلهم مرافقونا، وأخواتنا النساء من الحجاج حيث صرخن وكأنهن في آلام المخاض، ورفعن أصواتهن عالياً وبكين، وفقد بعض الحجاج، لشدة وجدهم وانفعالات تقواهم، السيطرة على أنفسهم، ونسوا كيف عليهم أن يتصرفوا، وصدوراً عن شدة حرصهم لإرضاء الرب قاموا بحركات صبيانية وغريبة.

وكان بالحقيقة ممتعاً أن تنظر إلى التصرفات المخلصة جداً، وفي الوقت نفسه، المتنوعة للحجاج، وهم يصلون في الأماكن المقدسة، وهي الأماكن التي تمتلك قوة مدهشة في جعل الانسان يبكي، والناس يتنهدون، مع أنهم في مكان آخر من غير الممكن إثارتهم بأي كلام، أو نصيحة، أو نص من الكتابات المقدسة، أو بأي صورة، أو نقش، أومثل، أو وعد، أو تهديد أو ازدهار، أو انتكاسة، ومع هذا، إنه كقاعدة، لانجد جميع الذين يزورون الأماكن المقدسة، لاينفعلون إلى هذا الحد، بل يتحركون فقط نحو اظهار للتعبد والتقوى بشكل غير اعتيادي، فلقد

رأيت بعضهم — وبودي أنني لم أرهم— كـانت مشاعرهـم قد تحركت هنا باتجاه معاكس لتصرفات التقاة والمؤمنين الجيدين، فلقد رأيت خلال أعمال التعبـد والتقـوى المتقـدمـة الوصف التي صـدرت عن الحجـاج، بعض الحجــاج البليــديـن، والذين لانفع بهم، لابل هـم بالحري بهائم متوحشة، ليست فيهم روح الرب، فهؤلاء وقفوا يبتسمون بسخرية نحو الصلوات، والدموع، والتمدد على الأرض، وضرب الصدور، وما شابه ذلك، ممافعله البقيــة، والذي هو حتى أكثر إدانة وخبثــاً هو أن هؤلاء الرجال المتـوحشين، والمحرومين من رؤية كل أنواع التقـوى، والفارغين من أية مشاعر دينية، والممتلئين بكـل النجاسات، أنهم كانوا ينظرون إلى الأناس الأتقيـــاء على أنهم حمقى، ومـــرائين، ومنافقين، وغشـــاشين، ومرضى بعقولهم، ولهذا كـانوا يعاملونهم بازدراء، ويتأبون من التحادث معهم، ويستخفون بهم، ويسمونهم مجانين، ومرائين، ومنافقين.

آه كم هو غير نافع وملعـون الحج بالنسبـة لمثـل هؤلاء الناس، الذين يضحكون في مثل هذه الأماكن المقدسـة، ويستخفون بالرجال المقدسين ويسيئون النظرة إلى تصرفـاتهم، فمثل هؤلاء الناس أسـوأ من المسلمين، أو من اليهـود، مع أن هؤلاء لم يستخفـوا قط بأي مسيحي أخـذ نفسـه بالتقـوى، ذلك أننا عندما قـدمنا إلى هذه الساحـة المقدسة، ركـض عدد كبير من الصبيـان المسلمين هناك، ليضحكوا علينـا، لكنهم عندمـا رأوا عمق اخـلاص الحجـاج وتقواهم، ذهبـوا بعيـداً، وبقي بعضهم وبكوا معنا، وتلقينا في هذه الساحة غفرانات مطلقة (++).

ونهضنا — بعـــدمـــا أكملنا صلواتنا وأنهينـاها — من على الأرض، وصعدنا نحو باب الكنيسة، حيث نظـرنا من خلال الفتحات، التي يمر الطعام مـن خلالها بالعـادة إلى الأوصياء على الضريح المقـدس، المقفول عليهم هناك، ورأينا قائماً في وسط الكنيسة، بيعة الضريح الأعظم قداسة العائد لربنا، والطريق الصاعـد نحو جبل أكرا (الجمجمة)، وانتشينا من

جديد بالمشاعر التقوية، وهناك علامة مرسومة على الأرضية الرخامية، تشير إلى المكان المقدس، الذي وقع فيه الرب يسوع، عندما كان حاملاً للصليب، حيث كان على مقربة من صخرة الجمجمة، ووقتها سقط على الأرض تحت الصليب لأنه كان منهكاً، ولقد قبلنا تلك البقعة الفائقة القداسة عدة مرات، وبللنا لطاخة الدم التي كانت عليها بدموع كثيرة، وكانت هذه ثاني آثار أقدام للرب يسوع رأيناها، ويجب ألا يخطر على بالنا، أو أن نظن أن هذه ليست بدون معاني خفية، أي أن نلتقي أولاً مع خطوات المسيح في المجد، وثانياً مع جسده عندما جلد، وعندما كان يحمل الصليب، فهنا يمكننا أن نتعلم بهذا، أن علينا ألاننشد شيئاً ما سوى المجد السماوي، الذي لايمكن لانسان الحصول عليه إلاّ بحمل صليبه.

وعندما فرغنا من صلواتنا هذه، اقتادنا الكاليني خارج الساحة أو الباحة، العائدة للضريح المقدس، وعبرنا الطريق المواجه الساحة، ومن هناك صعدنا إلى مشفى القديس يوحنا، الذي هو بناء مقنطر واسع، مهمل ومهدم، والموجود هو جزء فقط من المشفى القديم، ومكان يشبه قاعات طعام كبيرة لديرة واسعة، حيث عاش عدد كبير من الرهبان، وهنا رتب الحجاج أنفسهم وفقاً لجماعاتهم، واتخذ السادة السوابيون، أي موالي مكاناً في آخر البيت، حيث كان هناك مايشبه القاعة منفصلة عن البقية، وذلك في مكان مغلق جميل ومحترم، وذهب مولاي جون، كونت أوف سولم وجماعته، مع كالينوس الأصغر، إلى بيته، وأقاموا هناك، ولم نؤخذ في حجي الأول إلى المشفى، بل إلى بيت ميلو الكبير، عند سفح جبل صهيون، وهناك أقمنا، كما أننا لم نشاهد المشفى مطلقاً أثناء ذلك الوقت، ولم نعرف بوجود أية آثار باقية من مشفى القديس يوحنا، وعندما تدبر الحجاج إقامتهم هناك، تولى خدمتنا مسلمون، ويهود، ومسيحيون شرقيون، حيث جلبوا لنا خبزاً، وماء، وطعاماً مطبوخاً،

وفـواكـه، وذلك حسبما أخبرتكم من قبـل، ولقـد اشترينا منهم طعـامـاً وأكلناه.

وأرسل الآن الأب المسـؤول عن دير جبل صهيون اثنين من الرهبـان إلى المشفى، وأمـرهما بجلب جميع الأشخاص مـن الطوائف المقدسـة إلى جبل صهيـون، لأن العـادة جرت بأن يسكن جميـع الأشخاص التـابعين للطوائف الدينية، مع الرهبـان الفرنسيسكان على جبل صهيون، وذهبت أنا بين هؤلاء القـوم مـع اثنين من رهبـان طائفتي، أي طائفــة الرهبـان المبشرين، كان أولهما قد جـاء من منطقة جزيرة فرنسـا، وجاء الآخر من نابل في منطقـة صقليـة، وخـرجنا مـن المشفى، وجـرى اقتيـادنا إلى دير الفــرنسيسكان فـوق جبل صهيــون، وجـرت تحيتنـا من قبلهم بلطف واستقبلنا استقبالاً حسناً، وقـد أعطونا ثلاث قلايات لنا أنفسنا، وهكذا أكلنا، وشربنا، ونمنا،وعبـدنا الرب بمصـاحبتهم، وقــد بقيت في تلك القلايـة لأيام كثيرة، بعدما ذهـب الحجاج جميعاً، وتمتعت بهدوء كـامل، وبمعـاملة رائعة صـدرت عن لطف الآباء الفـرنسيسكان ورهبـان جبل صهيون.

زيارتنا للأماكن المقدسة على جبل صهيون ووصفهم

وفي اليوم الثالث عشر، الذي كان الأحد السابع بعد التثليث، وعيد العذراء القـديسة مرغـريت، أرسل الأب المسؤول بعضـا من رهبانه إلى مشفى القـديس يوحنا، ودعـا الحجاج إلى الاحتفـال بقـداس على جبل صهيون، وجـاءوا جميعاً مع هؤلاء الرهبان إلى كنيسـة صهيون، للانتظار هناك حلـول وقت القيـام بقـــداس رفيع، لأن الشمـس أشرقت الآن مبكراً، ومع ذلك لم يكن هو قد استيقظ عندمـا صعد الحجاج إلى هناك، ولكي يظهروا احترامهم للوردات الحجـاج، قام الرهبان بتـزيين السدة، والكنيســة، والمذابح بشكـل جميل، وغطوهم بمعلقــات ثمينة، وأنا لم أشاهد في أي مكان آخـر معلقات ثمينة أكثـر من هذه المعلقات في هذا

المكان، ذلك أنها كانت مطرزة من قبل النساء، عليها رسوم تعرض حياة المسيح وموته، وفي الحقيقة جاء عدد كبير من سادة المسلمين، والأتراك والمماليك من جهات بعيدة، وطلبوا مشاهدة هذه المعلقات، أو الزرابي، وبعدما احتفى الأعيان، والحكام، والقادة في القدس بضيوف الشرف هؤلاء، اقتادوهم إلى جبل صهيون وتوجهوا بالرجاء إلى الرهبان هناك بأن يعرضوا عليهم هذه المصنوعات ويعلقوها لهم.

وصنعت هذه المعلقات لصالح الكنيسة بناء على أوامر فيليب، دوق بيرغندي، الذي قدم منحاً كثيره أضفاها على ذلك الدير، ووقف المذبح العالي وهو مكتظ بأوعية قرابين مذهبة، وبمذاخر، وكان فوق المذبح صورة، حوت رسم القديس فرانسيس، وإلى جانبه قد وقف شفيعنا المقدس، القديس دومينيك، وقد رسمت بشكل جليل تماماً، والكنيسة ليست واسعة، لأنها كانت شطراً فقط من كنيسة جبل صهيون، وفي العصور القديمة، عندما كان الصليبيون يتولون الحكم في البلاد، كانت هناك كنيسة عظيمة في تلك البقعة، قام المسلمون بتدميرها حتى النتوء أو البيعة الملاصقة لسدة الكنيسة على جهة اليمين، وهذا الجزء هو الآن الكنيسة والسدة للرهبان، وماتزال خرائب السدة القديمة والكنيسة مرئية بوضوح حتى الآن، كما سنوضح ذلك فيمايلي:

وعندما أشرقت الشمس، وحل وقت الاحتفال بالقداس، ضرب الحافظ لغرفة المقدسات على لوح خشبي، لأنه لم تكن لديهم نواقيس من أي نوع، كما أنهم لم يفكروا بالحصول عليهم من خلال المسلمين، بل عبرّوا عن حلول موعد العبادات الدينية بالضرب على ألواح خشبية، كما نحن نفعل في يوم الجمعة الحزينة، وبعدما اجتمعنا كلنا في الكنيسة رتلوا تراتيل الأول والثلثي، وبعد الثلثي صعد الأب المسؤول مع مرافقيه إلى دكة القداس العالي، وكانوا يرتدون ثياباً ثمينة، وبدأ قائد جوقة المرتلين يغني بصوت مرتفع احدى أغنيات صهيون:«Spintus

domini replevitå وسـاعـده جميع الكهنة والقـارئين للكتـاب من الحجـاج، وهكذا غنينا قداس الروح القـدس بمهـابة بهيجة، وكـان هذا القـداس مـوائما للمكان، لأن الروح القـدس أرسلت إلى هناك، ونزلت على الرسل، وكانت بشكل مرئي، كما أن التوقيت كان موائماً، لأن اليوم كـان هو يوم الأحد السـابع بعـد التثليث، الذي فيـه ورد ذكر الأرغفـة السبعة، التي تعني العطايا السبع للروح القدس.

وبعد القداس احتفلنا نحن الكهنة بطقوس القربان على أربعة مذابح، جـرى إعـدادها لنـا، وأعطيت مكاناً في الاحتفـال تحت في الأسفل في الرواق المغلق في بيعة القديس توما الرسـول، القائمة في المكان الذي فيه قـال الرب لتـومـا:«هات اصبعك إلى هنـا» (يوحنا:٢٠/ ٢٧)، وذلك حسبما ورد في الاصحـاح العشريـن من انجيل القـديس يوحنـا، وبعـد الفـراغ من الانجيل في طقوس القـداس العـالي، استدار الأب المسـؤول بنفسـه نحـو الناس، ووعظهم بمـوعظة جميلـة باللاتينيـة، مـدح فيهـا الأماكن المقـدسة وأثنى على زيارتها التعبـدية، وتمت ترجمة هذه الموعظة إلى الألمانيـة مـن قبل الأب المبجل بولص غـوغلنغـر Guglinger، وذلك لصـالح الرجـال العلمانيين، وكـانت الأبواب مغلقـة في أثناء القداس، وقد وقف في الخارج عدد كبير من المسلمين والتجار، وصدف في أثناء القداس أن جرى فتح الباب للسماح لأحدهم بالخروج، وعندما رأى المسلمـون ذلك اندفعوا بشـدة نحو المدخل، ودخلوا إلى الكنيسـة، ووقفوا إلى جـانب المذبح، وهـم ينظرون باستغراب نحـو طقوسنا، ومع ذلك لم يظهـروا سـوء أدب أوسلوكـاً، ولم يتعـد الأمـر الوقـوف هناك والاندهاش، وعلى كل حـال أوقف الكهنة القـداس حتى أخـرجـوا بوسـاطة الرهبـان، الـذين لم يستخـدمـوا القـوة أو قـامـوا بجـرهم، أو تخاصموا معهم، بل أخـرجوهم بهدوء، ورجـوهم بالذهاب، واثر ذلك تمّ إكمال قداسنا.

فيمايلي:
المسيرة إلى الأماكن المقدسة في جبل صهيون
وأولاها مكان العشاء الأخير

بعد القداس، أعدّ الرهبان الفرنسيسكان العدة من أجل مسيرة مهيبة، فقد ارتدوا ملابسهم المقدسة، ومضوا وهم يحملون معهم صليباً، وأعلاماً، وحاملات شموع، ومذاخر، ومباخر، وماء مقدساً، ولدى سيرنا معهم جميعاً في المسيرة، كان قائد الجوقة رجلاً صاحب صوت قوي، وقد بدأ يغني بشيء من النشوة ترتيلة من أغاني صهيون:

pange lingua gloriosi corporis mysterium ومع هذا الغناء سرنا، وكنا نحن الكهنة في الطليعة، وتبعنا بقية الحجاج، وبقينا هكذا حتى وصلنا إلى السدة ومنها إلى المذبح العالي، الذي من المعتقد أنه قد بني فوق المكان المقدس الذي أكل فيه الرب يسوع العشاء الأخير مع حوارييه، حيث حول الخبز والنبيذ إلى جسده ودمه، وأعطاهما إلى حوارييه للأكل والشرب، وحيث رسمهم كهنة حتى يتولوا أعمال القداسات، ومضينا إلى هذا المكان الفائق القداسة واحداً تلو الآخر، وانحنينا بأنفسنا نحو الأرض، وقبلنا الموضع تحت المذبح المفرغ من الأسفل، وتلقينا غفرانات مطلقة (++)، وانتبهوا يا خيرة الأحبة، أيها الإخوة الحجاج، هنا البيت، وهنا العلية العليا، وهنا المنضدة حيث أعطيت لكم الأعطية الفائقة القداسة بالخبز من السماء، وخبز الملائكة، الذي وحده لديه القدرة لاشعال الرغبة فينا، وأن يزرع فينا التواضع، وأن يجلب الندم، وأن يعطي الايمان، وأن يبعث الأمل، وأن يمنحنا الدفء حتى نحب، وأن ينهض بنا إلى التبجيل، وأن نذيب التفكير، وأن يسبب أحلى المشاعر، فهذا المكان جدير بأعلى تقدير —تقدير فوق جميع الأماكن المقدسة الأخرى— ذلك أن جميع الأماكن التي أخذنا

إليها، وكـانت على اتصال بالرب، وجـدناها كلها جـديرة بالاحترام، من ذلك الناصرة مثـلاً، التي تلقت حلول الـرب في جسـد مثل أجســادنا، وبيت لحم التي شهـدت ولادته، والجمجمـــة التي أعطتـه الصلب. هذه الأماكن حقاً تستحق الاحترام، لكن هذا المكان يستحق احتراماً أكثر منها جميعاً، وهو فـوقها كلهـا، ففي هذا الموضع جرى العشـاء الرباني الأعظم انقاذاً، فهنا أعطى نفسه ليكون طعـاماً، وجسده ليكون لحماً، ودمه ليكون شراباً، حتى يمكن أن يصبـح طعـامـاً سماوياً وأرضيــا مع بعضهما، لأنه قال:«إن الذي يأكل جسدي ويشرب دمي يحل بي وأنا أحل به».

وإلى جــــانب هذه الأسرار التـي تستعصي على الوصـف، أدرج هنا أضحيات وقـرابين نموذجيـة، وختم الشريعة، وشرع قـداساتاً جـديدة، وهنا جعل يوحنا يتمـدد فوق صـدره، كما أكد هنا بأنه عـرف بأن يهوذا الذي سيخـونه، وأخبر هنا مقـدمـا بطرس بسقـوطه، وتنبأ هنا كيف أن حوارييه سـوف يتخلون عنه ويفرون، وهنا وعظ بقداس طويل وعظيم الحلاوة، وودع حوارييه الوداع الأخير، تاركاً السلام معهم.

وهكذا بعـدمــا فعلنا كل مـاعلينا أن نفعله في ذلـك المكان المقـدس بشكل صحيح، حيث غنينـا تراتيل، وقــرأنا مـاهـو معـد للقـــراءة «في مسيرات الحجاج في الأرض المقـدسة» رجعنا إلى حيث كنا ونحـن نقدم الحمـد والشكر، وهذه المسيرات هـي كتيبـات صغيرة، فيهـا محدد جميع القصـائـد، والمجـاميع، وعبـارات الترانيم، والتراتيل، والمزامير، أي كل ماينبغي ان يقال أو يغنى في جميع الأماكن المقدسة، وخلال مسيرة أعمال الحج كلهـا فيما وراء البحـار، وحصلت على واحـــد من هذه الكتيبـات لنفسي، واستخدمته في الأماكن المقدسة.

غسل الأقدام الذي عمل هناك

وسرنا من ذلك المكان على شكـل رتل قليـلاً نحـو الجزء الأيمن من

السدة، ونحن نغني تراتيل محددة من أجل يوم العشاء الأخير، ووصلنا إلى المكان المقدس، حيث غسل الرب يسوع أقدام حوارييه بعد العشاء، ويوجد هنا مذبح جميل، حيث حنينا أنفسنا نحو الأرض، وقبلنا الأرض، وتلقينا غفرانات (++)، وأرجوكم أيها الأحبة الحجاج، ألا تتركوا هذا المكان، من دون تأملات متقدمة، ليست أقل من تأملات أي مكان آخر، وانظروا وتفكروا بأهمية الذي صنع هنا وبمعانيه وآثاره، فابن الرب القدير بسبب ربوبيته الدائمة، والقدير بجمال عقل الأب، ابن الرب الذي أرسى قواعد العالم، وجعله جميلاً لينظر إليه، والذي إليه تقدم السموات والنجوم في مساراتها، الولاء، والذي هو كما قال أيوب هزّ الأرض وأخرجها من مكانها، وجعل بذلك الأعمدة ترتجف، هو انحنى نحو الأسفل، وحط من مكانة جلالته السماوية، ففي هذا المكان غسل بيديه أقدام حوارييه القذرة، والملوثة، والموحلة، مع أن هؤلاء كانوا من سوية متدنية: صيادين للسمك، ومذنبين، وخونة، وفعل ذلك حتى يقدم لنا أفضل مثال وأصحه في التواضع.

المكان الذي أنزلت فيه الروح القدس على الحواريين في يوم عيد الحصاد

بدأ بعد هذا قائد الجوقة المقدسة يغني أمتع أغنية بين أغاني صهيون وهي: Veni,creater,pinitus الخ، ولدى غنائه لهذه الأغنية خرجنا من الكنيسة ودخلنا إلى الدير الموجود فوق الرواق المغلق، لأن السدة والكنيسة قد بنيتا فوق سطح غرف أخرى، ولذلك حتى يصل الانسان إلى الكنيسة، عليه أن يصعد على الدرج من كل جانب، وعندما يخرج الانسان من الكنيسة، يمكنه أن يسير على سطح قوس الرواق أو المعبر المسقوف، حول جهات ثلاث للساحة، لأن للرواق ثلاثة أطراف فقط، فالطرف الرابع هو جدار الكنيسة، وهكذا مررنا خلال الكنيسة، ونزلنا من جهة الشرق إلى جهة الغرب، ففي النهاية الغربية للكنيسة

خـرجنا منها من باب مـوجـود على الجهة الجنوبيـة، ومشيناعلى الجانب الأول للرواق، ثم عطفنا أنفسنا نحـو الشمال، فوصلنا إلى رأس السـدة، حيث صعـدنا فـوق بعـض الأدراج إلى عليـة أبوابها مغلقـة بالحجـارة، لأسباب سوف أذكرها على ورقة٢٩٠ظ.

وهذه العليـة موجودة عند رأس السـدة، ولأن السدة ليس لها نـوافذ تطل نحـو الشرق، لوجـود هذه العليـة بالطريق، هي مضـاءة من جهـة الجنوب فقط، وذهبنا برتـل صـاعـدين فـوق الأدراج المتقـدمـة الذكـر، وانحنينا بأنفسنـا نصلي أمـام البـاب الموصـد، فهناك تلقينا غفـرانات مطلقـة(++)، وغنينا ترتيلة كنا قد بـدأنا بها بلحن عذب، تردد صـداها فوق جبل صهيـون كله ومدينة القدس، لأن المكان لم يكن مغلقـاً، وقد وقفنا فـوق مكـان مـرتفع ، في الهواء الطلق، وغنينـا بسرور فـائض، متـذكـرين أنه في هذا المكـان أمطرت السماء بحضـور رب سيناء، وبحضـور رب اسرائيل وجـرى ارسـال مطر النعمـة ذاك وإنزاله على ميراث المسيح، لأن الروح القدس نزلـت على الحواريين بصوت مندفع، وغيرت عقولهم الشهـوانية إلى محبة له، وهكـذا، في الوقت الذي ظهرت فيـه ألسنة اللهـب دنيـوية ظاهرة، اشتعلت قلوبهم في الـداخل باللهب، بسبب أنهم عندمـا تلقـوا الرب بالشكل المرئـي للنار، كـانت قلوبهم تشتعل بعذوبة بالحب، لأن المسيح، عندما كان على وشك الصعود نحو الأعلى، طلب من حـوارييـه عدم مغـادرة القـدس، وأن عليهم الانتظار هناك وعد الأب، ولهذا قـدموا إلى هذه العلية وأقاموا فيهـا وهي مغلقة عليهم، وذلك بسبـب الهيـاج بين اليهـود، وجلسـوا هناك معـزولين، وميتمين، وجـاهلين وغير عـارفين، ومـرعـوبين، وممتلئين خـوفـاً، لكن عندما نزلت الروح القدس عليهـم، جلبت إليهم أعظم المواساة عذوبة، وانصبت في عقـولهم الحكمـة الأوضح، فأعطتهم الشجـاعـة الأمتن، وهكذا بالمثابرة بالنفس، وبالثبات في النعمة، تسلموا الحكم على العالم.

ولسوف أصف هذا المكان بشكل أوفى، عنـدما أصل إلى الحديث عن ضريح داوود.

المكان الذي قام فيه القديس توما
وهو مرتاب بلمس جروح الرب

ثم إننا غـادرنا هذا المكان، ونزلنا على الأدراج التي كـانت قريبـة إلى الرواق، وأتينا إلى بيعة القـديس توما، حيث نال هذا الرسـول نفسه من خلال شكوكه الفائقة المنافع، شرف لمس الندوب المتألقة لجسد المسيح، وعندما سرنا في رتل إلى ذلك المكان غنينا الترنيمة المبهجة:

((Exultet coelum laudibus resaltet terra gaudiis,)) ومجدداً انحنينا بـأنفسنا نحـــــو الأرض في هـذا المكان، وتلقينـا غفـــــرانات مطلقــة(++)، وتركـز في هذا المكان تـأملنا على النعمـة الخاصــة، التي وصلت إلى القـديس تومـا الرسـول، لأن جميع الذين قـرأنا عنهم، أنهم كان لهم علاقـة بجنب المسيح — ومنهم القديس توما، الذي وضع يده في جنبه، بناء على طلبه — تلقوا علامة خاصة على النعمة، فلوجينيوس العسكري غير المؤمن والمتـوحش، الذي — بناء على أوامـر بيـلايطوس — وقف إلى جـانب الصليب، وقــام بإدخـال رمحه في جنب المخلص، وطعن القلب الأعظم قداسة للمسيـح، كان ضعيف النظر، وصدف أن عينيه لامسهما الدم الذي جرى على الرمح، وبذلك صار يرى بوضوح، وتلقى النور في كل من جسده وعقله، وتحمل استشهادا مشهوداً، ورأى القديس يوحنا الانجيلي جانبه وشاهد الماء والدم يخرج منه، فآمن وصار شاهداً لأعظم الأسرار سمواً، ورأى القديس توما جانبه ولمسه، وبذلك صار أكثـر المؤمنين ثباتاً وذلك بشكل مكشـوف، وسمع قولاً هو فـائق الطمأنة لنا، حيث قال له ربنا:«لأنك رأيتنـي ياتوما آمنت، طوبى للذين آمنوا ولم يروا» (يوحنا:٢٠/ ٢٩).

والحواريون الآخرون، الذين أراهم الرب يديه، ورأوا جنبه، تفتحت أعينهم، وبذلك أمكنهم فهم الكتابات المقدسة، وقد امتلأوا ببهجة عصية على الوصف، وعندما كان القديس برنارد يصلي أمام تمثال المصلوب، بدا له أنه رأى المصلوب وقد فك نفسه من الصليب، وانحنى عليه وهو يصلي، وتلقاه وهو مستغرق بصلاته بين ذراعيه، ووضع فمه على جنب المصلوب، ورضع من هناك صحة العقيدة حلواً كالعسل، وانفعل القديس فرانسيس أيضاً بعمق لدى تفكيره حول جراح المسيح، فكان أن أجيز بشكل إعجازي، ورأى على جسده أنه يحمل علامات الرب يسوع، وشربت القديسة كاترين السيناوية من جنبه الأعظم قداسة، فغدت ثملة بأحلى جرعة للقداسة، ذلك أن تلك العذراء التي كانت قرينة للمسيح، كانت مرة ترعى امرأة مريضة، تعاني من قرحة مخيفة وقذرة جداً في صدرها، التي صدر عنها رائحة لاتحتمل، لذلك لم يبق أحد معها، وفي أحد الأيام عندما نزعت الفتاة المقدسة الضماد من على القرحة من أجل تنظيفها وغسلها، صدرت رائحة مخيفة لاتحتمل، حركت معدتها وجعلتها تشعر أنها مريضة تريد أن تتقيأ، وعندما شعرت الفتاة المقدسة بهذا، باتت غاضبة مع جسدها، وحلفت يميناً قائلة:« بحق حياة الأكثر علواً، القرين الأكثر حلاوة لروحي، سوف تضع في معدتك ذلك الشيء الذي تقززت منه»، وقامت على الفور بجمع غسالة القرحة والدم الخارج من ذلك الجرح القذر بوعاء، وذهبت إلى مكان منعزل وابتعلت الجميع، وعندما فعلت ذلك توقف تقززها، وليس فقط أنها لم تعد تشعر بالغثيان، بل تمتعت بسرور لايوصف.

وفي الليلة التالية ظهر لها الرب يسوع، وأراها جروحه الخمسة، التي أصيب بها وهو على الصليب وقال:«لأنك البارحة تغلبت على المشاعر الطبيعية لجسدك، بسبب حرارة حبك لي، وابتلعت الشراب المقرف،

أقـول لك: بما أنك بهذا العمل ذهبت أبعـد من طبيعتك، لذلك سـوف أعطيك شراباً فـوق الطبيعـة البشرية التي اعتـدت على تلقيهـا، ثم إنه وضع يده اليمنى فـوق رقبـة الفتـاة، وسحبهـا نحـو جـراح جنبـه وقال:«اشربي جرعتي، اشربي جرعة من جانبي، بها سوف تمتلىء روحك بحـلاوة سوف تتـدفق بشكل مـدهش حتى إلى جسدك»، وقـامت هي، وقـد رأت نفسها قـد وضعت إلى جانب فم نبع الحيـاة، فوضعت فمهـا الطبيعي، لابل أكثر: فمها الروحـي، على ذلك الجرح الأعظم قداسـة، وشربت، ليس لمدة قصيرة، لقـد شربت بتشـوق، وبكميـات كبيرة من ذلك الشراب الاعجـازي والعصي على الوصف، وأخيراً أبعدت نفسهـا عن النبع، وهي ممتلئة، ومع ذلك عطشى، وبدأت منذ ذلك الحين حيـاة جـديدة، وكبرت بالنعمة، وذلـك حسبما سنقرأ في حكايتهـا، في الفصل الرابع من القسم الثاني.

وانظر كم هي عظيمـة فضـائل جـرح المسبح، وسنـان الرمح، الذي طعن به جنب المسيح محفـوظ في نورمبـورغ Nuremburg حيث أنني رأيته وحملتـه بيدي، وله فضـائل عظيمة إلى حـد أن آلافاً كثيرة من الناس تتـدفق على هناك، في كل سنة، في يوم الجمعـة الأول، بعد اليـوم الثـامن من عيـد الفصح، لرؤية قطعـة الحديد، وعبـادتها، وهي القطعـة التي شقت جنبه المقدس، وعلى هذا اقتربوا أيها الأحبة الحجاج، والمسوا بقلوبكم جـراحـه، مثل القديس تـوما، وصلوا للرسـول المقـدس حتى يقبلكم للتعايش معـه، ويقوم في هذه البيعة مـذبح جميل، غالباً مـاقرأت فيه ساعاتي الشرعية، عندما كنت أعيش في القدس.

المكان الذي اقتاد إليه ربنا حوارييه حتى يتمكن من التحادث معهم على انفراد وقال: قوموا دعونا نذهب من هنا

بعدمـا أنهينا قداس المسيرة في هذه البيعـة، تحلقنا حول الممـر الأسفل للرواق،وذلك حول ثلاثة جوانب منه، وانتقلنا إلى بيعـة أخرى، مقدسة

كثيراً، ومظلمة جداً، وهي مخفية تحت الكنيسة نفسها، ومن المعتقد أن هذه البيعة هي المكان المنعزل، الذي إليه اقتاد الرب يسوع حوارييه، عندما قال:«قوموا، دعونا نذهب من هنا»، وذلك حسبما نقرأ في الاصحاح الرابع عشر من انجيل يوحنا، ولقد حدثنا الحكماء المتعلمين من أمثال القديس توماس (الأكوني Aqainas)، وألبرتوس ماغنوس، وهوغو، ودي ليرا، أنه بعد العشاء، وبعدما اغتسل الحواريون، وبعدما تلقوا القربان، أخذ الرب يتحدث إليهم، وهم جلوس في المكان الذي تعشوا فيه، وأخبرهم بشكل مكشوف أنه سيتعرض للخيانة، وأنه بعد وقت قصير لن يرونه بعد ذلك، وعندها أصبح الرسل مرعوبين، واضطربوا لدى سماعهم لكلماته، وتوجهوا بأبصارهم بشكل مستمر نحو باب علية العشاء الأخير، خشية وتوجساً من أن الناس سوف يأتون ويأخذون معلمهم من بينهم، ولذلك أولوا قليلاً من الاهتمام لكلماته، ولأنه رغب في أن يتابع الحديث إليهم بشدة أكبر، من أجل أن يصغوا إليه بعناية أكبر، وأن يكونوا أقل خوفاً، قال لهم:«قوموا، دعونا نذهب من هنا»، وبناء عليه نزلوا من غرفة العلية، إلى الغرفة القائمة تحتها، حيث أنهى قداسه، وصلاته الأكثر تقوى، التي هي موجودة في الاصحاح السابع عشر، وفي الاصحاحين اللذين يليانه من انجيل القديس يوحنا، ونحن نعتقد أن هذه الصلاة هي التي قدمها المسيح في هذا المكان، ولذلك صعدنا إلى المذبح، وتوسلنا إلى ربنا يسوع أن يجعلنا نلتحق به في صلاته هذه الفائقة التقوى، التي قدمها هناك، ولقد تلقينا غفراناً(+).

ويوجد في هذه القاعة المقدسة جزء من العمود الذي جلد المسيح عنده، حيث هو مربوط إلى الجدار بقضبان حديدية، ومع ذلك من الممكن لمسه بالأصابع، ويوجد إلى جانبه فرش للضيوف، نمت عليها أثناء حجي الأول، وهناك أيضاً قلاية لراهب من طائفة السسترشيان،

وللراهب جون الذي يمنح النـاس شارة الفروسيـة في الضريح المقدس، والذي يشغل أيضـاً وظيفـة متعهـد المؤن للـرهبـان، وصعـدنا من ذلك المكان على درج حجـري إلى الكنيسة، وبذلك أنهينا مسيرتنا، فهـذه هي الأماكن المقدسة التي موجودة في أفنية الدير، وفي الخارج هناك كثيراً من المزيد من الأماكن المقدسة، كما سنرى فيمايلي.

الغداء الذي قدمه رهبان جبل صهيون إلى الحجاج

بعـدمـا أنهينا مسيرتنا التي استغـرقت حتى حـوالي منتصف النهـار، وعندما كان الحجـاج على وشك النزول إلى المشفى، قدم الأب المسؤول والراهب يوحنا الخازن، ووجهـا الدعـوة إلى جميع الحجـاج إلى الغـداء، وقـد نصبـوا مناضـد، وألواحـاً طويلة من أجلنا في حـديقـة الدير، لأن عددنا كـان كبيراً، وكان المكان ضيقـاً، ومدوا فـوق السطح قطعة قماش غطت طول السطح كله، لتكون بمثابة مظلة من حـرارة الشمس، وكان الموضوع الذي طرزت به هذه القطعـة هو نزول الروح القدس، وهكذا جلسنا إلى المائـدة باستثناء بعض النبـلاء الذين، قـرروا القيـام بخـدمـة الموائـد، وذلك صـدوراً عن التواضع، وحينما كنا جميعـاً جـالسين، وكنا نأكل بطريقـة نظامية، جاء رجـل كان مرتديا لملابـس وضيعة، أنا لم أره من قبل بين صفـوف الحجـاج، وقـد وقف في وسطنـا ونحن نتناول الطعـام، ووعظنا بلغة لاتينيـة كـانت غنية وفصيحـة وجميلة الأداء، إلى حـد أننا تـوجهنا جميعـاً بأبصـارنـا إليـه، حتى الذين لم يفهمـوه كـانوا مندهشين تجاه تدفقـه ولغته الممتعـة، وكـان موضـوع قـداسة في ميـدان تمجيـد الأماكـن المقدسـة، وفي اطراء الحج ومـدحه، وبعـدمـا أنهى هذا الواعظ كـلامـه، أخذ مكانه اللورد جـون، بارون سيجيرن، الذي كـان رجلاً حكيماً وفصيحاً، وكـان واحداً ممن تولوا خدمة المائـدة، وقد ألقى —بناء على إلحاح الأب المسـؤول— كلمة بالألمانيـة، شكر بها، باسمـه، السـادة الحجـاج من اللوردات لجلوسهـم إلى مـائـدة الرهبـان الفقـراء،

ورجاهم أن يكـونوا راضيين بطعامهم وشرابهم، وإذا مـا أراد أي واحد منهم أن يسـدد للرهبـان ويعوضهم على لطفهـم، وأن يظهر شفقـة على فقـرهم، يمكنه التحـادث حـول هذا الموضـوع مع الراهـب يوحنا البروسي، خازن الدير، الذي سـوف يجدونه واقفاً في الرواق، لأن الأب المسـؤول لن يسمح مطلقـاً بجمـع أية تبرعـات على المائـدة، كما أنه لم يرغب باعلامهم أن الراهب يوحنا سوف يتسلم مالاً باسم الرهبان، بل ان النبـلاء فعلوا ذلك صـدوراً عن رغبتهم، وعندمـا انتهى الغـداء، وتغدينا جميعـاً بشكل جيد، ذهبنا إلى الراهب يوحنا، وقدمنا مسـاعدات لها قيمتهـا إلى الدير، فبعضهم دفـع ست دوقيـات، وبعضهم خمس، وبعضهم أربع، وبعضهم ثلاث، وبعضهم دوقيتـان، وأصغـر مبلغ دفع من قبل أي انسان كان هو دوقية واحدة.

زيارة إلى الأماكن المقدسة على جبل صهيون من دون أحواز الدير

وعندمـا فرغنا من جميع الذي وصفناه، ذهبنا نحن الحجـاج إلى الأب المسؤول ورجوناه أن يتفضل فيعين واحـداً من الرهبان لأن يكون دليلنا إلى الأمـاكن المقدسـة المتبقيـة فوق جبل صهيـون، وذلك خـارج الدير، ولبى طلبنا الأب المسـؤول، ودهش تجاه غيرة الحجـاج الكبيرة، فبعـد المتاعب التي عـانوا منها، مـابرحوا يرغبون في تحمـل المزيد من الجهود، وفي الحقيقة مـامن أحد عليـه أن يفكر أن زيارة الأمـاكن المقدسـة مهمة سهلة، فقـد كانت هناك حـرارة هائلة صـادرة عن الشمس، والسير من مكان إلى مكان، والجثو على الركب، والتمدد على الأرض، وفـوق كل شيء، كانت هناك، الضغوط التي يضعهـا كل انسان على نفسه في نضاله بكل طاقاته بأن يرقى بنفسه إلى التقـوى السليمة، وتفهم واستيعاب كل مـاراه في الأماكن المقـدسـة،ولأن يحقق صلاة خـاشعـة، وتأملاً عميقـاً، وهذا كله لايمكن القيـام به مـن دون بذل جهـود كبيرة، ذلك أنه حتى

يقوم بهم الانسان بشكل لائق، عليه أن يكون مرتاحاً، وليس هائماً على وجهه، ذلك أنه تناضل خلف العوائق العقلية، وأنت تتنقل جسدياً من مكان إلى مكان، عمل مرهق إلى أبعد الحدود، فبعض حجاجنا لم يستطيعوا القيام بذلك، ونزلوا إلى المشفى للراحة، ولذلك أقل من نصفهم هم الذين تابعوا واستمروا في عمل الحجاج.

وكان الأب المسؤول قد أعطانا عدداً من الرهبان بمثابة أدلاء لنا، معهم انطلقنا في طريقنا من حديقة الرهبان الداخلية، حيث كنا قد تناولنا طعام الغداء، وعندما خرجنا من الحديقة إلى الرواق، وصلنا أمام قاعة الطعام والمطبخ، إلى بركة ماء عميقة، كانت أبرد من أي ماء آخر في القدس، ويحكى بأن الماء قد نضح من هذه البركة من قبل حواريي المسيح، من أجل العشاء الرباني، أي من أجل مزج الخمرة أثناء أداء القداس، ومن أجل غسل أيديهم وأقدامهم، ومن أجل الاستخدامات الأخرى أثناء العشاء، وصدوراً عن الاحترام للحقائق المتقدم ذكرها نضحنا بعضاً من هذا الماء وشربناه بتقوى، وصرت من ذلك الوقت غالباً ماأشرب منه كميات كبيرة، أثناء شدة الحرارة وقسوتها، ولم يلحقني ضرر من ذلك، وأعتقد أن هذا واحداً من آبار الخلاص الذين ورد الحديث عنهم في الاصحاح الثاني عشر من سفر اشعيا، وهو قوله:« فتستقون مياهاً بفرح من ينابيع الخلاص»، وقال في فقرة تالية:«صوتي واهتفي ياساكنة صهيون».

ومضينا من هذا النبع من خلال الممر المسقوف إلى باب الدير، الذي أخذ بنا إلى طريق عام، وهذا الباب صغير ومنخفض، ومدخل ضيق منحدر، لايمكن لانسان أن يعبره من دون أن يطأطىء رأسه، ويحني ظهره، والباب حديدي قوي، وهو عندما يغلق يشد بسلاسل وبمزاليج حديدية، لأنه يخشى أثناء غضب المسلمين خلال الاضطرابات المفاجئة من اقتحام الدير ونهبه، وهو ما فعلوه في احدى المرات، ومن الممكن

رؤية آثار ذلك في المهجع قرب الحديقة والمكتبة، حيث كان هناك فيما مضى قلايات جميلة بنيت بسقوف مقنطرة، فقد قاموا بتدميرها وبتهبيط قناطرها، ولم يسمحوا لهم حتى هذا اليوم بإعادة عمارتها كما كانت من قبل، ذلك أنه من السهل جداً إثارتهم وتحريكهم لمهاجمة المسيحيين، وأن يثوروا بغضب ضدهم، ولهذا يغلق الرهبان على أنفسهم بشدة، خشية من أن يثور المسلمون ويكون هناك هياج فيتمكنوا من إلحاق بعض الأضرار بهم، ومثل هذا قام المسيحيون الشرقيون بحماية بيوتهم وإغلاقها بأبواب حديدية، وذلك للأسباب نفسها.

موضع اعتكاف العذراء مريم المباركة

وخرجنا من الدير من خلال ذلك الباب، برفقة الرهبان، إنما من دون أبهة، مسيرة مهيبة، وبدون غناء، وكان أول مكان قدمنا إليه درج حجري، صعدنا عليه إلى الكنيسة في الأعلى، وتمددنا على هذا الدرج بأنفسنا، في دعاء وتعبد للقربان المقدس والأماكن المقدسة في الداخل هناك، ثم نهضنا ومضنا إلى الزاوية الخارجية للكنيسة، حيث يوجد الموضع الذي كان فيه معتكف العذراء، مريم، ولذلك انحنينا بأنفسنا في ذلك المكان نحو الأرض، وصلينا، وتلقينا غفرانات(+)، وهناك خطر ببالنا وفكرنا كيف أن مريم العذراء المباركة، قد اعتادت في هذا المكان وفي أماكن أخرى على تقديم صلواتها المتواصلة والمتقبلة كثيراً للتشفع لدى الرب من أجلنا، وفي الحقيقة سوف تظل تقدمهم حتى نهاية الزمان، الأمر الذي هناك حاجة مستمرة لأن تفعله، لأنه مثلما هناك حاجة لأشعة الشمس على الأرض حتى تجعلها خصبة، هناك مثل ذلك حاجة لصلوات مريم من أجلنا نحن الأشقياء المذنبين، وحول هذا قال القديس برنارد:«إذا ما أبعدت الشمس التي تضيء الدنيا، أين يمكن أن يكون هناك نهار؟ وأبعد مريم —نجم البحر— مالذي سوف يبقى في المسكونة، غير احتضان الجميع للاكتئاب، والظلام الدامس، وظلال

الموت»؟.

موضع دفن داوود وسلميان والملوك الآخرين ليهوذا والقدس

وغـادرنا الآن موضع اعتكـاف العذراء المبـاركـة، الذي هو موجـود —كما قلت— عنـد زاوية تلك الكنيســة، وذلك حيث يتصل جــدار الكنيسة القادم من الشرق بالجدار القادم من الجنوب، وصعدنا من تلك الزاوية وسرنا على طول الجدار الـذي يقـود نحـو الشرق، وصرنا فـوق جدار آخـر منخفض، يقود من جدار الكنيسـة إلى فناء مربع الشكل هو سـاحـة صغيرة، وتسلقنا في هذه السـاحـة فـوق الجدار، وعندمـا صرنا فوق، وجـدنا باباً صغيراً في جدار الكينسـة، وهو محاط بالحديد، ومغلق بعناية فائقة، وعلى هذا لم يكن بإمكاننا المرور من خلاله، لابل حتى وإن استطعنا أن نمر من خلاله، من المؤكد أننا لن نتجرأ على فعل ذلك، لأن الموضع مسجد اسلامي، وهذا مكان عظيم القداسة مبجل من قبل جميع المسيحيين واليهـود، والمسلمين كـذلك، لأن فيـه مـوضع دفن الأنبيـاء، والأنبياء القديسين، مثـل داوود، وسليمان، ورحبعام، وأبيا Abia، وآسا Asa، ويورام Joram ، والبقية، الذين وردت أسماؤهم في سفر أنساب يسوع المسيـح، في الاصحاح الأول من انجيل القـديس متى، وغالبـاً ما ورد ذكــر هذا الموضع في أسفــار الملـوك وأخبــار الأيام، كلما جــرى استخدام عبارة:«وقد دفن في ضريح آبائه في مدينة داوود»، ودفن هؤلاء الملوك في هذا المكان وسط احتفـال عظيم جداً، وحدثنـا يوسفيوس، في الكتاب السابع من التاريخ القـديم— الفصل السادس عشر— وكذلك مصنف كتــــاب «Scholastica Historia »، عن وفاة داوود، أنه عندمـا مــات، وضع ابنه سليمان جسـد والده في تـابوت ثمين جـداً، لم يصنع من الحجـر أو من الخشب، بل عمله صاغـة الذهب، من الذهب المحلى بالأحجار الكريمة، ودفن إلى جانبـه كنز لايمكن تقدير قيمته من الذهب والفضـــة، وعندمـا توفي سليمان، دفنه ابنه رحبعــام، ومعـه كنز

عظيم إلى جانب تابوت داوود، وكان سليمان قد بنى مكان الضريح وفق فن حسابي بحيث لايستطيع انسان الوصول إلى هذين التابوتين.

وبعد مضي ألف وثلاثمائة سنة على وفاة سليمان، وفي أثناء وقوع القدس تحت حصار أنطيخوس ابن ديمتريوس، كان هيركانوس الكاهن الأعلى للمدينة المقدسة، وقد وجد نفسه غير قادر على تحمل استمرار الحصار مدة أطول، أو دفع العدو، وصده، وعد أنطيخوس بالمال إذا ما انصرف، ولم يجد وقتها مايكفي من مال في خزانة الهيكل، ولم يكن لدى سكان القدس الفقراء المال، فمضى —لذلك— هذا الكاهن الأعلى، وصعد إلى جبل صهيون، وفتح هذا المكان الذي تحدثت عنه، وأخذ من هناك ثلاثة آلاف قنطار من الذهب، وبهذا المبلغ أقام السلام مع أنطيخوس.

وثانية بعد مرور سنوات كثيرة، وجد هيرود نفسه بحاجة إلى المال، وسمع بأن هيركانوس قد وجد مالاً هناك، فجاء بشكل سري إلى ذلك المكان، وفعل ذلك أثناء الليل ومعه أصدقائه المعتمدين، فلم يجد هناك نقوداً مضروبة، بل استخرج بعض الكؤوس الذهبية والفضية، ودفعه هذا إلى الحفر أعمق، حتى وصل إلى جرتي حفظ جسدي داوود وسليمان وإلى تابوتيهما، وفي أثناء الحفر احترق اثنان من خدمه وتحولا إلى رماد، وكان ذلك بوساطة اللهب الذي اندفع من الأجزاء الداخلية للمكان، وعندما رأى الملك هذا، هرب مع الآخرين، ولكي يصلح ماعمله ويكفر عما اقترفه، بنى ضريحا عظيماً جدا من الحجر الأبيض.

وفيما مضى،، عدّ رهبان دير جبل صهيون هذا المكان بين ممتلكات ديرهم، وهو في الحقيقة جزء من كنيسة جبل صهيون، لأنه موجود بين الجدران نفسها، عند رأس السدة، وقد انتزع السلطان هذا المكان من الرهبان للسبب التالي: فقد توسل اليهود مراراً إلى السلطان لكي يعطيهم هذا المكان، حتى يتخذوا منه مكاناً للزيارة وللاعتكاف،

ومــابرحـــوا يترجـونه حتى هذا اليـوم، ورفض المسيحيــون باستمـرار الاستجـابة لهم، وأخيراً سأل السلطان عن أسبـاب قداسـة ذلك المكان، وعندما أخبروه بأن داوود وملوك القدس الآخرين من سلالته مدفونين هناك قــال:«نحن المسلمـون أيضــاً نعــدّ داوود مقـدســاً، مثلما يفعل المسيحيون واليهود ونحن نؤمن بالتوراة كما يفعلون، ولذلك لن يمتلك لا اليهـود ولا النصـارى هذا المكان، بل سنتخـذه نحن لأنفسنا»، وبناء عليه قـدم إلى القدس، وأغلق الباب الذي كـان الانسان يدخل عبره إلى تلك البيعة من داخل الدير، وألغى البيعة، وأزال مذابح المسيح، وحطم التماثيل المنحوتة، وطمس الصور، وجعـل المكان مناسباً لعبادة(١) (إله) محمـد (صلى الله عليـه وسلـم)، وعمل بابا في الخارج، يمكن للمسلمين الدخول منه عندما يرغبون.

ولأن المكان الذي كـان فـوق البيعـة، أي فوق سقفهـا المقنطر، كـان ملكاً للمسيحيين والرهبان، وكـان يوجد فيـه بيعة باهظة النفقـات، كان قـد أسسها هناك ملـك فرنسـا، أسسهـا في المكان الذي تحدثنا عنه وقلنا بأن الروح القدس نزلت هناك على الحواريين في يوم عيد الحصاد، لذلك أمـر السلطان أيضـاً بهدم هذه البيعـة أيضـاً، وبإزالة القناطر، وباغـلاق بابها، حتى لايتمكن المسيحيـون من السير فـوق السقف المقنطر العـائـد للمسجد، وهكذا فقـد الرهبان هذين المكانين المقـدسين الثمينين، وجاء ذلك من خـلال تشوق اليهود لامتـلاك المكان المنخفض، الذي توسلوا من أجله إلى السلطان، ومـازالوا يتوسلون له حتى هذا اليـوم، ووعدوه يعطوه آلاف قناطير كثيرة من الفضـة مقـابـل ذلك، هذا وهم لايفعلون هذا لمجرد احترامهم لقبور الملوك القديسين، ولالقداسة المكان، بل انهم يأملـون بشق طريقهم إلى تـوابيت الملوك، والعثـــور على الكنوز، لأنهم يعتقـدون بأن هذه الكنوز مخزونة هنـاك، وأنه من المقـدر أن تكون لهم،

١ـــ استخدم الرحالة عبارة نابية جداً، أبدلتها بها بين الحاصرتين.

ولذلك غـالبـاً ماتجدهم ذاهبين إلى هنـاك، ويقومـون بالصـلاة في أثناء الليل، ويمارسون أحياناً هناك أعمال السحر وفنونه.

وتشوقت كثيراً لرؤية القسم الداخلي من ذلك المكان، ولم يخب أملي، حيث كان المسلم الحافظ للمسجد يحاول في أحد الأيام فتح الباب، وقد أغلقـه بسرعـة، وعطل القفل بالمفتـاح، ولذلك لم يحرك المفتـاح المزلاج الحديدي، ولذلك غادر تاركـاً المسجد مفتوحاً، وقد بقـي مفتوحاً طوال المدة التي بقيت فيها بالقدس، ودخلت إلى المسجـد أكثر من عشر مرات ونظرت إلى مـافيـه، مع أنني كنت دومـاً أدخل وأخـرج وأنا خـائف أرتجف، لأنه لـو رآني أي مسلم هنـاك، لسبب ذلـك لي أذى عظيماً، هذا إذا نجوت من خطر الموت، وهذه البيعة بيعة طويلة، ولها سقف مقنطر، ولها نافـذتين على جهتها اليسرى، وفيهـا ضريح من الرخـام في جانبهـا الشمالي، والأرضيـــة المبلطة مغطاة بحصر، ومعلـق فيـه مصبـــاحين، ولايوجد فيـه مذبح، ولارسوم، ولاأعمال محفورة ومنحـوته، بل جدران عـارية مطليـة باللون الأبيـض، فهكذا جميع مسـاجـد المسلمين فـارغـة وخاوية.

وأثارت الحكاية المتقدمة شكاً في عقلي، حول لماذا سمح هؤلاء الملوك القديسين بدفـن كنوز معهم، لأن هذه ممارسات كـافرة ولاعقـلانية، ثم كيف كان سليمان قـادراً على اخفاء هذه التـوابيت بفن لايستطيع انسان حياله العثور عليهم؟ وجـواباً للسؤال الأول أقول، بأننا ينبغي أن نؤمن بشكل يقيني بأن هؤلاء الرجال لم يفعلوا شيئاً صدوراً عن أوهام عبثية، أو حباً بالثـروات الدنيوية، أو اقترافـاً لآثام التفاخـر، بل إنهم دفعوا من قبل الروح القـدس، من أجل أنه عنـدمـا يحين الوقت، يمكن أن تكون الكنوز نافعـة لاستخدام الناس بشكـل عام، ولاأن تدار وتستخـدم من قبل الشراهة المقيتة لليهـود، أما بالنسبـة للسؤال الثـاني، لابد من أن أقرّ بأن يوسفيوس أخبرنا بأن سليمان أخفى هذه القبور بفنون سحرية، لكن

مؤلف كتاب « Historia scholastica » قد دفع هذه التهمة عنه، وأعلن أنه أخفاهم ببراعة أصيلة.

وبشأن قبر داوود، انظر ماقاله القديس بطرس الرسول، في الاصحاح الثاني من أعماله:«أيها الرجال الإخوة يسوغ أن يقال لكم جهاراً عن رئيس الآباء داوود إنه مات ودفن وقبره عندنا حتى هذا اليوم»، (أعمال:٢/ ٢٩)، ويبرهن هذا، أن هذا المكان كان معروفاً تماماً في أيام الرسل، واعتقد جيروم بأن داوود قد قام مع ربنا، وأسس حجته على ماقاله القديس بطرس، بأن قبر داوود كان مرئياً بوضوح، مع أنه لم يتجرأ على القول بأن داوود كان مايزال موجوداً فيه. ولقد تحدثنا بما فيه الكفاية عن هذه القضايا ومايماثلها في هذا المكان، ثم قرأنا صلواتنا بتعبد ذلك أن جميع علامات صلوات مسيرة الأرض المقدسة جديرة بالقراءة هناك، وتلقينا غفرانات(+).

خيمة عهد داوود حيث المكان الذي وعظ فيه الرب يسوع وحيث أصغت العذراء المباركة

وبسرعة تركنا تلك الساحة الصغيرة، ودخلنا إلى السدة القديمة لكنيسة جبل صهيون، التي كانت مهدمة بشكل كلي، باستثناء الجزء الشرقي منها، حيث مايزال قسم من الجدار قائماً مع قنطرة مهدمة معلقة فوقه، والمكان الذي بنيت فوقه هذه السدة، هو واحد من الأماكن الجديرة بالنظر إليها باحترام من قبل كل من يؤمن بالكتاب المقدس، ويقدم اليهود احتراماً خاصاً لهذا المكان، لأنهم يعتقدون —كما نحن نعتقد— بأنه قام هنا مكان اعتكاف داوود أو خيمة عهده، التي إليها جلب مع جميع بني اسرائيل تابوه الرب بصحبة الأغاني والآلات الموسيقية، والسرور العظيم، حسبما قرأنا في الاصحاح السادس من السفر الثاني لصموئيل، وفي هذا المكان كذلك تسلم الوعد بأن المسيح ينبغي أن يلد من سلالته، حسبما ورد مكتوباً في الاصحاح السابع من

السفر الثاني لصموئيل، وظل هذا المكان حتى بعد بناء الهيكل، يتردد الناس عليه بكثرة ويحبونه، ولذلك غالباً ماااعتاد الرب يسوع على الوعظ فيه هناك.

وتخليداً لذكرى ذلك أقيمت حجرتان مقابل بعضهما في وسط الأرضية المبلطة، والحجرة الأولى قائمة في المكان الذي وقف فيه ربنا ووعظ، ووضعت الثانية فوق المكان الذي اعتادت العذراء المباركة أن تصغي فيه لوعظ ابنها، ولقد قبلنا هذه الأماكن مع الحجرتين، وانحنينا بأنفسنا نحو الأرض، وتلقينا غفرانات(+)، ووقفنا في هذا المكان لبعض الوقت، وبكينا على الخرائب، ونظرنا بأسف من حولنا نحو الحجارة المبعثرة العائدة للمعبد، فقد قام هنا فيما مضى كنيسة عظيمة جداً، لم يبق منها شيئاً سوى الجزء الذي اتصل فيما مضى بتلك الكنيسة العظيمة على جهة الطرف اليمين، وهذا الجزء هو في هذه الأيام سدة وكنيسة الرهبان، حسبما قلت من قبل، ومايزال رأس السدة موجوداً أيضاً، مع النافذة الشرقية، ومعها نصف قنطرتها المهدمة والتي هي مهددة بالسقوط، ويوجد فوق داخل هذه الكنيسة طريق للصعود فوق بعض الدرجات، وذلك من المكان الذي أنزلت إليه الروح القدس، إلى قمة قطعة تلك القنطرة المهدمة، وصعدت فوق تلك الدرجات ووجدت فوق القنطرة المهدمة، أرضية معمولة من الرخام المصقول من مختلف الألوان، وبناء عليه إنني أفترض أنه كان هنا فيما مضى كنيسة أخرى فوق بالأعلى، على ظهر الكنيسة والسدة، وبناء عليه لابد أن كنيسة جبل صهيون قد امتلكت ثلاثة طوابق مكرسة، أي ان تقول: قبو تحت الأرض، ثم الكنيسة التي بنيت فوق الأرض، وقاعة علية أخرى كانت مزينة، فوق الكنيسة، وفي السدة القديمة مايزال المذبح العالي موجوداً، لكنه مهدم.

وذهبنا بعد ذلك نحو الطرف اليساري من السدة القديمة، حتى

نتمكن من الذهاب لزيارة أماكن مقدسة أخرى، ووجدنا هناك بعض المسيحيين الشرقيين جالسين إلى جانب حجرة مربعة، جزء منها مرتفع فوق أساس السدة القديمة، وجزء مايزال متصلاً بالجدار القديم، وعلى تلك الحجرة كان هؤلاء الشرقيين يمارسون أعمال الكهانة بوساطة أربعة أحجار صغار، وكأنهن حبات النرد، وفي الحقيقية افترضت بالبداية أنهم كانوا يلعبون بالنرد، وتعجبت من جلوسهم هناك في مكان عام، حيث لايوجد بيت للسكن، ذلك أنني لم أعرف بأن هذه الحجرة وحدها قد استخدمت من أجل كهاناتهم الواهمة، وكانوا يلتقطون أربعة أحجار صغار من الأرض، ويقوم الذي يريد رميهن بهزهن في داخل يده، مثلما يهز لاعب النرد، أحجار النرد في يده قبل أن يلقي بهن، ثم يقوم بإلقائهن فوق الحجرة المربعة، وبوساطة الشكل الذي ترسمه هذه الأحجار إثر سقوطها، يتنبؤون بالذي يودون معرفته، من ذلك على سبيل المثال، إذا شكل سقوط الأحجار خطاً مستقيماً، فهم يعتقدون بأن المسألة سوف تسير وفق الطريق الأول، لكن إذا سقطوا وفق خط متعرج، ستسير المسألة وفق طريق آخر، وإذا ماشكلت مربعاً، أوصليباً، ستسير وفق طريق آخر، وإذا كان دائرة، أيضاً وفق طريق آخر، وهكذا دواليك بالنسبة للأشكال الأخرى.

وشكل الصليب هو الشكل الرئيسي في هذه اللعبة، والأقرب إليه هو الشكل الذي يؤدي إليه ويقدر الحظ الأعظم به، وتقدر بقية الأشكال بمدى مشابهتها له، ووقفنا وضحكنا على حماقات هؤلاء الناس، لكنهم كانوا جادين تماماً،، ركزوا انتباههم على كهانتهم، وكذلك تطلعاتهم نحو المستقبل.

ورأيت في بعض الأحيان أساقفة وكهنة من الكنيسة الشرقية، من ذوي الجدية والاحترام، رأيتهم جالسين هناك يلعبون ويتكهنون، وهم لايلعبون من أجل الربح، بل لمجرد أوهام الكهانة، الأمر الذي امتلأ به

الشرقيون، والحجرة كانت في ذاتها خشنة وغير مصقولة، غير أنها غدت مصقولة جداً من جهة وجهها بسبب ممارسة الكهانة المستمرة عليها، لذلك بدت وكأنها تتعرض للصقل والتلميع بشكل متواصل.

مكان المطبخ الذي فيه جرى شواء خروف الفصح مع تسخين الماء من أجل العشاء الرباني

وبعدما رأينا هذه الأشياء، انصرفنا من المكان الذي فيه الحجرة، وجئنا إلى المكان الذي افترض الناس أنه فيه قام المطبخ، حيث أعدّ الحواريون في داخله شؤون احتفال عيد الفصح، بشواء خروف الفصح، وبتقطيع الخس البري، وبتسخين الماء من أجل غسل الأقدام، وتنظيف الأوعية والصحون واشعال نار من أجل احراق بقايا خروف الفصح، من جلد وعظام، وأجزاء أخرى، لايمكن أكلها، وهذا المكان ليس خلواً من القداسة، أو تغذية، لأن الطباخين في ذلك المطبخ كانوا رجالاً مقدسين، والطعام الذي طهي هناك كان طعاماً مقدساً، ولقد علمنا من خلال الاصحاح الثاني والعشرين من انجيل القديس لوقا بأن بطرس ويوحنا، أكثر حواريي المسيح محبة وقداسة، كانا الطباخين اللذان جهزا عشاء الفصح في هذا المطبخ.

علاوة على ذلك، كان خروف الفصح الذي شوي هناك مقدساً، ذلك أنه نموذج ذلك الحمل الحقيقي الذي تألم على الصليب، وكذلك كان الماء مقدساً، أي الذي جرى تسخينه هناك، واستخدامه من قبل الرب يسوع لغسل أقدام حوارييه، ومع أن الانجيليين لم يقولوا شيئاً حول تسخين الماء، من المرجح —كما هو لائق— أن الغسل لم يكن إلا بماء ساخن، لأن الماء الساخن يزيل الأوساخ أكثر من الماء البارد، وينعش الأقدام والأرجل ويقويها، ويري استخدام الماء الساخن ويعبر عن التقوى والمحبة التي توفرت عند الذي استخدمه، لأنه ليس برهاناً

كبيراً على الصداقة استخدام الماء البارد، في غسل قدمي الانسان، مثلما ليس دليلاً على وجود العاطفة الكبيرة تقديم ماء ساخن أو دافيء للشرب، فالانسان الذي يقدم كأساً من الماء البارد لن يخسر أجره أبداً، وذلك حسبما جاء في الاصحاح العاشر من إنجيل القديس متى، هذا ومثلما الماء البارد مرغوب به من قبل الانسان العطشان ليشربه، مثلما هذا، الماء الساخن مبهج بالنسبة للانسان المتعب لغسل قدميه به معا.

ولايمكننا أن نفترض أن المسيح قد ترك أية علامات عن الحب الكامل، حيث أنه في أثناء العشاء لم يعط حوارييه كأساً من الماء البارد، مع أن هذه علامة على الحب، ولها ثوابها، وذلك حسبما قلنا للتو، بل أعطاهم ماعبر عن حب أكثر وفرة، وهو كأس امتلأ بخمرة مزجت باعتدال بماء بارد، وكذلك عندما غسل أقدامهم، لم يفعل ذلك بماء بارد، مع أن ذلك كان يعبر عن حبه، لكنه غسلهم بماء ساخن، وهو علامة على حب أكثر وفرة، وبالمناسبة لم يكن الماء ماء ساخنا صرفاً، بل ماء كان يحتوي على حشائش عطرية مع جذور قوية الرائحة، مزجت بعطور منعشة، مع مياه مقطرة، لاظهار عاطفته الكاملة.

ونحن نعرف بأن المسيح وجه اللوم إلى الفريسيين، لعدم إعطائه ماء لغسل قدميه، ومدح المجدلية لأنها غسلت قدميه بالعطور والدموع الدافئة، هذا ولقد أحب المسيح حوارييه، أكثر مما أحبت المجدلية المسيح، لذلك كان لابدّ له من غسل أقدامهم بماء جيد، دافيء بشكل مرغوب، وممزوج بعطور ثمينة منعشة.

وهكذا وقفنا فوق المكان الذي كان فيه المطبخ المقدس، والذي مايزال قائماً فيه حتى الآن جدار قديم ومرتفع، توجد فيه قناة متجهة نحو الأعلى، وكأنه قصد منها رفع الدخان من النار، وجثونا هنا على ركبنا، وقرأنا الصلوات المناسبة، وتلقينا غفرانات(+).

مكان دفن القديس اسطفان بعد العثور على جسده

وغـادرنا المطبخ المتقـدم الذكـر، وتابعنا سيرنا حتى وصلنا إلى المكان الذي دفن فيه القديس اسطفان للمـرة الثانية، وذلك مع الآخرين الذين عثر عليهم في حقل جالبار Galabar(كذا) الذي لاأفترض أنه كان بعيداً عن عناتا، التي هي قرية قائمة فوق المكان الذي رجم فيه القديس اسطفـان، وذلك على جهــة اليسـار، وكـان هـذا حقل جماعليل، الذي سحب جسـد القـديس اسطفـان من تحت الحجـارة، وأخـذه إلى حقله، حيث دفن فيه هو نفسه، وابنه أبيبوس Abybos ، ونيقوديموس فيما بعـد، ومع مرور الأيام نسي أمـرهـم، وحـدث فيما بعد، أنه كـانت هناك مجاعـة قاسيـة، بسبب الجفاف، لأنها لم تمطر على الأرض لأشهـر كثيرة، ولقد كشف إلى رجل مقدس اسمه لوكيوس Lucius بأن الرب لن يكون محسنا إلى البـلاد، مـادامت هذه الآثار متروكـة من دون تشريـف، وعندما كشف له الحقل الذي رقـدوا فيه بشكل اعجازي، وبعـدما رآه، أخبر بذلك القـديس يوحنا، أسقف القدس، الذي جـاء إلى ذلك الحقل في مسيرة مهيبة، وعندمـا حفروا هناك، وجدوا جسد القـديس أسطفان وأجساد الرجـال الآخرين الذين دفنوا معـه، فحملوهم إلى كنيسة جبل صهيون المقدسة، ودفنوهم هناك للمـرة الثانية مع كل التشريـف، وسقط في الساعة نفسها كثير من المطر، وأعطت الأرض ثمارها كما كان الوضع من قبل، وحدثت بعد ذلك معجزات كثيرة في تلك البقعة.

وحدث فيما بعـد أن واحداً من نبـلاء القسطنطينية، وكان رجـلاً تقيا يعتقد بالقـديس اسطفان، قدم إلى هاهنـا عبر البحر مع زوجته جـوليانا Joliana، واتخذ لنفسه بيتـاً على جبل صهيـون، مات فيـه بعد مضي سبع سنوات، وعملـت زوجتـه تابـوتاً له على غـــرار تابوت القـــديس اسطفان، ووضعته إلى جانب جسد القديس اسطفان، وبعد مضي بعض الوقت بعـد ذلـك رغبت جـوليـانا بالعــودة إلى القسطنطينيـة، فسألت

أسقف القـدس أن يعيد إليها جسـد زوجها، ودخل الأسقـف إلى مزار القديس أسطفان وأخـرج لها تابوتين، وطلب منها أن تأخذ منهما تابوت زوجهـا، غير أنها أخـذت تابـوت القـديس اسطفـان ظانة أنـه تابوت زوجها، واكتشفت وهي على طريق سفـرها عبر البحر، من خـلال عدد من المعجـزات، أن التـابوت الذي كـان معهـا كـان تابوت القـديس اسطفـان، وهكذا جـرى نقل هذا التابوت إلى مـدينة القسطنطينيـة، وفي آخـر الأمر تمّ نقله من القسطنطينيـة إلى روما، حيث هو راقـد الآن مع القديس لورانس.

ويقـوم الآن في المكان المتقـدم الذكـر مـذبح في الهواء الطلق، أقـامـه الرهبان هناك، وفي يوم عيده يقيمون قداساً هناك، وقرأنا في هذا المكان، ماوجهتنا كتب المسيرة أن نقرأه، وتلقينا غفرانات(+).

ثم إننا غـادرنا ذلك المكان، وتابعنا سيرنا، وعبرنـا الشـارع إلى بيت مرثا، الذي كان بيتـا لابأس باتساعه، وهو قائم في مـواجهة كنيسة جبل صهيـون، ويقطن في ذلك البيت بعض النسـوة الايطاليـات من طائفـة السسترشيان، اللائي يتبعن طقـوسنا، ويعرفن باسم مـرثاوات الرهبان، بسبب أنهن يخدمن الرهبـان محبـة في الرب، وذلك بالغسـل، والخيـاطة والغزل لصالحهم، وهن يتعبدن في كنيسة الرهبان، وهن نساء متقدمات بالسن، وعظيمات الجدية، ومحترمـات، يعشن في ظل قـاعـدة الحكم الثالث للقديس فرانسيس بصبر كبير، وتحمل عظيم، وقبل أقل من سنة من وجـودي في القـدس، اقتحم بعـض الأعـراب البـاب في الليل، واندفعـوا بهياج إلى داخل بيت هؤلاء السيـدات، ثم هربوا بعدمـا حملوا معهم كل ماوصلت إليه أيديهم، ونهبوا البيت كله، وعندما كنت أعيش هناك غسلوا لي قميصي ووشـاح الكتف، وعملوا أعمال إحسـان أخـرى لي، وتعيش السيدة التي جاءت من بلاط ملكة قبرص، والتي أتيت على ذكرها من قبل، هناك معهن.

وذهبنا من هذا البيت باتجاه الشرق، ثم انحرفنا جانباً نحو الجهة اليمنى، إلى خارج الطريق الذي يقود إلى وادي شعفاط، ووصلنا إلى بيت محمي بشكل جيد، ومغلق باحكام مثله في ذلك مثل جميع بيوت المسيحيين، وعندما قرعنا على الباب، قدم إلينا رجال سود، قد أحرقتهم الشمس، وكانوا طوال القامة، وكان على وجوههم ندوب مع آثار احتراق، وهؤلاء فتحوا الباب لنا، وكان هذا دير الهنود، فيه عاش الرهبان والنساء مع بعضهم، وهم يعيشون في ظل نظام دقيق، وإنه لغريب أن ترى انحطاط ملابسهم، وعندما دخلنا إلى هناك، اقتادونا من خلال ممر إلى قاعة سيئة الإضاءة، يوجد فيها طريق مظلم نازل من خلال صدع في صخرة، ونزلنا نحو الأسفل، حاملين مصابيح معنا، ووصلنا إلى كهف قذر موجود تحت الأرض، مغطى من قبل الصخرة، وفي الحقيقة الكهف كله هو تجويف في الصخرة، ووجدنا هناك مكاناً للصلاة، ووفقاً لخبر قديم جداً، كان هذا المكان هو الذي تاب فيه داوود من ذنبه المتعلق بوفاة أوريا، وقرأنا لذلك هناك الاصحاح الثاني عشر من سفر صموئيل الثاني، الذي جاءنا فيه الخبر بأن داوود ذهب إلى مكان منعزل، حيث صام، وصلى، وبكى، وجلد نفسه بالأسواط وبالعصي، ونظم هناك سبعة مزامير توبة، غالباً ماقرأهم، وغناهم مع نحيب محزن، هذا ولم يكن هذا الكهف العائد لداوود في ذلك الحين خارج القصر الملكي، بل في داخله، لأن القصر كان واسعاً وعريضاً، وسقطنا في هذا الكهف على وجوهنا، ورجونا الرب أن يرحمنا، وتلقينا غفرانات(+).

المكان الذي فيه حاول اليهود اختطاف جسد العذراء المباركة من الحواريين عندما كانوا حاملين له إلى الضريح

وعندما تلقينا غفراناتنا، صعدنا ثانية، وغادرنا ذلك البيت، ونزلنا نحو الوادي، وأبقينا وجوهنا متجهةنحو جبل الزيتون، أي باتجاه

الشرق، حيث كانت مدينة القدس موجودة على يسارنا، وكنيسة جبل صهيون على يميننا، وهكذا وصلنا إلى المكان الذي تآمر فيه اليهود على اقتراف الجريمة التالية: فبعد وفاة العذراء مريم الأعظم قداسة، وعندما كان جسدها محمولاً من قبل الحواريين وهم نازلين به من جبل صهيون من أجل دفنه في وادي شعفاط، وبعدما ساروا مسافة مع الغناء والسرور، فجأة، اليهود الذين عرفوا سبب هذه المسيرة، خرجوا من المدينة مع قوة مسلحة، وقد امتلأوا غضباً صدوراً عن الكراهية العمياء القديمة التي حملوها نحو العذراء المجيدة، وانقضوا على الذين كانوا مرافقين للجنازة، وسائرين إلى جانب النعش، وأجبروهم على التوقف، وكان مقصدهم الاستيلاء على الجثمان المقدس، ورميه وكأنه جسد مدنس، وارغام الحواريين على الفرار، وهكذا وقفوا على مقربة منه وصرخوا بصوت مرتفع themea Kesesa، وكان معنى ذلك «عاهرة مدنسة»، وتقدم أحدهم، وصعد بجرأة وأمسك التابوت بكلتا يديه، محاولاً رميه إلى الأرض مع الجسد المقدس الذي فيه، لكن ماأن لمس النعش بيديه، حتى ذبلت يداه مع الذراعين، وجفتا، وباتتا معلقتان من دون حراك مثل عصاتين، ومع حدوث هذه المعجزة أصيب الرجل التعيس بندم عظيم، بينما وقف بقية الحشد المهاجم مرعوبين، وقد امتلأوا خوفاً واضطراباً، ورجاهم الرجل المعطل أن يرفعوا له ذراعيه اللتان تعلقتا بدون حراك، ووضعهما فوق الجسد المقدس، فكان أن شفي على الفور، وأصبح مسيحياً، وعاد البقية مخذولين إلى المدينة، وتركوا الحواريين يحملون الجسد المقدس، إلى موضع الدفن في جيسماني، وهكذا قرأنا في هذا المكان الـ Salve Regina، وبعدما تلقينا غفرانات، مضينا في طريقنا نتابع سيرنا.

المكان الذي أخفى بطرس فيه نفسه بعد انكاره الثالث

ونزلنا بعد هذا من المكان المتقدم الذكر نحو الوادي، ووصلنا إلى

صخرة واقفة عالية، فتحت هذه الصخرة، جلس القديس بطرس يبكي وينتحب، ويستغفر، وكان ذلك بعد مغادرته لبيت كيفاس، بعد إنكاره الثالث لربه، ونال هناك غفراناً لذنبه واعفاء من العقوبة، وتلونا هنا الصلوات المعينة، وتلقينا هناك غفرانات مطلقة(++)، وهنا حدث في يوم قيامة الرب يسوع، أنه ظهر إلى القديس بطرس وواساه، وقام فيما مضى على هذه البقعة كنيسة عظيمة وجميلة، لكنها مهدمة الآن تماماً، إلى حد أنه لم تبق منها أية آثار، حتى الصخرة التي جلس القديس بطرس تحتها يبكي، والتي كانت مجوفة على شكل كهف واسع، أخذت تصغر يوميا، وهي الآن مجرد حجرة صغيرة، لأن الحجاج كسروا قطعاً منها، وحملوها معهم، وإلى جانب هذه الحجرة تتدفق مياه مجلوبة إلى مدينة القدس من جبال حبرون في مجرى مائي، وفق طريقة مدهشة، سوف أتكلم عنها مطولاً في الورقة ٢٤٩، وقائم هناك أيضاً بركة عميقة، من الممكن سحب الماء منها، وأعتقد أنه عندما كانت هنا كنيسة، كانت هذه البركة العميقة قبو تلك الكنيسة.

المكان الذي قام فيه بيت عناس القاضي الأول للرب يسوع

وبعدما رأينا هذا المكان، مضينا نسير على دربنا، حيث أدرنا ظهورنا إلى الوادي، وتسلقنا ثانية الرابية التي كنا قد نزلنا منها، إنما ليس عبر الطريق نفسه، لكن انحرفنا جانباً باتجاه المدينة المقدسة، وكان ذلك بين بيوت مهدمة، ووصلنا إلى بيت كان بابه محكم الاغلاق وبقوة، وقد قرعنا عليه، وسمح لنا بالدخول، وعندما أصبحنا بالداخل أتينا إلى كنيسة جميلة، مكرسة على شرف الملائكة المقدسين، ولذلك عرفت باسم كنيسة الملائكة المقدسين، وكان من حول هذه الكنيسة قلايات وقاعات، فيها سكن رهبان أرمن، مع مسيحيين شرقيين، ورجال سود محترمين، وكان هذا المكان في أيام آلام ربنا بيت عناس(حنان) الذي إليه جلب الرب يسوع أولاً من الحديقة التي اعتقل فيها، وجرى ذكر هذا البيت

وجلب الرب يسوع إليه بشكل متميز وواضح في الاصحاح الثامن عشر من انجيل القديس يوحنا، حيث نقرأ فيه كيف قام عناس (حنان) الكاهن الأعلى فاستجوبه بازدراء، وسأله عن عقيدته وعن تلاميذه، وكيف قام واحد من الخدم بلطم يسوع لطمة بالغة القسوة على وجهه، ولهذا —تبعا لبعضهم— سقطت أسنانه من فمه، وتغطى وجهه بالدم، ولدى تلقي الرب يسوع هذه اللطمة لم يقل شيئاً، ولم يفعل شيئاً قاسياً، كما أنه لم يقم بمعاقبة الذي لطمه بأي شكل من الأشكال، وحول هذا قال القديس أوغسطين:«إننا إذا ماتفكرنا حول الذي تلقى الضربة منه، ألا يتوجب علينا أن نفترض أن النار كانت ينبغي أن تنزل من السماء وتحرقه، هذا الذي وجه الضربة إليه، أو أن تنفتح الأرض وتبتلعه، أو أن يجرى انتزاعه وأخذه ليتعذب من قبل الشياطين، أو أن يتعرض لعقوبة من هذا القبيل، إن لم يكن أكثر؟ ولم يأمر الذي صنع العالم من قبله بأي من هذه الأشياء مع أنه امتلك القدرة على تنفيذها، ذلك أنه آثر أن يعلمنا الصبر، فبالصبر يمكن قهر العالم».

وبهذا يمكن أن ندرك فساد وزيف الذين قالوا بأن الرب يسوع ، عاقبه على الفور، وضرب فوق البقعة نفسها قائلاً له:«هنا سوف تظل واقفا، وتكون شاهداً على براءتي حتى يوم الحساب الأخير، ووقتها سوف يتم انقاذك»، وقالوا بأنه منذ تلك الساعة فصاعداً، هو واقف —لهذا السبب— هناك، وهو حي، لكنه لايأكل ولايشرب، ولاينام، بل يتطلع نحو الأمام بتشوق عظيم إلى نهاية الحياة، حتى يمكن تحريره، وكان دوماً يسأل القادمين من الحجاج، الذين يأتون إلى هناك، عما إذا ماكانت النساء مازلن يحملن بالأولاد الذكور، لأنهم يقولون أنه مع اقتراب نهاية الدنيا تتوقف النساء عن الحمل بالأولاد الذكور، وهكذا هو واقف هناك، يتلقى أسئلة ويجاوب عليها، وهذه الحكايات عابثة وآثمة، لأنها ضد الكتابات المقدسة، وضد الانجيل، ومعاكسة للإيمان

وللصــدق، وقـد اخترعت مـن قبل حمقى، ومشردين تستروا تحت رداء التقوى وهم يتجولون في أرجاء البـلاد، ويخترعون مثل هذه الأكاذيب، ويجذبون بذلك القــوم التـافهين ويضللوهم، لابل في بعض الأحيــان يضللون حتى الناس الذين يبدون أنهم عقـلاء، وأكثر تنبها من أن يتبنوا كلامهم ويصدقوه ويعطوهم المال مقابل كذبهم.

والصـدق يرغمني على الاعتراف بأن هذا قد وقع لي شخصيـا، ففي السنة التي كنت أستعد فيها من أجل حجي الأول إلى الأرض المقدسة، قدم إلى أولم إثنان من المشردين من فلاندرز، حيث أعلنا أنهما قـدما للتو من القدس، ومن جبل سيناء، ورويا عـدداً من الحكايا ت العجيبة، وهما جالسين بين الناس البسطاء في دار الضيافـة، وقد تحلق عدد كبير حولهما من الرجـال والنساء لسماع حكاياتهما، وكـان هناك أرملة محترمة اسمهـا السيـدة آنا فـون كنغسك Kingseik ،سحـرها حديثهما إلى حـــد أنها أخـذتهما إلى بيتها، وعـاملتهما بكرم زائد، حتى تمتلك مـايكفي من وقت للتحادث معهما، ووجهت إليّ في أحـد الأيام الدعوة إلى بيتهـا لمقابلتهما، حتى أستمع لما كـانا يقولانه، لأنها كـانت تعـرف أنني كنت على وشك الشروع برحلتي إلى الأماكن المقـدسة، وشرعـا بحكايتهما الكاذبة، وكان من الواضح وبطبيعة الحال أنني لم أصـدق شيئا مما أخبراني به، ولا أريد أن أكرر الكذب الذي أخبراني به، وقـد نصحاني بعدم السفـر بحراً، بل أن أذهب على قـدمي من خـلال هنغـاريا، ودالماشيـا إلى القسطنطينيـة، حيث سيعطيني امبراطور القسطنطينيـة خمسين دوقية، لأنه كـان متعهداً بأن يدفع ذلك المبلغ إلى كل حـاج ذاهب إلى الأرض المقـدسة، وعندمـا قلت في جـواب لهذا الاقتراح بأن هذا الامبراطور لم يكن مسيحيـا بل كان تركيا، قام أحـدهما على الفور فتصدى لحجتي بكذبة جديدة، حيث أعلن بأن ملك القدس (كـذا) صار مسيحيـا، وأن المدينة قد تحولت إلى المسيحيـة، وأن هذا الملك لن يسمح لأي إنســان بأن يرسم فـارسـاً في

الضريح المقدس، مالم يتصارع معه ويبرهن على قوته.

وقد أعلنا أن بيعة الضريح المقدس لربنا قد سترت كلها بالذهب الأصفر، وأن مصابيحها معلقة بحوامل ذهبية، وأنه يوجد فوق البيعة الصغيرة العائدة لضريح المسيح هناك مصباح واحد يحترق باستمرار من دون اشعال حيث يتلقى النار والزيت من السماء، وأن القدس كلها قد بنيت بحجارة ثمينة، وأخرج أحدهما قطعة حجر غير مصقولة، قال بأنه وجدها في الطريق في القدس، وقال بأنه على غير استعداد لبيعها مقابل عشرين دوقية، وقال لوأن انسانا عرف الحجارة الكريمة وميزها لكان بإمكانه أن يجدها بأعداد كبيرة هناك بين الأحجار العادية لذلك المكان.

علاوة على ذلك، قام واحد منهما فكشف عن كتفه الأيمن بحضوري، وأراني ندبة حمراء مستديرة عليه، وهي لها شكل مايعرض على هامش (الكتاب)، وأخبرنا أن راعي دير القديسة كاترين على جبل سيناء لديه دولاب ذهبي، كان يضعه فوق فحم يحترق، وعندما يصبح حامياً، يرفعه بملقط ويدمغ به الحاج الذي يكون متعريا لتلقيه على كتفه الأيمن، كما أنهما لم يخافا من تكرار الحكاية الزائفة المتقدم ذكرها حول الذي لطم يسوع، بل زادا بأنهما تحادثا معه، وأنه لم يكن مسموحاً لجميع الحجاج برؤيته، وقد أخبراني بهذا وبأكاذيب أخرى كثيرة مع أنهما لم يريا القدس.

وعندما كنت —الآن— في بيت عناس (حنان)، سألت مازحاً دليلنا، وكان واحداً من الرهبان الفرنسيسكان أين وقف الرجل الذي لطم الرب يسوع؟ فاقتادني الراهب إلى خارج الكنيسة، وأشار إلى شجرة زيتون كانت نامية إلى جانبها، قائلاً:«انتبه، هذا هو الرجل، ذلك أنهم يقولون بأن أظافره قد نمت في داخل الأرض، وتعلقت لحيته على الطرف، مشيراً إلى جذور الشجرة وأغصانها، ويحترم سكان الدير، لابل في الحقيقة جميع المسيحيين الشرقيين هذه الشجرة، ويذكرون أنه كتب في

كتبهم القديمة جداً، بأن الرب يسوع وقف مربوطاً إلى تلك الشجرة، بينما أكل الموظفون وشربوا، لأن عناس كان مسروراً إلى أبعد الحدود، بسبب إلقاء القبض على الرب يسوع، وأعطى لذلك طعاماً وشراباً إلى الذين اعتقلوه، وبناء عليه قبلنا جذع الشجرة التي كانت قديمة جداً، وهكذا، ثم إننا عدنا إلى الكنيسة، وتلونا صلواتنا المذكورة في المسيرة، وتلقينا غفرانات مطلقة(++).

بيت كيفاس الكاهن الأعلى الذي سخر فيه من الرب يسوع المسيح

عندما غادرنا بيت عناس —الكاهن الأعلى، بادرنا مسرعين نحو بيت كيفاس، وكنا نشعر بالحزن والخشوع، ونحن نسير حيث سار الرب يسوع، وعندما وصلنا إلى البيت وجدناه مغلقاً، وعندما قرعنا على الباب فتح لنا، فدخلنا إلى الكنيسة، وتلونا صلواتنا المحددة في المسيرة، وتلقينا غفرانات مطلقة،(++)، واسم هذه الكنيسة، كنيسة القديس المخلص، وهي قائمة فوق المكان الذي قام عليه بيت كيفاس، حيث يعرف كل مسيحي ماالذي عاناه يسوع في داخله وتحمله، وهناك بحثوا عن شاهد زور يشهد ضده، فلم يجدوا أحداً، وهناك أنكر بطرس ثلاث مرات أنه يعرف الرجل، وهناك ربط الرب يسوع، وغطيت عيناه، وبصق عليه، ولطم، وضرب بكفوف اليد طوال الليل كله تقريباً، وبقي هناك مسجونا لمدة ثلاث ساعات، وبناء عليه بقينا هناك مدة طويلة نتفكر حول هذه الأشياء، ونحن نصلي، وامتلأ المكان بدموعنا، وآهاتنا وتنهداتنا.

ثم إننا بعدما قمنا من صلواتنا ونهضنا، اقتادنا كهنة هذه الكنيسة حول الأماكن المقدسة في الداخل، وجئنا أولاً إلى المذبح العالي في السدة، الذي جردوه من أغطيته المعلقة حتى نتمكن من رؤية الحجرة

التي شكلت لوح المذبح، وكانت هذه حجرة كبيرة، وسميكة، وواسعة، وهي قطعة من الحجرة التي دحرجوها من على فم ضريح الرب، ولذلك قرأنا الاصحاح السادس عشر من انجيل القديس مرقص، وقد كانت فيما مضى حجرة كبيرة جداً، لأنه بعد مضي سنوات كثيرة، قطع المؤمنون هذه الحجرة إلى قسمين، وتركوا القسم الأول قرب الضريح المقدس، في حين جلبوا القسم الآخر إلى هاهنا، إلى هذه الكنيسة، وقرروا جعلها لوحاً، أو منضدة، للمذبح، ولقد قبلنا هذه الحجرة المقدسة، ونظرنا إليها عن قرب، وفي الوقت نفسه راقبنا كهنة الكنيسة بدقة، حتى لايقوم واحد معاً باقتطاع شظية من الحجرة، بآلة حديدية، لأنهم يبجلون هذه الحجرة تبجيلاً عظيماً، وفي الحقيقة لولا وجود هذه الحجرة لباعوا المكان منذ السنة الماضية، لأنهم كانوا رهباناً أرمن في غاية الفقر، ولشدة عوزهم كانوا سيبيعون المكان إلى الرهبان الفرنسيسكان، لأنهم كانوا غير قادرين على إبقاء الكنيسة والدير وترميمهما، وقد أرادوا بيع المكان شريطة أن يأخذوا هذه الحجرة معهم، لأنهم كانوا يأبون ولايوافقون مطلقاً على بيع الحجرة معه.

وحدث في هذه السنة، أن جاء إلى القدس رجل أرمني غني جداً، تولى إعادة بناء الكنيسة المهدمة والدير، وقدم يد المساعدة إلى هؤلاء الرجال الفقراء، وفي اثناء حجي الأول، وصل إلى يدي قطعة كبيرة الحجم من هذه الحجرة، فقد اشتراها فارس بدوقيتين من كاهن أرمني، كان قد دخل إلى الكنيسة مع الفارس خلسة، خشية أن يراه الأرمن الآخرون، واقتطع شظية من الحجرة، وقد مات هذا الفارس نفسه في البحر، وقد ورثت هذه الشظية منه، وأحضرتها معي إلى أولم.

وتركنا بعد هذا المذبح، وفي مقابل المذبح، على الجهة اليمنى من الكنيسة، هناك مررنا من خلال باب صغير إلى قلاية ضيقة ومظلمة، وهي مقامة بوساطة جدران سميكة، وقادرة على استيعاب رجل واحد

وهو واقف، ولذلك دخلنا اليها واحداً تلو الآخر، وكانت هذه القلاية هي الزنزانة التي كان يودع فيها الرجال الذين حوكموا، أو الذين يتوجب جلبهم إلى أمام القاضي، أو احضارهم للاعدام، فهناك يسجنون حتى يحين الوقت لاحضارهم إلى المحكمة، وبناء عليه سجن الرب يسوع هناك، بعد محاكمته، ووقف هناك لمدة ثلاث ساعات، ويداه مربوطتان خلف ظهره، وعيناه أيضاً مربوطتان، وكان وجهه مبصوقاً عليه، وقد غطته الاهانات، وكان يعاني من البرد، وهنا انحينا بأنفسنا نحو الأرض، وصلينا بخشوع، وقدمنا الشكر إلى مخلصنا، وخرجنا بعد هذا من الكنيسة إلى الساحة، أو الباحة في الخارج، حيث كانت هناك نار، وقف حولها بطرس مع الخدم عندما أنكر الرب، وعندما استدار الرب، وألقى نظرة عليه، فضلاً عن هذا، لقد رأينا المكان الذي وقف عليه الديك، الذي لدى صياحه عاد بطرس إلى نفسه، وقد نظرنا بخشوع نحو هذه الأماكن جميعها.

الزاوية التي وقفت عندها العذراء المباركة وهي تنظر نحو بيت كيفاس عندما كان ربنا يحاكم هناك

وخرجنا بعد هذا من ذلك البيت، وأخذنا طريقنا إلى زاوية البيت، التي منها يمكن للانسان أن ينظر بشكل مباشر نحو باب بيت كيفاس، وعليه إذا ماوقف إنسان على الجانب الأقصى من الزاوية، إنه إذا مامدّ رأسه، أو احدى عينيه، إذا ما اختار ذلك، يمكنه أن يرى باب بيت كيفاس، وهو نفسه لايمكن رؤيته من قبل أحد من الناس، لايعرف بوقوفه خلف الجدار، وينظر باحثاً متقصياً حول الزاوية، ففي هذا المكان —حسبما يقولون— وقفت العذراء المباركة، متخفية طوال ذلك الوقت، وهي تراقب الباب الذي من خلاله اقتيد المسيح مغلولاً، راغبة في أن ترى إلى أين سيأخذونه في النهاية.

آه، مع أي أية آلام ودموع، لابد أن العذراء المباركة قد وقفت تنتظر هناك! وماذا تظنون، كانت العذراء ستجيب، لوأن أحداً سألها لماذا هي واقفة هناك، أو من الذي كانت تنتظره هناك؟ لقد كانت العذراء ستجيبه: اطلاق سراح ابنها من أيدي اليهود، وهل كان لديها جواب آخر؟ وكانت ستضيف:«إنني أعرف أن ابني بارع وفصيح، وأنه لو أحضر أمام قاضي عام لربح البراءة، ولأطلق سراحه، ومع ذلك هو على العموم، لطيف، ولايؤذي، وصامت، مثل حمل أمام الذي يجز صوفه، وهو لن يفتح فمه بالدفاع عن نفسه، فضلاً عن ذلك، هو عذب، ومحبوب، ولدي أمل كبير، أنهم سوف يرحمونه، وأنه سوف يعاد إلي، ولهذا وقفت هنا، وأنا مليئة بالقلق، حتى أرى النهاية، وإلى أين سيقاد، فإن كان إلى الحياة، فأنا سأعيش معه، وإن كان إلى الموت، فلسوف أتقدم وأموت معه».

ويقول الناس الأتقياء، بأن بطرس، بعدما أنكر ربه، وخرج من ذلك البيت وهو يتأوه ويتنهد، جاء إلى هذه الزاوية، ومن خلال الخجل والحزن لم يستطع ان يتكلم مع العذراء، كما لم تستطع العذراء أن تكلمه، ولهذا ركض إلى الكهف الذي تحدثت عنه من قبل، ولقد قبلنا هذه الزاوية، وتلقينا غفرانات(+).



المحتوى


Bibliotheca Alexandrina
0414607